نادية هاشمي

مكتبة

حين يقترب القمر

"رواية رائعة عن الحدود والحواجز "
The Oprah Magazine

" حكاية الخوف والقلق "
Library Journal

ترجمة:
إيمان حرز الله

kalemat

حين يقترب القمر

حين يقترب القمر

نادية هاشمي

ترجمة:

إيمان حرز الله

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

16 4 2023

رقم الإيداع: 2022/5448

الترقيم الدولي: 978-977-6972-13-1

حين يقترب القمر

مكتبة | 1119

نادية هاشمي

ترجمة:
إيمان حرز الله

2022

kalemat

تمهيد

فريبا

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحبُّ رؤية أطفالي نائمينَ آمنين في هدأة قيلولتهم، مع ذلك يأبى ذهني القلِقُ إلا أن يستعيد رحلتَنا، كيف صرتُ هنا مع اثنين من أطفالي الثلاثةِ مُتكوّرينَ على فراشٍ ذي ملاءاتٍ خشنة في غرفة فندق بعيد تمامًا عن الوطن، وعن الأصوات المألوفة؟

في شبابي، كانتْ أوروبا أرضَ الحداثة والثقافة الرفيعة، ومستحضرات التجميل والعطور، والستراتِ المصممة في بيوت الأزياء، والجامعاتِ المرموقة. كانت كابول معجبة بالإمبرياليّين بيض البشرة خلفَ جبال الأورال. كنا نتطلعُ إليهم بأعين حالمة ونمزج ثقافتهم بغرائبيّتنا القبلية.

حين انهارتْ كابول، انهارت أحلامُ جيلي المرصّعة بالنجوم، لم نعدْ نرى جاذبية أوروبا، كنا بالكاد نرى ما وراء شارعِنا نفسه، إذ كانت وطأة الحربِ ثقيلةً جدًا. حين قررت وزوجي تركَ البلد، تقلصتْ كلُّ مميزات أوروبا إلى معناها الأوحدِ والأشد جاذبية، السلام.

لم أعد عروسًا جديدةً أو شابة صغيرة، أنا أمّ، بعيدةٌ عن كابول مسافة لم أقطعْها من قبل قط. عبرتُ وأطفالي جبالًا وصحاريَ ومحيطاتٍ كي نصلَ إلى غرفةِ الفندق الرطبة تلك،

الخالية تمامًا من العطور والثقافةِ الرفيعة. هذا البلد ليسَ كما توقعتُه. الخبر الجيدُ أن كل ما تطلعتُ إليه في شبابي لم يعد مهمًا بالنسبة إليّ الآن.

كل ما أراهُ وأسمعه وألمسُه ليس ملكي، تحرقُ غُربة أيامي كلَّ جوارحي.

لا أجرؤ على إزعاج نوم طفليَّ، بقدر ما أتمنّى أن يستيقظا ليبددا أفكاري، لكني أدعهما ينامانِ لأنني أعرف كم هما مرهقان! نحن أسرة مرهقة، أحيانًا لا يسعنا حتى الابتسامُ أحدنا للآخر. وبقدر حاجتي أنا إلى النوم، أشعرُ بأن عليَّ البقاءَ مستيقظةً والاستماع للضجة العصبية في رأسي.

أنتظرُ سماعَ وقع خطوات سليم الواثقة في الرواق. معصمي عارٍ، ذهبَتْ أساوري الذهبية وصَلْصلتُها الحزينة، كنت أنوي بيعَها. فراغ جيوبنا ليس عاملًا مطمْئنًا في رحلتنا، ما زال الطريق أمامنا طويلًا قبل أن نصلَ إلى وجهتنا.

يتشوق سليم إلى إثباتِ ذاته، يشبه أباه لدرجةٍ لا يدركها قلبُه الغض، يعتبر نفسه رجلًا، وقد ساهمْتُ في هذا بقدر كبير. منحته مرات كثيرة جدًّا السببَ ليعد نفسه كذلك، لكنه ليس سوى فتىً صغير، والعالم القاسي لن يفوّت فرصةً لتذكيره بهذا.

«أنا خارج، مادر جان، إن اختبأنا في الغرفةِ كلما خفْنا قليلًا، لن نصل إلى إنجلترا أبدًا».

ما يقوله حقيقيٌّ إلى حد ما، أعضُّ لساني، لكن الشعور القارص في معدتي يدينني. إلى أن يعودَ ابني سأظل أحدّق إلى الجدران البيضاء البائسة. لوحات موانٍ، زهور صناعية باهتة.

سـأنتظرُ حتى تنهار الجدران، حتى تنتهي الموانـي باليابسـة وتتحللَ الزهـورُ إلـى تـراب، يجـب أن يعـودَ سـليم.

أفكّـرُ فـي زوجـي الآن بقـدرٍ أكثـر ممـا اعتـدتُ حيـن كان إلـى جانبـي، قلوبُنـا ونحـن صغـار حمقـاء وجاحـدة.

أنتظـرُ تحـرّكَ مقبض البـاب، دخولَ ابنـي، تفاخـرَه بفعله لأسـرتِنا مـا لـم أسـتطعْ أنـا فعلَـه. كنـتُ لأضحّـي بـأي شـيءٍ فـي سـبيل أمانـه مـن الأخطـار التـي يتعـرضُ لهـا، لكـن ليـس لـديَّ شـيء لأقايـضَ بـه تلـك الأمنيـةَ السـاذجة، كل مـا لـديَّ أمامـي روحـانِ بريئتـانِ تتقلّبـان بخفـة فـي اضطـراب أحلامِهمـا الخاصـة.

يُمكننـي لمسُـهما. حتـى الآن، أذكّـر نفسـي: سـيعود سـليم -بـإذن اللّه- وسـنقتربُ بذلـك مـن اكتمـال عددِنـا بأقصَـى مـا نأملـه. يومًـا مـا، لـن ننظـرَ خلفنـا قلقًـا أو نبيـتَ فـي أماكـنَ مسـتأجرةٍ بأعيـن مفتوحـة، أو نرتبـك لرؤيـة زيٍّ رسـمي. يومًـا مـا سـيكونُ لدينـا مـكانٌ ندعوه بيتَنـا. سـأحملُ أطفالـي -أطفـالَ زوجـي- مـا اسـتطعتُ وأدعـو اللّه أن يعينَنـا علـى الوصـول إلـى ذلـك المـكان، إلـى حيـث سـيمكنُني، فـي هـدأة قيلولتهـم، أن أسـتريحَ أنـا أيضًـا.

الجزء الأول

فريبا

1

خُتِم قدري بالدماء يومَ ميلادي، فيما كنتُ أكافح للدخول إلى هذا العالم، كانت أمي تتركُه، لتمَّحيَ معها فُرَصي في أن أكونَ ابنةً حقيقية؛ قطعت القابلةُ الحبلَ السري وحرّرت أمي من آخر التزاماتِها نحوي. شحبَ لونُ جسدها فيما يتحوّلُ لوني إلى الوردي، توقفتْ أنفاسُها وأنا أُطلقُ أولى صرخاتي. نظّفوني، لفّوني ببطانيةٍ وقدّموني إلى أبي الذي صار الآن أرملَ بسببي. خرّ على ركبتيه، امتقع وجهه. أخبرني بادر جان بنفسِه أن ثلاثة أيام كاملة مرّت عليه قبل أن يتمكّنَ من حمْل الابنةِ التي تسبّبتْ ولادتُها بوفاة زوجته. ليتني لا أستطيع تخيّلَ أفكاره حينذاك، لكني أستطيع، أكادُ أجزم أنه لو كان قد خُيِّرَ، لكان اختارَ حياةَ أمّي ووفاتي.

بذلَ أبي ما في وسْعه لكنّه لم يكنْ مؤهّلًا للمهمة، لم يكن الأمر سهلًا في تلك الأيام، أو في أيّ يوم آخر، في جميع الأحوال. كان ابنَ وزيرٍ يتمتعُ بنفوذٍ محلّي. كان الناس في مدينتنا يلجؤون إلى جدّي للاستشارةِ والوساطة والاقتراض. وكان جدّي، بابا جان، هادئًا وحازمًا وحكيمًا، يقرر بسهولةٍ وبلا ترددٍ في وجْه من يُعارضه. لا أعرف إن كانَ عادلًا دائمًا أم لا، لكنّه كان يتحدث بطريقةٍ مقنعةٍ جدًّا تجعلُ الناسَ يصدقونه.

بعد زواجه بوقتٍ قصير، كسبَ بابا جان مساحةً كبيرة من الأرض من تجارةٍ جيّدة. من تلك الأرض أطعم جدي وآوى أجيالًا من عائلتنا. أنجبت له جدتي، التي توفّيت قبل ولادتي بعامين، أربعةَ أبناء، أصغرهم أبي. كبروا جميعًا في رفاه الامتيازات التي يتمتعُ بها أبوهم. كانت عائلةً محترمة في المدينة. تزوجَ جميعهم زيجاتٍ موفّقة، ورث كلٌّ منهم قطعة أرض أسسوا عليها أُسَرهم الخاصّة.

كان أبي، هو الآخر، يملك أرضًا -بستانًا على وجْه الدِّقة-، ويعملُ مسؤولًا محليًّا في مدينتنا، كابول، عاصمة أفغانستان الصاخبة، المكنونة بعمق في صدْر آسيا الوسطى. سأعرف أهميتها الجغرافيَّة لاحقًا فقط. كان بادر جان نسخةً باهتةً من جدّي، نسخةً لم تُنقش بقوةٍ كافية لتوضيحِ حروفها، له طابع بابا جان الحسَن، لكنّه يفتقرُ إلى حزمه.

حظِيَ بقسْمه الخاص من الأرض، البستان، حين تزوج أمي؛ كان يفْني نفسه في ذلك البستان، يعمل فيه ليلًا ونهارًا، يتسلق الأشجارَ ليقطفَ أفضل الثمارِ والأعناب لأمي. كان في ليالي الصيف الحارة ينامُ بين الأشجار، يرتعُ بين الغصونِ الوارفة والرائحة الطيبة للثمار اليانعة، يقايض جزءًا من محصول البستان بطعامِ وحاجاتِ الأسرة، وبدا راضيًا بما يمكنُه ادّخارُه بهذه الطريقة. قانع لا يرغبُ في نيل شيءٍ أكثر من نصيبه.

كانت أمّي، مما سمعتُه عنها -حينما كبرْتُ- جميلة، ينسدلُ شعرُها الثقيلُ الداكنُ كالأبنوس على كتفَيها. عينان دافئتان وخدّان ملَكيّان، كانت تُدنْدنُ وهي تعمل، ترتدي دائمًا عِصابةَ

رأسٍ خضـراءَ، وتشـتهر بطبـق الأوش الشـهيّ الـذي تعـدّه، شـعَيرية رفيعـة ولحـم مفـروم بالبهـارات فـي مـرَق الزبـادي، ليُدفـئ البطـونَ فـي الشـتاء القـارس. كان زواجُهمـا القصيـرُ سـعيدًا، بـدا هـذا مـن لمَعـان عينـيّ أبـي فـي المناسـباتِ النـادرةِ التـي يتحـدّث عنهـا. مـع أنّ ذلـك قـد اسـتغرقَ منـي عمـرًا بكاملـه تقريبًـا، لكننـي جمعـتُ مـا أعرفـهُ عـن أمـي، وأقنعـتُ نفسـي بأنهـا غالبًـا غفـرَتْ لـي اعتدائـي غيـر المقصـود عليهـا، لـن أراهـا أبـدًا لكننـي مـا زلـتُ فـي حاجـةٍ إلـى الشـعور بحبهـا.

بعـد سـنةٍ مـن زواجهمـا أنجبـتْ أمـي ولـدًا بصحـة جيـدة. نظـر أبـي إلـى رضيعـهِ القـوي وسـمّاه أسـد. ردّد جـدي الأذانَ فـي أذنيـه كطفـلٍ مسـلم، ظنـي أن أسـد لـم يكـن ليختلـفَ كثيـرًا لـو لـم يـردد جـدي الأذان فـي أذنيـه، فـي الغالـب لـم يسـمعه، كان سـوء الحـظ قـد شـتّته بالفعـل فتجاهـلَ الدعـوة إلـى الفـلاح.

وُلِـد أسـد بشـعور مـن يملـكُ العالـم، إذ كان -رغـم كلّ شـيء- أولَ أبنـاء أبـي، فخْـر العائلـة الكبيـر، سـيحملُ اسـم عائلتنـا، سـيرث الأرض ويعْتـني بوالديـه حيـن يبلغـان الكبـر. وكان مـن ناحيتـه، كأنـه يعـرف مـا يتوقعانـهِ منـه حيـن يكبـر، يسـتنزف أمـي وأبـي. ظـل يرضـعُ مـن أمـي حتـى تعبـتْ ونحلـتْ. أسـرع أبـي يصنـعُ لابنـه الألعـابَ ليلهـو بهـا، يخطـط لتعليمـه، يكـدّ ليضمـن لزوجتـه، الأم الصغيـرة، صحـةً جيـدة وتغذيـة سـليمة.

كانـت أمـي فخـورةً بإنجابهـا ابْنًـا لأبـي، وابْنًـا قويًـا أيضًـا، خاطَـت لـه فـي ملابسـه، خوفًـا مـن حسـد الجيـران وأفـراد العائلـة، حجـرًا أزرق صغيـر، تميمـة، أهدتهمـا لهـا أخـتُ زوجهـا لإبعـاد الحسـد. لـم

يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل كانت لديها ترسانةٌ كاملة من الحيل لدرء أعين الحسّاد المتعددة، كأن تنظر إلى أظفارها حين تشعرُ بزيادة وزن أسد بين يديها أو حين يعلّق زائرٌ ما على خدَّيه الورديَّيْن الممتلئيْن، تعلّق على إطرائهم بأن ترددَ في سرها «نام إي خودا» أي ما شاء الله تبارك الله. الكِبْرُ يجذب الحسد بقوةِ صاعقة البرق في حقلٍ مفتوح.

ظل أسد يسمنُ على حليب أمّنا. بمرور الأيام، اتخذَ وجهه شكلًا وازدادت فخذاه سُمكًا. بعد مرور أربعين يومًا على ولادته، تنفستْ أمي الصعداء؛ إذ تجاوز ابنُها المرحلة الأكثر خطرًا. كانت قد رأتْ رضيعَ إحدى الجارات بعد أسبوعين من ولادته، يتخشّبُ ويرتعشُ كأنّ روحًا شريرة تلبّستْه. صعدَتْ روح الوليد قبل تسميتِه. علمت فيما بعد أن قطْعَ الحبل السريّ بنصلٍ غير مُعقّم قد يُلقي ببذور بكتيريا سامة في دم المولود. سواءٌ أكان هذا حقيقيًا أم لا، نحن الأفغان نؤمنُ بشدةٍ بعدم عدِّ الكتاكيت إلا بعد مرور أربعين يومًا على خروجها من البيض.

كأمهاتٍ أخرياتٍ كثيرات، استخدمت أمّي قُوَى بذور الحرمل المسماة «إسفند». كانت تُلقي بحفنة من البذور السوداء لتتقافز وهي تتقدُ في النار، ويتماوجُ دخانها أعلى رأس أسد وهي تغني:

«بذر إسفند يدرأ الحسد
ببركة الملك نَقشبند:
من عين العدم، من عين الأهل
من عين الصحاب، من عين العدو
هذا الجمرُ في عين الحسود».

ترنيمةٌ تعود إلى الزرادشتية، وهي ديانةٌ من عصر ما قبل الإسلام، لكن حتى المسلمين يؤمنون بقوّتها. كان أبي يراقبُ أمي سعيدًا برعايتها الجيدة لأول ذريته. لا بد أنها أفلحت، إذ لم تتأثرْ حياة أخي بوفاتِها مثلما حدث معي. ظلَّ أولُ ولدٍ لأبي يحقق نجاحًا في الحياة، على حساب الآخرين عادةً. يؤذي باستهتارِه من حوله، أنا في أغلب الأحوال، ويظلُّ مع ذلك يخرجُ من أي مشكلة دون عناء، اكتسب بالرضاعة منها طوالَ عامين قوةً كافية لتأمين موقعِه في العالم.

لكنها ماتت قبل أن تخيط لي تميمةً في ثوبي، قبل أن تهمسَ في سرّها «ما شاء الله تبارك الله»، قبل أن تنظرَ إلى أظفارها وقبل أن تحرّكَ بخورَ الإسفند بحُبٍّ أعلى رأسي. كانت حياتي سلسلةَ أحداثٍ حزينة، الأرجح لأنها لم تتسَنَّ لها الفرصة لدرء عين الحسود عني. ارتبطتْ ولادتي بوفاتها، وفيما كان بابا جان يهمسُ بالأذان في أذني، كانتْ صلاةٌ مختلفة تمامًا تُتلى على جسدها المُكفّن. تخلل الأذانُ بصوتٍ جدّي في أنسجة كياني كله، يُخبرني بأن أظلَّ مؤمنة. كانت نجاتي في استماعي له.

دُفنَتْ أمي في مقبرةٍ حديثة بالقرب من بيتنا، لم أزرْها كثيرًا، لأن أحدًا لم يأخذني إلى هناك، ولشعوري بالذنب أيضًا. كنت أعرفُ أنني مَن تسبّبتُ في وجودها هناك وكانوا جميعًا يذكّرونني بهذا.

صار أبي شابًا أرملَ وأبًا لابنٍ عمره عامانِ وابنةٍ مولودة حديثًا. ظلَّ أخي، غيرَ عابئ بغيابِ أمي، على شقاوته المعتادة كطفل صغير، فيما كنتُ أطالب بصدرِ أمي بسذاجة. بفرخَيْن في العشّ الآن دفن أبي كبرياءه، وبدأ البحثَ عن أمٍّ جديدة لطفليه.

أسرع جدّي يبحثُ له؛ يعرفُ أن المولودة لن تتلقّى الرعاية اللازمة من رجل. كان، بصفته وزيرًا، يعرفُ جميع العائلات في المدينة. كان يعرفُ فلّاحًا محليًا أنجبَ خمس فتيات، أكبرهن في سنّ الزواج، وكان متأكدًا من أن الفلّاح الذي يتعذّرُ عليه إطعامُ خمسِ فتياتٍ حتى يصلْنَ إلى سن الزواج، سيجدُ ابنه عريسًا جيدًا.

ذهب جدّي إلى بيت الفلّاح، وظلَّ يُشيد بابْنِه؛ إنه رجلٌ محترمٌ وشخصٌ جديرٌ بالثقة، جعله سوءُ الحظ أرملَ في وقتٍ مبكرٍ من حياته، ورتّب زواجه بابنة الفلّاح الكُبرَى. أكّد جدّي على الفلّاح برفقٍ أن يضعَ في اعتبارهِ وجود طفلَيْن صغيرَيْن. سارتِ الأمورُ بسرعة. خلال أشهر دخلتْ محبوبةُ بيتنا حيث أُعيدت تسْميتُها، مثل كلّ العرائسِ الأخرَيات، باسْم منزلي، إذ ليس من اللائق دعوةُ امرأة باسْمها الحقيقي. لكنني أظنُّ أن الأمر يحملُ ما هو أكثر من هذا، ظنّي أنها طريقةٌ لإخبار العروسِ بألّا تنظرَ خلفَها ثانيةً. هذا أمرٌ جيد أحيانًا.

اعتادت «كوكوكل»، لكونها الأخت الكبرى، رعايةَ أخواتِها الأربعِ منذ نعومة أظفارِها، فكانت أهلًا تمامًا لرعاية طفلَيْن. قررتْ سريعًا ألّا تعيشَ في جلباب أمي. أعادتْ ترتيبَ قطَع الديكور القليلةِ في بيتنا، أخرجت ملابسَ أمي ومحَتْ كل أثرٍ لها في البيت، ما عدا أخي وأنا. كنّا الدليلَ الوحيدَ على أنها ليست الزوجة الأولى؛ مكانة مهمة حتى وإن كانتِ الزوجةُ الأولى متوفّية.

كان من الشائع حينها أن يتزوّج الرجلُ أكثرَ من امرأةٍ، ممارسة نشأتْ في أوقات الحربِ من أجل رعاية الأرامل، كما أخبروني.

عمليًا، يخلق هذا توترًا باطنيًا لدى الزوجات. كان وضعُ الزوجة الأولى لا يُقارَن بمَنْ بعدها. حُرِمتْ كوكوكل من فرصتها لتكونَ زوجةً أُولَى بسبب امرأةٍ لم تقابلْها قط، امرأةٌ لا يمكنُها منافستُها، بل وأُجبِرَتْ على تربية طفلَيها.

لم تكن كوكوكل امرأةً شريرة، لم تتركْني أتضوّر جوعًا، ولم تضربْني أو تطردْني خارج المنزل، بل أطعمتْني وحمّمتْني وألبستْني وفعلَتْ كلّ ما تفعله الأم. حين بدأتُ الكلامَ دعوتُها ماما، سرتُ خطواتي الأولى نحوَها، المرأة التي مرّضتْني خلال نوباتِ الحُمَّى وضمّدتْ لي خدوش الطفولة.

مع ذلك، كانت تفعلُ كلَّ هذا من مسافةِ ذراع، أحسستُ بسخطها سريعًا، مع أنني لن أعرفَ اسمَه إلّا بعدَ سنوات. كان أخي مثلي مع بعض الاختلاف، تحوّلَ، خلال أشهر قليلة، من كلمة ماما إلى كوكوكل، ونسي تمامًا المرأة التي سبقتْها. كانت ترعاه باجتهادٍ أكثر قليلًا، تعرف أنه مفتاحُ قلب أبي. وكان أبي القانع، حين يُوجد في البيت، يرضَى لعثورهِ على أمّ مناسبةٍ لطفليه. مع ذلك، كان جدي المخضرمُ يعرفُ أنّ عليه رعايتَنا، لذلك كان حضوره دائمًا.

لم أكنْ يتيمة، لديَّ والدان وأخوة، وبيتٌ دافئ وطعام كافٍ. كان لي أن أشعرَ بالكمال. لكنّ غيابَ الأم يُشبه الوقوفَ عاريًا في الجليد. يظلُّ خوفي الأكبرُ، الرعب الذي ينمو باضطرادٍ مع حبي لأطفالي، أن أتركهم على النحو نفسه.

أتساءلُ إن كان هذا الخوفُ سيزول يومًا ما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فريبا
2

كان وجهُ كوكوكل بشوشًا، لكنه غيرُ ملحوظٍ في غرفة مزدحمة، طولها كطولِ أبي تقريبًا، بشعرٍ أسودَ كثيفٍ لا يكاد يصلُ إلى كتفَيها، من النوع الذي ينفرد بعد دقائق من فك البكرات منه. كانت عامرةَ الصدر بحيث لا تبدو رشيقةً، ونحيلةً جدًا بحيث لا تبدو متسلطة، رُسمَتْ بدرجات متوسطة من الألوان.

بعد عامَين من زواجها بأبي أنجبَتْ طفلَها الأول، فتاة، خيبةُ أملٍ ظلّتْ تلقي باللوم فيها على شبحِ أمي. سُمّيت أختي غير الشقيقة «نجيبة» تيمّنًا بجدّتي الراحلة. كان لها وجهُ كوكوكل المستدير، وعينانِ داكنتانِ مُكللتانِ بحاجبَين مقوّسين وكثيفين. كحّلتْ كوكوكل عينَي مولودتها، كما جرت العادة، لتتمتعَ ببصرٍ جيّد وعينَيْن رائعَتين. في الشهرين الأوّلَين، ظلّت تقضي ساعاتٍ في إعداد شرابِ الشمر لتخففَ من مغصِ نجيبة وتُوقفَ بكاءها. ظلّت الأم والمولودة محرومتَين من النوم حتى تحسّن مزاج نجيبة. كانتا ثنائيًّا عنيدًا.

قلَّ صبرُ كوكوكل على طفلَيّ زوجها بعد ولادة طفلتِها، صارت تعي أكثر من أي وقتٍ مضى أننا لسنا طفلَيها، تتعبُ بسرعة فينال أحدنا منها لطمة سريعة كالأفعى. تأدبنا بظهر كفّها. كانت

تعدّ طعامنا بلا مُبالاة وبشكلٍ غير منتظم حين لا يكونُ أبي في البيت. وكنا نجتمعُ على الطعام كعائلة فقط حين يعودُ في آخرِ اليوم.

بولادة نجيبة طابتْ لرحم كوكوكل فكرةُ حمْل الأطفال فأنجبتْ خلال السنوات الأربع التالية ثلاثَ فتيات أخريات. ومع كل حمل لها كان صبرها يقل مع ازدياد غيابِ أبي، الذي يفضّلُ الهدوء لكنه يعجزُ عن طلبه. وُلدت سُلطانة بعد عامٍ من ولادة نجيبة. لم تُخْفِ كوكوكل أنها كانت تأملُ في إنجاب فتًى، خلافًا لوالدي الذي لم يهتم بالأمر بشكلٍ يثير الفضول. في حمْلها الثالث بعد ذلك بنحو عامين، ظلّتْ تُصَلّي وتتصدّقُ على مضضٍ وتأكل كلّ الأطعمة التي سمِعتْ بأنها تضمن إنجابَ طفلٍ ذكر. خاب أملُها بولادة مورية، وأيقنت أن روح أمي ألقت بلعنةٍ قوية على رحمها. حين وُلدت مريم، أختي الرابعة، لم تُدهشْ كوكوكل ولم تُحبط كذلك. شعرتْ بأن أمي المتوفاة تعوقها فاستسلمت بمرارةٍ ولم تُنجب أطفالًا آخرين. سيظل أسدُ ابن أبي الوحيد.

كان يجبُ أن تتفتّحَ أولى ذكرياتي عن شيءٍ ما مثل المدرسة أو دميةٍ مفضلة، لكنّ طفولتي لم تكن كذلك. كنتُ في السادسة من عمري حين كانت كوكوكل تقتعد وسادةً في غرفة المعيشة، بجانبها «مورية» المولودة حديثًا، نائمةً وملفوفة بإحكامٍ في طرحة صلاة.

صاحت كوكول بصوت عالٍ: «فريبا!»، فتلوّى وجه مورية الصغير في لفّتها الضيقة جدًّا لتأتي بأي ردّ فعل آخر.

«نعم، مادر جان». كنت على مقربةِ خطوات قليلة منها، ما

زالـتْ تتعافـى مـن الـولادة، ليـس عليهـا فعـلُ شـيء سـوى إرضـاع المولـودة، أعـرف هـذا لأنهـا ذكّرتنـي بـه مـرارًا.

«فريبـا، غـادرتْ خالتُـك وتركـتْ يخنـةَ الدجـاج علـى النـار، لـن تكفينـا جميعًـا، لمـاذا لا تأتيـنَ ببعـض البطاطسِ مـن الخـارج ليكـونَ لدينـا مـا يكفـي لإطعـام الجميـع؟».

يعنـي هـذا شـيئَين، أولًا، أنّ أبـي وأخـي همـا الوحيـدان اللـذان سـيأكلانِ الدجـاج الليلـة، وسـيكتفي بقيتُنـا بتنـاول البطاطـس. وثانيًـا، أن علـيَّ الخـروج إلـى الفنـاء الخلفـيّ فـي البـرد القـارسِ لجلـب بعـض ثمـار البطاطـس. كنـا فـي بدايـة الموسـم قـد دفَنّـا مـا يكفـي مـن البطاطـس والفجـل والجـزَر واللفْـتِ خلف المنـزلِ لحفظِهـا فـي بـرودة الأرض.

«مـادر، ألا يمكنُـكِ طلـبُ ذلـك مـن أسـد؟» كان البـردُ قارسًـا، وتخيّلتُنـي بالفعـل أكافـحُ لإمسـاك الجـاروف.

«إنـه ليـس هنـا، ونحـنُ بحاجـة إلـى البطاطـس الآن، وإلّا فلـنْ نجـدَ الوقـت لإعدادِهـا علـى العشـاء،ارتدي المعطـف والقفـازات التـي اشـتراها لـكِ والـدُك، لـن يسـتغرق منـكِ الأمـرُ سـوى دقائـقَ».

لم أكنْ أريدُ الخروجَ من البيت.

«هيا تحرّكي عزيزتي، ساعدي أمَّكِ من فضلك».

كان تحبُّبهـا كسـكّر بـودرة علـى خبـزٍ محتـرق. مـع ذلـك، كنـتُ أزدرده.

أتذكّـر كفاحـي مـع الجـاروف الـذي كان طولـه مماثـلًا لطولـي تقريبًـا، فتركتُـه ووجـدت مِقلعًـا يمكننـي إمسـاكُه، بـدا كأن أنفاسـي تتجمّدُ أمامـي فـي الهـواء المثلّـج، وتخـدّرتْ أصابعـي مـن البـرد رغـم

القفازات. أسرعتُ ألتقطُ أربعَ ثمرات بطاطس، وكنت على وشك دفنِ الباقي حين رأيتُ بعضَ ثمار الفجل. التقطتُ الفجل أيضًا دون سببٍ محدّد، دسستُه في جيبي إذْ كانت يداي مملوءتَيْن.

«أحضرتُها، مادر جان»، صحْتُ من المطبخ.

«فتاةٌ جيدة، فريبا. ليباركْكِ الله. الآن اغسليها وقشّريها وضعيها في الإناء لطهْيِها مع صلصة الطماطم». بدأتْ مورية تغمغم.

فعلتُ كما قالتْ وقطّعتُ البطاطسَ كما علّمتني، بحرصٍ لئلّا أجرحَ أصابعي بالسكّين. استكمالًا لنزوة الفجل، غسلتُه أيضًا وقطّعتُه ووضعتُه في الإناء، من باب الابتكار قليلًا في الطبخ. قلّبتُ الإناءَ ثم غطّيته وذهبتُ لأتفقد أخواتي.

«ما تلكَ الرائحةُ الكريهة؟ فريبا! ماذا فعلتِ؟» يتردّدُ صوتُ كوكوكل في بيتنا كأنّ له ساقَين وإرادة خاصة. كنتُ قد لاحظتُ الرائحة بالفعل لكنني نسيتُها بلا مبالاةِ طفلةٍ في السادسة.

لم أظن أنّ لي أدنى علاقةٍ بها حتى اضطرّتْ كوكوكل إلى النهوض، سارتْ إلى المطبخ ورفعتْ غطاء الإناء. عبّأتِ المطبخَ سحابةُ بخار حرّيف. غطّيتُ أنفي بيدي، مذهولةً من تجاهلي تلكَ الرائحة.

«فريبا، أيتُها الغبيّة!» ظلّت تردّدُ تلك العبارةَ مرارًا وتكرارًا، وهي تهزّ رأسها وتتأفّف، وإحدى يدَيها أسفل ظهرها.

أخبرَتْها قطعُ الفجل الحمراءُ كاللحم بما فعلتُه بالضبط. تعلمتُ يومها أن تلك البُصيلات الصلْبةَ الفوشيا تبعثُ تلك الرائحةَ حين تُسلَق. رائحةٌ لن أنساها ما حَييت، وشعور سأظل أتذكره دومًا.

حين حان وقتُ التحاقي بالمدرسة، أقنعتْ كوكوكل أبي بأنها بحاجة إلى مساعدتي مع الأطفال الآخرين، وافقها أبي الذي لا يستطيعُ الدفع مقابلَ مساعدةٍ أخرى، وأجّل دخولي إلى المدرسة عامًا آخر. كنتُ صغيرة لكنني مفيدة، يُمكنني إحضار الأشياء وقضاءُ مهامّ صغيرةٍ خارج البيت. في العام التالي، ظلّت الحجة نفسها ومكثتُ في البيت فيما كانت كوكوكل حاملًا في مريم. ظل الأمرُ نفسه يتكررُ بعد كل ولادة، تكحيلُ عينيّ الرضيعة، توزيعُ الحلوى بعد إتمامِها أربعين يومًا، وحلاقةُ رأسها لتتمتع بشَعرٍ كثيف وخصلاتٍ ثقيلة. كنت أحزنُ وحدي على ضعف بصري وشَعري وسوءِ حظي إذ لم يفعلْ لي أحدٌ كل هذا.

لحُسن الحظ، كان جدّي، بابا جان، يتابعُنا عن كثب، يزورنا بشكلٍ متكرر فيتغيّر سلوكُ كوكوكل بشكلٍ ملحوظ في حضوره. يدعوني وأسد للسير معه وتنبعث من جيوبه صلصلةُ العملات وخشْخَشةُ أغلفة الحلوى. لم نكن نتطلّع لزيارةِ أحدٍ آخرَ أكثر من بابا جان. كان يُطلبُ منا ترديدُ ما حفظناهُ من القرآن فيما يتفقّد ملابسنا ويقرصُ أذرعَنا ليتأكّد من تغذيتنا جيدًا. كانت كوكوكل تراقبُه بطرف عينها، تشعرُ بعدم ثقته بها وتغتاظ لذلك في صمت.

لكنّ زياراتهِ لم تُغيّرِ الكثير في البيت بالنسبة إليَّ. فيما كانت أخواتي يكبرْن وكوكوكل تنشغلُ برعايتهن، كانت مهامّي في المنزل تزدادُ شيئًا فشيئًا. كنت أُطعمُ الدجاج، أُنظّف فضلات الماعز، احملُ دِلاء الماء من البئر، أنفضُ السجاجيد يوميًا وأراقب الصغيرات. حين وصلتْ نجيبة إلى سنّ المدرسة زعمَتْ كوكوكل

أنّ عمل البيت أكثر مِن أنْ يُمكنها القيامُ به وحدها، وافقها أبي وتأجّلَ دخولي المدرسة عامًا آخر. كانت أخواتي الصغيرات يذهبن إلى المدرسة ليتعلّمْن الحروفَ والأرقام فيما أتعلّمُ أنا الطبخ! كانت يداي مُلتهبتَيْن ومُتشققتيْن من غسيل الملابس المبقّعة بالطعام الذي أعدّه. مع ذلك كان ما يُؤلمني حقًّا بقائي في المطبخ فيما تنشغلُ الأخريات بارتداء ملابسهنّ للذهاب إلى المدرسة في الصباح.

كان هوَسُ كوكوكل بالخرافات يُضاعفُ من جنون الموقف، تزخرُ ثقافتنا بالخرافات بالطبع، لكن كوكوكل تتعاملُ معها بحماسة خاصة. يجب ألا ننامَ مُرتدِين جواربنا وإلا سيصيبنا العمى! وإنْ أسقطَ أحدٌ شيئًا من الفضةِ، فعليَّ تنظيفُ البيت عاليه سافله ترقبًا لمجيء ضيوف! إنْ شَرَقتْ وهي تشربُ أو تأكل، تلعن من يتحدّثُ عنها بالسوء بلا شك في مكانٍ ما! ظني أنّ هذه كانت المفضلةَ لديها، قناعتُها أن الأخرياتِ يحسدْنها على هنائها.

كأن الخرافاتِ العامةَ لا تكفيها، كانت تخترعُ الكثير من الخرافاتِ الأخرى الخاصةِ بها. فتحليقُ طيْرَين فوق رأسها يعني أنها ستدخلُ في نقاشٍ مع إحدى الصديقات المقربات، وإنِ احترق البصلُ في أثناء تشْويحهِ على النار فهذا يعني أن أحدَهم يتحدّثُ بالسوء عن طبخها، وإن عطستْ أكثر من مرّتينِ فهذا يعني أن الأرواح الشريرةَ تتلاعب بها. لم يكن بادر جان يقول شيئًا، لكنه كان يخبرُنا بهدوء أنّ هذه تفسيراتها الخاصة بها التي اخترعتها هي، وأن علينا ألا نتشاركَ فيها مع الآخرين. لم تكن تحذيراته مهمة، لأن كوكوكل ليستْ من النساء اللاتي يحتفظْن بأفكارهن لأنفسهن. كان جيرانُنا جميعًا يعرفون نظريّاتها الخيالية.

فـي أحـد أركان بُسـتاننا توجـد مجموعـةٌ مـن أشـجار التـوت، تتدلّـى فروعهـا الوارفـة بثمارهـا الصغيـرة الدانيـة، كانـت أشـجارًا كبيـرة بجذوعٍ ضخمـة وراسـخة، لواحـدة منهـا لحـاءٌ مُتغضّـن وعقديّ، تُقسـم كوكوكل أنـه يمكنهـا تمييزُ وجـه الـروح الشـريرةِ فـي تلافيفـه الخشـبية. ورغـم رعبهـا مـن الوجـه المحفـور فـي الجـذع كانـت تعشقُ مـذاق ثمـار التـوت التـي تحملهـا فروعُـه، وحيـن تشـتاقُ إلـى هـذا التـوت تُرسـلني إلـى هنـاك.

«فريبـا جـان»، تنـادي برقـةٍ وهـي تأخـذُ إنـاءً خزفيًـا مـن خزانـة الأوانـي، «أريدكِ أن تأتينـا ببعض التوتِ مـن البسـتان، أنـتِ تعرفيـن، لا أحـدَ غيـركِ يمكنـه قطـفُ تلـك الثمـار الرقيقـةِ مثلمـا تفعليـن، إن أرسـلتُ أحـدًا غيـركِ سـيعود حامـلًا مُربّـى وليـس ثمـارًا».

لـم يكـنْ تزلُّفهـا ضروريًـا لكنّـي كنـت أبتسـم لعلْمـي بخوفهـا مـن الخـروج بنفسـها. كنـت، كفتـاة نحيلـةٍ بشَـعر خفيـف فـي التاسـعة مـن عمرهـا، أخـاف كوكـوكل أكثـرَ مـن خوفـي مـن متاهـة الأشـجار الغامضـة فـي البسـتان. فـي الحقيقـة، كنـتُ فـي أثنـاء النهـار ، حيـن يحفـل البيـتُ بالأشـخاص والطلبـات، ألـوذُ بالبسـتان.

ذات مسـاءٍ فـي منتصـف الأسـبوع، وأخَواتـي منكبـات علـى واجباتهـن المدرسـية، أعلنـتْ كوكـوكل عـن اشـتياقها إلـى التـوت، فخرجـتُ مذعنـةً مـن البـاب الخلفـي بإنـاءٍ فـارغ، وشـققْتُ طريقـي إلـى الشـجرة المعروفـة. كان لحاؤهـا الملتـوي عابسًـا تحـت نـور قمـر كهرمانـي. دون ضـوء النهـار، تحسسـتُ أوراق الشـجر بيـدي بحثًـا عـن الثمـار. كنـت مـا زلـتُ لـم أجمـعْ سـوَى اثنتيـن أو ثـلاثٍ حيـن شـعرتُ بنسـيم ناعـمٍ خلفـي، رقيـق كالهمـس.

استدرتُ فرأيت قامةَ رجل يقفُ خلفي، لم أجرؤ على التنفّس وهو يضع يدَه على كتفي برقّةٍ شديدة حتى أنني بالكاد شعرتُ بلمسته.

تتبّعتْ عيناي أصابعه الطويلةَ النحيلة وصولًا إلى ذراعه، قبل أن تسعني رؤيته كله. كان عجوزًا، لحيته بيضاءُ وقصيرة ووجهه تملؤه التجاعيد، حاجباه كثّانِ أبيضان يظلّلانِ عينيه الزرقاويّن الرماديتينِ المسبلتين. إنه صديق، عرفتُ ذلك على الفور، فهدأتْ دقاتُ قلبي المتسارعةُ مع نبرة صوتهِ الودودة.

«فريبا جان، حين تسيرينَ في الظلام، سأتبعكِ وأنيرُ لكِ طريقك، وحين تظنين أنكِ وحدك، سأكون حارسَكِ. امْضِ في طريقكِ وأنتِ تعرفين هذا».

طرفتُ بعينَي فاختفى! درتُ حول نفسي أتوقّعُ رؤيته يسير مبتعدًا بين الأشجار لكنني لم أرَ شيئًا. ترددتْ كلماتُه في ذهني، سمعتُ صدى صوته، ردّدتُ كلماتِه لنفسي لتظلَّ في ذهني، نادرًا ما نطق أحدٌ اسمي بهذا الحب.

«فريبا!» صاحت كوكوكل تُناديني من البيت، لا يُمكنها الانتظار.

أسرعتُ أقطف ما استطعتُ من حبّات التوت، واصطبغَتْ أصابعي بعصيرها القرمزي، هرولتُ إلى البيت أنظرُ خلفي من حينٍ إلى آخرَ لأرى إن كان قد عاد. ارتعشتْ يداي وأنا أضع الطبقَ أمام كوكوكل، التي تجلسُ لمراقبةِ أخواتي وهن يعملن بكدّ في دفاترهن. بدأتْ تتناول فاكهتَها. وقفتُ أمامها لا أتحرك.

صاحتْ فجأة: «ما الأمر؟ ما خطبك؟»

«مادر جان، كنتُ في الخارج... عند شجرة التوت».

«ثم؟»

«ثـم، وأنـا هُنـاك... رأيـتُ رجـلًا عجـوزًا جـاء مـن النـور، مـن الروحانـي، ناداني باسمي وقال لي إنه سيتبعُني وسينيرُ لي دربي، قـال إنـه يحرسـني». كنت أسـمعُ صوتـه فـي ذهنـي فـي أثنـاء حديثـي.

«رجلٌ عجوز! أين ذهب إذن؟» ضيّقتْ عينَيها ومالت إلى الإمام باهتمام.

«اختفـى. ظهـر فجـأة؛ شـعرتُ بيـده علـى كتفـي، واختفـى علـى الفـور بعـد أن قـال مـا قالـه. لـمْ أرَ أيـن ذهـب، اختفـى فحسـب! لا أعـرف مَـن كان». كنـت ألهـث، لكننـي لـم أكـنْ خائفـة. انتظـرتُ تفسـيرَها لِمـا حـدث.

«بسم اللّه!» قالت: «لقد رأيتِ مَلَاكًا! هذا ما كان، أيتُها البلهاء! ألا تميّزين الملاكَ حين يلمسُ كتفكِ ويَعد بحراستك!»

مَلَاك؟ أيعقلُ هذا؟ حكَى لنا جدي، وهو يحفّظنا سوَرَ القرآن، عن الملائكة وقواهم السماويّة. يا لغبائي إذْ لمْ أميّز ملاكًا أمامي! واصلتْ كوكوكل تأنيبي لأنني لا أقدّر قيمةَ هذا اللقاء الروحاني. نظرتْ إلينا أخواتي بأعين متّسعة، تلاشَى صوتها الحادُّ فيما تتردّد كلماتُ الملاك في ذهني.

سيحرسُني، ملاكي الحارسُ سينير لي دربي، لن أكونَ وحدي أبدًا.

يوم الجمعة التالي، انتظرْنا عودةَ أبي من المسجد، كانت كوكوكل قد طلبتْ منه أنْ يدعوَ اللّه أن تتلقَّى هي الأخرى وفتياتها زيارةً من ملاكٍ حارس. لم يقل أبي شيئًا عن لقائي بالملَاك. لم أعرف شيئًا عن معتقداتِه ولا مدَى قوّتها.

كنـتُ وكوكـوكل نعتقـدُ معًـا، اتّحدنـا فـي هـذا الأمـر، رأتْ هـي تغيّـراتٍ صغيـرةً فـيّ، ورأيـتُ أنـا مـاذا تفعـلُ بهـا تلـك التغييـرات. سـرْتُ بـرأسٍ مرفـوعٍ، مـا زلـتُ أنفّـذ تعليماتهـا لكننـي لـم أعـد أنكمـشُ أمامهـا مثلمـا اعتـدْتُ. صـرتُ أتجـوّل فـي أرجـاء البسـتان بجـرأةٍ، ليـلًا ونهـارًا، أتوقـع أن يُعـاودَ مـلاكـي الحـارسُ الظهـورَ ليـرددَ علـى مسـامعي كلماتـه المُطَمْئنـة.

جُـنّ جنـون كوكـوكل. كانـت تتفاخـرُ أمـام صديقاتهـا بأننـي، ابنتُهـا، قـد زارنـي مـلَاك. هـذه الزيـارة بشـرَى بالخيـر الكثيـر، وهـي تتمنـى أن ينالَهـا نصيـبٌ منـه. راحـت تفسـر أحلامهـا باجتهـاد، تبحـث عـن دلائلَ لاتّصالِهـا بالسـماوات هـي الأُخـرى. كنـت أسـمعُ دعواتهـا التـي تجـددت قوّتهـا وهـي تُصلّـي فـي البيـت، غـدت تتحـدثُ معـي بطريقـةٍ أرقّ قليـلًا، وتمسّـدُ شَـعري بيدهـا برفـق.

اهتمّـتْ أخواتـي بالأمـر كلّـه رغـم عجْزِهـن عـن فهـم تـوق كوكـوكل إلـى رؤيـةِ الرجـل الـذي رأيتُـه فـي البسـتان. حـارتْ نجيبـة، أقربهـنّ إلـيّ عمـرًا، بشـدة مـن ردود أفعـالِ كوكـوكل.

«كيـف بـدا المـلَاكُ يـا فريبـا؟ أكنـتِ خائفـةً منـه؟» سـألتْني بفضـول، كنـا نجلسُ مُتربّعتَيـنِ علـى الأرض، نفـرّطُ حبوبَ الفـول من قرونهـا.

«بـدا رجـلًا عجـوزًا فحسْـب، كأنّـه جـدُّ أحـدٍ مـا». شـعرَتْ بكلماتـي بسيطةً جدًّا لكننـي لـم أعـرفْ إجابـة أخـرى.

«جَدّ مَن؟ جدُّنا؟»

«لا، ليـس أحـدًا نعرفـه، مجـرد جَـد»، فكّـرْتُ جيـدًا لأوفيـهِ حقّـه، ثـم قلـت «كانَ منيـرًا.. وكان يعـرف اسـمي»، وألقيـتُ بحفنـةٍ مـن حبـوب الفـول فـي الإنـاءِ الموضـوع بيننـا.

سكتتْ نجيبة، تفكّر في ما قلته. «حسنًا، أنا سعيدةٌ لأنني لم أرَه. ظنّي أنني كنت سأخافه».

كنتُ سأخافه أنا أيضًا لو لمْ أرَ بنفسي عينَيه الزرقاوَين الرماديّتين، وأسمع صوته الرقيق يبدد الظلامَ ويزيل كل أثرٍ للخوف. مع ذلك، رأتني نجيبة شجاعة.

لمْ ترَ كوكوكل الأمرَ كذلك، بدأت تعتبر لقائي يخصّها هي، خبرة بالنيابة. سمعتُها ذات يوم تتحدثُ مع صديقتَيها في أثناء زيارتهما لها في البيت.

سألت إحدى الصديقتَين: «ثم اختفَى؟ ببساطةٍ هكذا؟»

«أتتوقعينَ أن تأتي عربةٌ تجرها الأحصنة لتقلّه؟» قالت بسخريتِها اللاذعةِ المعهودة، التي كانت تروق لصديقتَيها جدًا ما لم تكنْ إحداهما ضحيتها.

قالت صديقة: «لا بدّ أن الله يحبّها ليرسلَ إليها ملَاكًا».

قالت الأُخرَى بتعاطفٍ: «مَن يعرف، إنها يتيمة، ربما ترعاها روح أمّها في الجنة من هناك، لا بدّ أن الأمر له علاقة بها».

أثار ذكْر أمي مخيّلة كوكوكل: «أنا من طلبتُ منها الخروج إلى البستان تلك الليلة. أنا نادرًا ما أشتاقُ إلى التوت، لكن شيئًا ما غامضًا انتابني حينها، كان لساني يدغْدغني شوقًا إلى مذاق تلك الفاكهة، حاولتُ أن أنسى الأمر لكنني لم أستطعْ، كأن شيئًا ما في تلك الأشجار كان يناديني، أردتُ أن أركضَ إلى هناك. لكنني كنتُ مشغولة في مساعدة الفتيات في واجباتهنّ المدرسية لذلك طلبتُ من فريبا أن تقطفَ لي بعضها، إنها ابنةٌ طيّبة، ذهبتْ إلى البستان من أجلي، لذلك لستُ متأكدةً مَن منّا التي كان الملَاك

يريد لقاءها! ربما كانت لهفتي الشديدة على التوت حينها هي طريقتُه في دعوتي، لكنني أرسلتُ فريبا جان نيابةً عني، لذلك لا أحد يعرف حقًا».

لم يبْدُ عليهما الاقتناع تمامًا بنظريّتها لكنهما لم يعارضاها. دخلتُ الغرفة أحمل بحرص صينيةً عليها ثلاثة أكوابِ شايٍ ساخن في يد، وفي الأُخرى طبقُ السكر.

«لقد فكروا في فريبا جان وهم يصنعون السجّاد الأفغاني»، أعلنت كوكوكل. «الفضلُ للون السجاد الأحمر، لأنكما لن تعرفا أبدًا كم الشاي الذي سكبتْه عليه!». ضحكْن ضحكًا خافتًا وظلَّ رأسي مطرقًا، ابتسمتُ بأدبٍ وأنا أضعُ كوبًا أمام كلٍّ منهما وأعرضُ مكعّبات السكّر، شعرْتُ بنفسي تحت الفحْص، «أفارين دُختار جان»، [أحسنتِ يا بُنيّتي العزيزة]. عدتُ إلى المطبخ بالصينية الفارغة، أنا اليوم ابنتها!.

في الحقيقة، كنتُ ابنتَها في أغلبِ الأيام، أقضي وقتًا طويلًا معها في البيت إذ لمْ ألتحقْ بالمدرسة، أحملُ عمل البيت كله تقريبًا على عاتقي وحدي، وكانت تؤنّبني بقسوةٍ شديدة حين لا يُعجبُها عملي، لكنني كنتُ معها في أغلب الوقت، نقضي ساعاتٍ في إعداد الوجباتِ وتنظيف البيت ورعاية الحيوانات. كان لسانها الحاد بحاجةٍ إلى جمهور أو هدف، لذلك كنت أحبّ الذهاب معها إلى السوق. كانت تنظر إلى الطماطمِ المهروسة، وتسألُ البائع إن كانت زوجته السمينة قد جلستْ على محصولهِ بالخطأ. في متجر الأدواتِ المنزلية تسألُ البائع إن كان الطبقُ باهظ الثمن لأنه من مجموعة أطباقِ الملِك الخاصة.. كان حسُّها الفكاهيُّ إما أن

يتسببَ في سوء فهمٍ، أو يُقابَلَ بقهقهةٍ، أو بتخفيض في السعر.

كنا نتحالف ونحن نساومُ لشراء حاجاتنا: اللحوم والخضروات والأحذية، كنتُ أقلّد سلوكها الصفيقَ في المساومة لأحصلَ على أفضل سعرٍ ممكن، فتومئُ لي باستحسان. لم تكنْ أخواتي الصغيرات ماهراتٍ في مثل مهارتي في السوق والمهام المنزلية.

«نجيبة، انظري إلى هذا»، تقولُ كوكوكل شاكية.. «ما زال القميصُ يحوّل لونَ الماء إلى البني، كيف تظنينه نظيفًا؟ أرأيتِ كيف تغسل أختك الملابس جيدًا؟ كم مرة عليَّ أن أخبركِ بأن القميص لا يغسلُ نفسه بنفسه! الحمد لله أن لديّ فتاةً واحدة على الأقل يُمكنها مساعدتي في البيت حقًا».

كانت تلك اللحظاتُ التي أشعر بقرابتي لها، تلك المرأة التي كانت أمي، دون أن تكونَ كذلك.

فريبا

3

كلّ ليلةٍ، يستذكرُ أخي وأخواتي دروسهم، يُمسك كلٌّ منهم قلمَ رصاص بيده اليمنى، وممحاةً باليسرى، يسندون مرافقهم إلى المائدة، ذقونُهم في راحاتهم في أثناء وهم يقرؤون، ويحفظون، ويجمعون، ويطرحون. يتعثّرون مع الحروف في البداية، يتعلمونَ كيف يتشابكُ بعضُها ببعض مع حركة القلم، يضعون النقاط وعلاماتِ الضبّط في أماكنها بحرص، فتدبُّ الحياة في الكلمات ثم الجملِ، عباراتٌ قصيرة وبسيطة تصفُ الأنشطة اليومية لأولاد وبناتٍ مهذّبين. حين بدؤوا تعلّم العربيةِ الفصحى للقرآن زاد شوقي للتعليم. كان جدّي قد حفّظَني بعض السّوَرِ لكنني لم أتعلّمْ قراءة النص نفسه.

كنت أستمع لهم وهم يلعبون بالأرقام، يحفظون جدولَ الضرب بنشيد، وعلى الورق يتلاعبونَ بالأرقام والرموز. يتعلّمون الحساب، منطقَ الأرقام.

يدرسون حكاياتٍ، تاريخَ بلادنا، صعودَ الملوك وأبنائهم. كيف نُحِتتْ بلادُنا من الصخر. كان أخي أول من تعلّم النشيدَ الوطني وكان يرددهُ وهو يرفع إحدى يدَيه إلى الأعلى بالتحية. تعلّمتْ أخواتي أهازيجَ لعبٍ من زميلاتهنّ في الفصل، كن يتقافزْن في سيرهن على إيقاع الكلمات خالياتِ البال متشابكات الأيدي:

«كوكو كو، ورقةُ شجر بتولا

الفتياتُ يجلسْن بأدبٍ ليفرطن الرمان

لو كنتُ حمامة لطرتُ في السماء

وأكلتُ رمال النهر بهدوءٍ وشربتُ من أصفى برك الماء».

في الصباح أراقبهنّ وهنّ يرتدينَ زيَّ المدرسة الرمادي البسيط، يرفعنَ جواربهنّ ويحكمْن ربط أحذيتهنّ بسرعة، يخشينَ التأخّر ويخشينَ أكثر أن يبدونَ غير مهندمات. كان المعلمونَ صارمين بخصوص كلا الأمْرين. كنتُ كل صباح أتألم وأنا أراهن يغادرن بسرعة في حين أبقَى أنا في البيت، أحسدهنّ لامتلاء حقائبهنّ بالأوراق والأقلام والقصص، أعرف أنني في نفس مستوى ذكائهن، وربما أذكَى منهن.

كان أخي جيدًا في الدراسة، لم يكن الأولَ على فصله، لكنه كان جيدًا بما يكفي لئلّا يشكو منه أبي أو جدي، أنا واثقة أنّه كان بإمكانهِ التميزُ لو شاء، لكنه كان ينهي واجباتهِ بسرعة ليفرغَ لشؤونه الأخرى. لعب كرة القدم مع أولاد الجيران، تسلّق أشجار البستان، وقيادة الدراجة في الشوارع القريبة من بيتنا. كمراهق تحمّل أكثر مراحلهِ ارتباكًا وحده ما أمكنه، بجلْدٍ مبقّع بالثآليل وصوتٍ يصعب وصفه، لكنه حين وصل برّ البلوغ، أصبح صوته صوتَ رجلٍ واثق يُريد الخروج إلى العالم.

كنت كلما تحدثت مع أبي في موضوع المدرسة، يُجيبني دائمًا أن كوكوكل تحتاج إلى مساعدتي في البيت ومع الصغيرات، لكن هذا العذر لم يعدْ يفلح الآن. كانت مريم، أختي الصغرى، في

السابعة من عمرها وفي المدرسة الابتدائية. لم يعد هناك رضَّعٌ في البيت.

ذات مساء تحدثتُ معه مجددًا بعد تناوله العشاء، كنت في الثالثة عشرة من عمري ومصرّة، أعرف أن الفتيات اللاتي لا يذهبنَ إلى المدرسة يتزوجنَ صغيراتٍ ولم أكنْ أرغب في ذلك. كان كل عامٍ يمر يبعدُني عن فرصةِ الدراسة ويقرّبُني من أن أصبح زوجة!.

«بادر جان؟» رفعَ بصره إلي وابتسم برقة، أدار قرْص الراديو ليُطفئه،انتهت نشرةُ الأخبار المسائية، وضعتُ أمامه كوبًا من الشاي الأخضر الساخن، أذبت فيه مكعّبَي سكر سريعًا، دائمًا ما يشرب شايَه مساءً بالسكّر.

«شكرًا لكِ عزيزتي، هذا ما أحتاج إليه حقًا بعد عشاء جيد كهذا»، قال وهو يربت على بطنه ويتنفّس بعمق.

«نوش إي جان»، أجبته، أتمنى له شهية طيبة. «بادر جان، أريد أن أطلب منك شيئًا»، رفع أحد حاجبَيه وهو يأخذُ رشفة من شايه بحرص.

«بادر جان، أريد أن أذهبَ إلى المدرسة مثل أخواتي».

«أوه، هذا الأمر مرةً أخرى؟» تنهد قائلًا. مالت كوكوكل إلى شغل إبرتها، توقفتْ عن العمل حين ذكرتُ المدرسة.

«أستطيعُ مواصلة المساعدة في البيت، سأغيبُ عن البيت ساعات عدة فقط، جميع أخواتي يذهبنَ ولم يعد في البيت صغارٌ الآن، أريد أن أتعلّم الأشياءَ التي يتعلمْنَها». كان هذا كل ما استطعتُ قوله قبل أن تغلبني دموعي، أطرقت برأسي وأنا ألعنُ

نفسي لعجزي عن قول المزيد قبل أن يتهدّج صوتي، انتظرتُ أن تزولَ غصّة حلقي أو أن يتحدّث أبي، لا أعرف أيهما سيحدث أولًا.

«فريبا جان، ظننتُ أن مسألة الدراسةِ لم تعد تهمّكِ، أنتِ شابة صغيرة الآن ولم تذهبي إلى المدرسة ولو ليوم واحد». سكت شاردًا في أفكاره، معقود الحاجبين.

زممتُ شفتيَّ، أحبس خيبتي.

«أعرفُ».. قلتُ ببساطة.

استأنفتْ كوكوكل شغلَ الإبرة على الفور، راضيةً لأن نقاش الليلة لم يختلفْ عن أي نقاش آخر.

«أتريدين تعلّمَ القراءة؟ ربما يُمكن لنجيبة قضاءُ بعض الوقت معكِ لتعليمك، أو حتى سلطانة، إنها جيدة جدًا في الكتابة وتحب قراءة الشعر».

لم أشعرْ بالغيظ من أبي بهذا القدر من قبل قط، جرحَ اقتراحُه كبريائي وكرهتُ ابتسامته الدافئة، لا أريد أن تُعلمَني أختاي الصغيرتان القراءة. إنهن يعدن من المدرسةِ كل يوم ليرددن ما يقوله معلّموهم، تؤكد أصواتهن كلَّ ما يفوتني طوال الوقت.

«يقول معلّم صاحب إن خطّي يتحسنُ. يقول معلّم صاحب إن علينا شربَ كوب من اللبنٍ يوميًا لنظلّ أقوياءَ وأصحاء».

لم أشأ أن تضحى أختي الصغيرة معلّمتي، ربما يمكنها تعليمي الأبجدية ونطقَ الكلمات لكنها ليست معلّمةً حقيقية تقف أمام الطالبات في الفصل، مهمّتها تحفيظهن جدولَ الضرب، ومراقبة تقدمهن في الدراسة، كنت أريد المزيد.

«لا، بـادر جـان». شـعرتُ بانفـراج حلقـي وعـاد صوتـي بعـزم مجـددًا: «لا أريـدُ التعلّـم مـن تلميـذة، أريـد أن أتعلّمَ فـي المدرسـة».

ربمـا فاجـأه ردي، ربمـا رأى دوافعـي طفوليـة، ربمـا ظنّنـي أريـد ارتـداءَ الـزي المدرسـي والتهـرّبَ مـن عمـل البيـت، لكن مـا أردتـه كان أكثـرَ مـن أن يمكننـي صياغتـه فـي كلمـات، كنـتُ أعـرف أن الوقـتَ ليس فـي صالحـي. حدجنـي بنظـرة ممعنـة، زاويتـا فمـه إلـى الأسـفل.

«لـن يكونَ الأمـر سـهلًا عليـكِ، سـيكون عليـكِ البـدءُ مـن الصفـر، فـي فصـلٍ مـع أطفـال».

«معـه حـق، سـتكونين كعملاقـةٍ تجلـس بيـن الصغـار، إنهـا فكـرةٌ كريهـة، كدجاجـةٍ تحـاولُ الرجـوع إلـى البيضـة!» حذرتْـي كوكـوكل.

«لـن يزعجَني هـذا»، وعدتُهمـا.

كانـت كذبـة للضـرورة. كانـت تلـك أول مـرةٍ يفكّـر فيهـا جديًـا فـي مطلبـي.

«سـأتحدثُ مـع ناظـر المدرسـة لنـرى مـاذا سـيقول، مـع أننـي واثـق مـن أن أمـكِ سـتفتقدكِ وأنـتِ فـي الخـارج نهـارًا».

«أليـس هـذا كلّـه سـخفًا؟ لمـاذا تهتـمُّ الآن بالمدرسـة؟ إن لديهـا كلَّ مـا تحتـاج إليـه هنـا فـي البيـت». كانـت كوكـوكل مدهوشـة بشـدة مـن المنحَـى الـذي اتخـذهُ النقـاش.

«أنـا لـم أعـد بشـيء، سـأتحدّثُ مـع المدْرسـة وسـنرى هـل سـيوافقون أم لا»، قـال أبـي لئـلّا يُلـزم نفسـه بشـيء كعادتـه دائمًـا، ليتركنـي وكوكـوكل يراودُنـا الأمـل.

مـا فاجـأه كثيـرًا وأحبـط كوكـوكل كثيـرًا أيضًـا أن المدرسـةَ وافقـت علـى إلحاقـي شـريطة أن ألتحـقَ مـن البدايـة، بـدأت الصـف الأول

متأخرةً ثمانية أعوام عن موعدي، في الليلة السابقة لأول يوم لي في المدرسة، كَوَيتُ التنورةَ والقميص جيدًا جدًّا، أريدُ أن أترك انطباعًا جيدًا عند المعلم صاحب. ضحكتْ مورية ومريم، أصغر أخواتي، حين رأتاني في زيّ المدرسةِ ونحن نغادرُ البيت معًا في الصباح، كانتا تسبقانني في الدراسة بعامَين أو ثلاثة.

بدتْ نجيبة وسلطانة مهتمّتَين أكثر قليلًا بما سيقوله الآخرون حين يرون شابةً كبيرة تدخلُ فصل الصفّ الأول. في طريقنا إلى المدرسة حاولتْ نجيبة تحضيري لهذا:

«ستتأكدُ المعلمةُ من أن لديكِ قلمَ رصاص وكراسًا، وفي الغالب ستطلبُ منكِ الجلوس في آخرِ الفصل، أنت تعرفين، لأنك أطولُ من الآخرين».

قدّرتُ لها رقتها في تحضيري لهذا، أومأت سلطانةُ برأسها موافقة وقالت بدبلوماسية أقل: «نعم، لن يستطيع أحدٌ رؤية شيء إن جلس خلفك»، رمقتْها نجيبة بنظرةٍ فركزت سلطانة نظرتها على حذائها وأبطأت خطوها، واصلت نجيبة: «ستتقدمين سريعًا، أنت تعرفين الأبجدية بالفعل تقريبًا، ستقرئين سريعًا».

ابتسمتُ لها بامتنان، لم نكن أنا وهي قريبَتَيْن لكنها كانت تتحدث بإخلاصٍ كنتُ في حاجة إليه ذلك اليوم تحديدًا.

«إن كانتْ سلطانة تستطيع القراءة فأنا متأكدة من أنني لن أواجه مشكلات».

تأففتْ سلطانة، نظرتْ أمامها مباشرة وأسرعت في سيرها، لم أكن أقصد بتعليقي أيّ إساءة، آسفة، نظرتُ إلى الخلف لأتفقّد مورية ومريم تسيران خلفنا، كانتا تسيران متشابكتَي الأيدي، وحقيبتاهما على ظهريهما.

بددتْ أخواتي الصغيراتُ خوفي من يومي الأولِ في المدرسة، أشارت نجيبة لي نحو فصلي ما إنْ عبرنا البوابات الحديدية، توجهت سلطانةُ إلى فصلها بسرعة، ولوّحت لي مورية ومريم بمرَح.

دخلتُ ببطءٍ أمسحُ الفصلَ بعينيّ، لا أعرفُ هل عليَّ الجلوس أم الذهاب إلى المعلّمة لتقديم نفسي أوّلًا، كان التلاميذ الآخرون مشغولين باتّخاذ مقاعدهم. فضّلْتُ الإبلاغ عن وجودي أولًا، بدلًا من انتظار أن تلحظَني المعلّمة فتلفت إليَّ الأنظار. كنت شابةً أكثر من كوني فتاةً صغيرة، مع ذلك ها أنا أجلسُ بين الصغار. في سياق آخر، كنت سأضحى المسؤولة عن رعايتهم، لكنني هنا زميلتهم في الدراسة.

«مرحبًا عزيزتي، سمعت أنكِ ستنضمّين إلينا، سوف تجلسين في الصف الأخير، إنه المقعد الخالي الوحيد لدينا، تفضّلي خذي هذا الكتاب، هذا ما سوف نتعلّمه بدءًا من الآن، هل تعرفين الحروف؟»

كانت معلمتي الأولى صارمة لكنها طيبةُ القلب، أُعجبَتْ بي على الفور، الحمد لله. كانت تتحدثُ معي بشكلٍ مختلف عن حديثها مع زميلاتي في الفصل ولم تجعلني أشعرُ بغرابةٍ لجلوسي بين الصغار، كنت ممتنةً وعازمة، عملتُ بلا كلل. كنتُ أستمعُ وأخواتي يتعلمنَ الأبجدية، لذلك كانت الحروفُ تتدحرجُ على لساني بسهولة كافية.

تقدمتُ إلى الصف الثاني خلال شهرَين، سعدتُ بتقدّمي لكنني حزنتُ لتركي معلّمتي. بدا على معلّمتي في الصف الثاني

أن وجود تلميذةٍ كبيرة الحجم في فصلها يثيرُ حنقها. كانت كثيرًا ما تطلبُ مني القراءة بصوتٍ عالٍ وتراقبني بسرور وأنا أتعثّر مع الكلمات. وحين يغمزُ الطلبة بعضهم لبعض توبّخهم بمرح!

«يكفي هذا! تذكروا أيها الطلبة، لا تتخدعوا بحجم فريبا، إنها جديدة في الصف الثاني».

عملتُ بكدّ أكبر، وباجتيازي الاختبار ، لم يكن أمامها خيار آخر سوَى نقلي إلى الصف الثالث. كنت كلَّ ظهيرةٍ أعود من المدرسةِ إلى البيت لأبدأ مهامّي المنزليةَ التي لا يمكنني إهمالها؛ فقد وعَدتُ بالاستمرار في مساعدة كوكوكل ولم أشأ أن تبدأ شكواها لأبي عن تقصيري في عمل البيت. ظللتُ أنفضُ السجاجيدَ، وأغسل الملابس، وأرعَى الحيوانات في الفناء الخلفي، وبعد إنجاز تلك المهام، وتناولِ الأسرة الطعام يمكنني الجلوسُ لاستذكار دروسي. كنت أسهر حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، حين لاحظ بادر جان ذلك قال:

«دختار جان، لقد ذاكرتِ أكثر ممّا ذاكر إخوتكِ طوال دراستهم، وثبُت هذا بدرجاتك في الدراسة، هل أنت سعيدة؟»

«نعم، بادر جان، أريد فقط أن ألحقَ بما فاتني لأكونَ حيث يجب أن أكون».

«وماذا عن زميلاتكِ في الفصل؟ هل تتوافقين جيدًا معهن؟» كنت أعرفُ ماذا يقصد. كان يسألُ إن كنتُ، وأنا شابة في الصف الثاني، ألفتُ الانتباه بشكل سلبي.

«إنهن جيّدات، لا ينزعجنَ مني، آملُ أن أنتقلَ من هذا الصف سريعًا على أي حال».

تركني راضيًا لأُنهي واجباتي المدرسية. تكررتْ هذه المحادثةُ عدة مراتٍ حتى وصلتُ إلى الصف الخامس ثم السادس، حيث تتطلبُ الموادُ الدراسية تركيزًا أكثر ، صارت القراءة سهلةً عليَّ، لكنّ الحسابَ كان مختلفًا.

كنتُ قد تعلّمتُ الحساب البسيط في السوق، حين يخبرُني صاحبُ المتجر القريب بسعر شيءٍ ما، أحسبُ سعر خمسةٍ منه بسهولة. بإمكاني حساب سعر ربع أو نصف كيلو الزبيب، لعلمي بسعر الكيلوغرام الواحد، مع ذلك كانت الهندسة والجبْرُ أصعبَ من تلك الحساباتِ البسيطة، لكنني تدبرتُ أمري.

كنت أذاكرُ على ضوء الشموع، أحفظ وأنا أكنسُ غرفة الجلوس، يتتبع إصبعي كلماتٍ وفقراتٍ لا مرئية على قدمي وأنا جالسة إلى الطعام، أسترقُ اللحظات ما أمكنني لأستوعب كل ما عليَّ تعلمه.

نجحتُ في اللحاق بما فاتني، كنتُ في السادسة عشرة من عمري وفي الصف الحادي عشر، مع فتياتٍ من سنّي، سأتخرّجُ خلال ثلاث سنواتٍ فحسب. كنت فخورة، وكذلك أبي. كان يقرأ كل تقارير تقدّمنا في الدراسة بحرص. كان ذات مرة يدقّقُ النظر في الدرجات والملاحظات ثم رفع بصرَه إليّ، رأيت في عينيه ما لم يستطِع اللفظ به، علتْ زاويتا فمه في ابتسامةٍ مستترة، يحاول أن يبدوَ غير مُبال في استحسانه. قال:

«أحسنتِ».

كان جدّي يتابعُ ما يجري من ركنه، يستندُ بظهره إلى الجدار ويتكئ بمرفقه على وسادة، ويحرّكُ مسبحته ببطء، يخبرُني تعبيرُ وجههِ بأنه ليس مدهوشًا البتة.

فريبا
4

رغـم الصيـامِ منـذ شـروق الشـمس وحتـى غروبِهـا، كان رمضـانُ شـهرَ سـعادة. كنتُ فـي العـادة أسـتغرق تمامًـا فـي دراسـتي ومهامـي المنزليـة بطريقـة تجعـلُ سـاعاتِ الجـوع تمـرُّ في لمْـح البصـر وبـلا عنـاءٍ يُذكـر. تتلـوَّى بطونُنـا خـلالَ النهـار، لكننـا بعـد غـروبِ الشـمس نلتهـمُ الطعـام الـذي قضينـا النهـارَ كلَّه فـي إعـداده، أصنـافٌ خاصـة لمكافـأة أنفسـنا علـى الصـوم.

كان أخـي أسـد كثيـرًا مـا يضيـق خُلقـه خـلالَ نهـارِ رمضـان. جـاء فـي أحـد الأعـوام، ذات يـوم مـن أيـام رمضـان، إلـى غرفـة الجلـوس حيـث كنـت أضـعُ وسـادةً خلـف ظهـر جـدي، ودون أن يقـول شـيئًا، ألقـى بقميصـهِ علـى ظهـري، فاسـتدرتُ إليـه مدهوشـة.

«أسـد، مـاذا تفعـل؟» قلـت. كان قميصًـا بكُمّيـنِ طويليـنِ غسـلتُه منـذ وقـت قريـب.

«أسـد باجم، لماذا تفعلُ هذا؟» سـألهُ جدّي بعتاب.

«بابـا جـان، أنـا أريـدُ قميصًـا نظيفًـا، مـا زالـت البقعـةُ عليـه، وجـب عليهـا إزالـةُ البقعة!»

«بقعةُ ماذا؟» سـأله جدي.

«بقعةُ توت».

«آه. فهمت إذًا،إن بقعة التوت لا تزول، هل تعرفُ لماذا؟»

«لماذا بابا جان؟» لم أكنْ أعرفُ أنا أيضًا.

«اجلسا لأحكي لكما، هذه فكرةٌ جيدة لقضاء الوقت حتى موعد الإفطار، حين سننْهي الصيامَ والتوتر المصاحب له، هكذا إذن، كان هناك ولم يكن هناك تحت السماء الحارقة...» وبالعبارة المعادلة لـ «كان يا ما كان» لبدء الحكي بالأفغانية، بدأ بابا جان حكايته:

«كانت هناك خادمةٌ صغيرة جميلة...»

حكى لنا عن خادمةٍ وفارس التقيا مصادفةً في الغابة، حين سمعَتِ الخادمةُ الجميلة صوتَ النمرِ بين الأشجار، تملّكها الذعر وبدأ أنفُها ينزف، هربتْ على الفور تاركة خلفها طرحتها المبقّعة بالدم، حين وجد حبيبها طرحتَها وعليها البقع القرمزية وأحس بوجود نمرٍ رابض على مسافة، ظنّ الأسوأ. حزن وأراد أن يثأرَ لمقتلِ حبيبته، فذهب إلى النمرِ الذي افترسه بلا جهد. وحين استجمعت الخادمة الصغيرةُ شجاعتها وعادت إلى الغابة، صرختْ حين رأت حبيبها مسجّى ميتًا. انهارتْ بجوار شجرةِ توتٍ سامة وفي حزنها العميق مدت يدها وقطفتْ حفنة من الثمار السامة والتقمتها، تتمنّى أن تتحدَ روحُها مع روح حبيبها في العالم الآخر.

«منذ ذاك الحين، تنتجُ شجرة التوتِ تلك وجميع الأشجار الأخرى ثمارًا لبقعها لون الدم الذي وحّدَ بين القلبَيْن، بقعة لا شيء يمكنه إزالتها».

أصغى أسد باهتمام، لكنه بدا محبطًا حين أنهَى بابا جان حكايته، إذ ليس أمامه أحدٌ ليلومه بشأن قميصهِ الذي لن تزولَ عنه البقعة أبدًا. التقطهُ عن الأرض بالقرب مني وهو يتأففُ قائلًا: «إنه قميصٌ قديم على أي حال، لديّ قمصانٌ أفضل منه».

كنتُ أفكّر في حكاية بابا جان تلك وأنا أتجوّل في السوق بعد ذلك بعام بحثًا عن تمرٍ جيد للإفطار، أُسرع لأصلَ إلى البيت بأخباري الجيدة، لقد نلت ثاني أفضل درجة في اختبار الرياضيات، أعلنتْ معلّمتي بصوتٍ عالٍ ليسمعه الجميع: «فريبا، الدرجة النهائية تقريبًا، الثانية بعد لطيفة، جيد جدًا».

كنتُ أعرف أن عينَي بابا جان ستلتمعانِ فخرًا بصمته المعهود الذي يعبّر بكلمات أفضل، أردت أن أشتري التمر بسرعةٍ لأعود إلى جدّي في البيت.

يملك «شير آغا» محلّ عطارةٍ مكدّسًا ببراميل التوابل والثمار المجففة، جوز ولوز وهيل وملح صخري وكركم وفلفل حار. كنتُ أعتبر محلّه أكثرَ الأماكن تنوعًا في الألوان وإمتاعًا للحواس، مع ذلك بدا هو نفسه ليس معجبًا به مثلي. كان يسير بخطوات بطيئة وثقيلة بعرض رجُلَين، يلمع جبينه بالعرَق حتى في برد الشتاء القارس، لم أكن أنجح في مساومته هو تحديدًا لكنه اليوم يبدو في مزاج جيد. أبقيتُ رأسي مطرقًا وأنا آخذ منه كيس التمر، حريصةً على ألّا ألمس أصابعه السميكة المشعرة.

عدّلتُ طرْحتي على رأسي وعددْتُ العملات التي في كيسي، ستنبهرُ كوكوكل، كنت سعيدة بنصري الخاص فلم ألحظ الظلّ الذي يتبعني على جانب الشارع الضيق، سقطت عُملتان من يدي على الأرض المتربة، انحنيت لالتقاطهما فسمعتُ صوت خطواتٍ وكلماتٍ بذيئة جعلت وجهي يحْمرُّ خجلًا. انزلقت العملتانِ من بين أصابعي وأنا أعتدلُ في وقفتي وألتفت. وقف على مقربةٍ بوصاتٍ قليلةٍ مني أحد فتية السوق السفلة، تراجعتُ خطوةً إلى

الـوراء وعبسـت. ينسـدلُ شـعره الطويـل علـى جبينـه، عينـاه داكنتـان وقريبتـان مـن بعضهمـا، ابتسـم بسـماجةٍ كاشـفًا عـن أسـنانٍ صفـراءَ وتجاويـف أسـنان مفقـودة.

«إلـى أيـن تذهبيـن؟ لمـاذا لا تمكثيـن قليـلًا؟ لـديّ بعـض الحمّـص فـي جيبـي، هيّـا ضعـي يـدكِ وخـذي بعضـه»، قـال بخبـثٍ وهـو يفتـح جيب بنطالـهِ لتتسـاقط منـه حبـوب الحمـص.

«بـي تربية!» وقـح، صحـتُ فيـه واسـتدرتُ وركضـتُ آملـةً أن تصمد أربطـة صنـدلـي الجلـدي الباليـة وأنـا أسـرع إلـى الشـارع الرئيـس، ضحـك الفتـى مـن خلفـي.

اندفعـتُ إلـى المطبـخ متعرّقـة. كانـت كوكـوكل هنـاك، تُقطّـع لحمًـا نيّئًـا وتُلقـي بهـا فـي إنـاء فيـه مـاء يغلـي وبصـل.

«أوه، دختـار!» قالـت حيـن رأتنـي وحدجتـي بنظـرة دهشـة وتحذيـر. أشـارت بسـكّينها إلـى ركـنٍ فـي المطبـخ حيـث توجـد بجـوار الجـدار جَـرّةٌ ملفوفـةٌ ببطانيـةٍ خضـراءَ خشـنة. كانـت كوكـوكل تعـدّ الزبـادي الـذي يحتـاج إلـى سـكونٍ تـام ليتخمّـر. «خطواتـكِ كخطـوات الفيـل».

«سامحيني» قلتُ لاهثة.

«مـاذا يحـدثُ؟ تبدين متوتّرة».

شعرتُ بخجلٍ شديدٍ لأروي ما حدث.

«كنتُ أخشَى التأخر على المساعدة في إعداد الطعام».

«أنـتِ متأخّـرة جـدًا، الطعـام جاهـز تقريبًا،اغسـلي يديـكِ وأعـدّي السـلَطَة علـى الأقـل. بـدأ ظهـري يؤلمنـي. هـل أحضـرتِ التمـر؟» سـألَتْ، تذكّرُنـي بالمهمـة التـي وكّلتْنـي بهـا صباحًـا.

«نعـم»، قلـتُ وسـحبت كيـس التمـر مـن بيـن أدواتـي المدرسـية

وناولتها ما تبقى من النقود. عدّت العملات، ينقصُها ما فقدته في أثناء فراري من الفتى.

«يبدو طازجًا، من أين اشتريتِه؟»

«شير آغا، كان مزاجه أسوأ من المعتاد حتى»، قلتُ بأمل تبرير النقص في النقود، طرقَعتْ بلسانها ووضعتْ كيس التمر جانبًا.

«لا شيء يخرجُ من مخالبِ ذلك الدب، اذهبي إلى غرفة الجلوس، جَدك في انتظارك».

مررتُ بغرفة الجلوس في طريقي لغسل يدي، كنت متأكدةً من أن جدي سيعرف ما بي على الفور، خلاف كوكوكل، لم يسعْني النظر إليه وحمرةُ الخجل ما زالت في خدي.

في يوم آخر إذًا، فكّرتُ وأنا أضع ورقة الاختبار في غرفتي.

فريبا

5

في عامي الأخيرِ في المدرسة العليا، كان البستانُ يجذبني أكثر من أي وقتٍ مضى، كانت الفروعُ الدانية بثمارها تبدو كأصابع منثنية تدعوني إلى الدخول إليه، كنت أجلسُ في ظلّ شجرةِ خوخ، أتلذذُ بالعصارة الدبقة للثمرة الكهرمانية، وأفكّر في ما سأفعله بعد التخرج. بعض الفتياتِ سيذهبن إلى الجامعة، وبعضهن سيعملنَ مدرّسات، كثيرات منهن سيتزوجّن، لم أكن متأكدةً مما أريده لكنني لم أكن مهتمة بالزواج والعمل المنزليّ الذي يأتي بصحبته.

كنتُ حين أُنهي مهامّي المنزلية، أتسللُ إلى البستان ومعي كتاب، أشعر برطوبة العشب تحت قدمي، ودغدغة أوراقه الناعمة لأصابع قدمي، أستندُ بظهري إلى شجرة توتٍ لأقرأ، وأحيانًا أرقدُ على بطني. سألنني أخواتي عن شغفي بأشجار التوت فأخبرتهنّ بأنني أحلم جيدًا جدًا هناك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«بم تحلمين؟» سألنني.

«بالغد».

«ماذا سيحدثُ غدًا؟»

«لا أعرف، لا أتذكّر أحلامي، لكنني أستيقظُ بشعورٍ رائع، قصةٌ تستحق أن تُحكى للآخرين».

في ذلك الصيف أصيبَ جدي بسعالٍ شديد وقاسٍ، فرقد طريحَ الفراش لأيام يحتسي أكوابًا من شاي الأعشاب لطردِ العلة من جسده، كنتُ أراقب تنفسَه الثقيل، العرق على شفته العليا. استدعى بادر جان طبيبًا أعطى جدّي حقنةً وترك له قارورتَي حبوب، وضعتُ كوب الماء عند فمه ليسهلَ عليه بلعُ الحبوب الطباشيرية.

كنت أذهبُ لرؤيته يوميًا تقريبًا، على أمل أن أراه يتحسن، لكن وجهه كان يزداد شحوبًا مع ارتفاع حرارة الحمّى. في زيارتي الرابعة أعددتُ له حساءً وشايًا حلوًا، لم يكن قد تناولَ سوى رشفات قليلة قبل أن يتوسل إليَّ أن أتركه ليستريح.

استدعينا الطبيب مجددًا؛ بدا بابا جان هشًا وصغيرًا جدًا في رقدته، كنت أتوق إلى رؤيتهِ ينهض، يمدّ يده إلى عصاته ويسير إلى المطبخ. ظللتُ وأبي بجانبه معظم الوقت دون أن يتحدث أيٌّ منا عن مدى ضعفه الذي يبدو عليه، لم يكن بادر جان يتحدث كثيرًا في الأساس، لكن هذه طريقته، كأنه يخشى صوته.

«فريبا جان» ناداني جدي.

«نعم، بابا جان؟»

«حفيدتي الرائعة، لقد أوشكتِ على الانتهاء من المدرسة العليا أليسَ كذلك؟»

«نعم بابا جان، لم يتبقَّ سوى هذا العام فقط».

«جيد، جيد، وماذا سوف تفعلين بعد ذلك؟»

«لستُ متأكدة بابا جان، أفكّر في كلية لكن...» كانت عيناه نصفَ مغمضتَين، تركتُ صوتي يتلاشى، ظننتُ أنه نام، لكنه لم ينم.

«لِمَ لا؟»

ليس لدي إجابة، رفعت كتفي ومسحتُ جبينه بقطعة قماشٍ مبللة.

«فريبا، لقد راقبتِ والدك وهو يعمل في البستان، أليس كذلك؟ تدبّ في مواهبه الحياة هناك، علّمتُه ما استطعت حين كان فتى صغيرًا لكنني عرفتُ من قبل أن يصيرَ رجلًا أن بإمكانه فعل المزيد، إنه أستاذ في زراعة وتطعيم الأشجار».

كان محقًا. ذات شتاء، راقبتُ أبي وهو ينزعُ عُقلة من شجرة تفاح بعناية، سرتُ خلفه إلى حافة البستان حيث اختار شجرةَ تفاح أخرى قديمة، لثمارها قشرةٌ حمراءُ فاقعة. ظل يربّتُ على لحائها وهو يدندنُ ويدور حول جذعها، يبحثُ عن الموقع المثالي لتطعيمها بدقةِ جرّاح، قطعَ غصنًا منها بزاوية مائلة صانعًا شفةً رقيقة شدها إلى الخلف قليلًا، ثم أزلق الطرفَ المدبب للعقلة في تلك الفتحة، وضع الوجهَين النيّئين في اتصال مباشر، كيان واحد من فصيلتين. ظل يدندنُ وهو يربط العقلة بالشجرة المضيفة بشرائطَ قماشيةٍ طويلة لفها جيدًا حول الاتحاد الجديد، ثم غطّى طرف العقلة وبراعمها الثلاثة بكيسٍ ورقي، ليقيها الهواء الجاف. بحلول الربيع، صار لدينا نوعٌ جديدٌ من التفاح من عقلة كانت ستذبلُ وتموت، لكنها بدلًا من ذلك صارت فصيلتَين حيتين تتنفسان، فاكهة جديدة يتميزُ بها بستاننا فقط، فاكهة من صُنع أبي.

«كنت أتمنى لو أنه يحمل مواهبه معه إلى البيت، لكن يبدو أنها تجفّ على عتبة الباب؛ ما يجعلُ الأمر بين يديكِ أنتِ فريبا جان»، قال وهو يهز رأسه. أردت معارضته، إبلاغه أن أبي مختلف تمامًا عن كوكوكل، لكنه واصل قائلًا:

«حتـى أخـوكِ وجـدَ طريقـه، مـن دون أن يلتـزم بأحـد، لا أعـرف مَـن المَلـوم، لديـه جسـدُ حصـان وعقـلُ حمـار».

«لكنكَ ظللتَ معي دائمًا». قلتُ وأنا أمسك يده.

«ربمـا كنـتُ أقسـو علـى أبيـكِ لأنـه يشـبهني كثيـرًا، لكنـكِ مختلفـة، أنـتِ أكثـر شـبهًا بأمـك رحمهـا اللّه، كانـت تشـعر بالآخريـن، كان أبـوك شـخصًا آخـرَ معها،خسـارة، كانـت سـتصنعَ منـه رجُـلًا».

تخـدّرت قدمـاي، كنـت أجلـس إلـى جانبـه لكننـي لـم أجـرؤ علـى التحـرك، أردت أن أتذكّـر كل كلمـة ممـا يقـول.

«هـذا الـكلام بـلا طائـل، أنـتِ فتـاة ذكيـة، ثقـي بنفسـك لأنـكِ تعرفيـن الأفضـل لـكِ».

«أنـتَ تعـرفُ الأفضـل لـي دائمًـا، بابـا جـان. يمكننـي اللجـوءُ إليـك دومًـا».

«الأفضـل ألا تعتمـدي علـى العجائـز، نحـن قريبـون جـدًا مـن اللّه، فـلا يعتمـدنّ علينـا أحـد». حـذّرنـي بتنهيـدةٍ تعـب.

كان مُرهقًـا لذلـك غيـرتُ الموضـوع وتحدثـتُ معـه عـن شـجيرات الـورود التـي تنمـو خـارجَ بيتـه، أخبرتـه عـن بائـع الدجـاج الـذي طـاردَ دجاجاتـه وهـي تصيـح فـي السـوق حيـن فتـح طفـلٌ مـزلاج القفـص. ابتسـم وأومـأ برأسـه، نعسـتْ عينـاه وغلبـهُ النـوم.

لثمـت يـده ووعدتُـه بالعـودة إليـه فـي الصبـاح لكنـه فـي وقـت مـا بيـن تلـك اللحظـة وشـروق الشـمس، انتقـل إلـى الرفيـق الأعلـى، وأمـي. تسـاءلتُ إن كان المَـلاك الـذي رأيتـه فـي البسـتان هـو مـن أتـى لاصطحابـه، بكيـتُ لأسـبوعَين بعيـدًا عـن أبـي وكوكـوكل وأخواتـي، أردتُ أن أكـون وحـدي حقًـا بقـدر مـا أشـعرُ بالوحـدة، ولـم يتسـنّ ذلـك سـوى فـي ظـلال البسـتان.

بعد مرور أربعين يومًا على وفاة جدي، ذهبتُ إلى البستان، جعلتني وفاته أفكر مجددًا في الملَاك الذي رأيته وأنا صغيرة، مع أنني كنت مقتنعة تقريبًا أنه ليس سوى لهو مخيلتي الجامحة، مع ذلك فكرتُ في أن أسأله -إن رأيته- عن جدّي وأمي.

كان بستان جارنا خلف صف أشجار التوت يفصله عن بستاننا جدار طيني مرتفع.

بمرور الوقت وأنا جالسة في ظلال أشجار التوت، بدأت أشعرُ بأنني لستُ وحدي، كان الأمر مختلفًا عن المرة التي رأيت فيها ملاكي الحارس، هذه المرة شعرت بحضور دنيوي، هذه المرة عطَس!.

هببتُ ناهضة، عدتُ إلى وعيي فجأة، أغلقتُ كتابي وسوّيت تنورتي، التفتُ حولي أبحثُ عن مصدر العطسة، لا شيء في مجال رؤيتي، ولا طائر حتى، سرت حول الأشجار فسمعت خشخشةَ أوراق شجر من خلف الجدار الفاصل مباشرة، ثم صوتَ سقوط شيء، ثم ركض قدمَين، كان أحدُهم يراقبني!

في الأيام التالية، ترددتُ في العودة إلى ذاك الركن من البستان، لكنني كنتُ أعرف في أعماق قلبي أن شجرة التوت تلك لطالما جلبتْ لي الخير، لذلك رحتُ أسير بين أغصانِها مجددًا خلال أيام قليلة، سرتُ بهدوء وأنا أرهف السمع. بعد ذلك بأسبوع، تسلقت الجدار ونظرتُ إلى الأشجار المجاورة، فوجئت برؤية ساقَين متدليتَين من فوق فرعٍ سميك.

كان هو، أنا متأكدة، حاولتُ أنٍ أرى بقية جسده لكنني لم أرَ سوى ساقيه، صندله الجلدي يتدلّى بهدوء من قدميه المتأرجحتين.

لا بد أنه ابنُ عائلة الجيران، كان أكبرَ مني بسنوات قليلة لكنني لم أره من قبل، لولا تأخّر دراستي لكنت رأيته في المدرسة، ماذا يفعل فتى، أو شابٌّ، في سنه أعلى فرع شجرة؟

شعرتُ بجرأة قليلًا، فدستُ عمدًا على أغصان صغيرة وركلت حجرًا وأنا في طريقي إلى شجرةِ التوت، حيث مكاني المعتاد في ظلّها الوارف، نظرتُ إلى أعلى خطفًا فلاحظت اختفاء القدمين، كان يختبئ! أخذت كتابي وحدّقت إلى الصفحة، تغبشَت الكلمات أمامي وأنا أسأل نفسي لماذا جئتُ إلى هنا، بعد فترةٍ طويلة من الصمت، نهضت وسرتُ إلى البيت آملة ألا أبدو مرعوبةً كما أشعر.

لا شيء يُعدُّ حماقة إن صدَر من مراهق، المراهَقةُ في حد ذاتها اندفاع من دون سبب، ظللت أذهبُ إلى هناك كل يوم بعد ذلك، أتسللُ بين الأشجار، أتلصصُ على الصندل الجلدي المألوف ثم أجلس في ظل شجرة التوت، صار نظامي اليومي هو المدرسة، ثم عمل البيت، ثم البستان. اعتدتُ أن أستذكر دروسي في البيت حتى وقتٍ متأخر من الليل إذ لم أكن أركّز جيدًا في البستان. بعد أسبوعين من الصمت، قررتُ أن أُعرّف الغريب بعلمي بوجوده، كان الركودُ يصيبني بالجنون.

استجمعتُ شجاعتي في أثناء عودتي من المدرسة إلى البيت، حين تسللتُ إلى البستان تلك الظهيرة، كنت أشعرُ بجرأةٍ شديدة لم أعهدها فيّ، سرتُ بخطوات واثقة أقتربُ من الجدار، اتخذتُ موقعًا على مرمى السمع بالتأكيد، وقلت بصوتٍ عال، وإنما ليس عاليًا جدًا «ليسَ من الأدب أن تحدّق، سيكون من اللائق لو ألقيتَ السلام».

لـم أسـمع ردًا، ولا كلمـة واحـدة! هـل تخيلـتُ الأمـر كلـه أم أنـه ليس هنـا اليوم؟ الأسـوأ أن يظنّنـي وقحـة لتحدّثـي هكذا مـع شـخص غريـب، كنـت أقضـي أغلـب أوقاتـي إمـا فـي فصل مملـوء بالفتيـات أو فـي بيتٍ كذلـك أيضًـا. الفتيـان الوحيـدون الذيـن أعرفهـم مـن سـنّي هـم أبنـاء عمومتـي، والتعاملُ مـع أي فتـى غريـب مُحـرّم أعـرف هـذا، كنـت فـي سـنٍّ يجـب علـيَّ فيهـا الانتبـاه جيـدًا لسـلوكي، لكنـه البسـتان، كنـت فيـه لا مرئيـة، فسـمحتُ لنفسـي ببعـض الحريـة.

أحبطنـي تجاهلـه لتجـاوزي الحـدّ للتعاملِ معـه وأغضبنـي كذلـك، فركضـتُ مبتعـدة.

عـدتُ فـي اليـوم التالـي، يغلبُنـي الفضـول، جلسـتُ بثقـة تحـت الشـجرةِ دقائـق قليلـة ثـم سـمعتُ صوتًـا.

«سـلام».

اعتـدلَ ظهـري واحمـرّ وجهـي لأننـي أنـا مـن تجـاوزت الحـد بالطبـع، شـعرتُ فجـأة بالعـار والذعـر، نهضـت، تمتمـت بـردّ التحيـة دون أن أرفـع بصـري وعـدتُ إلـى البيـت بخطـواتٍ متعثـرة.

كانـت تلـك الأيـام مُربكـة. لأسـبوعين ظلّـت كوكـوكل تلمِّـح بمـرحٍ إلـى رغبـة عائلـة ميسـورة الحـال فـي زيارتنـا، لديهـم ابنٌ شـاب وسـيم، فـي الغالـب سـيكونُ ناجحًـا مثـل أبيـه. قابـل أبـي أبـاه، أغـا فـروز، فـي شـؤونٍ رسـمية مـا، هنـا وهنـاك. يـرى أغـا فـروز الآن إمكانيـة الاتحـاد مـع أبـي، الـذي ورث عـن بابـا جـان نفـوذه فـي مجتمعنـا، جـاء الطمـوح فـي الازدهـار والنفـوذ المحلـي بزوجـة أغـا فـروز عنـد بابنـا.

شـعرتُ بالقلـق. كأيّ فتـاةٍ أخـرى، كنـت أحلـم بمـن سـيتقدمون للـزواج بـي، بـأن ترفـضَ عائلتـي عـددًا مـن العائـلات الملحّـة قبـل أن

نوافق على العائلة التي تناسبنا. كان أمرُ الخطبة مُغريًا، شعور الفتاة بأنها مرغوب فيها من عائلة بأكملها، فضلًا عن الاحتفالات والهدايا المصاحبة لها.

مع ذلك شعرت أن شيئًا ما في الأمر ليس صحيحًا، كان لتلك الخطبة ملامح صفقة تجارية، جاءت إليَّ كوكوكل ظهيرة أحد أيام الجمعة فيما كان أبي في المسجد لأداء الصلاة. كانت ترتدي ثوبًا مكويًا وأفضل شادوري لديها، من الشيفون البنفسجي ومؤطر بشريط أغمق درجة. كانت تدندن بمرح وهي تدخلُ المطبخ حيث كنت أعد شطيرةً من الخبز والمكسرات.

«ستزورنا اليوم زوجةُ أغا فروز وابنتها، لماذا لا تذهبين لتصفيف شعركِ وارتداء شيءٍ أنيق، ثوبك الأرجواني ربما؟ حين تأتيانِ يمكنك تقديم الشاي والبسكوت المملح، لا حلوى من فضلك! أنا لا أعرف سببَ هذه الزيارة بالتحديد، ونحن لا نريد إحراج أنفسنا».

تُقدمُ الحلوى إلى عائلة المتقدّم للزواج كعلامة الرضا، إشارة بقبول طلب يد الفتاة للزواج، لذلك ليس من اللائق تقديمُ اللوز الحلو أو الشوكولاته إلى الضيوف في أول زيارة.

«إن ناديتكِ لتأتي بالشاي فهذا يعني أن تأتي به إلى الغرفة وتقدّميه للضيوف. وهذا كل ما ستفعلينه، هذه الزيارة ليست لرؤيتكِ والتدقيق فيكِ. بل لرؤيتكِ بشكلٍ موجز فقط. ستضعين الأكواب وتقدمين البسكوتَ ثم تستأذنين بأدبٍ وتعودين إلى المطبخ. لكن، إن ناديتك لتأتي بالبسكوت دعي واحدة من أخواتك تأتي بالصينية، لا تدخلي أنتِ».

كانت لعبة استراتيجية وكوكوكل لا ترغب في عرض أوراقها قبل أن تعرفَ ما يحمله الطرف الآخر.

فسَدت شهيتي، ذهبت لأعدّ نفسي كما ينبغي، بحثت في دولابي، أحاول إيجاد طريقةٍ للهرب من تلك الزيارة المدبّرة ولا أعرف سببًا لنفوري مما تتمناه أي فتاة، أردتُ أن أختفي في البستان.

سمعنا طرقًا على الباب فركضتْ نجيبة إلى الخارج لتجيب وترحب بالزائرتين، قادتهما عبر فنائنا وحديقتنا المتواضعتين. كانت كوكوكل في استقبالهما عند باب البيت بترحاب. راقبتُ من نافذة الطابق الأعلى المرأتَين وكل منهما تخلع طرحتها المطرزة وتعلقها على ذراعها، بشكل متزامن تقريبًا. تبادلتْ كوكوكل والمرأتان قبلات الوجنتَين والمجاملات المعتادة قبل أن تقودهما إلى الصالون. سرتُ على أطراف أصابعي في الطابق الأعلى لأسمعَ ما يقلْنه.

زوجة أغا فروز امرأةٌ قصيرة وممتلئة بشَعر أشيب وثؤلولٍ داكن أعلى حاجبها الأيسر، برزتْ شفتها السفلى بروزًا يوحي بعدم الاستحسان رغمًا عنها، جالت بعينيها في بيتنا تتفحّصه وتقارنه ببيتها، قادتهُما كوكوكل إلى الأريكة المنحوتة باليد التي أهداها بابا جان إلى والديَّ بمناسبة زفافهما.

كان للابنة سلوكُ أمها نفسه لكنها مختلفة تمامًا جسمانيًا، أطول منها بستّ بوصاتٍ، وبنصف عرضها، حاجبانِ ثقيلان محددان يتقوسان أعلى عينين مكحّلتين، وطلاء شفاهٍ بلون فوشيا فاقع يناسب ثوبها تمامًا. بدتْ لي جميلة تقريبًا حتى رأيتها تبتسمُ

بـأدب لكوكـوكل، فرأيـت أسـنانها - حتـى مـن موقعـي علـى مسـافة، بـدت لـي خشـنة وقبيحـة. انقلبـت معدتـي حيـن رأيتُ ابتسـامتها، لـم أعـرفْ حينهـا سـببَ رد فعلـي المِعَـويّ هـذا.

أعـرف كوكـوكل جيـدًا لأتخيلهـا وهـي تـزنُ ابنـة أغـا فـروز وتقـارن بينـي وبينهـا، تحركـت عيناهـا سـريعًا، كعينـي زوجـة أغـا فـروز، وهـي تحسـب مـاذا سـتقولان حيـن تريانني، لـم أكـن باهـرةً لكننـي ورثـت عـن أمـي بشـرتها الفاتحـة الناعمـة وشـعرها الداكـن. عرفـتُ أن كوكـوكل كانـت بالفعـل تحسـبُ الدخـل الإضافـي الـذي سـيعود علينـا مـن الاتحـاد بيـن أغـا فـروز وبـادر جـان. إن سـاعد أبـي أغـا فـروز فـي توسـيع تجـارة الأقمشـة خاصتـه ومدّهـا إلـى مناطـق جديـدة، سـيجني الاثنـان أرباحًـا كثيـرة بالتأكيـد.

«فريبـا جـان، مـن فضلـك قدّمـي الشـاي للضيـوف! لا بـد أنكمـا ظمآنتـان بعـد الخـروج فـي هـذا الطقـس، لقـد ظـل الجـو دافئًـا جـدًا خـلال الأيـام القليلـة الماضيـة، أليـس كذلـك؟» قالـت كوكـوكل بوقـار شـديد.

نزلـتُ علـى السـلّم ذي الصريـر وذهبـت إلـى المطبـخ، رتبـت طقـم الشـاي الصينـي الخـاص بكوكـوكل علـى صينيـةٍ فضيـة وحملتهـا إليهـن فـي الصالـون. احمـرّ وجهـي حيـن شـعرتُ بأعينهـن علـيَّ، ثبّتُّ نظـري علـى الصينيـة، أمسـكتُ مقبضَيهـا بقـوة حتـى أبيضّـت مفاصـل أصابعـي.

«سـلام» قلـت بهـدوء وأنـا أضـع الفنجانَ أمـام زوجـة أغـا فـروز.

«وعليكـم عزيزتـي»، ردت تحيّتـي بابتسـامةٍ واسـعة، شـددتُ طرحتـي علـى وجنتـيّ، لأواري حمـرة وجهـي. بذلـت جهـدًا لئـلا

أرتعش، وضعتُ الفنجان الثاني أمام ابنتها ثم قدمت طبق البسكوت، ابتسمَت الابنة وهي تلتقط قطعتيّ بسكوت من الطبق. من هذه المسافة القريبة، أرسلتِ ابتسامتها الثانية بقشَعْريرةٍ في جسدي كله لكنني هذه المرة عرفتُ لماذا.

كانت الابتسامةُ نفسها ذات السن المفقودة التي كانت للفتى السافل في السوق.

كانت الصينية ستهتز في يدي بلا شك لو لم أكن قد وضعتها أمامهما إذ بدأت يداي ترتعشانِ بالفعل. أبقيتُ رأسي مطرقًا وخرجتُ مسرعة من الصالون، سمعتُ زوجة أغا فروز تقترحُ على كوكوكل بعفوية أن أنضم إليهن في شرب الشاي، صرفتْ كوكوكل الاقتراحَ وبدأت تشيد بأخلاقي. كانت نجيبة في المطبخ تشربُ كوب ماء، هادئة كعهدها دائمًا، لا تدري شيئًا عمّا يجري حولها.

«نجيبة، أيمكنك البقاء هنا في حال أرادت مادر جان شيئًا؟ انتظري دقائق قليلة ثم أعيدي ملء فناجينِ الشاي من فضلك، رأسي يدور وأريد أن أرتاح قليلًا».

نظرتْ إليّ وهي تبلل شفتيها.. «حسنًا، فيري»، أجابتني ببرود.

قبّلتُ خدّها وخرجتُ من الباب الخلفي للمطبخ، صعدتُ إلى الطابق الأعلى دون أن أحدث صوتًا ما أمكنني.

استندتُ إلى الجدار في الطابق العلوي، خفق قلبي وأنا أدعو الله أن تغادر بعثة أغا فروز سريعًا.

فريبا

6

فقدتِ الخطوبة وهداياها كلَّ جاذبيتها بصدمة حقيقة أنني سأتزوج. لم أستطع تخيّل نفسي فردًا من عائلة أغا فروز، كيف أخبر بادر جان بشعوري هذا؟ كانت كوكوكل معجبةً بالعائلة أكثر من أبي نفسه، عرفتُ من تلميحاتها أن بادر جان يدرسُ صفقات العمل مع أغا فروز! لم أستطع البوح بقلقي لأخواتي أو لشقيقي، كان لديَّ الكثير مما أريد البوح به، ولا أحد لأتحدث معه.

توقعتْ كوكوكل بحماسة زيارةً ثانية من زوجة أغا فروز. الخطوبةُ اللائقة بمثابة رقصة غزل بطيئة ومدروسة بين العائلتين. استعدّتْ كوكوكل جيدًا لتلك الزيارة، فرصتها لتصنّع الدهشة والتردد. تساهلتْ معي خصوصًا في الأسابيع التالية اللاحقة. أعفتني من الكثير من مهامي المنزلية. ما أشعرني بالقلق أكثر من السعادة.

«فريبا جان، لا يهمُّ الغسيل اليوم، الصابونُ سيؤثر في نعومة يديك، دعي أختك تساعدك» صاحت. تركتُ الملابس المغسولة وفتحتُ راحتيَّ إلى الأعلى، جعلت سنواتٌ من غسيل الملابس وحك الأرز الجاف من قاع الأواني المحروقة أصابعي عُقدية بالفعل، جففت يديّ. البستان يناديني.

فيما أقتربُ من شجرة التوت، توقفت القدمان في صندلِهما عن التأرجح فجأة. بذلتُ ما في وسعي لألمحَ وجهه لكنه كان مختبئًا كالعادة خلف أوراق الشجر. بإمكانه رؤيتي من موقعه، ما لم يكن عدلًا قط، لكنني لم أجرؤ على الاعتراض، كان عليَّ التزام الأدب.

«سلام»، استقبلني بتحية حذرة.

«سلام» رددتُ التحية؟ تنفستُ تنفُّسًا أسهل في الصمت الذي تلى، كنتُ أشعر براحة أكبر مع ذاك المجهول، في حماية جدار البستان. انتظرتُ حتى يفكّر جاري مليًا في كلماته التالية، اليوم، يوجد بيننا توتّر هادئ.

«لم تحضري كتابًا اليوم؟».

«ما عدتُ أرغب في القراءة مؤخرًا»، اعترفت.

«هل يقلقك شيء ما؟»

إلى أيّ مدى يمكنني البوح؟ كنتُ وحيدة، لا أحد في عائلتي يعرف كيف أشعر، لا أحد يعرفُ لماذا، شعرتُ بغصةٍ في حلقيَّ لم أستطع صرفها ولا بلعها.

«أنا آتي إلى البستان حين يوجد شيء ما أرغب في نسيانه، أو التفكير فيه... شيء خاص». خفَتَ صوته في نهاية الجملة. حملقت في العشب، لم أرد رؤية وجهه أو أيّ جزء آخر منه، في تلك اللحظةِ كان صوته بارتفاعه وانخفاضه هو كل ما أحتاج إليه.

«أبي يحبُّ البستان بشدة لدرجة أنه يصلي الفجر هنا، يؤمن بأن صلواتهِ تغذي الأشجار لكنّ في الغالب العكس هو الصحيح، إنه يبوحُ بما في قلبه لتلك الأشجار، لفروعها وجذورها، وفي

المقابل تُحلّي الأشجارُ فمه بفاكهتها، في فترات الظهيرة يكون البستان لي وحدي، أخواتي يخفنَ من المجيء إلى هنا».

«بعضُ الناس يخافون مما لا يمكن رؤيته».

«لقد رأيتُ بالفعل. ولا شيء يخيف هنا، إن ما وراء هذا البستان هو ما يخيفني»، مرةً أخرى، صمت.

«كنتِ تقرئين إبراهيم خليل آخر مرة».

فوجئتُ! كنت كذلك بالفعل، تحسنت قراءاتي تحسُّنًا مهولًا وصرتُ أدرس الآن نصوص شعراء أفغان معاصرين.

«نعم، حقيقي».

«لماذا؟»

لماذا؟ سؤال لن أستطيع الإجابة عنه بفصاحة. توجد قوةٌ ما في وضوح وإيجاز الشعر. الإعجاز في تكثيفِ أعمق الأفكار في سطور قليلة، وغليِها معًا وصبّها في قالبٍ موزون وساحر. كنت أحب تفكيكَ تلك القوالب إلى قطَعٍ متفرقة، كفضِّ غلافِ هديةٍ مقدمةٍ إلي وحدي وفك شيفرة السطور.

«إنه كالبوصلة»، أوضحتُ، أخيرًا. «تمر بي أيام أنامُ فيها وأستيقظ وأنا أفكر في مشكلة، أظل أفكّر طوال الوقت بلا جدوى، لكنني أكثر من مرة، كنت أقرأ كلماته ثم... لا أعرف كيف أقول هذا، يبدو كأنه يكتبُ إجاباتٍ عن أسئلة لم أطرحْها عليه».

«ممم».

أيظنني سخيفة؟

«هكذا أرى الأمر»، أضفتُ، وشعرتُ بوجهي يحمرّ.

«هل أخبركِ بواحدة من قصائدي المفضلة؟»

أومـأتُ.. تنحنـح وبـدأ يتلـو القصيـدة، ميّزتُهـا وتذكـرت أننـي وضعـتُ عندهـا علامـة وتحتهـا خطًـا مـن قبـل:

«في طريقك إلى محرابِ هدفكَ الأسمَى
ستقفُ مئاتُ الجبالِ
اعتلِ كلَّ واحدٍ منها بهمةٍ وعزيمة
واجعلْ طموحكَ في متناول يدك».

«نعم».. فكّرت، ساد هـدوء. فصلت الكلماتُ البسيطة المسافةَ بيننـا وجعلتها بـلا معنـى، شـعرتُ مـن القصيـدة التـي أختارهـا بأنـه يعـرف أفـكاري التـي لا أجـرؤ علـى البـوح بهـا، كأنـه وضـع ذراعَـه حولـي برقّـة، كانـت تلـك أولـى تجاربـي الحميميـة، مثيـرةً ومخيفـة فـي آن.

«هـذه قصيـدة جميلـة»، قلتُ أخيـرًا، «شـكرًا لـك». تمنيتُ لـه يومًـا طيبًـا وعـدت إلـى البيـت ببطء، مـا زالـت الغصـة فـي حلقـي ولا أريـد البكاءَ أمامه، بحت اليوم بمـا يكفـي.

دخلـتُ البيـت، مـررتُ بكوكـوكل فـي طريقـي إلـى الأعلـى، كانـت تخيـط طـرف تنورةٍ وبالـكاد رفعـت بصرهـا لتقـول:

«اسـقطي واكسـري قدمـكِ لتـرَي مـن سـيحملكِ، تصرّفـي بمـا يليـق بسـنّك!»

بعـد ذلـك بأيـام قليلـة، تلقـت كوكوكل الزيـارةَ التـي كانـت تنتظرُهـا، أعلنـت عائلـة أغـا فـروز نيّتهـا رسـميًا وبوضـوح. سُـرّتْ كوكوكل، كأنهـا هـي العـروس ولسـتُ أنـا.

«كنت أعرفُ، كنت أعرف أنهما ستنظران إلى وجه ابنتي مرة واحدة لترَيا أجملَ عروس قد تحظى بها أم لولدها! هذه المرأة محظوظة لتأخذك كِنّةً وهم يعرفون هذا الآن، أنت أجمل كثيرًا من أيٍّ واحدة في عائلتهم، ولعائلتنا سمعة طيبة، يتمتعُ أبوك بالاحترام الذي كان يتمتع به جدك، رحمة الله عليه، سيكون على أغا فروز أن يثبتَ *لنا أنهم* جديرون بابنتنا، ولن نجعل الأمرَ سهلًا... لا، لا، لا. سأجعلُ تلك المرأة تأتي إلينا مراتٍ عدة، إلى حدّ أنها لن تستطيع الرقصَ في حفل زفافك من آلام قدميها، ولن تهمني أموالهم».

أعرفُ أن هذا ليس حقيقيًا، لأنها في الأيام التي تلت الزيارة الأولى حسبتْ بدقة ثمنَ أقمشة ثوبيهما، بإضافة كلفةِ الخياطة والتصميم، وعلّقتْ حينها أن أمهرَ خياطة في كابول فقط من يمكنها صنع ثوبٍ يجعل تلك القامة البدينة تبدو أنثى.

ارتحتُ حين سمعتُ خطةَ كوكوكل ليوم عودتِهما، أرادتني كما أردتُ أنا نفسي، أن أكون بعيدة تمامًا عن رؤيتهما في زيارتهما الثانية.

«ستقدم أخواتك الشاي والبسكوت، لقد شاهدتاكِ في المرة الفائتة، لنشوّقهما قليلًا».

«مادر جان، عادة يكونُ للفتاة خاطبون كُثر، أليس كذلك؟ لقد قلتِ ذات مرةٍ أن عريسًا واحدًا يجذب الثاني والثالث. سيبدو هذا أفضل لنا، أليس كذلك؟ ربما ينبغي لكِ رفض تلك العائلة».

لم ترحب كوكوكل بمنطقي.

«عريس ثانٍ وثالث؟ انظروا مَن التي تثقُ بنفسها بشدة! ابن أغا فروز ليس جيدًا؟! فتى متعلمٌ من عائلة ثريةٍ ومحترمة كهذه ليس جيدًا؟! اسمعي، يا فتاة، أن تطرقَ عائلة بابنا لا يعني أن الجميعَ سيفعلون! كابول ملأى بالفتيات».

تغير سلوكها تمامًا.

«فكّرتُ فقط في أن...»

«يجب أن تحمدي الله أن أحدَهم جاء ليطرق البابَ من الأساس! الفتاة التي تربّتْ بلا أم ليست زوجة ترحّبُ بها العائلات كثيرًا».

«بلا أم..!» لم تجلدْني كلماتها بهذه القسوة من قبل. لقد عشتُ حياتي ربيبة كوكوكل حقًا. كنت أعرف مع كل نفَس أتنفسه أنني لستُ مثل نجيبة أو الأخريات، أنني ضمن التِّركة التي ورثتها، غريبة في بيت أبي. ضحكتُ على نكاتها، تعلّمتُ إعداد الأطباق التي تحبها، دلّكتُ لها ظهرها حين آلمها، قضيتُ حياتي أدعوها مادر جان.. أردت أن أستردّ كل هذا منها. كان قلبها مساحة ثابتة، حاوية ذات أبعاد محدودة يشغلُ أبي وأخواتي كل بوصة منها، نظرت إليها وحدّقت إليها، مرةً أخرى وبدهشة أكبر حتى، كنت بلا أم.

قالت: «هذه أفكارٌ سخيفة، دعي هذا الشأن لي أنا لأتدبّره، أنت أصغر من أن تعرفي مصلحتك».

راقبتُ خاتمها اللازوردي ينقرُ فنجانها بحدة. كانت امرأة نارية، انفعالاتها قويةٌ تجاه كل شيء. لكنها في كل عناق، أو محادثة، أو نظرة إلي، كانت فاترة. تخيلتُ البيت دوني.. تضحَك أخواتي في الأروقة، شقيقي إلى جانب أبي وكوكوكل، بيديها في خاصرتها تترأس الجميع بفخر.

لماذا ماتت أمي؟

لم يحدثْ شيءٌ استثنائي في تلك الظهيرة. كانت كلمات قليلة لا تختلف كثيرًا عن أي محادثةٍ يومية بيني وبينها، لكنها كانت لحظة خاصة، كارثية، حين نظرت إلى المرأة الجالسة أمامي بعينَين زال عنهما الوهم.

«ستعودان قريبًا بأسرع مما توقعت»، قالت كوكوكل، تفكّر بصوتٍ عال. «لكنني سأجدُ طريقة للتسويف».

راحت تغذي توقعاتها.

ورأيتُ أنا مئاتِ الجبال في طريقي.

فريبا

7

عائلةُ أغا فروز تريدُني، يجِبُ أن أشعر بالفخر.

لكنني بدلًا من ذلك، تمنيت لو كنت فعلتُ شيئًا ما في أثناء زيارتهما الأولى ليصرفا النظر عنّي.

لكن الأم عادت بصحبةِ ابنها هذه المرة، ظللتُ مختبئة إذ كنت ممنوعة من الظهور. تسللتُ إلى أسفل مرةً واحدة فقط لألقي نظرةً سريعة فتأكدت من شكوكي. كان هو فتى السوق جالسًا بجوار أمه مهندمًا كأميرا تسللتُ مبتعدةً دون أن يلاحظني أحد.

جلستُ على فراشي محبطة، أستندُ برأسي إلى الحائط، سمعت كوكوكل تتحدثُ بنبرتها المنغّمة التي تستخدمها لإلقاء حكاياتها الفكاهية. كانت بارعةً في سرْد القصص، تشوّق مستمعيها بإيقاع كلماتها، تلتمع عيناها حين تجذبُ الانتباه، كانت تنزعُ أسلحتهم بهذه الطريقة، تقلدُ الأصوات وتعبيراتِ الوجوه بطريقة تُضاعف ضحكهم.

كان الناسُ يحبونها، وكنت أحبها.

منذ وفاة جدي، صار أبي أكثرَ انعزالًا، ذات مرةٍ كنت أضع طبقًا من الخوخ المجفف والمكسراتِ بجواره وهو يقرأ، فرفع بصره عن جريدته مذهولًا، عرفتُ من غمغمتِه الهادئة وهزةِ رأسه أنه لم يرَني أنا حين رفع بصره، ما زال مثلي حزينًا على

أمي، لم يكن يذكرُها بكلمة لكن عينيه الحزينتينِ لم تخفيا شيئًا. ما عاد يُعنَى بسؤالي عن دراستي، ما عدنا نتبادلُ سوى كلماتٍ قليلةٍ طوال اليوم، أردتُ أن أطلب منه رفضَ هذا العريس.

سينظرُ إلى الأمر بطريقةِ كوكوكل، كعادته دائمًا، ليس لأنها حريصة على مصالحه المادية، بل لحفظِ السلام في البيت، تسيرُ حياته على نحوٍ أسهل حين يوافق كوكوكل.

صرتُ أقضي المزيد من الوقت في البستان. البقاء في بيتٍ مزدحم يُهين شعوري بالعزلة. كانت كوكوكل مرحة بشكل خاص، تقضي الصباحات في محلّ الأقمشة وفترات الظهيرة مع الخياطات. احتفل دولابها بشرائط تأطيرٍ جديدة، وطرحةٍ رقيقةٍ ووشاحٍ صوفيّ أبيضَ مطرزٍ بخيوطٍ ذهبية وزمردية رائعة.

استمرت عملية الخطبة، أعلنت المرأتانِ صراحةً الآن أنهما تبحثَانَ عن زوجةٍ لابن أغا فروز. لا تريدان الانتظار طويلًا، إنه شاب متعلم وسيرثُ تجارةَ أبيه، لم يسُرّ استعجالهما كوكوكل، لم تكد الرقصةُ تبدأ بالنسبة إليها.

«فريبا جان فتاةٌ مجتهدة جدًا، أنتِ تعرفين، عرض عليَّ زوجي كثيرًا أن يأتي بخادماتٍ للمساعدة في عمل البيت لكنني، وفريبا، يمكننا تدبّر كل شيء معًا، وأنا لا أحبُّ وجود الغرباء في بيتي، لذلك رفضت».

هززتُ رأسي، كان من الصعب تمييزُ الصدق من الكذب في كلامها، ظني أنها هي نفسها لا تميّز بينهما.

«أحسنتِ أن ربيتِ ابنتكِ على العمل الشاق، أنا لم أطلبْ من بناتي فعل أي شيء في البيت، كنت أخشى أن يؤولَ بهن الأمر

إلـى الخدمـة فـي بيـوت الآخريـن، لكـن أن أحظـى بعـروس يمكنهـا إدارة شـؤون البيـت، سـيكون هـذا تغييـرًا مرحّبًـا بـه!»

«نعم، بالفعل، بناتي الأخريات لا يقمْن بشيء للسبب نفسه».

واصلـت كوكـوكل رقصتَهـا، يتحـركُ إصبعهـا بخاتمـه الـلازوردي فـي الهـواء وهـي ترسـم الحـركات وتبـادلَ الأدوار.

«فيـري، هـل ستتزوجينَ حقًـا؟» سـألتني سـلطانة الفضوليـة وأنـا أذاكـرُ مـادة الأدب.

تجاهلـتُ فضـولَ أخواتـي الصغيـرات، كنـت أتحـدثُ وآكل وأنـام بقـدر ضئيـل جـدًا. الدراسـة أفضـل مـا لـدي. حيـن يسـمح الوقـت كنـت أذهـب إلـى البسـتان لأحـزنَ وحـدي.

كانـت كوكـوكل تجمـعُ مسـتلزماتي «الشـيرنيه» بهـدوء، صينيـة حلوى رمزيـة تُقـدّم إلـى عائلـة العريس كعلامـةِ قبولٍ رسـمية. وجدت فـي أدراج ملابـس كوكـول صينيـةُ تقديـم مطليـة بالفضـة، وقمـاش تـول ذهبـي، وعلبـة حلـوى مـن متجـر حلـوى فـي كابـول. رغـم رقصـة المراوغـة مـع زوجـةِ أغـا فـروز، كانـت تتلهـف علـى اللحظـة التـي تلبسـني فيهـا ثوبًـا ذا شـرائطَ وترسـلني إلـى بيـتٍ جديـد. حملقـتُ إلـى الأشـياء التـي اشـترتها، وضعـتُ قمصانهـا الداخليـة المغسـولة فـي الـدرج وأنـا أمنـع نفسـي بصعوبـة مـن تمزيـق قمـاش التـول مزقًـا صغيـرة، وسـحق الحلـوى حتـى لا يتبقّـى منهـا سـوى كومـة فتـات فـي أغلفتهـا الذهبيـة.

«لمـاذا أنتِ حزينـة؟»

كنـتُ شـاردة فـي أفـكاري، فلـم أسـمع خشْخشـة أوراق الشـجر تحـت قدمَـي جـاري وهـو يقتـرب. مـا دام الجـدار يُخفـي وجهـي

الواجم، لا أمانع صحبةَ المجهول، لمستُ الجدار، مرت أصابعي على خشونته، سقطتْ قطعة طين، فركتُ بقوة أكثر قليلًا فسقط المزيد من التراب على الأرض، استدرتُ واستندتُ بظهري إلى الجدار، تلطختْ أطراف أصابعي بالتربة البنية.

«توجد عائلة... لديها ابن»، حاولتُ صياغة الكلمات بطرائق مختلفة لكن الحقيقة انحشرت في حلقي.

«عريسك؟»

مع أنه لا يراني، لكنني أومأتُ برأسي.

«أنت تعرف؟»

« أمي وأخواتي تحدثْن عن هذا، لقد رأين العائلة تأتي لزيارتكم وذكرتْ كوكوكل شيئًا ما عن الأمر حين زارتنا هذا الأسبوع».

«ذهبت لزيارتكم؟» لم أهتم البتة بالأماكن التي ذهبت إليها كوكوكل خلال الأسبوعَين الماضيين.

«نعم». قال الصوت بهدوء..

«لا يمكنني القول إنني أحبُّ ذلك الفتى»

سألته بعد أن أكد لي حكمي: «أنت تعرفه؟»

«ليس عن قرب، من هنا وهناك ومن بعيد، لكننا كنّا في المدرسة العليا معًا».

«وحتى من بعيد تظلّ على رأيك فيه؟»

«توجد أشياء لا تتضحُ إلا من بعيد، لا أعرفُ إن كان عليَّ قول المزيد».

«أيًا كان الأمر، يجب أن تقوله، لا أحد آخر يقول لي أي شيء يستحق السمع».

أخبَرني بمدى سوء الفتى، ومضايقتِه الفتيات، وتعاركِه مع زملائه في الفصل، وبلادتِه في الدراسة. تدور الأقاويل عنه، أشياء رفض صديقي في البستان الكشفَ عنها. يتمنى والداه، منذ أن أنهى المدرسة العليا، أن يقوّم الزواجُ سلوكه الذي لم تقوّمه سنّه.

ضممتُ ركبتيّ إليَّ وفلتت مني أنّة قهر.

«آسف، لم أقصد إخافتك، ظننتُ أنكِ يجب أن تعرفي فقط، عائلتك يجب أن تعرف».

كيف أخبرُ عائلتي بذلك؟ الأمر ليس ببساطة أن أنقل ما سمعته من شاب غريب قابلته في البستان.

«لا أعرف ماذا أفعل»، همستُ. «أمي ترى أن العائلة مناسبة لنا، وأبي... حتى حين يكون في الغرفة، فهو ليس موجودًا، يريحه أن يتركَ الأمر كله لأمي، حاولتُ إخبارها بأنني لا أريد الزواج الآن لكنها لا تهتم بما أريده، لن تصدقَ أي شيء قد أخبرها به عن الفتى، ستطلبُ مني ألا أستمع للشائعات فحسب».

«فهمتُ».

كان سلوكي هذا شائنًا، لقد بحتُ بأفكاري الخاصة وشؤون عائلتي لابنِ الجيران، لصوتٍ بلا وجه خلف جدار، أين أخلاقي؟ وكيف لي أن أثق به في كتمان هذه المحادثة؟ ارتبكتُ فجأة.

«اعذرني، أرجوك، يجب ألا أقولَ أي شيء، لا أعرف لماذا أزعجكَ بهذا، أرجو أن تنسى كل هذا»، قلتُ وأنا أفردُ ظهري وأحاول نفضَ الانفعال عن صوتي.

«أنتِ حزينة، لا تظنّي أنك أسأتِ الأدب...»

«لكن هـذا مـا حـدث، أرجـو ألا تذكـر أيًـا مـن هـذا لآخريـن، لـم أتوقـع أن... أن أكـون...»

«أعـدكِ بشـرفي، لـن أقـول أي شـيء لأي أحـد، لكننـي سـأخبركِ بشـيء أيضًـا، أنـا منزعـجٌ مـن هـذه الأخبـار بقـدر مـا أنـتِ منزعجـة».

حبـس البسـتانُ أنفاسـه، علقـتْ كلماتـه فـي الهـواء أعلـى الجـدار الفاصـل بيننـا، ظلـتْ فـي الأعلـى هنـاك بعيـدًا عـن متنـاول يـده فـلا يمكنـه سـحبها، وعـن متنـاول يـدي فـلا يمكننـي أخذهـا، تمنيـت ألا تحلّـق بعيـدًا.

«لماذا تزعجكَ هذه الأخبار؟»

لم يُجب، كررت سؤالي وظلّ الصمت إجابتي.

«أما زلتَ هناك؟»

«أنا هنا».

«لم تُجبْني».

«لا، لم أجبكِ».

ازدادت كثافـةُ الهـواء بتـردده، انتظـرتُ، لا أريـد كسـرَ الصمـت بافتراضاتـي الخاصـة، أردتُ كلماتـه فقـط، عرفـت، فـي ومضـة أمانـة ذاتيـة، لمـاذا ظللـتُ أعـود إلـى هنـا يومًـا بعـد يـوم، لمسـتُ الجـدار، ارتعشـت يـداي.

«سأعودُ إلى البيت، طاب يومكَ».

«فريبا جان».

أيعـرفُ اسـمي؟ تجمـدتُ فـي مكانـي، سـرت فـي جسـدي قشـعريرةُ ترقّـب.

«اليـوم، أنـتِ تعرفيـن أن أخبـار زواجـكِ تزعجنـي، تعالـي غـدًا لنفكّـر معًـا فـي كيفيـة تغييـر الأمـور، إن اللّه رحيـم». سـمعتُ صـوت خطواتـه وهـو يبتعـد، تخيّلـتُ انحنـاء العشـبِ تحـتَ صندلـهِ الجلـدي. حملقـت فـي الجـدار الفاصـلِ بيننـا، حاجـز يُبقينـا منفصلَيـن لكنـه لـولا وجـوده لمـا التقيـت بـه، لـولا وجـوده لكنـتُ قـد ركضـتُ خجـلًا منـذ وقـتٍ طويـل، كان الجـدارُ حِجابـي.

عـاد أبـي ذلـك المسـاء ورآنـي فـي المطبـخ، كنـت أقشّـر الجـزر الأحمـرَ الـذي حصـده مـن حديقتـه، نهضـتُ وحييتُـه، قبّلـت خـده. أومـأ برأسـه بهـدوء، بـدا حائـرًا كأنـه يريـد قـول الكثيـر لكنـه لا يسـتطيع.

«أين كوكوكل؟ هل تستريح؟»

«بل ذهبتْ إلـى السـوق مـع نجيبـة وسـلطانة، سـيَعُدْنَ قريبًـا علـى مـا أظـن».

لم يكد يبتعدُ عن المطبخ خطوتَين حين تردد واستدار سائلًا:

«وأنتِ، كيف حالكِ؟» بدا مهتمًا حقًا.

«أنا، بادر جان؟ أنا بخير».

«حقًا؟»

«نعـم»، قلـتُ متـرددة. عرفـت مـن نبـرةِ صوتـهِ أنـه يسـألُ عـن المزيـد، عرفـت أنـه يحبّنـي بقـدر مـا يحبُّ إخوتي، ربما كان سـيحبّني أكثـر لـو لـم أسـلبْه أمـي.

«أتعرفيـن؟ أنـتِ مسـاعدةٌ عظيمـة لجميـع مَـن فـي هـذا البيـت، ظللـتِ دائمًـا تعمليـن بكـدّ».

أطرقتُ رأسي احترامًا.

«ليحفظكِ الله ويمدّ في عمركِ يا بُنيتي».

«وأنتَ أيضًا بادر جان».

«تزدادينَ شبهًا بها كلَّ يوم.. كلَّ يوم».. مثل الكلماتِ التي تركتُها عالقةً في البستان، علِقتْ تلك أيضًا في الهواء، كانت الكلماتُ المسكوتُ عنها في كل محادثةٍ لي معه، المفهومةُ ضمنًا كلما نظرَ إلى وجهي بحزن، من كلماتِ الحب التي قد تصرخُ كوكوكل لسماعها.

لو لم أكنْ أعرف جيدًا لظننتُ أنه من الصعبِ الحزن على شخصٍ غريب، لم أكنْ لأتخيل قط أن هذا ما سوف أفعله طوال حياتي.

كم تمنيتُ أن أسحبَ كرسيًا وأتوسلَ إلى أبي أن يواصلَ كلامه، أن يخبرَني بكلّ تفصيلةٍ عن أمي لأستطيعَ معرفةَ مَن أحزنُ عليها على الأقل. أردته أن يخبرَني عن أول مرةٍ رآها، عن وقْعِ صوتها، أكلاتها المفضلة، وشكل أصابعها. أردتُ أن أغمضَ عينيّ لأراها أمامي، أن أسمعَها تناديني باسمي ولو لمرة واحدة. لكن محاولة تصورِ أمّي تشبهُ محاولة دندنةِ أغنيةٍ لم أسمعْها قط.

سار بادر جان مبتعدًا بسرعة، كأنه يعرفُ عن ماذا سأسألهُ إن ظلّ واقفًا أمامي. سمعتُ خطواته المتعجلةَ تذهبُ إلى الغرفةِ المجاورة وأنا أحملق ببرود إلى يدي، مبقعة بخيوطٍ بنفسجية من الجزر الذي زرعه أبي.

بالتأكيد تحدثت كوكوكل مع أبي عن ابن أغا فروز، لكنني لم أستطعِ استنباط رأيه في الأمر من تصرفاته، لم أتوقع أن يحدّثني عن الأمر مباشرة، تلك أمورٌ لا يناقشها الآباءُ مع

الفتيات، الأمهاتُ هنّ وحدةُ التواصلِ فيها، قد يحجبْن المعلوماتِ عن أي من الأطراف أو يصبغْنها كما يعنُّ لهن. في حالتي، كانت كوكوكل تتغنّى بابن أغا فروز كأنّها أمه هو.

هل أراد بادر جان تزويجي؟ أكانتْ لديه الفرصةُ لرفض طلبهم؟ تُركتُ أتساءل.

عدتُ إلى محادثة البستان، لم أرتبكْ لسماع الصوتِ يخاطبُني باسمي، زال الشعور بالغموض مخلفًا شعوري بالفرحة والاكتشاف، أردت أن أعرفه.

عدتُ إلى أشجار التوت ظهيرة اليوم التالي، شعرتُ بوجهي يحمرُّ حتى قبل أن تلمسَ قدماي العشب، كنت ألعبُ لعبةً خطرة، لكننا لم نكن مذْنبَيْن أكثر من طائرتَين ورقيتَين تشابكت خيوطهما في الهواء، ألسنا كذلك؟

حمل النسيمُ صوتَ صفيره، ابتسمتُ لنفسي وتنفستُه، كان هو النسيم، تنحْنحتُ لأُعلنَ عن وصولي، سمعَني.

قال: «سلام».

قلتُ: «سلام».

«كيف حالكِ اليوم؟»

«بخير.. وأنت؟» أزدادُ جرأةً في محادثاتي معه.

«جيد».

انثالَ ضوء الشمسِ من بين فروع شجر التوت، يُدفئ وجهي، طرفتُ بعيني لكنني بقيتُ في مكاني، وهجُ الشمس يُهدئني؛ تساءلتُ إن كان يشعرُ بالمثل.

«رأيتُ عريسكِ هذا الصباح».

أعادني من شرودي بتلك الكلمات القليلة:

«حقًا؟ كيف حدث هذا؟»

«عند المخبز، كنتُ أحملُ العجين لأمّي، وكان يسيرُ هناك مع أصدقائه، يتسكّعون كعادتهم».

كلماتُه محسوبة، حريص، تُنبئ نبرته بما لا تكشفُه كلماته. «إنه من حسْن حظكِ أنكِ بدأتِ الدراسة متأخرة، لم يكن المعلمون يقْدرون على شيءٍ لوقفه، سمعتُ أنهم احتفلوا حين أنهى الدراسة أخيرًا».

إنه يعرفُ عن دراستي، كيف يعرفُ عني الكثير هكذا في حين لا أعرفُ عنه شيئًا؟

«يبدو أنكَ تعرفُ قصتي جيدًا، وأنا لا أعرفُ عنكَ شيئًا، ما عدا أنك تحبُّ التلصص على جيرانكَ وقراءةَ الشِّعْر على الأشجار».

قهقه..

«الارتفاعُ يمنحني منظورًا، لكن ربما كنتِ محقةً، ما الذي تودّين معرفتَه عني؟»

«ماذا تدرس؟» قلت وأنا ألتقط وريقاتِ العشبِ النحيلة، أحاولُ تخيّلَ وجهه.

«الهندسة، أوشكتُ على إنهاء دراستي الجامعية، ربما لذلك أحب الجلوسَ حيث تجلس الطيور، من أعلى تسهل رؤيةُ كيف تعمل الأشياء، كما تتدفقُ المياه من أعلى إلى أسفل».

«يبدو أنكَ تستمتعُ بالأمر كثيرًا».

«أنا كذلكَ بالفعل، نعم».

«أود الذهابَ إلى الجامعة أنا أيضًا».

«ماذا تحبّين أن تدرسي؟»

كنت منذ شهورٍ أفكّر في هذا السؤال كثيرًا، ما زلت لم أصل إلى إجابة، خطر لي أنني في الأسابيع القليلة الماضية توقفتُ عن التفكير في المستقبل، توقفتُ عن التفكير في ما أريد فعله. كان بابا جان سيخيب أمله فيّ لذلك، وملاكي الحارس الذي يسكن البستان، إن كان موجودًا بالفعل، كان سيهزّ رأسه، ماذا أريدُ أن أفعل؟

تدحرجت الإجابة على لساني كأنني ظللت عازمةً عليها منذ سنوات، وكانت القرار الأكثر طبيعية.

«التدريس، ظني أنه لا شيء أهم من التدريس، الهندسة مهمة أيضًا، لكن حتى المهندسين في حاجة إلى مدرسين».

«معكِ حق، إن المدرّسين هم الخميرة التي تجعلُ العجين يرتفع. ستكونين مدرّسةً عظيمة».

«لا أعرف إن كنت سأحظَى بالفرصة»، قلتُ بصوتٍ خافت.

«هل قالت عائلتكِ شيئًا عن الأمر ؟»

«لا. لا أظن أنني سأعرفُ شيئًا حتى يقرروا كل شيء، أشعر بأنني لستُ فردًا من العائلة بالفعل، أمي وأخواتي مشغولات جدًّا بالضيوف والهدايا والاحتفالات، كل شيء يدور حولي لكنني لا مرئية، فتاةٌ كانت تعيش في البيت».. تهدّج صوتي في العبارة الأخيرة.

«أنتِ لستِ لا مرئية، يُمكنني إغماض عينيّ وتصوركِ، يُمكنني سماعُ صوتكِ حين أكون وحدي، قد تكونين أي شيء لكنك لستِ لا مرئية».

بتلك الكلمات، صرّحَ الصوت بأشياء لا يمكن إخطاؤها، كان صوتُه هو الصوت الوحيد الذي أردتُ أن أسمعه، الوحيد الذي يتحدثُ معي عنّي، بدا كأنه تجاوز الجدار الفاصل بيننا ووضع رأسي على كتفه.

«يجب ألا تقولَ أشياء كهذه»، قلتُ بهدوء، رد فعل تلقائي كخطّ حماية.

فهِم.

«لنفعلْ شيئًا ما إذن، هل نصلّي؟ ما رأيكِ؟»

الصلاةُ ليست شيئًا غريبًا عليَّ، أشعر بهدوءٍ حين أسمع الأذانَ يرتفع من أقرب مئذنةٍ إلينا، خمس مرات يوميًا، تتاح لي فرصة البوح بأفكاري لله، فرصةُ طلب مغفرته والجنة لأمي وجدي. لعل الله سيستمع لصوتَين معًا بدلًا من صوتي وحدي.

«حسنًا، موافقة». تركتُه يبدأ.

«بسم الله الرحمن الرحيم....»

«بسم الله الرحمن الرحيم...»

ردد سورة قصيرة ورددتُ خلفه الكلماتِ بهدوء، عيناي مغمضتانِ، ثم ختم بدعاء بسيط.

«اللهم حِلّ أنت موقف جارتي. اللهم جنّبها المسار الذي يريده لها الآخرون وهذا العريس. إنها لم تستطعِ العيشَ بسلام في تلك الأسابيع وسيزدادُ الأمر سوءًا مع هذا العريس، وأنت بكلّ شيءٍ عليم. اللهم اكتبْ لها العيش في بيتٍ لا يعتبرونَها فيه من المُسلّمات. اللهم خذ بيدِها لتتخذَ قرارها بنفسها واهدِ عائلتها لما فيه صالحها، اللهم حررْها وأعنْها على استكمال دراستها،

لتفيدَ بدورها الآخرين، اللهم لا تدع أحدًا يُعيقها عن أهدافها».

سكَت.. ثم واصل:

«وأعنّي اللهم على تحقيق أهدافي، في الدراسةِ والحياة. اللهم أنعم علينا بمستقبلٍ أكثر إشراقًا».

لو كان بإمكاني حينها رؤية المستقبل ومعرفة كيف سيُجاب دعاؤنا، أتساءلُ إن كنت سأدعو معه. أتساءلُ إن كان حينها سيصرُّ على هذا الدعاء. أخاف حين أفكر في أننا كنا سندعو بالطبع. وأخاف أكثر حين أتخيّلُ ما كان سيحدثُ لو لم نفعل.

كان رأسي على الوسادةِ تلك الليلة، حين فكرتُ في «رابعة بلخي» الشاعرة الأفغانية الأسطورية من القرن العاشر. رابعةُ أميرةٌ حقيقية، كانت تعيشُ في بذخ قصر مملوء بخدَم تحت إمرتها. حين مات أبوها صار أخوها الوصيّ عليها. عاشت رابعة مرفهة في خلوتها، تملأ فراغ أيامِها بأشعار من نظمها.

لكن الحبَّ قد ينمو حتى حين يكاد النفَس ينعدم وهكذا وقعت رابعة في غرام الشاب الوسيم «بكتش». حين عرفَ أخوها بعلاقتهما، ورسائل الغرام والأشعار التي تبادلاها سرًا، أمر بأخذ أخته إلى الحمّام حيث قطعوا معصمَيها وهي راقدة في مياه يتصاعد منها البخار.

كتبت رابعة، بدمها، قصيدتها الأخيرة على جدران الحمّام وأعلنت حبها الخالد لبكتش.

لم يكن الحبُّ شيئًا يمكننا التحدث عنه، بل كنا نستكشفُه كظاهرة فقط بالقصائد وكلماتِ الأغاني أو أفلام بوليوود

المستوردة حيث كلما زادت مأساوية القصة وباعدت بين الحبيبَيْن، أوغل الحب في قلبيهما. هذا كل ما تعلمناه، بالمصادفة فقط مع ذلك. كانت الأمُّ المتوفاة، والعريسُ غير المرغوب فيه، وفتى البستان، هي العناصرُ المطلوب جمعها معًا لتصنعَ من حياتي قصةَ حبٍّ ملحميةً. خفق قلبي اليافع بتوترٍ مترقبًا الغد.

حاولتُ، بعينين مغمضتَين، تذكّر قصيدةٍ رابعة الأخيرة، تذكّرتُ منها آخر بيتَين فحسب:

«حين ترى القبحَ تخيله جميلًا
وإن تناولتَ سمًّا، تذوّقهُ سكّرًا» .

فريبا
8

كانت كوكوكل تقفُ عند الباب الأمامي حين خرجتُ من غرفتي، صوتُها يعبر الرواق، يعلو شيئًا فشيئًا، يتحوّل خلال ثوانٍ إلى صياح هستيري.

هرولتْ مارةً بي، مددتُ يدي أثبّتُ فناجين الشاي التي وضعتْها بقعقعةٍ على زجاج الطاولة.

«ابقي هنا مع أخواتك وادعي الله ألا تكونَ تلك الأخبار حقيقية! سأخرج لأعرفَ ماذا حدث، أنا لم أسمعْ بشيء كهذا من قبل... إن كانت تلك كذبة، فمخترعُها ملعون، يا الله يا رحيم، هذا مستحيل!»

ارتدتْ شادوريّها بسرعة ولفّت طرفيه على كتفَيها، صفقَت الباب خلفها قبل أن يمكنني سؤالها إلى أين ستذهبُ أو ما تلك الأخبار الفظيعة؟ واصلتُ مهامّي بأمعاء مضطربة. انشغلتْ أخواتي بدروسهن لا يعرفْن أكثر مما سمعتُه بالفعل، عليَّ انتظار عودة كوكوكل.

بعد ذلك بساعتَين زاد قلقي، خرجتُ إلى الفناء وفتحتُ البوابة، لم يمدّني شارعنا الهادئ بأي مفاتيح للغز. تطاردُ مجموعة أطفال كلبًا هزيلًا، يقذفونه بأشياء التقطوها من القمامة. مر رجل عجوز يتعكّز على عصا، لا شيء يبدو غيرَ طبيعي.

عاد بادر جان إلى البيتِ مبكرًا ذلك المساء ووجدني أنفض الترابَ عن الوسائد في غرفة الجلوس، لا يمكنني البقاء ساكنة.

قال: «أين أمك؟ لا تخبريني بأنها في السوق مجددًا».

«لا، بادر جان، بل ذهبتْ لزيارة صديقة، على ما أظن، لم تقل الكثير، فقط إنها سمعتْ أخبارًا فظيعة وتأملُ ألا تكون حقيقية».

«أخبارًا فظيعة؟» بدا قلِقًا لخروج كوكوكل المفاجئ وللقلق في صوتي.

«هل قالت شيئًا عن تلك الأخبار؟»

هززتُ رأسي.

«كانت في عجلة، خرجتْ دون أن توضح أي شيء».

تنهّد بعمق وسألني إن كنت أعددتُ العشاء. قرر أننا ليس علينا أن نقلق ما دمنا لا نعرف ماذا حدث. يمكنه بلع ملعقة ملح وهو يبتسم إن كان لهذا أن يحفظُ السلام في البيت.

كان جائعًا فأعددتُ المائدة وناديتُ إخوتي للجلوس إلى الطعام، أتساءلُ إن كانت كوكوكل ستعود قبل أن نبدأ تناول الطعام. كان البخارُ المفعم برائحة الكمّون يتصاعدُ من طاجن الأرز الساخن الذي أحمله حين اندفعتْ كوكوكل تدخلُ الغرفة، ألقتْ *شادوريّها* على ظهر أحد الكراسي بتأفف، ثم انفجر صوتُها في الغرفة الصغيرة.

«أووه يا الله، يا رحيم يا الله! يا لها من أخبارٍ مريعة!» يتمايلُ رأسها من جانب إلى آخر وهي تجلس بجوار أبي. «مصيبة وحلّت على رؤوسنا دون سابق إنذار... ما زلتُ لا أصدق ما حدث!»

عقد بادر جان حاجبَيه، نافدَ الصبر من تمهيدها الدراميّ.

«قولي الأخبار فحسْب، كوكوكل، ماذا حدث؟»

تجاهلتْه وواصلت حكْيها بأسلوبها الخاص.

«كنتُ اليوم في البيتِ مع هؤلاء الفتيات لينجزنَ واجباتهنّ، وكان لديَّ فوق هذا غسيلٌ يجب إنهاؤه وطعامٌ يجب إعداده وليس لديَّ وقت، كالعادة»، أطلق بادر جان تنهيدةً ثقيلة، وتساءلتُ في نفسي متى غسلتْ كوكوكل جوربًا أو صحنًا حتى.

«جاءت حبيبة جان تطرقُ بابنا تريد بعض الدقيق، قد نكسب جيدًا إن بعناها ما تنسَى شراءه من المتجر دائمًا، على أي حال، أعطيت تلك البلهاءَ ما تحتاج إليه فبدأتْ تثرثرُ عن عائلة تعيسة الحظ كانت ترتبُ لقراءة فاتحة ابنها خلال وقتٍ قصير والمصيبة التي حلت بها. سألتها عن تلك العائلة التي فقدت ابنًا فأخبرتْني أنها العائلةُ الثرية التي تسكن في الجانب الآخر من المدينة، عائلة أغا فروز».

قبضتْ أصابعي على حافةِ المائدة بقوة، شعرتُ بانسحاب الدم من وجهي، انتظرتُها لتواصل، فتابعت:

«دار رأسي وكدتُ أسقط هناك عند قدمَيها لكنني تماسكتُ وسألتها إن كانت تعرفُ أيَّ فتى تحديدًا وكيف حدث هذا، لكنها أرادت العودة إلى بيتِها بالدقيق ولم تكن تعرفُ المزيد على أي حال فصرفتها. ذهبتُ إلى بيت فُتنة جان إذ يسكن شقيق زوجها بجوار أغا فروز.

«لدى فتنة معلومات أكثر مما لدَى المخابرات الروسية، فأخبرتْني بكل شيء! يا الله، هذا يغير كلَّ شيء بالنسبة إلينا! منذ يومين فقط...»

«يا اللّه، فقط قولي ماذا حدث يا امرأة، أرجوك!»

«شيء لا يُصدق، لا يُصدّق حقًا! القصة كلها لا يمكن تخيلها حقًا! كان ابن أغا فروز في طريق عودتِه إلى البيت من السينما مع أصحابه، أتعْرف؟ لقد قالوا إنه يدرسُ الهندسة لكن فتنة أخبرتني بأنه لم يدرسْ شيئًا بعد المدرسة العليا ولم يكن لينهيها حتى لولا أن جامل والده بعضهم من تحت الطاولة».

تبّلتْ كوكوكل كلّ جزء من تلك القصة، مأساوي أم لا، تأبى ألّا تفوّت تفصيلة واحدة، كانت تلك أولَ مرة تحكيها، لذلك فهي بروفة مهمة نوعًا ما لأنها قطعًا ستحكيها لاحقًا مرارًا وتكرارًا.

«كان الفتى في طريق عودتِه إلى البيت مع أصحابِه وتوقفوا لشراء بعض الحمّصِ من أحد الباعة في السوق، فتية كهؤلاء لا يقضونَ خمس دقائق دون تناول شيء ما! ملؤوا جيوبهم وواصلوا سيرهم فبدأت تظهر على جلد ذراعي الفتى بقعًا حمراء صغيرة، وحين وصلوا إلى ناصيةِ الشارع ازدادتْ حالته سوءًا، ظلّ يسعلُ ويتعثر في سيره خلف الآخرين، لم يعرف أصحابه شيئًا عمّا يحدث له فقرروا أخذه إلى بيته، وصلوا وهو بالكاد يسير على قدَميه وأرقدوه على أريكة غرفةِ الجلوس.

«كانت المسكينةُ أمّه في البيت، دخلت الغرفة ونظرت إلى ابنها فعرفت على الفور، كان يُصاب بالبقع الحمراء ذاتها وهو صغيرٌ حين يأكلُ المكسّرات، صاحتْ على أصحابه ليساعدوها في نقلهِ إلى الطبيب لكنهم كانوا قد انصرفوا بالفعل. تظن فتنة أنهم كانوا يخططون لشيءٍ ما، وكانوا يخافون الوقوعَ في مشكلات، نادت الأمُّ خادمتها وأخذته إلى الطبيب، لكنه كان قد قطعَ النفس.. مات!»

دفنتْ وجهَها بين يديها، أخذتْ نفسًا عميقًا ووضعتْ راحتَيها مفتوحتَين على المائدة. قالت بصوت حزين:

«إنهم جميعًا مصدومون بشكلٍ لا يُوصف. يرتّبون الآن أمرَ دفنه، ونحن نتحدثُ هنا، بعد أن كانوا يرتّبون لحفل زفافه».

عاد بادر جان بظهره إلى الخلف، فمه مشدوهٌ قليلًا، رمقتني أخواتي بنظرةٍ ذات مغزى، أبقيتُ وجهي متماسكًا ما أمكنني، لا أعرفُ بمَ أشعر ولا أريد أن تفضحَ صفحةُ وجهي أفكاري.

قال بادر جان وهو يهز رأسه: «ليرحمه الله! أن يفقدَ المرء ابنًا، شابًا صغيرًا...» ظل ينظرُ إلى كوكوكل، نظر إليَّ خطفًا مرة واحدة فقط ليرى ردّ فعلي.

«يا للعار، يا للعار، ونحن بالكاد نبدأ التعارفَ على عائلتهم! بدَوا أناسًا طيبين، تجارة جيدة، الأفضل في كابول كلها تقريبًا. لديهم ابنٌ آخر لكنه متزوجٌ بالفعل! فقدنا الآن فرصتنا معهم». تعجز كوكوكل عن إخفاء سبب حزنها الحقيقي.

نظر بادر جان إليها وتنهّد، كان قد تقبّلها على ما هي عليه منذ وقت طويل لكنه لا يزال يراوده الأمل، من حينٍ إلى آخر، أن يراها لا تأخذ، ولو حدثًا واحدًا صغيرًا، على محْملٍ شخصي. تنهّد قائلًا: «سأعرف المزيد غدًا عن الجنازة والعزاء، علينا تقديم تعازينا للعائلة، الآن دعينا نأكلُ الطعام الذي أعدته فريبا لنا، لن نُلقيَ به بالطبع».. فكّر قليلًا ثم قال: «سنرسل إليهم بعضَ الطعام».

«طعام؟»

«إن لديهم طباخةً تعدّ لهم الطعام، يكفينا ما لدينا من أفواهٍ لإطعامها هنا!»

«سوف نرسلُ إليهم طعامًا ونذهبُ لتعزيتهم، لقد كنا معهم في فرحِهم وعلينا أن نكونَ معهم في حزنهم».. قال ببطءٍ متعمَّد، وحدجها بنظرة. فوجَمتُ من تحذيره.

لقد فقدتْ عائلةٌ ابنًا لذلك كنتُ أخجل من شعوري بالارتياح، كأن أحدهم نزع عن عنقي نيرًا ما، مع ذلك ذهب الأسى مُخلفًا مكانه أفكارًا ثقيلة.

جلستُ جامدةً كالحجر ونحن نتناولُ الطعام، فكّي يتحركُ لكنني لا أتذوقُ شيئًا.

لا يمكنُ أن يكونَ ما حدثَ مصادفة.

أبقيتُ وجهي مُخفضًا، صوتُ أفكاري عالٍ جدًا، حتّى أنني خشيتُ أن تسمعَها أُسرتي فيعرفون مَن أنا، لم أعدْ لا مَرئيّة.

كنت قد رفعتُ راحتيّ لأعلى في البستان ووليّتُ وجهي للشمس ودعوتُ الله، همستُ «آمين» حين أنهَى جاري دعاءه القدريّ، أدفعُ بكلماته إلى الله، كأنّ لي أن أدعو الله مع شخص غريب، ترددتْ كلماته، كلماتنا، في ذهني.

اللهمّ حِلّ أنتَ موقفَ جارتي، اللهمّ جنّبها المسارَ الذي يريده لها الآخرون وهذا العريس، إنها لم تستطعِ العيش بسلام في تلك الأسابيع وسيزدادُ الأمر سوءًا مع هذا العريس، وأنتَ بكّلِ شيءٍ عليم.

تنهيدةُ راحةٍ، حل.

اللهم لا تدَع أحدًا يعيقُها عن أهدافها.

كانت كوكوكل مكروبةً جدًّا وهي تأكل. اختبأتُ خلف تنهداتها الثقيلة، تبادلت أخواتي نظراتٍ فضوليةً، يُردْن الفرارَ من الصمتِ الغريب لمائدتنا والمشاركةَ في أفكارهنّ بعيدًا عن مسمع أبي.

انتابني ذعرٌ هادئ، قد أُعتَبر متواطئةً في موت الفتى، وربما أكثر من متواطئة أيضًا، قد أكون مسؤولة تمامًا أن أخذه الله.

مضغتُ بحرص، أخشَى أن أختنق، إن الله كل يوم في شأن.

تساءلتُ إن كان جاري قد سمع الخبر، دفع تفكيري فيه ذهني في اتجاهٍ مختلف تمامًا، تساءلتُ عن نيّاته وعن مغزَى كلماته إلى السماء.

كبحْتُ رغبتي في الركض إلى البستان، في أنْ أطلبَ منه توضيحَ ما حدث.

سيكون عليَّ أن أنتظر.

بعيدًا عن وفاة أمي، كنت متيقنةً تقريبًا أنّ العالم يدورُ حولي دون أن يُعنَى بي، ربما لم يكن الأمر كذلك.

بعد ذلك بيومَين، استعاد بيتنا إيقاعه الطبيعي. تقبلت أخواتي أنني ليس لديَّ ما أقوله عن وفاة الفتى. عادت كوكوكل لمواصلة مهامّها المنزلية البسيطة. ذهبَ بادر جان إلى أغا فروز لتعزيته، زيارة لم يتوقّعها أحدهما قط. كنتُ في حالتي المضطربة، أبدأ غسيل الملابس لأكتشفَ أنني نسيتُ الصابون. في طريقي لإحضاره، أتذكّر أن عليَّ تتبيلَ اللحم. بعد ذلك بساعات أجد الملابسَ التي لم أغسلْها منقوعة في الماء، ما زالت في انتظاري.

كان قلبي يكاد ينفجر، ذهبتُ إلى البستان، بدتْ كل خطوة لي كعدوان، الأغصانُ التي رحّبت بي ذات مرة كأذرع مفتوحة تبدو الآن كأنها أصابعُ اتهام تشير إليَّ، شهود على جرمي.

سعلْتُ بهدوء.

قال بحذر: «سلام».

«لم أكن متأكدةً أنكَ ستكونُ هنا».

«من الجيد أنكِ أنتِ»، قال بفرح: «لم أكن متأكدًا».

بدا المرح في صوته وصمةَ عار.

«ألمْ تسمع الأخبار؟» همستُ.

«أخبار؟ أيّ أخبار؟» وجمَ صوته قليلًا.

«عن الفتى، ألا تعرف حقًا؟»

«ما الأمر؟ تبدينَ حزينة».

«لقد ماتَ.. رحمة اللّه عليه».

«ماذا؟! هل هذه مزحةٌ يا فريبا؟» همَس.

فاجأني التأنيبُ في نبرته.

«أنا لا أمزح في هذه الأمور» قلت. ثم انطلقَتْ من فمي الكلماتُ التي أردتُ الصياح بها منذ أعلنتْ كوكوكل الخبرَ على العشاء: «إنه حقيقي، لقد مات وتقريبًا لأننا دعونا اللّه بذلك، لكننا لم نفعلْ، أليسَ كذلك؟ أيّ ذنبٍ ارتكبناه؟»

«أخفضِي صوتكِ»، حذّرني.. «أنت جادةٌ إذنْ. بالطبع، لم نكنْ لندعوَ بمثل هذا قط، لا تكوني حمقاء، أخبريني بما حدث له».

أخبرته بكل ما سمعته من كوكوكل. تكررتِ الأحداثُ في رأسي مراتٍ كثيرة، كأنني شاهدتُ يومه الأخير ذاك، تخيلتُه يختنق، يُمسك صدره، جلده أحمرُ ملتهب، تهبُّ عاصفة بداخله وتتحبسُ في حلقه.

«فريبا جان، اسمعيني، هذه أخبارٌ مفجعة وأعرفُ أن الأمر يبدو غريبًا مع اعتبار محادثتنا السابقة، لكن صدّقيني لم تكن لديَّ أدنَى نية للإضرار به، لقد كان دعاءً وليس لعنة، أيًّا كان ما سيحدث، لم يكن الأمر بأيدينا قط».

«لكننا دعونا...»

«وهذا كلّ ما فعلناه، لم نتمنَّ سوءًا لأحد، أقسم لك، لم نُردْ سوَى أن ينجّيكِ الله، يجب أن تعرفي هذا».

سرتْ في البستان نسمةٌ رقيقة، نسيمٌ خفيف فكَّ انقباض صدري. كان محقًّا، أعرفُ أننا لم نرتكبْ ذنبًا جسيمًا بدعائنا. وأعرف منذ اللحظة الأولى بيننا أن هذا الصوتَ في البستان له قلبٌ طيب، لقد كان معي صديقًا حين لم يكن لديَّ أحدٌ أثق به للبوح بأفكاري، حتى الآن، كان هو صديقي الوحيد في مكانٍ وزمان لا توجد فيه صداقة بين فتى وفتاة. يوجد إخوة وأخوات، خالات وأخوال، أزواج وزوجات، لكن لا أصدقاء.

لا يمكنُني النظر إليه مباشرةً، ولا يمكنني نطق اسمه. لكنّ الحميميةَ أكبرُ من الأسماء والوجوه. لقد تشاركتُ في الكثيرِ مع هذا الغريب، وشعرت بالدفء في وجهي لتفكيري في إمكانية الاعتماد عليه في تلك الأيام الصعبة.

«أنت محقٌّ، لقد كان شعورًا فظيعًا أن ظننت...»

«لا تفكّري هكذا، لقد نجوتِ بفضلِ ظروفٍ غريبة وحزينة، أنا لن أتحدثَ بالسوء عن الموتَى لكننا معًا نعرف جيدًا كيف كان الفتى، هذه ليستْ فعلتكِ، وليست فعلتي أيضًا، لذلك لا تأخذي الأمرَ على عاتقك».

لم أجرؤ على مقاطعتهِ وهو يقول ما أردتهُ أن يقولهُ تحديدًا.

حين أتذكّرُ الآن، أتساءلُ إن كان معظمُ ما قاله صحيحًا تمامًا قليلًا. ربما اختلقت في عزلتي هذا الصديق من ظلّ شخصٍ ما وبعثت فيه حياةً ليلبي حاجاتي، خدعة ذهنية خطيرة.

«فريبا جان؟ قولي شيئًا ما، أخبريني بأنكِ توافقينني».

لم يعد لديَّ مجال للشكّ حين سمعته ينطقُ اسمي، في هذه اللحظة، كان حقيقيًا ومهتمًا كما أريده. لا يمكنني تركه، ارتبطتُ به بخيوطٍ لا مرئية من صنعِ خيالي الخاص.

فريبا

9

«إنهم يلومونكِ على وفاته، هذا ما سمعتُه»، قالتْ كوكوكل ببرود. سرت حرارة في عنقي من الخلف. توقفتُ عن تجفيف الصحون. تدلّت المنشفة من يدي بخمول.

«أنا؟ ولماذا يظنونَ ذلك؟»

«يقولون إنه كان شابًا بصحة جيدة تمامًا وأنه اختُطِفَ من وسط عائلته قبل يوم واحدٍ من إعلان خطبتكما. بالطبع تصر زوجة أغا فروز على أنكِ ملعونة. في البدء والدتكِ، ثم جدكِ، والآن هذا الشاب قبل ساعاتٍ قليلة من خطبتك».

دمعتْ عيناي، منَ القسوة أن تذكرَ كل من فقدتُهم هكذا.

«هذا لا يستحقُّ البكاء»، أنبتني كوكوكل.. «كيف لا يمكنهم قول هذا؟ إنهم حزانَى ومصدومون ويعرفون تاريخكِ. ربما عليَّ شكر حسْنِ حظي أن ظللتُ على قيد الحياة»، قالتْ تمزح.

ربما اختلقتْ كل هذا، يصعب عليَّ فهمها، أحيانًا تظلّ تغير في نسختها الخاصة عن أمر ما إلى حد لا يمكنها معه تمييز القصة الحقيقية. عدتُ لتجفيف الأطباق وواصلتْ هي كلامها.

«ذهبتُ لتعزية والدته فانفجرت بالبكاء ما إن رأت وجهي، وأخبرتْني بأن ابنتي ملعونة. قالت إن أمورهم بدأتْ تسير بشكلٍ سيئ منذ أن تقدّموا لخطبتكِ، ظني أن نساء قليلات ممن كن يجلسْن سمعْن، لسْنَ كثيرات».

أوه، يا ربي، في هدوء العزاء، كنتُ متأكدة من أن جميع نساء كابول قد سمعْنها، سأغدو فتاةَ كابول المشؤومة وستتبعني الهمساتُ وحركاتُ الحواجب.

«ماذا قلتِ لها؟» سألتها مترددة.

«ماذا يقولُ المرء لأمٍ ثكلى؟ أخبرتُها أنني أدعو الله أن يلهمها الصبر ويتغمد الفقيد برحمته».

«أقصدُ بشأني، بشأن كوني ملعونة».

«فريبا، العزاء ليس الوقت ولا المكان للجدال، قلت لها إنني أتمنى ألا يكونَ ذلك حقيقة». أخذتْ كوبًا وصبّت فيه ماء. «على كلٍ، مع أنه لا يصحُّ التحدث عنه بسوء الآن وهو ميّت لكنني سمعتُ أنه كان شقيًا؛ لم يكن يحترم عائلته وكان يسرقُ منهم. قالتْ حمرية جان إنه ضربَ ابنها الصغير ذات مرةٍ بقوة، إلى حد أن ابنها لم يستطِع الرؤية بإحدَى عينيه مدة أسبوع».

«متى رأيتِ حمْرية جان؟» سألتُها بعفوية، عيناي على الأطباق.

«أوه، منذ أسبوعين تقريبًا، في السوق، لقد عادت من الهند، تتباهَى بأساورها الذهبية الجديدة بالطبع».

ومع ذلك، كانت تُحضّر الشيرنيه.

أمي، ظللتُ طوال حياتي أناديها بهذا الاسم المشرقِ المفعمِ بالأمل، أتمنَّى لمسةً ناعمة كصوفِ الحمل على خدّي ولا أحظَى سوَى بتلويحةٍ باردة.

«كانت النسوةُ يتحدثْنَ عن هذا في أثناء العزاء، ظن أغا فروز أنّ الزواج سيهذّب الفتى ويُصلحُ حاله، ظلوا يبحثون له عن عروسٍ لشهور.. من في حاجةٍ إلى هذا؟ نحن لا نهِبُ فتياتنا كخيارات ثانية أو ثالثة».

ألقيتُ بمنشفة الأطباقِ على حافة الحوض «لكنكِ كنتِ ستعطينهم الشيرنيه رغم كل شيء، أليس كذلك؟ لماذا يختلف الأمر معي؟»

كانت نبرتي حادةً، وقف الألم، مكشوفًا، بيني وبينها في لحظةِ صدقٍ نادرة.

تقابلتْ أعيننا.

«عزيزتي، ثمة فارقٌ بينك وبين نجيبة، وأنا مدهوشة لسؤالكِ عن هذا الآن، إن نجيبة بسيطة، فتاة جميلة... جميلة بما يكفي لتحظَى بالانتباه. وهي من عائلة جيدة، ولطيفة ومؤدبة».

«وأنا؟»

«وأنتِ». قالت وكلماتها تنغز ضلوعي كإصبع. «عليَّ أن أكون أكثر حرصًا معكِ. نعم، أنتِ مهذبة وجميلة بما يكفي، لكن *الجميع* يعرفون أنكِ فقدتِ أمك، وهذا ما يجعلكِ مختلفة، وقبل أن تنظري إليَّ بهذا الغضب، تذكّري أنه ليس خطئي أنكِ فقدت أمكِ وليس خطئي أن الناس يتحدثون هكذا، لكن عليّ أن أبذل قصارى جهدي معكِ، فكّري في الأمر، فريبا، إن انتظرتِ الرقصَ على القمر فقد لا ترقصين أبدًا».

«ألا تحبينني كما تحبينهن؟».

«تمامًا مثلما لا تحبينني كما تحبين أبيك، أو جدك، لا تظني أنني أجهلُ هذا».

سكتُّ، كانت محقة، بلا شك.

عادتْ إلى هدوئها فورًا، لم تنزعجِ البتة، ليس سوى انزعاجها الشخصي من عائلة الخطيب الفقيد.

«أنا حزينة لأنها فقدتِ ابنها لكنني حزينة أكثر لأنني ضيعتُ وقتي في تقديم الشاي والبسكوت إليها».

لم يتحدث بادر جان عن الأمر، كان يذهبُ ويعود إلى البيت، يتحدثُ معنا برفق عن دراستنا دون كلمةٍ عن أغا فروز أو ابنه. كنت أريدهُ أن يتصرفَ بشكلٍ مختلفٍ لكنه لم يكنْ في وسعهِ شيء. ومع أنني نجوت بالفعل من ذلك الخاطب وعائلته، لكنني ظللتُ أفكّرُ في مدى استعداد أسرتي للتخلص مني، ومتى قد يتكررُ الأمر مجددًا.

كان جاري ملاذي، يُلقي شعرًا ويشكو من خسارته درجاتٍ في اختباره الأخير في كلية الهندسة. يتحدث بشغفٍ عن العمل الذي يطمح إليه بعد التخرّج. أراد السفر إلى الخارج كي يتدربَ في شركة أجنبية. أراد أن يكتشف العالم. كنت أحبّ سماعه يتحدث عن الجامعة وتصميمها، كان يصف المباني والأساتذة بتفصيلٍ شديد، لدرجة أنني كنت أغمضُ عينيَّ وأتخيلهم يسيرون في الأروقة.

ذات يومٍ قال شيئًا لم يقلْه من قبل قط:

«سيكون رائعًا أن أتعرف عليكِ وعلى عائلتكِ دون جدار يفصل بيننا».

سرى دفءٌ في وجنتيّ. ابتسمتُ وحركتُ أصابع قدميَّ في العشب.

«لكن ذلكَ سيكون... أقصدُ... هذا ليس....»

«أنا لا أقصد إساءة، أردتُ فقط إخباركِ برأيي أن عائلتينا يجب أن تبدأا التعارف...»

«هل تدركُ ما تقول؟» سألته، نصفَ محرجة: «لا تقل أشياء لا تقصدُها».

«أنا لا أفعل ذلك، فربيا صدقيني، قندم».. جميلتي. اقشعرَّ جلدي لسماعه ينطق اسمي، و«قندم» الرقيقة الجريئة تستقرّ في أذني كقبلةٍ ناعمة.. «أتعرفين ما أفكرُ فيه كل يوم؟»

استلقيت على العشب وحدقتُ في الأغصان، تنعكس الشمس الجريئة على ظهر أوراق الشجر الخضراء التي تشبه الدموع. تلمع فاكهتها البيضاء والحمراء والسوداء بمختلف درجات نضجها. دغدغ الضوء وجهي.

«فيم تفكّرُ؟»

«جعلني كلّ يوم جلستُ فيه هنا وتحدثتُ معك فيه من خلف هذا الجدار أفكّر في تسلقه والنظرِ إليك، والسيرِ معكِ في بستان أبيكِ لنتحدثَ ونحن نستمعُ للأغاني من المذياع».

حبستُ أنفاسي، ذاك الشعور في قاع معدتي ـــ رعشة السقوط من أعلى ـــ كان جديدًا تمامًا عليّ. أدهشتني سهولة إدراكي شيئًا لم أره ولم أشعر به من قبل. هذا هو الحب الذي وصفه الشعراء، كنت متأكدةً من هذا.

«لكنني كلّما فكرتُ في هذا، أدركتُ أنني لا أريد اقتحام بستان أبيكِ. بل أريد دخولَ البيتِ من بابه، أريد أن أتحدثَ معكِ ويدانا متشابكتانِ، بلا جدارٍ يفصل بيننا، دون أن نضطر إلى خفضِ صوتَينا والاختباء من العالم».

سالت الدموع من زاويتي عينيّ، مرتْ بصدغي وسقطتْ على الأرض. لسنواتٍ كثيرة جدًا لم أتلقَّ سوى حبّ أخواتي المخفف،

إحسان كوكوكل المتعالي وعاطفة أبي المتحفظة، ملأتْ تلك الكلمات، ناضجةً ومكتملة، الفراغَ الذي عشته طوال حياتي.

«فريبا».

«نعم؟»

«لم تقولي شيئًا».

«لا أعرفُ ماذا أقول».

«يمكنك قولُ ما تشائين».

جلستُ وغطيت وجهي بيديَّ، لم يمكنني الرد وشمس الله في وجهي.

«أنا مثلكَ»، همستُ بصوتٍ سمعه بالكاد.

بعد ذلك بيومين، كان ثمة طرقٌ على بوابتنا الأمامية، لحسن الحظّ كنت منشغلةً في الغسيل، كان مرفقاي غائصَين في الطشت مع الملابس والجوارب ورغوة الصابون، ففتحتْ كوكوكل الباب بنفسها. بعد ذلك بدقائق، وقفت كوكوكل بجواري، تراقبني أدعكُ ياقات قمصان أبي.

«يأتي النور بعد الظلام دائمًا، اغسلي ثوبي العنّابي أيضًا، يبدو أننا سنستقبلُ ضيوفًا يوم الخميس المقبل».

«مَن؟»

«زوجة أغا وليد، بيبي شيرين»، قالت بغمزةٍ ذات مغزَى.. «يبدو أن جيراننا يودون التحدثَ معنا بشأن ما. اغسلي ثوب نجيبة الزيتوني أيضًا، لا الأصفر، الأخضر يجعل وركَيها عريضين جدًّا».

أومأتُ برأسي ولم أقل شيئًا، ستُذهل كوكوكل حين ستدرك أن الأمر ليس بشأن نجيبة. صارتْ أختي غير الشقيقة، الأصغر

منـي بعامين فقـط، شـابةً فارعـة، بشـعر أسـودَ طويـلٍ تتمـاوج أطرافهُ بأنوثـة. بشـرتُها بيضـاء كالحليـب، وفمُهـا ورديٌّ ومسـتدير. تزهـم كوكـوكل أن نجيبـة تشـبهها رغـم صعوبـة ملاحظـة ذلـك.

أغـا وليـد صاحـبُ البيـت والبسـتان المجاورَيـن لنـا، مفكّـرٌ ومهنـدسٌ محتـرم. تكـنّ لـه كوكـوكل احترامًـا هائـلًا ، ليـس لأنـه مهنـدس لامـع بـل لأن الآخـريـن يحترمونـه كثيـرًا. فـي كابـول يتكاثـر كلٌّ مـن الشـائعات والاحتـرام ذاتيًـا. كان ذلـك جيـدًا وسـيئًا.

عـادت إلـى كوكـوكل حماسـتُها مجـددًا، خطوبـة أخـرى، جولـة رقـص أخـرى مـن المجامـلات والتفاخـر.

ظللـتُ بعيـدةً عـن البسـتان وسـاعدتها علـى تهيئـة غرفـة الجلـوس ليـوم الخميـس المقبـل. اختـارتْ ثـوبَ نجيبـة، ثوبًـا بكُمّيـن قصيرَيـن مُغريَيـن وتصميمـه بشـكل حـرف A يُنبـئ عـن قوامهـا لكنـه محتشـم. ارتديتُ قبل وصولهمـا مباشـرة ثوبًـا فضفاضًـا بتطريـز عنـد الرقبـة. رفعـتْ كوكـوكل حاجبَهـا حيـن رأتنـي أرتـدي ثوبًـا أحتفـظُ بـه عـادة للمناسـبات الخاصـة.

«لا تسـكبي شيئًـا علـى نفسـك، قـد تحتـاجُ نجيبـة إلـى هـذا الثـوب فـي الأشـهر المقبلـة».

لـم أعـرفْ مـاذا سـتفعل كوكـوكل أو نجيبـة حيـن تكتشـفانِ أن الضيـوف هنـا مـن أجلـي. ظلـتْ نجيبـة سـعيدةً ومرتبكـة منـذ سـماعها خبـر الزيـارة. ذاقـت قليـلًا مـن تجربتـي السـابقة وكانـت تتـوقُ إلـى تسـليط الضـوء عليهـا.

فتحـتُ أنـا البوابـة لبيبـي شـيرين، والـدةُ صديـق البسـتان، جـاءت بصحبـة أختهـا، حييتهمـا بـأدب، أخشـى التلعثـمَ إن قلـت شـيئًا.

قدتهما إلى غرفة الجلوس وكوكوكل تدخل إليها من الرواق. تهللت أساريرها وفتحتْ ذراعيها ترحيبًا بجارتينا، تبادلنَ الثلاث قبلاتِ الرسمية على الوجنتَين، وابتسمنَ بود، أشارت إليَّ كوكوكل أن آتي بالشاي لضيفتَينا.

لمحتُ بيبي شيرين خطفًا، أتساءلُ كيف سيبدو ابنُها وإن كان يشبهها حتى. ابتسمتْ لي عيناها البنّيتانِ الرقيقتان فهدأ توتر معْدتي. كأن نظرتها رسالةٌ من صديق البستان.

كل شيءٍ سيكون على ما يرام، كان يُخبرني، *وهي هنا لجعل الأمور صائبة*.

وضعتُ أطباقًا صغيرة من الزبيب الأصفر والصنوبر والفستق. عدت إلى الغرفة وبيبي شيرين تخبرُ كوكوكل بأنها يسعدها أن يكون لديها جيرانٌ ودودونَ مثلنا.

«شكرًا لكِ أيتها الجميلة» قالت لي وأنا أضعُ فنجانَي الشاي أمامها وأختها، تمنيتُ ألا تكون قد لاحظتِ اهتزازَ الفنجان في طبقه.

«تفضّلي»، غمغمتُ قبل أن أخرجَ بسرعة وأعودَ إلى المطبخ، تساءلتُ عن قدر ما أخبرها به عنّي أو عن محادثاتنا.

استرقت السمع دون أن يلاحظَني أحد، واصلتْ بيبي شيرين الإشادة بعائلتنا ثم بدأت التحدثَ عن عائلتها. قالت إن ابنها على وشك إنهاء دراسته الهندسة خلال أشهر قليلة وقد صار الآن في سنٍّ مناسبةٍ لتأسيس أسرة.

«سيغدو رجلًا مستقلًا قريبًا، إنه حلمُ كل أم، نحن فخورون جدًّا بكل ما حققه».

«لكُم هذا بالطبع، إنه يشبه أباه إذن، أغا وليد يحظَى باحترام كبير، بلا شك».. قالت كوكوكل.

«بالطبع»، أضافت خالته: «لقد ظل المثلَ الأعلى لكلّ أخوته وأبناء أخواله، بمَن فيهم ابني أنا».

«فهمت».

«كوكوكل جان، لقد جئنا إليك اليوم نيابةً عن ابني، جوهرة بيتنا وعائلتنا كلها، ليباركك الله. لقد منّ الله عليَّ بابنٍ ذكي ومجتهد وعطوف وأريد أن أتأكد أنه سيحظى بزوجةٍ تسعده. لقد حان الوقت ليبدأ تأسيس أسرته. وكأم، بعد أن صار هو نفسه رجلًا، صار أهم ما يمكنني فعله أن أضع بجواره امرأةً صالحة. إن عائلتك محترمة، جديرة بالثقة، ليباركك الله، عائلة جميلة».

«هذا من ذوقك»، قالت كوكوكل وهي تعتدلُ في جلستها وتضم يديها معًا في حجرها بهدوء، تستمتع بإطراء بيبي شيرين.

«لذلك جئنا إليك لنتحدث معكِ بشأن ابنتكِ العزيزة»، واصلت بيبي شيرين.

«فهمتُ»، قالت كوكوكل، تبذل جهدها لتبدو مدهوشة ولو قليلًا.

حبستُ أنفاسي وأنا في الرواق، كانت نجيبة ما زالت في غرفتها، تتساءلُ متى ستطلب منها كوكوكل مقابلة الضيفتَين.

«نحن نرى أن ابنتك الكبرى ستكون خيارًا رائعًا لابننا».

«حسنًا»، قالت كوكوكل وهي تضع يدًا على صدرها. «نحن يشرفنا أن نسمع هذا، لكننا لم نكن نفكر في تزويج ابنتنا، فما زالت صغيرة».

«صغيرة، نعم، لكنها في سن مناسبة تمامًا للتفكير في الزواج. هذه أيام رائعة لنمو نبتة الحب، ألا توافقينني؟»

قالت أختها، حكيمة، تؤيد أختها:

«نعم، هذه سن رائعة لزوجَين شابين ليتعارفا ويبدأا ارتباطهما».

«ظني أنهما سيكونانِ زوجَين رائعين. لقد ظلت عائلتانا تتبادلان الاحترام كجيرانٍ لسنوات. وقد كبر أطفالنا وصارت مسؤوليتنا، كأمهات، أن نفكّر في مستقبلهم».

سمعتُ صلصلة فناجين الشاي فيما تفكّر المرأتان في ما تقولانه بعد هذا.

«هذا أمر علينا التفكير فيه مليًا. أنا لا أتخيلُ حتى، تزويج ابنتي، نحن أيضًا تُشرفنا جيرتكم... في الوقت الحالي، ليس لديَّ شيء لقوله، كأم، أنا واثقة من أنكما تفهمان».

«بالطبع، كوكوكل عزيزتي، نحن هنا لفتح الموضوع فحسب، وأريدكِ أن تعرفي أن اهتمامنا صادق، أنا أعني كل ما قلته، أعرفُ أن على عائلتك التفكير في الأمر مليًا، لكنني متأكدة أيضًا من رغبتك في أفضل شيء لابنتكِ وأنا آمل أن تجدي ابني زوجًا مناسبًا لابنتكِ العزيزة، نجيبة جان».

نجيبة؟

كتمتُ الصرخةَ في حلقي.

«إن نجيبة ابنتي الغالية، طالبةٌ رائعة وأختٌ عطوف، لقد دعوتُ لها، كما دعوتُ لبناتي جميعًا، أن يرزقهن الله بأزواجٍ صالحين، شركاء حياةٍ يقدرونهن ويقدرون عائلتهن».

«أنتِ أم حنون كوكوكل، إن أطفالكِ محظوظونَ بك وبأغا صاحب أبوَين لهم».

المرأتان تريدان نجيبة، وليس أنا!

فريبا
10

كانت كوكوكل محقةً. جيراننُا يريدون أختي نجيبة. حين غادرتا عدتُ إلى غرفتي، وجدتّني نجيبة جالسة على الأرض بقميصي الداخلي فقط. قطع القماش الممزق في حِجري، عند قدميّ، خلفي؛ مزقتُ ثوبي الفضفاض لآلاف القطع. أخذتْ أختي المقص من يدي ونادت كوكوكل. جاءت كوكوكل وألقت نظرةً متشككة إلى المشهد، تنسج نظرياتها الخاصة عن ما حدا بي إلى تلك النوبة.

«خذي المقصَّ ودعيها وشأنها، لا أعرفُ معنى هذا، فريبا، لا مجال في هذا البيت للجنون أو التخريب».

بدت نجيبة قلقة عليّ. انتظرتُ أن تتركاني، سمعتُ كوكوكل تهمس لنجيبة في الرواق:

«كان لديها خاطبٌ وانظري ماذا حدث له. إن الغيرة تأكلُ الروح كالخل في الحليب. تعرف بيبي شيرين قصة فريبا كما يعرفها جيراننا جميعًا. يريد الناس زوجات محترمات لأبنائهم. إنها ابنة أبيكِ ولا أقصد إساءةً بقولي هذا لكن الناس يرونها يتيمة، فتاة بلا عائلة، لقد فقدتْ فرصتها الوحيدة للزواج بابن عائلة محترمة».

«لكنها من عائلة، مادر جان»، همستْ نجيبة تعارضها بهدوء.

«الأمـر ليـس بالمثـل عزيزتـي»، قالـت كوكوكل وطرقعـت بلسـانها. «لقـد حاولـتُ إشـعارها بأنهـا ابنتـي مثلـك ومثـل أخواتـك لكنهـا نـأت بنفسـها بعيـدًا، إنهـا تفضّـل القيـام بأعمـال البيـت عن الجلـوس معنا».

ظلّـت كوكـوكل طـوال حياتـي تمنحُنـي بالـكاد مـا يجعلنـي أظـن أن قولهـا هـذا قـد يكـون حقيقيًـا. مـرت أيـام احتضنتنـي فيهـا كمـا تحتضـنُ أخواتـي، مسّـدت شـعري كأننـي ابنتهـا، مـرت أيـام جلسـنا فيهـا معًـا نقـوم بأعمـال المنـزل ونضحـكُ علـى شـيء مـا فعلتـه مورية. مـر مـا يكفـي مـن تلـك اللحظـات التـي تسـاءلت فيهـا إن كنـت أنـا مـن خلقـت المسـافة بينـي وبيـن أسـرتي.

كنـت أعـرف أن حبيبـي لا بـدّ محطـم، تسـاءلتُ إن كان قـد علـم بمـا فعلتـه والدتـه حتـى. لـم يكـن غريبًـا أن تتخـذ الأمهـاتُ قـراراتٍ نيابـة عـن الأبنـاء الطائشـين، الفتيـان يفكـرونَ فـي اليـوم فحسـب، الأمهـات يفكـرّن فـي المسـتقبل، لكـن حبيبـي ليـس مجـردَ فتـى، كان فيلسـوفًا، كان صديقـي المقـرب، كاتـم أسـراري، سـنقاتلُ لنكـون معًـا، كان علـيَّ توقّـع هـذا.

لقـد قضـت بيبـي شـيرين علـى نبتـةِ حبنـا. محـت فرصتـي فـي أن يعوّضنـي العالـم عـن حرمانـي مـن حـبّ الأم والأب ومـن طفولـة طبيعيـة كطفولـة أخواتـي. ابتسـمتْ لـي برزانـة، تركتنـي أتقـدم نحوهـا ثـم سـحبت العالـم مـن تحـت قدمـيّ. سـقطتُ بمشـاعر المراهقـة المتأججـة بعمـق فـي حـب شـابٍ لـم أره مـن قبـل قـط.

جلسـتُ فـي ظـلّ شـجرة التـوتِ لأيـام لكنـه لـم يـأتِ. كنـت أجلـس هنـاك لسـاعاتٍ، تنطبـع نتـوءاتُ اللحـاء فـي ظهـري، دليـل إخلاصـي. عـادتْ بيبـي شـيرين إلـى بيتنـا فـي زيـارة ثانيـة وثالثـة. كانـت مُثابِـرة

ومستعجلة، تريد موافقةَ كوكوكل على خطبة نجيبة سريعًا. عرفتُ من استعجالها أن حبيبي لا يدري شيئًا عما تفعله. لا بد أنها سمعتْ بما يُقال عني وكانت تأمل أن تُجنّب ابنها الزواج بعانس كابول المشؤومة، ابنة الجيران اليتيمة الخادمة.

عاملتني نجيبة بحرصٍ شديد، في لحظاتي الأكثر هدوءًا، كنت أشفق عليها، أفسدَ حقدي عليها فرحتها بخطبتها. كنت أتحدثُ بكلماتٍ قليلة ولا ابتسم كثيرا. كنت مشغولةً بالتفكير في طريقة للتواصل مع حبيبي دون المخاطرة بكشف سرّنا.

على ضوء مصباح في المساء، كتبتُ قصيدة رابعة البلخي التي كتبتْها بدمائها على ورقة. لففت الورقة وتسللت من غرفتي عند حلول الظلام، اندفعتُ مارة بأشجار الكرز، تحت كرم العنب ثم إلى مكاني تحت أشجار التوت بجوار الجدار، توقفتُ، لم أسمع سوى نقيق ضفدع بعيد، فألقيتُ بالورقة الملفوفة أعلى الجدار على أمل أن يجدَها حبيبي السري ويعرف أن إخلاصي لا شك فيه رغم أنف من يريدون تفريقنا.

حلمت أنني وجدتُ الورقة على جانبي من الجدار. تخيلتُ الطرق شتى التي يمكنه مراسلتي بها، ظللتُ أحلم حتى وكوكوكل تستخدمُ التول الذهبي والصينية الفضية التي كانت تحتفظ بهما في أدراجها لإعداد شيرنيه نجيبة. ظللت أحلمُ حتى وهيَ تضع الشيرنيه أمام بيبي شيرين المبتهجةِ في غرفة جلوسنا المتواضعة، ونجيبة تدخلُ الغرفة وأخواتي يراقبنها وهنَّ في غاية الفرح. بدت جادةً وظلت تنظرُ في الأرض وبيبي شيرين تقبل خدّيها وتحتضنها بشدة. قبلت نجيبة يد حماتها.

كيف لا أحدق إلى خطيب أختي؟ كيف لا أنظر ببلهٍ إلى من خدعَني وجعلني أظن أنني أعني له شيئًا؟ كان وسيمًا بالفعل، ما زاد الأمر سوءًا. شعره كستنائي ناعم، عينان شاعريتان. بدا واثقًا من نفسه في بذلتهِ البنّية بسترتها الواسعة، لكن ليس بشكلٍ مبالغ فيه. جالت عيناه في الغرفة، تتحركُ بين الضيوف والأقارب بما يكفي لإدراك وجودهم فحسب. لم ينظرْ ولو مرة واحدة سواء إلي أو إلى نجيبة، وأنا على يقين من هذا لأنني جعلتُ مراقبته مهمّتي. ثم أبدعتُ في تفسير هذه الملحوظة.

أخيرًا، لم يعدْ من جدار يفصل بيننا، كان هذا ما أردناه، أليس كذلك؟ قبّل يدَ أبي ويد كوكوكل. عانقه أبي عناقًا صادقًا. عاد إلى جانب أمه، ثم رفعَ بصره ومنح عروسَه ابتسامة خجلَى. راقبتُ كل شيء. كنت أجول في الغرفة أقدّم قطع شوكولاتة بأغلفة ملونة للضيوف القليلين، أخت بيبي شيرين، زوج بيبي شيرين، عماتي وأعمامي.

كانت كوكوكل قلقةً من سلوكي الغريب فطلبتْ من سلطانة أن تقدم هي الشاي للضيوف، قد تكون محقةً في عدم ثقتها بي.

«نجيبة»، قالت بيبي شيرين بدموع الفرح. «من الآن فصاعدًا، أنتِ ابنتي، صار لديك والدتانِ حبيبتي، نحنُ سعداء بكِ جدًّا!»

حبيبتي؟ احمرّ وجهي للتفكير في محادثتِنا السرية، أحسست بتفاهتي وحماقتي. ربما يكون قد رأى رسالتي وهزّ رأسه لحماقتي، ربما ضحك لأنه تركَ الأمر بيننا يصل إلى هذا الحد، أو شعر بالحرج حتى لأنه فكّر فيَّ من قبل، الأخت اليتيمة غير الشقيقة، زوجة له.

أردتُ أن أركضَ خارج الغرفة، أن أمزّقَ قماش التول وأصنع ذاك المشهد ليسمعَني أحدهم أخيرًا، أردتُ أن أصب ألمي على الجدران.

حدقتُ أمامي مشدوهة، أدركُ ببطء أن كوكوكل مُحقّة. لقد أفسدتِ الغيرةُ حبّي لأختي، لقد كانت لحظةَ سعادتها، خطبتها لشابٍ وسيم من عائلةٍ طيبة ولا يمكنني مشاركتُها في فرحِها بسبب أفكارٍ سوداء تعصف بذهني.

ترددتْ فكرةٌ واحدة بصوتٍ أعلى من كلّ الأفكار الأخرى: نجيبة الآن لديها والدتانِ وأنا بلا شيء.

فريبا

11

كان اسـمهُ حميـد، صـار بإمكانـي الآن لفـظُ اسـمه دون أن يحمـرّ وجهـي خجـلًا إذ لـم يعـد لـي. سـررتُ إلـى حـد مـا أننـي لـم أنطـق اسـمه مـن قبـل. ليـس بالنسـبة إلـيّ سـوى مزيـج عـادي مـن الأصـوات. كذلـك لـم يؤثـر فـيّ وجهـه أيضًـا، ليـس لـديَّ ذكـرى لعينيـه ولـم أرَ يديـه قـطّ. كان غريبًـا عنـي، بطـرق كثيـرة جـدًّا.

أريـجُ البسـتان، وقْـعُ صوتـه، صـوت اقتـرابِ خطواتـه، كان هـذا مـا يثيـر فـي قلبـي الألـم والغضـب معًـا.

لن أكون عمياء هكذا مجددًا أبدًا.

قضـى المخطوبـان حديثًـا وقتًـا معًـا، سـارا فـي الحـيّ أمـام الآخريـن بابتسـاماتٍ خجلَـى ومحادثـاتٍ هادئـة. كان وجـه نجيبـة يحمـرُّ حيـن تعـودُ إلـى البيـت، أعـرفُ لمـاذا! كان بإمكانـي إخبارهـا بمحادثاتنـا الخاصـة والوعـود الفارغـة التـي قطعَهـا لـي خطيبهـا لكننـي فضّلـت الصمـت، لأن هـذا مـا يفعلـه النبـلاء، هكـذا قلـتُ لنفسـي.

ظللـتُ لأسـابيعَ أشـاهد المخطوبَيْـن يخرجـان ويعـودان. شـعَّ وجـه كوكـوكل سـرورًا وانشـغلتْ تمامًـا بترتيبـاتِ الزفـاف. صـارت تقضـي فتـراتِ ظهيـرةٍ كثيـرة مـع بيبـي شـيرين. كانـت كلٌّ منهمـا مأخـوذةً بالأخـرى بقـدر مـا كان المخطوبـان نفسَـيْهما. احتفظـت بمشـاعري لنفسـي بعـد ذاك اليـوم، تسـامحتْ كوكـوكل مـع سـلوكي بعـد الخطوبـة،

لـم تهتـم بالاستفسـارِ عـن شـيء. لـم تذكـر شـيئًا لأبـي عـن الثـوب الـذي مزقتـه.

قابلـتُ حميـد مصادفـةً فـي الفنـاء ذات مـرة، كان ينتظـرُ نجيبـة التـي عـادت إلـى المنـزل سـريعًا لإحضـار وشـاح. كنّـا فـي الخريـف حيـث هـواءُ الليـل البـارد يسـتمرُّ حتـى الصبـاح الباكـر. اصطفـق البـابُ ينغلـق خلفـي، استدار حميـد، فتبخـرتِ ابتسـامته الصبيانيـة حيـن رآنـي. لاحظـتُ التوتـر فـي سـاقَيه ويدَيـه. أراد الهـرب بكيانـهِ كلـه، فجـأة بـدا فناؤنـا كقفـصٍ صغيـر، بـدا كأن وجهَينـا علـى بُعْـد بوصـات.

غمْغَـم بتحيـةٍ مـا ونظـر جانبًـا، يـداه مختبئتـانِ فـي جيبَيْـه وباقـي جسـده كلـه يتمنَـى أن يتبعَهمـا.

تـرددتُ قليـلًا، أردتُ أن أنسـحبَ بسـلّة الملابـس المبللـة لتـي أحملهـا وأعـودَ إلـى البيـت لكـنّ تعبيـرات وجهـه منَحتنـي الشـجاعة. نظـر بعيـدًا بخجـل، وضـم كتفيـه معًـا كأنـه يحـاولُ طيّ نفسـه نصفَين.

«سـلام».. قلـت بصـوتٍ عـالٍ ووضـوح. فاجأنـي صوتـي. طـرَفَ حميـد بعينيـه.

مـررتُ بـه ببطء، واعيـة لكلّ نفَس من أنفاسـي وأحصـي الخطواتِ بيننـا بدقـة. سـرتُ إلـى ركـن مـن الفنـاء، مـا زلـت فـي مجـال نظـره، بـدأتُ أعلّق الملابسَ المبللـة علـى حبـل الغسـيل. أعصـر كلَّ قطعـة جيـدًا قبـلَ نشـرها. سيسـتغرقُ الأمـر سـاعاتٍ ليجـفَّ أيٌّ منهـا فـي هـذا الهـواء البـارد.

لمحتُه بطرفِ عيني يتململ.

أردتُ أن أكرهَـه.

«فريبا ...» قال بصوت لا يعلو عن همس.

كان ظهري لـه، أغمضتُ عينـي. سـقطت قطرتـا مـاءٍ من قميـص أبـي المبلـل وحطّتـا علـى أصابـع قدمـيّ.

«هذه الأمور شؤون عائلية، لم يكن بيدي شيءٌ حقًا»..

سمعته.مكتبة .. سُر مَن قرأ

«والآن أنـا أريـدُ لـكِ السـعادة فقـط، مـن أجـل عائلتَينـا، دعينـا ننسَـى الأمـرَ كلـه».

كانت نبرتُه حاسمة، امتزج شعوري بالعار بشعوري بالمهانة.

«ننسى ماذا؟» قلتُ فجأة.

«أتريديـن أن يكـون الأمـرُ هكـذا حقًـا؟ أنـتِ تعرفيـن أننـي لـم أقصـد الإسـاءة إليـكِ بـأي طريقـة».

«أنا لا أعرفُ أيَّ شيءٍ عنك. ونجيبة تعرفُ أقل حتى».

تأففّ بإحباط. استدرتُ وواجهتُ عينَيه المُضيّقتَين.

قـال مـن بيـن أسـنانه: «أنـتِ تعرفيـن أنـكِ مـن سـتواجهين المشـكلات لـو قلـتِ أي شـيء».

«لـو قلـتُ أي شـيء؟ أهـذا مـا يُقلقـكَ؟ أنـا لا أنـوي إفسـادَ يـوم أختـي»، قلتُ، نصف صادقة. «لكننـي أشـفقُ عليهـا لارتباطِهـا بشـاب يتظاهـرُ بتعليـق قلبـه مـن الأشـجار ويدنـسُ الشِّـعْر الـذي يـردده بأفعالـه».

«أنتِ لا تعرفينَ عن ماذا تتحدثين».

«لا أعرف ماذا؟»

نظر خلفه سريعًا واقتربَ نحوي خطوَتين.

«لقد قلت لأمي أن تطلبَ يد الابنة الكبرى لجيرانِنا، لا تظني أنني لم أُفاجأ حين عادتْ بعد أن خطبتْ لي نجيبة. كان أي شيء سأقوله بخصوص هذا الأمر سيجلبُ العار على عائلتينا».

حدقتُ إليه مشدوهة، توجد حقائق وأكاذيبُ ويوجد شيءٌ ما بينَهما، مياهٌ عكرة يتشوش فيها الضوء وينكسر. لا أعرف وجهه جيدًا لأحددَ إن كان يعني ما يقوله، لا يمكنني قراءة حركات شفتَيه ولا الظلال خلف عينَيه. أكانَ يريدُني أن أفهم؟ أن أصدّقَه؟ وإن كنت صدقته، فهل كان سيغيّرُ هذا بقية قصتنا؟

عادت نجيبةُ بوشاحِ سلطانة مربوطًا حول عنقها. انفرجتْ أساريرُها بابتسامة. لم تعدِ الفتاةَ الخجولةَ التي تنظر إلى الأرض. غدت تألفُ وجودَه ويمكنها السيرُ إلى جانبه بلا خجل، كنتُ أرى السعادة في وجهها.

لم نتحدثْ أنا وحميد عن ماضينا الموجز مرة أخرى قطّ. لن أعرفَ أبدًا إن كان قد شعَر نحوي بأي شيء أكثر من اهتمامٍ مسلٍّ حقًا أم أنه تورّط في زواج لم يردْه. علق بيننا الحرج من أيامنا في البستان فكنا نادرًا ما ندع أعيننا تلتقي. لم تشعرْ نجيبة بالظلّ بيننا، إن كانت قد شعَرت فلم تقلْ شيئًا بشأنه، كنتُ سأفعل مثلها لو كنتُ مكانها.

في الأيامِ التي تلت الزفاف، تلقّت كوكوكل زيارةً أخرى من بيبي شيرين وأختها خانوم زيبا هذه المرة، التي جاءت بحثًا عن عروس.

جاءت خانوم زيبا تطلبُ يدي.

ضحكتْ كوكوكل. أعرفُ زوجة أبي جيدًا فلم يُزعجْني ضحكها، لم أكن مستعدة للزواج ليس لأنني كنتُ صغيرة بل لجرحٍ في قلبي، رأيت وهم الحب لكنني لم أرَ الحبَّ الحقيقي، فلم أكن لأومن بوجوده.

كانت خانوم زيبا أكثر النساء عطفًا، تخيلت أن أمي كانت ستحبها، سمعتُها وعينيّ على الزخارف الصغيرة لسجادة غرفة جلوسِنا تقول عني أشياء لم يقلْها عني أحد.

«إنها كلّ ما أريده لابني، عرفت أنها ستكونُ من عائلتنا ما إن رأيتها».

كان عليَّ أن أنظر إليها. شجّعتني كلماتها على رفع عيني ومقابلة عينَيها. تغضَّن الجلدُ حول عينَيها البنّيتين الصريحتَين وهي تتحدثُ بهدوءٍ إلى كوكوكل التي كان فضولها يأكلُها لتعرفَ لماذا اختارتني.

«حلمتُ ذات مرة.. منذ سنوات.. بيوم زفاف ابني، حين استيقظتُ تذكرتُ الحلم بحذافيره كأنني كنتُ في الحفل الليلة الماضية بالفعل، بما في ذلك وجهُ العروس حين رفعنا الطرحة الخضراء قبل عقد الزواج، حين جئت إلى بيتكم وقابلت فريبا، عرفتُها».

قالت كوكول: «من حسنِ حظ ابنكِ أنك لم تحلمي بابنة الخباز، ببشرتها الداكنة كالخبز الذي يحرقه».

وارَت النساء ابتساماتهن بأيديهن، مع ذلك لم يؤثرْ تعليقها في حماتي المستقبلية.

إن ابنتكِ فتاةٌ مميزة، تستحقُّ حياة ملأى بالخير والدفء مثل قلبها.

كانت كلماتُها قمرًا متوهجًا يقتربُ من الأرض في سواد الليل. ذُهِلت كوكوكل وطلبت مني الخروجَ من الغرفة، لكن خانوم زيبا سارت إليّ ووضعتْ يدها على يدي لتطمئنني.

أردتُ أن أصدق.

فريبا

12

مكتبة
t.me/soramnqraa

شهدتُ خلال حياتي في أفغانستان تغييراتٍ كثيرة في النظام، بدأت بوفاة أمي وزواج أبي بأخرى. كانت بعضُ التغييراتِ أصعبَ في تقبّلها من الأخرى.

صرت أدعو خانوم زيبا «خالة زيبا» ما إن وضعت كوكوكل شيرنيهي أمامها لإعلان الموافقةً على طلبها يدي للزواج. ما كنت قد رأيتُ ابنها محمود من قبل. بطريقةٍ ما، كنتُ قد سقطت في حبّ خانوم زيبا نفسها، فغدا ابنُها مجردَ امتدادٍ لها.

حين أخبرتُها بأنني أريدُ أن أكون معلّمة، أصرّتْ على أن أسعى لهذا بالفعل، كانت هي أيضًا معلّمة. سجلتُ في برنامج إعداد معلمين وشققتُ طريقي الدراسي بدعمٍ من عائلةٍ كنت بالكاد جزءًا منها. كان أبي وكوكوكل سعيدَين برؤيتي أدرس.

«دراسة، دراسة، دراسة. سيهديكِ زوجكِ الطباشير والكراسات ما لم توضّحي له حبكِ لأشياء أخرى غير الدراسة».. قالت كوكوكل تغيظُني.

تزوجنا أنا ومحمود عام 1979. بعد عام من خطوبتنا وضع أول الجنودِ السوفيت، ذوي الوجوه الطفولية، حذاءه الثقيل ذا الرقبة العالية على أرض أفغانستان. بعد أن حصلتُ على شهادة التدريس بدرجة عالية، كنتُ أستيقظُ يوميًا بطاقةٍ متجددة لعملي

على رأس فصل في مدرسة إعدادية. كان الطلبة متحمّسين كطيور فقستْ حديثًا في عشّها ولم تتعلم الطيران بعد. كانتْ مهمتي أنا تغذية عقولهم المتفتحة، وتعليمهم الكلماتِ والأرقامَ والأفكارَ التي تجعلهم يبْسطون أجنحتهم.

بعد شهرَين فقط من زفافنا، تلقّى محمود أنباءً بأن أسرة عمّه - بما في ذلك أربعة أطفال لقوا حتفهم في قصفِ الصواريخ السوفيتية على وادي بنجشير. قضينا الأشهر القليلة اللاحقة كزوجَين حديثين في حداد. حين جاء الزوار لتقديمِ التعازي لعائلة المرحوم، سمعتُ عمّات محمود وأبناء عمومته يطرقعون بألسنتهم لمفارقةِ وجود عروسٍ جديدة في العزاء.

«*كما حذرونا تمامًا*، همسوا قائلين، *إنها شؤم... وهي الآن بيننا، لقد حذرتنا أسرتها نفسها...*»

وصلتْنا الشائعات، تجاهلتْها خالة زيبا حماتي، لم تقل شيئًا حين قرر محمود آسفًا أن ينأى بنفسه عن العائلة ونميمتها، كان يريدُ حمايتي من نظراتِ الأقاربِ المتطيرين الذين يُبعدون أطفالهم عني خوفًا عليهم.

كان يحذرني قائلًا: «*النساء الحمقاواتُ خطر، الأفضل لكِ أن تبقي مع زميلاتكِ، النساءِ اللواتي يشغلنَ أنفسهن ببيوتهن وعملهن مثلك، لا تأبهي بالضجيج في قنّ الدجاج*».

شعرتُ بالراحةِ والدهشة لأنّ زوجي يرفضُ هذا التشنيع، انبسطت كتفاي تنفردان لسماعهِ يدافعُ عني، خصوصًا أمام عائلته، ذكّرني هو وخالة زيبا بجدّي حين كان يحميني من كلماتِ كوكوكل الجارحة. جعل محمود الأرضَ تتوقفُ عن الاهتزاز تحت قدميّ، بأخلاقهِ وحبّه الصامد، منحني مساحة وسببًا لأُحبَّه.

شغلتُ نفسي كما اقترحَ عليَّ. أقضي فترةَ ظهيرة مع معلّمةٍ زميلة، وأغرق نفسي في عملي. كنت أتوقعُ الكثير من تلميذاتي وكنّ بدورهن يجتهدْن. أعرف أنني لستُ صارمةً كالمعلّمات الأخريات لكنني أراهنُ على حب تلميذاتي لي كما كنَّ هن يُراهِنّ على حبّي لهن.

كنت أهتمُّ بملابسي وأبذلُ قصارى جهدي لأبدوَ ذكية. في بيت أبي كنتُ أرتدي ملابسَ فتاة؛ بنطالَ جينز، تنانيرَ طويلة وتيشيرتات برقبة. في بيتي الجديد، بتُّ أرتدي ملابس امرأة؛ تنانير ضيقة، بلوزات بطيّات كثيرة، أحذية بكعب عالٍ، ودائمًا حقيبة يد. مع محمود، كان لديّ ميزانية أسرتنا معًا، وكنت حرةً في إنفاق راتبي الخاص كما شئت، لم أكن مسرفةً، بل أنيقة بما يكفي لجعل زوجي يشعرُ بالفخر في أثناء مغادرة البيت لحضور حفلٍ عائلي أو لزيارة أقارب. كان ينظر إليَّ كأنني أنا أيضًا أمنحهُ مساحة وسببًا ليحبني.

كان رومانسيًا. سافر ذاتَ مرةٍ داخل البلاد، غاب أسبوعين وعاد بأربعة عشر خطابًا كتبها لي، رُزمة سميكة من أفكاره عن لقائنا الأول، مستقبل وظيفته وفيلمه الهندي المفضل.

«سيؤلمكِ رأسكِ يا فيري، إن كان لديّ كل هذا مكتوبًا، فتخيّلي كم ما لدي لأتحدث عنه!»

على الأقل كان لدى كلٍّ منا الآخر ليبتسمَ له في تلك الأيام. كانت أفغانستان تعاني خسائرَ فادحةً في خضمّ الحرب بين السوفيت والمجاهدين، مقاتلو أفغانستان من أجل الحرية. دفنتْ كثيرٌ من الأمهات أبناءهن. سار المزيد من الأطفال يعرجون إلى

مدارسهم، بعد بتر أطرافهم جرّاء متفجراتٍ متنكّرة في هيئة دُمًى أو سياراتٍ لعبة.

كنا نستمعُ للأخبار معًا ونحنُ جالسان على الأريكة، ذراعه حول كتفيّ أو ظهري مائل على صدره. يهز رأسه غضبًا لنزوح الأفغان من الأقاليم الغارقة في الدم لاجئين إلى العاصمة.

عشنا في هناء كزوجَين سِتّ سنوات، حزينان بهدوءٍ لأن بطني لم تنتفخ بطفل، لم نتحدث عن الأمر بشكلٍ مباشر لكنني حين ذكرتُ رغبتي في أن أكون أمًّا وافق على أن أرى طبيبة. ذهبتُ إلى أفضل الطبيبات في كابول وتناولت الحبوب التي وصفتْها لي بثقة، ابتلعت أسوأ مناقيع الأعشاب التي أعدتها نساءٌ عجائز يجلسن على الطريق. شهرًا بعد آخر، ظلت دورتي تعاودني، حتى شعرتُ أخيرًا بانقباض، ذات صباح وأنا أرتدي ملابسي للذهاب إلى المدرسة، فأخبرتُ محمود وأنا أجهش بالبكاء أنه لن يعاني من الحرمان من الأطفال بسبب رحمي القاحل. عانقني بقوةٍ ورقّةٍ لم أتخيّلْ أن أحدًا غير أمي قد يعانقني بهما، وهمسَ في أذني ألّا أقولَ ذلك مجددًا أبدًا. تعلمت شيئًا مهمًّا جدًّا ذاك اليوم.

الحبّ ينمو بقوةٍ في حدائق الضرّاء.

جاء سليم بعد ذلك بوقتٍ قصير. أخبارٌ سعيدة أعادت شعلة النميمةِ للتوهّج. كانوا في السنوات التي لم نرزقْ فيها بأطفالٍ يقولون انظروا إلى حالهما. سُرعان ما تحوّل هذا إلى همساتٍ عن لجوئي إلى السحر الأسود لإزالة لعْنتي. على الجانب الآخر، هنّأتني صديقاتي المُعلّمات وفرحْن معي، رغم معاناة أغلب العائلات في كابول في تلك الأوقات العصيبة، جمعن معًا ما

أمكنهن ليُحْضرْن بعض الهدايا للمولود، سترات مخيّطة باليد، صغيرة إلى حد لا يمكن تصديقه، بطاطين مخملية وطبق بسكوت بماءِ الورد. احتفلتْ خالة زيبا معنا، أعدّت لنا أفضل الأطعمة واعتنتْ بحفيدها حتى استرددتُ صحتي بعد ولادةٍ عسيرة.

حين ذهبنا لزيارة عائلتي، لاحظتُ تغيّرًا في كوكوكل. كانت تعاملني كأنني ابنة عمٍّ جاءت من مدينة أخرى. لا تعرف كيف تعاملني الآن إذ لم أعد مُلْكها لتلمزني بلسانها الحاد. كانت نجيبة قد غادرت البيت وكذلك شقيقي أسد، وازداد أبي عزلة أكثر حتى بعد مغادرتي البيت. كانت كوكوكل وحيدة دون جمهورها.

بدا ظاهريًا أنها مالت إلي أخيرًا لكنني شعرتُ بفتورها. كنت أزورهم دائمًا لأرى أخواتي الصغيرات لكنّها حافظت على مسافةٍ بيني وبينها.

حين بلغ سليم أربع سنوات، عام 1989، كانت آخرُ كتائب السوفيت قد انسحبت. دعونا اللّه أن يمنحَنا بعض الهدوء.

لكن لم يكن مقدرًا لنا الهدوء. كانت الأمور في كابول تزداد سوءًا حين جمدتني ومحمود الدهشة لتلقّينا معجزة ثانية. سمَّيناها سميرة. بابن وابنة بِتنا في أمس الحاجة إلى عودةِ السلام إلى أفغانستان.

كانت الصواريخُ تنهمر على مدينتنا فيما تستولي الفصائل المتناحرةُ على العاصمة.

كان سليم يتوق إلى حياةٍ عادية، طلب مني ذات يوم أن يقضي فترة ظهيرةٍ في بيت صديقه على الجانب الآخر من المدينة. فرفضتُ السماح له بذلك.

لكن لماذا لا مادر جان؟ سأل شاكيًا، قاسم صديقي المفضل وسوف أعود قبل العشاء.

قلت لا، سليم جان. لقد تحدثت وأبوك عن هذا الأمر بالفعل. المنطقة كلها تجذب الصورايخ كالمغناطيس.

جعلتُ صوتي صارمًا ما أمكنني بما لا يدع مجالًا للنقاش، لم أكن أحب منعه من اللعب مثلما اعتاد الفتية اللعب عندما كنت في سنّه، لكننا عشنا أزمانًا مختلفة. ظلّ واجمًا بقية الظهيرة ثم أوى إلى النوم دون أن يتناول عشاءه، عقابًا لنا نحن الاثنان.

في الصباح جاء جارُنا رحيم ليدردشَ قليلًا مع محمود. دمّر القصف الصاروخي بيوتًا عدة ليلًا، ولقيَ طفلان على الأقل حتفهما. استمعت وأنا أعد الخبز والشاي للإفطار، حين انتهينا من تناوله جلستُ أقرأ القرآن، كيف بغيره يمكنني حمايتنا؟

عرفَ سليم من المدرسة ما عرفتُه فيما بعد من إحدى صديقاتي، نجا صديقه قاسم من قصف صاروخي لكنّ أختَه ابنة الثلاث سنوات لقيَتْ حتفها، اختنقت تحت الأنقاض وعائلتها تحاولُ سحبها. لم يقلْ شيئًا لي ولم يكن لديَّ شيء لأقوله له. كان ذلك خطأ، أفكر الآن. أن ظننت أن الصمت يمكنه حمايتنا من الحقيقة الرهيبة.

أصرّ النظام الجديد، طالبان، على ارتداء النساء الحجابَ وإطلاق الرجالِ لُحاهم كما تنص الشريعة الإسلامية. كانوا كل يوم يصدرون باقة جديدةً من القرارات وينفّذون عقوباتٍ خفيفةً على من يخرقها. لم يعد مسموحًا لي بالتدريس، لأنني امرأة، كذلك لم يعد مسموحًا للفتياتِ بالذهاب إلى المدرسة.

أخافني هذا وآلمني. انفجرتْ سنوات حزني وحرماني من المدرسة لتصبح قصة جميع الفتيات الآن. ماذا لو طعنك أحدهم في جرح قديم؟ كنت أغتمُّ حين أفكر في الفصول الدراسية الكثيرة الخالية.

كانوا متشددين ومسلّحين. كنا نراهم من نوافذنا ونسمعُ خُطبهم. ورغم وحشيتهم وجهلهم، كان بعض جيراننا يؤيدُ صعودَهم لوضع حد للقتال. كنا جميعًا في أمسّ الحاجة إلى السلام، الذي وعدوا به.

دخل سليم المدرسة الابتدائية، جلستُ في غرفة جلوس مع مجموعة من المعلمات العاطلات عن العمل، نرتشفُ أكواب الشاي الخفيف. كنت ومحمود نقضي الليالي نتحدّث، نأمل ألّا يسمعَ طفلانا همسنا القلق. كان الأعمام والعماتُ يأتون لتوديعنا بالأحضان والقبلات الدامعة قبل أن يتركوا أفغانستان. يسألنا سليم إلى أين هم ذاهبون ويُدهش حين يسمعُ قائمة البلدان؛ باكستان، هنغاريا، ألمانيا.

سقطتْ خالة زيبا وهي في السوق ذات يوم، حين بلَغنا الخبرُ ركضتُ أنا ومحمود إليها، كانت فاقدةً الوعي، أخبرَنا الطبيبُ في المستشفى بأنها أزمةٌ قلبية وأنه ليس بيدنا فعلُ شيء لها، ستتعافى إن استطاعتْ. أعدناها إلى البيت وظللتُ بجانبها ثلاثة أيام، أمسّد جبينها بقطعِ قماشٍ مبللةٍ بماء بارد، وأطعمُها الحساء. دعونا الله أنا ومحمود، سبّحنا بمسبحتها. تحدثتُ إليها حتى وإن لم تُجبْني. كان زوجي يَذْرعُ الخُطى في الغرفة ويقبّل يديها، يعاني من شعوره بالعجز، لكن لم يكن ثمة شيء لفعله. غادرت حماتي هذه الحياة برقةٍ كما عاشتْ.

كان يجبُ أن أنهارَ حينها لكنّ ذلك لم يحدث. فقدتُ الأم التي وجدتُها لتوي، أول امرأة عاملتْني كابنة حقًا. افتقدتُ حديثي معها. هي من علّمتْني كيف ألفُّ سليم جيدًا وأخففُ من مغصه. هي مَن اعتَنتْ به حين ثقل حملي بسميرة تمامًا، وطهتْ له الأرز بالبازلاء. كان النظرُ إلى أطفالي دون التفكير فيها صعبًا. بحثتُ عن طريقةٍ لأُلْهي نفسي.

ظللتُ لأشهر قليلةٍ أعلّمُ فتياتِ الحي في فصلٍ دراسي مُرتجل في بيتي. لكن حين أعدمتْ طالبان ثلاثة أشخاص خلال أسبوع واحد لإدارتهم مدارس سرية، حتى جيراننا منعوا فتياتهم من الخروج من البيت. صار بيتنا خانقًا وقاتمًا بعدما كان ذات يوم مُشرقًا ومرِحًا. كان محمود حزينًا وصامتًا، أطلق لحيته على مضض كما فُرِض عليه، على الأقل هدأت الانفجارات مع هذا النظام الجديد.

وجد سليم وسميرة طرقًا ليلعبًا ويضحَكا في البيت، كنت أكاد أصدّقُ أن حياتنا طبيعيةٌ وأنا أستمعُ إليهما من الغرفة المجاورة.

كان سليم في الصف السابع حين ألقَى نظام طالبان القبضَ على عددٍ من الأوروبيين لالتقاطِ صورٍ لمُستشفَى نساءٍ في كابول. لذت أنا ومحمود بالصمتِ حين سألنا سليم عن الأمر.

ترى طالبانُ أنه ليس من قواعد الإسلامِ التقاط صورٍ فوتوغرافيةٍ للنساء، أخبره محمود، لم يمكننا المخاطرة به يردد أي شيء أكثر من هذا بين أصدقائه في الفصل.

لو كنت أوروبيةً لم أكن لأترك وطني لآتي إلى كابول قط. ليس في تلك الأيام. كنت سأبقى في بولندا أو إنجلترا أو إيطاليا حيث

لا توجد صورايخ في الأعلى، وحيث يوجد اللحم والخضروات بوفرة، وحيث لا تخاف النساءُ الخروجَ من بيوتهن، لماذا قد أتركُ الفردوس لآتي إلى كابول؟

في العام التالي، مُنعتْ أجهزةُ التلفاز والفيديو. الموسيقى حرام. كان محمود يتّقد غضبًا لكنه لم يجرؤ على الحديث بصوتٍ عالٍ عن تدمير مجتمعنا سوى في نطاق دائرة أصدقائه المقرّبين فقط. ظل يعملُ في وزارة المياه والكهرباء مهندسًا ميكانيكيًا. كانت مهمته الأساسية التركيز على توصيل المياه الصالحة للشرب والطاقة الكهربائية إلى المناطق النائية في كابول لكنها تغيرت في ظل القرارات الجديدة، كان كل يوم جديد يحمل لنا ممنوعات جديدة وتحذيرات طالبان عما يجوز وما لا يجوز بناؤه في كابول.

«إلى متى سنظل بلا تقدم أو بناء؟ هذا البلد يعود إلى الخلف في الزمن». كان قد تغيّر كثيرًا، انحنت كتفاه كأنهما تحملان عبء العالم. كان المحارة ذات اللحية التي تخفي نفسه السابقة. تساءلتُ إن كنت سأرى الرجلَ الطويل الفخور الذي يمكنه رفْعُ طفلَيه في الهواء حتى يدوخا من الضحك مجددًا.

عام 1997، سيكونُ على سميرة أن تجمع أقلامَها الرصاص بحماسةٍ وتردد الأبجدية وحدها استعدادًا للذهاب إلى المدرسة. لم نستطع إفهامها لماذا لا يمكنُها الذهاب إلى المدرسة مثل أخيها. قلتُ لها إن هذا لا يهمُّ وركّزتُ كل طاقتي في تعليمها المناهجَ الرسمية في البيت. شعرت بالراحة لعودتي إلى التدريس مجددًا ولمواجهتي النظام بطريقتي الخاصة.

عـام 1999، رغـم كل شـيء، بـدأت بطنـي تنتفـخُ مـرة أخـرى، كان لنـا أن نبتهـج لذلـك لكننـي شـعرتُ بالاختنـاق، كنـت أحبـس دموعـي كلمـا تحدثـتُ أنـا ومحمـود عـن مسـتقبلنا.

«والآن سـنأتي بطفـلٍ آخـرَ إلـى كابـول هـذه؟ كابـول التـي لـم نعـد نعرفهـا؟ لمـاذا؟ إن كانَ ولـدًا سـيكبرُ دون أن يعـرف شـيئًا سـوى اللحَـى والخـوف. ولا قـدّر الله أن تكون فتـاةً تعيسـة الحـظ! لا أظـن أن بإمكانـي تحمّـل هـذا، أشـعر بالعـار أمـام سـميرة بالفعـل، خوفـي مـن عُصـيّ هـؤلاء الطغـاة ذوي العمامـات الذيـن حرمونـي مـن عملـي وصديقاتـي وحرّيتـي فـي الحركـة! كيـف سيكون مسـتقبل ابنتـي؟»

كان محمود يشعر بالهزيمة مثلي تمامًا.

«معـكِ حـق فيـري، حـان الوقـتُ لنذهـب، ماتـت كل آمالـي لهـذا البلـد، كل يوم أسـوأ ممـا قبلـه، سـأجد طريقـة لخروجنـا ولندعـوَ الله أن يتـمَّ ذلـك قبـل الـولادة، يـا الله، ليتنـا فعلنـا مثـل الآخريـن، لكُنّـا الآن فـي إنجلتـرا، مثـل أختـكِ وابنـةِ عمـي. لـم أتخيـلْ قـط أننـي لـن أسـتطيعَ إرسـال ابنتـي إلـى المدرسـة».

ارتحـت لقـرار الرحيـل وخفـت مـن تـرك الوطـن. دون خالـة زيبـا، لا شـيء يُلزمنـي بالبقـاء. قابلَ محمـودُ رحيـم، الـذي يعـرف مسـؤولًا حكوميًـا -لقـبٌ كان يُفـرَّغ مـن معنـاه بمـرور الأيـام- الـذي بـدوره وعدَنـا بجـوازَات سـفر أفغانيـة مختومَـة مقابـل نصـف مدخراتنـا الهزيلـة تقريبًـا. كان رحيـم وحـدة الاتصـال بـه مقابـل نسـبته الخاصـة.

عبـور الحـدود أمـرٌ خطيـر حتـى بجـواز السـفر،أكّد علينـا رحيـم أن نؤمّـن جـوازَي سـفر أجنبيَّيـن أيضًـا لأن جوازَينـا الأفغانيَّيـن لـن يذهبـا بنـا بعيـدًا. كان رحيـم يعـرف أيضًـا مُـزوِّرًا يُدعـى «السـفارة». رجـل

ماهـر كان يعمـل مشـرفًا فـي مطابـع صحـف كابـول، حيـن أسـكتت طالبـان ضجـة الصحافـة، حمَـل «السـفارة» آلـة طابعـة ملفوفـة بعبـاءةٍ إلـى بيتـه بهـدوء، دسّ زجاجـاتِ الحبـر فـي جيـوب معطفـه وخطـط لمسـتقبلِ عائلتـه، كان، مثلـي ومحمـود، صـاحب مِهنـةٍ حُـرِم منهـا.

مـع ذلـك كان مختلفًـا عنًّـا، كان «السـفارة» يخـافُ بشـدة الخـروجَ مـن كابـول، فـي حيـن كنـا نخـاف بشـدة البقـاءَ فيهـا. لـم يكـن قـد اتّضـح بعـد مَـن منـا صاحـبُ القـرار السـليم.

فريبا
13

قبل شهرَين من ولادة طفلي الثالث، أرسلتُ سليم إلى السوق لشراء ملح، كان ظهري يؤلمني، سيعودُ محمود إلى البيت قريبًا، وسيرغب في تناول عشائه، دون ذرّة ملح في خِزانتنا سيذهب الأرز واليخنة هباءً.

يتأخرُ ابني المغامر دائمًا، راقبتُ الساعة وطمأنتُ نفسي أنه قابل أصدقاء. غابت الشمسُ خلف قمم الجبال، مضت على غيابه ساعتان، في حين كان عليه العودة خلال عشرين دقيقة.

جلستُ على مقعد وحاولتُ فك عقدة ألم تكونت أسفل ظهري. أعصابي على حافة الانهيار، هرولتُ إلى غرفة الجلوس حين سمعت صوت فتح البوابة، متأهبةً لتأنيب سليم على تلكئه ومتلهفة على عودته إلى البيت، لكنه كان محمود! عاد إلى البيت مبكرًا قليلًا عن عادته. نظر إلى وجهي ووضع حقيبته على الأريكة، رأيت عينيه تمسحان غرفة الجلوس سريعًا بحثًا عن مفتاح للغز.

«ما الخطب، فريبا؟ أين سليم؟»

أجهشتُ بالبكاء. منحتْني عودته إلى البيت متنفسًا، لم أنم جيدًا خلال الأسبوع الماضي فكنت مرهقة بشكلٍ استثنائي. دفعتني آلامُ ظهري وساقيَّ والقلق على سليم إلى ما بعد نقطة تحملي، لكنني كنت وحدي في البيت مع سميرة الحساسة إزاء حالاتي المزاجية، لذلك حاولتُ رسم الوجه السعيد.

لفّ محمود ذراعهُ حولي، ذكّرني بأن سليم بالتأكيد وجد أصدقاءه يلعبون في الشارع وأنه نادرًا ما يعود إلى البيت مباشرةً حين نرسله لشراء شيء. كنا مختلفين تمامًا في هذا الشأن، أنا أقلق قبل أي شيء، وهو يقلق متأخرًا جدًا.

عملًا باقتراح زوجي أعددنا المائدة للعشاء، فردتُ مفرَشَ المشمع في غرفة الجلوس، ووضعتْ سميرةُ -التي تتحمسُ أكثر لإرضائنا حين يسببُ أخوها مشكلات- الأطباقَ والملاعق، كانت وجبةً بلا طعم، سواء بملح أو بلا ملح، قفزَ قلبي حين سمعتُ صوت البوابة، وضع محمود يده على يدي.

«دعيه يأتي إلينا، هانم»، قال بهدوء، أومأتُ له وأنا أحركُ الأرز في طبقي بلا هدف، نظرتُ إلى سميرة، لمعت عيناها الداكنتان لسماع صوتِ خطوات أخيها.

دخل سليم غرفةَ الجلوس متعبًا.

غمْغَم قائلًا: «سلام».

نظر محمود إليه، وجهُه هادئ ورزين.

«سليم، اذهبْ للاستحمام، أنت مغطّى بالتراب، أتمنى أن المباراة كانت تستحقُّ إقلاقَ والدتك عليك».

أطرق سليم برأسه، ووضع كيسَ الملح على المنضدة وتمتم بشيءٍ ما يشبه الاعتذار. حين عاد بعد أن استحمّ كنا قد أتينا على كلّ ما في الأطباق ما عدا طبقًا صغيرًا من الأرز. جلسَ سليم متربعًا أمام المفرش محرجًا لكنه يتضوّرُ جوعًا. رفعتُ أنا وسميرة بقية الأطباق، جلس محمود على المقعدِ ليقرأ كعادتهِ كلَّ مساء.

نظرتُ خلسةً لأجدَ سليم قد التهمَ طعامه في نفَسٍ واحد، ثم جلس يحملقُ إلى السجادةِ مشدوهًا، شعرتُ بفزعهِ، كان توقُّع العقابِ أسوأ بكثيرٍ من العقاب نفسه.

«سليم، أليس لديك شيءٌ لتقوله؟» بادرته وأنا أجفف يدي بمنشفةِ الأطباق. أطرق برأسه، يعتذر بجسدهُ رغم عجزهِ عن لفظِ الكلمات.

أخفضَ محمود نظارةَ القراءة ووضعَ كتابهُ على الطاولة الصغيرة إلى يمينه، كان يقرأ أشعارَ إبراهيم خليل، شاعر كابول غزير الإنتاج الذي يحبّهُ كثيرون من آل حَيدري. كانا محمود وحميد قد حضَرا وهما طالبان في الجامعة محاضراتٍ لخليل. ومع حبي لأشعاره لكنني كنتُ أخجلُ بشدةٍ حين أسمعُها فأتذكر رغمًا عني زوج نجيبة. حين سمحت ذات مرةٍ لابن خالةِ زوجي بترديدِها على مسامعي. كان محمود يحاولُ من حين إلى آخر أن يُشركَني في بيت أو قصيدةٍ، لكنني لم أستطع، كنت أشعر بأنني خائنة.

«ارفع بصرَك يابنيّ».. قال محمود.

جلس سليم متربعًا أمام أبيه ورفع رأسه ببطء، سكت محمود، يفكّر في ما سيقوله.

«سأقرأ لك شيئًا».. قرر محمود وأمسك كتابَ خليل:

اعلَمْ أن حظّكَ لا يشوبهُ شيء
رضعتَ صغيرًا لبنًا صافيًا
التيهُ المؤلمُ الذي تشعرُ بالسجنِ فيهِ
من صنْعِ خيالِكَ ليس إلّا
لأنّ القديرَ لا يُعاقِبُ
ولا يُعسّرُ ولا يُضلُّ ولا يُعذّب
الصعبُ والحزنُ على أكتافِنا
ليسا سوَى ما اختَرْنا بأنفسِنا أن نجْنيه.

«أتفهمُ معنَى هذا؟»

«نعم بادر جان».

«أخبرْني سليم جان، ماذا يعني لكَ هذا؟»

«أنني ينبغي ألا أتصرّفَ بصبْيانية».

«سليم جان، أنا آسفٌ لأنكَ تستيقظُ في الصباح كلَّ يوم لتجدَ هذا العالمَ حولك، أنا آسفٌ لأنّ هذه كابول، أفغانستان التي تراها، كنت أتمنّى أنْ تأخذَ خطواتكَ الأولى بلا قصفٍ فوق رأسِك، هذا ليس مكانًا مناسبًا لطفل، لكن لهذا تحديدًا عليك أن تنهض وتمضي قدمًا، عليك أن تجدَ طريقةً لجعْل الموقف في مصلحتك، لتجنيَ محصولًا ناضجًا».

رأيتُ السخط على وجه سليم، كان كل ما يخبره به العالم أن لا. أخبرني بهذا من قبل أكثر من مرة. الأشياء التي تمكنه أقلّ القليل؛ في حين ما لا يمكنه لا حصْرَ له، لكنه أمسك لسانه ولم يعترضْ على الظلم الذي أقرّ به محمود.

«سليم جان، بُنيّ، لقد حانَ الوقت لتنْتبهَ جيدًا لتصرفاتك، أنا وأمكَ نعْتني بكَ لكنكَ كبرْتَ ولم تعد صبيًا صغيرًا».

كنت أحيانًا أطلبُ من محمود أن يكونَ أكثرَ صرامةً مع طفلينا، لماذا يخافان عقابه؟ لم أفهم. لم يكن يفعلُ سوى تأنيبهما ورمْقهما بنظراتٍ محبطة، لكنهما يحترمانه، وأنا أيضًا. في ليالٍ كثيرة، كنت والأطفال نُحاوطُه، نتسابقُ للجلوس بجوارهِ وسماع قصصه، كان يلف ذراعيه حولنا جميعًا، يجمعنا كلنا في رابطةٍ واحدة.

كنتُ أفقد نفسي في تلك اللحظات، أحبُّ زوجي أكثرَ مما يمكنني تخيّله، في أغلب الأحيان أفتقدُ خالة زيبا وأتمنّى أن يمكنني شكرها على وضْعي بين ذراعَيه.

فـي الليـل، والطفـلان يتنفّسـانِ بهـدوءٍ بجوارنـا، دلّـك لـي عقـدةَ الألـمِ فـي ظهـري.

«سيكونُ سليم رجلًا رائعًا، لديهِ روحُ أسدٍ في عينَيه الصغيرتَين» قـال هامسًـا.. «قبـلَ أن نلحـظ، سيأتي اليـومُ الـذي سيغدو فيـه هـو نفسُـه ربَّ بيـتٍ وصغـاره حولـه. أتعرفيـنَ بمـاذا أدعـو الله جانـم؟ أدعـوه ألّا يأتـي هـذا اليـوم مبكـرًا جـدًا ولا متأخـرًا جـدًّا».

أخذتُ يديه من فوق ظهري ولففْتُهما حول خصْري.

«وأدعوه أن يُقدّر لي رؤية ذلك اليوم».

«إن شـاء الله، سـنراهُ نحـن الاثنـان»، اسـتطعتُ القـول قبـل أن تتـورم الغصّـةُ فـي حلْقـي.

فريبا

14

بعد ذلك بشهرٍ حلّتْ إجازةُ العيد. كان وقت زيارات الأقاربِ والأصدقاءِ للمُعايدة حسْبَ التقاليدِ رغمَ كآبةِ المدينة. لذلك حين سمعْنا طرْقَ الباب لم نُدهش، ذهب محمود ليفتحَه وبدأت أعدُّ الشاي تلقائيًا.

لكنّ طارقي الباب لم يكونوا أقاربَ ولا أصدقاء.

اندفع رجالٌ ذوو هيئة فظةٍ عبر فنائنا ودخلوا الصالة:

«هذا هو بيتُ المهندس إذن».. قال أحدهُم ساخرًا، تتضحُ كلماتُه كراهيةً.

جفلت من أصواتِهم التي ترددتْ عاليًا في بيتنا. سقط إبريقُ الشاي على الأرض بضجةٍ مكوّنًا بركةً من الماء.

كان سليم وسميرة على الأرضِ يرسُمان على قصاصات ورق، نظرتُ إليهما وأشرتُ إلى الطابق الأعلى، هرعا إلى أعلى خائفَينِ بلا أدنَى اعتراض.

ارتديت الشادوري، ونظرتُ إلى غرفة الجلوس.

كانوا يتجوّلون فيها، يتفحّصون بيتنا باحتقار. يرتدون قمصانًا وسراويلَ فضفاضةً باللونَين الكاكي والرمادي، ألوان باهتة تبرزُ السوادَ الداكن للُحاهم وأسلحتهم الآلية المتدلية من أكتافهم بأريحية. أطولهم يلفُّ مسبحةَ محمود حول إصبعه. حين لمَحوني كيانًا أزرقَ فاتحًا عند الباب، أمَروني بالعودة إلى المطبخ.

بدا محمود منزعجًا لكنه رابط الجأش، تقدمَ نحوي خطوةً بشكل غريزي ونظرَ إليّ بهدوء يتوسّل إليّ أن أنفّذَ أوامرهم.

كنتُ مرعوبة من ترك زوجي وحده مع من اقتحموا بيتنا بلا استئذان، لكنني فكّرتُ في طفليّ المختبئَين في الأعلى أيضًا وثالثهما الذي أحملهُ تحت الشادوري. أطرقت برأسي وعدت إلى المطبخ، ما زلت أسمعهم لكن بعيدًا عن أنظارهم.

«أنت مهندس».

«نعم».. صوت محمود واثق.

«وتعملُ في وزارة المياه والكهرباء».

فهمتُ من صوتِ الصلصلة الناعمة أن أحدَهم انتبه لطاقم الشاي البورسلين في الدولاب الزجاجي للتحف، هدية زفافنا من خالة زيبا. فناجينُ رقيقةٌ رُسمت عليها بالباستيل أوراقُ شجر ذهبية وزهورٌ جميلة. لم تكن لدينا صورٌ فوتوغرافية، ولا تلفازٌ ولا مذياع، الحمد لله. تمنيتُ أن يغادروا بعد أن يتأكدوا من خلوّ بيتنا من الممنوعات.

«نعم، صحيح، هل يمكنني مساعدتكم في شيء؟»

«نحن نبحثُ عن محمود حيدري، مهندس يعملُ في وزارة المياه والكهرباء، الرجل المعروف بمعارضتهِ الشريعة الإسلامية».

خفق قلبي، نظرتُ إلى أعلى السلّمِ ولمحْتُ ظلَّ رأسَيْنِ يختلسانِ النظر من الركن، أشرت إليهما أن يبتعدا.

«معارضة؟! لكنني لم أعارضْ أي...»

«الأفضلُ لك أن تأتي معنا لتعرفَ الاتهاماتِ المنسوبةَ إليك».

«اتهامات؟ لكن يا إخواني، لا بد أنه سوءُ فهم». ميّزتُ رعشة خفيفةً في صوته لكنّها لا تقارن برعشةِ جسدي كله.

«لا يوجد سوء فهم».

«لكن، أرجوك، اسمعني قليلًا، لقد بذلتُ قصارى جهدي للخضوع لكلّ القرارات الصادرة...»

«لن نتحدثَ هنا، إلا إذا كنتَ ترغب في إحضار زوجتكَ وطفليك إلى غرفةِ الجلوسِ ليراقبونا ونحنُ نوجّه إليك الاتهامات». أطلق محمود تنهيدةً عميقة.

«لا، لا، لا. هذا ليس ضروريًا، سآتي معكم».

«محمود! لا تأخذوه أرجوكم! إنه بريء!» صرختُ، صوتي يرتعشُ ومتوتر، كنت عند عتبة الباب، على ركبتيّ.

تقدم أحدهم نحوي لكنّ محمود تدخل.

«أرجوك!» قال بحدّة، قبل أن يلتفت إلي. «فريبا جان، أتوسل إليكِ، دعيني أنا أتحدثُ معهم، أنا واثق من أننا سنزيلُ سوء التفاهم. يجب أن تظلي هنا».

كانت أصابعهُ على كتفيّ، ترفعاني، ينظرُ إلى عينيَّ من خلال شبكة الشادوري. لم أكنْ أعرفُ شيئًا عن زوجي حين تزوّجنا. عرفتُ مع مرور الزمن أنه صبور وكريم وحسن الأخلاق. خلال الشهر الأول كله تقريبًا كنت أخجلُ بشدةٍ من النظر إليه مباشرة لكن دفءَ صداقتهِ أذاب خجلي، أزال عني كلَّ ما فعله العالم بي. أدركت بعد وقتٍ قصير من زواجنا، حين وجدتني أضحك على مزحةٍ ألقاها من قبل، أنني أحبُّ هذا الرجل.

«فريبا، أتعرفين ما أجمل مرادفٍ لكلمة زوج في لغتنا؟»

«ما هي؟»

«همسر». فكّري فيها.. «صاحب»..» هكذا نحن، أليس كذلك؟»

هذا ما كان يفعله، يأخذ كلماتٍ صدئةً ومتعبة، يرددها الناس بعضهم لبعض بلا شعور، ويقلّبها في راحة يده، ينفض عنها الغبار ليجعلَها تلمع بمعنى حيويّ جدًّا ويجعلك تدهش من نفسك لتجاهلها.

يسألُني ويستمعُ لإجاباتي. له قلبُ والدته الطيب وذكاءُ والده، لم يكن يعيشُ في خوفٍ من الله لأن الله -كما يرى محمود- رحيمٌ، ولم يخلقْنا ليعاقبنا على أمورٍ دنيوية تافهة. كانَ منطقيًا ونشيطًا، يحبّ طفليه، يعاقبُهما ثم يضحكُ على خطئهما، يربّت على جبيني قبل أن ننام، لمسةٌ خفيفة بما يكفي لتجعلَ عينيّ تنعسان، لكنها تحمل عاطفةً تجعلني أريد أن أظلَّ مستيقظة. كان يريد أن يكون عمله هو أثره في أفغانستان، ليفخرَ به أطفاله.

عرفته جيدًا في سنواتِ زواجنا الأولى بلا أطفال، كان بإمكاني سماع أفكاره بمجرد النظرِ إلى عينَيه.

كان صاحبي.

نظرتُ إلى وجهه والرجالُ يزعقون به ليتبعَهم، احتلت شبكةُ الشادوري الزرقاء أغلى لحظات زواجِنا وأكثرها خصوصيةً، كان هناك الكثير جدًّا لقوله، همستْ عيناهُ بطريقةٍ لا يفعلها إلا صاحب.

اعتني بأطفالنا، جانم، سأفعلُ ما بوسعي لنخرجَ من هذا بخير. أنا آسف لأنني جلبتُ هذا علينا. سأتخلّى عن أي شيء لأبقى إلى جانبك.

اقتيد زوجي خارج بيتنا في أحلكِ ليلة في حياتنا، صفقوا خلفهم الباب، سقط فنجانان من طاقم الشاي البورسلين من فوق الرف ليتهشّما على الأرض، ويخلّفا كسَراتٍ من الأبيض والباستيل.

سمعت خطواتٍ تركض في الأعلى وعرفتُ أن سليم يهرعُ إلى النافذة، لم أسأله ماذا رأى، أعرف أن زوجي كان واعيًا بمراقبة طفلَيه له وهو يُؤخذ بعيدًا عنا، لم يكن ليفعلَ أي شيء ليجعلَ تلك الليلة أسوأ في ذهنَيهما إلى الأبد.

فريبا
15

اقترب سليم مني على أطراف أصابعه، كنت قد خلعتُ الشادوري وانهرْتُ على الأرض. سمعتُ صوت محركِ السيارة يبتعد، أخذوا محمود معهم، ابني إلى جانبي وسميرة تراقبُنا من مسافة، حين لم يعدْ سليم قادرًا على تحمّل الصمت، كسَره:

«مادر جان...» همَس.

أسكتّه قبل أن يقولَ شيئًا. ليس لديَّ إجابات: «بنيّ، عُد إلى أعلى مع أختك وناما، سأنتظرُ أباكما».

كنتُ أعرف أنه مذعور. أنه يريدُ أن يساعد. أن يقومَ بما يجعلُ محمود فخورًا به.

كانت سميرة في الخامسة من عمرها فقط تلك الليلة. فرع مني، حالاتها المزاجية تفيضُ وتنحسر بالتناغم مع حالاتي، مثلما يتأثر المدُّ والجزرُ بالقمر، إن وجمتُ تهدأ، تنفخُ خصلاتِ شعرها عن حاجبَيها المعقودَين، وإن كنتُ سعيدةً تسيرُ على الأرض بخطواتٍ وثّابة. في تلك الليلة صمتت وهي ترتجفُ، نامت بيديها متكورتينِ، في قبضتَين صغيرتين، ودموعها تبلل وسادتها.

جاء إليَّ سليم في الفجر ووجدَني على أريكةِ غرفةِ الجلوس، مستندةً برأسي إلى الحائط، لا يمكنني تخيّل كيف بدوتُ له حينها.

«مادر جان؟»

كان عليه أن يناديني مرّتين.

«نعم سليم»، قلت.. حلقي جافٌّ وخشن.

لم يعرف ماذا يقول، كان عليه كسرُ الصمت فحسب والتفكير في الموقف.

«هل نمتِ؟»

جلستُ ويدي حول بطْني المثقلة. قدماي المتورّمتان بالكاد تصلانِ إلى الأرض.

«نعم بنيّ».

بدا مُتشكّكًا وعرضَ عليّ أن يعدَّ لي شايًا، نظرتُ إليه، يداه متشابكتانِ خلف ظهره، وجههُ معقودٌ خوفًا. حان الوقتُ لي لأعود أمًّا مجددًا.

«ما زال الوقتُ مبكرًا»، قلت له. «الأفضلُ أن نصلّي وندعو لأبيك».

لم نُعْنَ بتدفئة ماء الوضوء.

«بسم الله...» همستُ وبدأتُ غسل يدي، فمي، أنفي. احتملتُ الماء المثلّج، لن أضعف. غسلتُ وجهي، خلف أذنيّ، يديّ وقدميّ. بإيقاع نعرفه جيدًا، وقفتُ وسليم، ركعْنا وسجدنا ونحنُ نتلو آياتٍ حفظها كلٌّ منا في صغره. دمعت عيناي وأنا أفكّر في ما حدث الليلة الماضية.

لا أعرفُ هل سيعودُ زوجي أم لا.

تجمّد الزمن في بيتنا، في انتظار إشارة.

ساعدَني سليم، رغم صغر سنه، بالذهاب إلى السوق لشراءِ حاجاتنا الأساسية. كنت وحدي، غادرتْ كوكوكل وأخواتي أفغانستان، ظل أبي ليغْتنيَ ببستانه، على بُعد ساعةٍ من بيتي. حلّ الشتاتُ نفسه بعائلةِ محمود، أخواتهُ يعشْنَ في أستراليا. ليس لدينا سوَى أقاربَ بعيدين يكافحون مثلنا لإطعام أسرِهم والنجاةِ من نظام كابول الجديد. أرسلتُ الخبر إلى عائلتَينا، ذُهلوا، لكن أحدًا منهم لم يستطع المساعدة. توسلت إليّ أخوات محمود أن أبلغهن إن سمعتُ بأي شيء عن أخيهن.

كانت رئيسة، زوجة عبد الرحيم، تأتي لزيارتي كثيرًا منذ أن سمعتْ باختفاء بادر جان. كذلك كانت ترسلُ أحيانًا طبقَ زبدة أو صحنَ أرزّ صغير. كانت صديقةً عزيزة لكنني صرت أخاف زيارتَها بعد اختفاء محمود. كانت عيناها المملوءتان بالشفقة تذكّرانني بكلّ ما هو خطأ.

لديها أمومة ناعمة، بصدْر عامر يجذبك إليه ليهدهدكَ حتى تنام كأنك أحدُ أطفالها الكثر. في تلك الأيام الحالكةِ كانت تمرُّ بنا في زياراتٍ قصيرة، ودون كلام، كانت تنظفُ المطبخ وتعد أي شيء تجده في خزانتنا.

«فريبا جان، هل من أخبار؟» تسألني محروجة.

«ليس بعد، لكنني متأكدة أنني سأسمع خبرًا في أيّ وقت»، أجيبها وأنا أكادُ أصدّق ما أقوله.

كان محمود مدهشًا، ليس لديَّ سببٌ لأتوقّع منه أقلّ من هذا.

«حسنًا، إن احتجتم إلى أي شيء، أنتِ أو الطفلان...»

حاولتُ الصمود، حاولتُ إبقاء البيت نظيفًا، ليسهلَ على طفليَّ النوم ليلًا. كانت سميرة تعكسُ رباطة جأشي خلال النهار لكنها ليلًا تلتصقُ خصلاتُ شعرها بجبينها من العرَقِ البارد. تغمغمُ وتنوح في أثناء نومها. لغةٌ أفهمها لكنني لا أتحدثُ بها.

فتحتُ كراسة سليم ذاتَ مرةٍ فوجدتُ على غلافها الخلفي علاماتِ إحصاء، إنه يحصي الأيام منذ تلك الليلة، سبعٌ وأربعون علامة.

كنا بيتًا بلا أب، المخلوق الذي افترسته وحوشُ كابول ما إن رأته. شعرتُ ذات يوم بآلامٍ حادة، فأدركت مدَى ضعفنا بلا رجلٍ في البيت. لساعات، ظللتُ أديرُ وجهي إلى الحائط حين يسحقُني الألم تمامًا. لم يقلِ الطفلان شيئًا، كان كلٌّ منا يلعب دوره في تمثيليةِ الحياة الطبيعية.

كان خوفي من فقدِ الجنين، ومن عودة محمود ليجدَني قد فقدتُ طفله، كافيًا لدفْعي خارج البيت دون محرم. ارتديتُ الشادوري وأخذتُ سليم من يده، تركتُ سميرة مع رئيسة جان، التي احتضنتِ ابنتي وأومأتْ برأسها، ليس بوسعها فعْل شيءٍ آخر.

«سليم جان، سامحْني إن عصرتُ يدك بقوةٍ شديدة، عزيزي». كان الألمُ حادًا وينقضُّ بقوة، كدتُ أفقد وعيي.

«أتشعرينَ بآلام شديدةٍ مادر جان؟» سألني بهدوءٍ ونحن نسير في الشارع.

«لا عزيزي. أنا واثقة من أنني بخير. كما سيكون كل شيء بخير حين يعودُ والدك إلى البيت».

لـم أغفـل نظـرة الشـك فـي وجهـه، راحـت ثقتـي تتلعثـم وتتعثـر. كانـت سـميرة قـد أحسـت بالأمـر أيضًـا،ازداد انطواؤهـا علـى نفسـها.

«هـل سـيأتي الرضيـعُ الآن؟» أسـئلة سـليم عمليـة، يشـبه أبـاهُ بقـدر كبيـر، لـم ألحـظ كمْ كبِـرَ خـلال العـام الماضـي.

«لا قـدّر الله يـا عزيـزي، مـا زال الوقـت مبكـرًا جـدًا، الأجنّـة تحتـاج إلـى تسـعة أشـهرٍ وتسـعة أيـام، تسـعة أشـهرٍ وتسـعة أيـام»، كـررتُ وأنـا أسـمعُ فـي ذهنـي صـوتَ حماتـي. تركـتْ لـي الكثيـر قبـل أن تتركَنـا، ضغطـتْ لـي حيـاةً كاملـة مـن الأمومـة فـي سـنواتٍ قليلـة قصيـرة. كانـتْ هـي مـن أسـرعتْ لإحضـار القابلـةِ حيـن جاءتنـي آلام المخـاض فـي ولادة سـليم وسـميرة، وقفـتْ تمسـكُ يـدي وأنـا ألِـد أحفادَهـا. باقتـرابِ ولادة هـذا الطفـل الثالـث، يـزدادُ شـعوري بغيابهـا وافتقادهـا.

بيـدٍ علـى بطنـي وعينـيَّ فـي الأرض، لـم ألحـظْ ثلاثـة رجـال واقفيـن عنـد المنعطـف، كنـا علـى بُعْـد مئـة متـر تقريبًـا مـن مدخـل المستشـفى.

«أليـس لديـكِ حيـاءٌ يـا امـرأة؟ أيـن محرمُـكِ؟» قـال أحدهـم ثـم بصَـق عنـد قدمـي. تراجعـتُ خطـوةً إلـى الخلـف. اشـتدت قبضـةُ ابنـي علـى أصابعـي، حاولـتُ أن أقـفَ أمامـه.

«هـذا ابنـي، إنـه يرافقنـي إلـى المستشـفى، أشـعرُ بـآلامٍ حـادةٍ وأنـا فـي... حالـة».

أكانَ هـؤلاء مَـن أخـذوا محمـود؟ أتراهـم يعرفـونَ أي شـيء عـن مكانـه؟ قبـلَ أن أتجـرّأ علـى السـؤال، هـوَتْ عصـا علـى كتِفـي. سـقطتُ علـى الأرض، يـداي تغطّيـان بطنـي.

«توقف أرجوك!» صاحَ سليم وهو يُلقي بنفسه على جسدي المتكوّم.

«الفاسقاتُ فقط من يتحدثْن عن هذه الأمور بوقاحة هكذا! ألا تخجلينَ من ابنكِ؟ أين أبوه،أم ربما ليس لديهِ أب؟».

زلزلَ الغضبُ جسدي كله لكنني لم أقلْ شيئًا، عليّ أن أكون عمليةً أنا أيضًا.

«معذرة، دعنا نذهبُ إلى المستشفى أرجوكَ»، قلت من بين أسناني.

«عودي إلى بيتكِ، عودي مع ابنكِ وتصرّفي كامرأةٍ مسلمةٍ محترمة، لستِ بحاجةٍ إلى المستشفى، احتفظي بمشكلاتكِ النسائية لنفسكِ ووفّري على ابنكِ عارَ رؤيتِه معكِ».

انتشرتْ آلامٌ حادة في حوضي وكتفي لكنني نهضتُ لأقف، أمسكتُ يد ابني المذهول واستدرت، بعد خطوةٍ واحدة فقط، شعرتُ بضربة على ظهري، وبَّخوني مرتَين أُخريين، فقط للتأكيد. ضغطتُ يد سليم، أتوقّع رد فعله.

«مادر!» كان غاضبًا.

«لا تقل شيئًا بنيّ»، همستُ له: «هيا إلى البيت حبيبي، أنا بخير».

اشتعل وجهُه غضبًا، يهينه ألا يفعلَ شيئًا، حتى وإن كان بناءً على طلبي، بإحضاري له معي لمرافقتي، كنتُ أطلبُ منه أن يكونَ رجل البيت، وبطلبي منه ألا يفعلَ شيئًا، أعدتُ تقليصه إلى صبيّ صغير مرة أخرى. أسندني وأنا أسيرُ بصعوبة لنعود إلى البيت. بالنسبة إلى الأفغان، يسهل بلعُ حفنةٍ من المسامير عن بلعِ الكبرياء.

توقفنا مرات عدة لألتقطَ أنفاسي وأستند بجسدي إلى جدار. كان طريق العودة إلى البيت أطول مما أتذكّر بكثير.

رقدتُ في الفراشِ ثلاثة أيام، أدعو الله أن ينجّيني أنا وطفليّ. ظلّت الآلام تروح وتجيء. كانت رئيسة تظلّ في البيت حتى المساء، تعدُّ الطعام للطفلين، تضع قطعَ القماش المبلل على جبيني وتساعدُني على شرب ماءٍ من إناء نحاسي منقوشة عليه آياتٌ قرآنية. كان سليم وسميرة واجمَين ولا يفترقان، تشبّث أحدهما بالآخر كمسافرَين تائهَين يحاولانِ نيلَ قدْرٍ من الدفء في البرد القارس.

في اليوم الثالث، اندفعتْ رئيسة إلى بيتِنا بعزيمةٍ جديدة، أخرجتْ من جيبها كيسًا صغيرًا وأخذت منه حفنة صغيرة من بذور سوداء وضعتها في إناء، غلت البذور في بعض الماء وظلّت وهي تقلّبها تردّدُ آياتٍ قرآنية في بخارها المتصاعد برائحة المسك. جلستْ خلفي بظهرها إلى الحائط، رفعتني في حجرها كرضيعة وقربتِ الصحن من شفتيّ الجافتين. لم تكن لديّ القوة لسؤالها عن الشراب فتركتُ الدفء يسري في حلقي.

أعدّت وجبةً من الخبز القديم وأضافت الماء إلى مرق اللحم الذي ظللْنا نتناوله لأربعةِ أيام. لدينا المالُ لكن لا شيء في الأسواق لشرائه. دفع يومان من القصف الصاروخي بجميع الباعة المتجوّلين وأصحابِ المحلات إلى الاختباء خلف النوافذ القاتمة وتركِ بضاعتهم في المدينة الخاوية.

استيقظتُ في الليل، مسّ نور قمر فضي وجهي. تنفست بعمق وشعرتُ بحركة الجنين، زالت آلام ظهري وخصري، نهضتُ لأجلس، دار رأسي قليلًا ثم استقر.

حمدتُ الله.

نظر سليم إليَّ بتفاؤل حذر، لم يعد يثقُ بالعالم ولم أجد ما أقوله له لاسترجاع إيمانه. ربما لم تكن الكلمات هي ما تنقصني.

أرسلتُه إلى بيت رئيسة جان بجوارنا ليشكرَها على مساعدتها وليطمئنَها لتعتنيَ بعائلتها بلا قلق. عاد سليم بخبر أن عبد الرحيم ورئيسة سيأتيانِ خلال وقتٍ قصير.

غليتُ الماء للشاي وبحثت في الخزانة عن شيء أصبّه فيه، لم نكن لنتجاوز الأسبوعَ الماضي دون عطفهما.

سرعان ما طرقا بابنا، قابلتهما في الفناء وقدتهما إلى غرفة الجلوس، أريدُ أن أبيّن لرئيسة أنني استرددْتُ صحتي إلى حد كبير.

أنّبتني قائلة: «يجب أن ترتاحي، فيري جان».

«ليبارك لك الله في عائلتكِ ويسعدكم جميعًا»، قلت لها وأنا احتضنُها بقوةٍ وأقبّل وجنتَيها. «لا أعرفُ كيف أشكركِ على كل ما فعلتِه. ظللْتِ معي حتى تعافيتُ وأطعمتِ طفليَّ وأنتِ لديكِ أسرتكِ لتعتني بها، أنا ومحمود لن ننسَى لكِ هذا أبدًا».

بدت كمن تناولت شيئًا مرًا وتنتظر اللحظة المناسبة لبصقه.

«فريبا جان، دعينا نجلسُ ونتحدث». قال عبد الرحيم. «سليم جان، لتبقَ مع أختك قليلًا *باجم*».

حين خاطب عبد الرحيمُ، جارنا العملاق الرقيق، سليمَ بصيغة *بنيّ*، عرفتُ. كان كلُّ ما أريد معرفته في تلك الكلمة التي تبدو تافهة، كلمة نطقها بعفويةٍ يقصد ملء فجوة حزن. يعرفُ عبد الرحيم، الأب العطوف، حاجات فتى صغير، يحتاج الفتى الصغير إلى شخصٍ ما يعبثُ بشعرهِ، يضعُ يده على كتفه، يراقبُه وهو يعبثُ بساعة يد معطلة.

يحتاج الفتى الصغير إلى أن يكونَ ابن أحدٍ ما.

أن يدعوه أحدٌ *بباجم*، *بنيّ*.

لا عجب أن كان محمود يحترمُه، كان قد رأى عطفَهما قبل أن يقتضي الأمرُ إظهاره بوقت طويل.

صار ابني بلا أبٍ. صار أطفالي بلا أبيهم.

خرج سليم، ابني المطيع، ليجلسَ مع سميرة. عرفتُ أنهما سيسترقان السمع لكنني لم أفعل شيئًا. لا يمكنني حماية أحد منا من واقعنا. جلست وتركتُ عبد الرحيم يخبرني بما يريد أن يخبرني به.

«إن أخي يعمل في... منذ أسبوعين... أخذوه طالبان... كان يعارضُ سياستهم... صاحب مبادئ... شجاع.... وجد العمال جثة... رسالة في الجيب... سامحيني على هذه الأخبار...»

أحاطتني رئيسة بذراعَيها. كانت تبكي، صدرها الواسع يعلو ويهبط، كنت أعرف منذ أسابيع لكن بعضَ الحقائق ينبغي قولها بصوتٍ عالٍ قبل أن نصدقها.

لن يعود محمود أبدًا، قضينا لحظاتِنا الأخيرةَ معًا على مقربةٍ أقدام قليلةٍ من حيث أجلس الآن، أخبرني بكل ما يريده في تلك

اللحظة الأخيرة، وقدره مكتوبٌ على جبينه، عرف كلَّ شيء حين دخل الرجال بيتنا.

عاد سليم إلى غرفةِ الجلوس وسار نحو عبد الرحيم الجالس بكتفين منحنيَتين ويدينِ مطويتين بين فخذيه.

«كاكه جان؟» قال سليم.

نظر إليه عبد الرحيم في عينَيه.

«أبي... ألن يعود؟»

لم يكنْ سؤالَ فتى، بل سؤال شابٍ يريد أن يعرفَ ماذا يتوقّع من الغد وماذا يتوقع الغدُ منه.

فريبا

16

كان عليَّ أن أرحلَ بأسرتي عن كابول.

بوفاة محمود لم يعد لدينا شيء، سنتضوّرُ جوعًا بالتأكيد ما إن ينفد ما لدينا. كذلك زاد الوصول الوشيك لطفلنا الثالث الأمر تعقيدًا.

لم تتحدثْ سميرة منذ الظهيرة التي زارنا فيها عبد الرحيم ورئيسة، كانت تجيبنا بالإيماءاتِ والإشارات، تحدثتُ معها برفق، حاولتُ استخراجَ الكلماتِ من بين شفتَيها لكنها ظلتْ صامتة.

وجدتُ سليم في غرفة النوم، يحدّق إلى أشياء أبيه، لم يلحظ وجودي، لمسَ السروال، رفعَ القميص إلى خدّيه ثم وضع الملابس على الأرض كأنه يتخيلُ أباه فيها. أخذ ساعة يد محمود من فوق الطاولةِ المجاورة للفراش وقلّبها في يده. ارتداها على معصمهِ وغطاها بكمّ قميصه. كانت لحظةً خاصة بين الابن والأبِ لذلك تسللتُ عائدةً إلى الصالة قبل أن يلحظَني.

ظنَّ ابني أنني انشغلتُ بحزني فلم أعرفْ شيئًا عن معاناته، لكنني كنتُ أراقبُ كل شيء، رأيته يركلُ الشجرة خلف بيتنا حتى سقطَ على الأرض كومةً باكية، تورمتْ أصابعُ قدَميه وظل وجهه يختلج ألمًا مع كل خطوةٍ مدة أسبوع. كنت أسنده حين يسمحُ لي، لكنني لو بدأتُ التحدث، كان يتسلل هاربًا، كان الوقت مبكرًا جدًا.

مثلما أتذكّر لحظاتي الأخيرة مع محمود، كذلك سليم، أرى الندمَ جليًا في وجههِ كما أشعر به في قلبي، كان يجب أن نمرَّ بكل هذا بشكلٍ مختلف، أنا وسليم، كان علينا أن نتحدثَ أكثر.

مما استطاع عبد الرحيم جمعُه، قرّر رجالُ طالبان جعْلَ محمود حيدري عبرةً لمن يعتبر، بقية العائلةِ ليستْ مستهدفة، حسبما يرى، لكن لا أحدَ يمكنه الجزم. كانت الحقيقةُ قليلة في كابول حتى في وضح النهار، وعباءة الليلِ تجعلُ كل شيء ممكنًا.

لا أستطيع تحمّل غياب طفليّ عن عينيّ. لم أكنْ أرسلُ سليم إلى السوق إلا في أضيق الظروف. بعد شهر واحد من تلقّينا أخبار قتْل محمود، بدأتِ انقباضاتُ الولادة، ظننتُها في البدء تقلصاتٍ من هواء الشتاء لكنني فيما أسير من غرفةٍ إلى أخرى صارت الآلامُ المألوفةُ أوضح.

ظللتُ أذرع الخُطى في الغرفة، شفتاي مزْمومَتان وخطواتي بطيئة.

«تسعةُ أشهرٍ وتسعةُ أيام... تسعةُ أشهرٍ وتسعةُ أيام...» أكررُ بوهن.

بعد ذلك بساعاتٍ قليلة، تلقتْ رئيسة طفلي الثالث بين يدَيها. سمَّيته عزيز.

«سليم وسميرة»، قلتُ وأنا أجاهدُ لأنهض. «قابلا ابنَ أبيكما».

يجب أن يزدادَ وزنُ عزيز قليلًا قبل أن نغامرَ بالخروج من كابول. ظلَّ وجهه فيما أرضعه يتخذ ملامحَ والده: لمحة عينيه، غمازة ذقنه، هيئة أذنيه.

ظلَّ عبد الرحيم يهتمُّ بنا، يدعو سليم للجلوس معه بعد عودتهِ من المدرسة، لم أعرفْ عن ماذا كانا يتحدثانِ لكن سليم كان دائمًا ما يعود إلى البيت متأملًا. شكرتُ الله على وجود عبد الرحيم.

رأى عبد الرحيم ورئيسة أنّ الأفضلَ لنا الرحيل. ليست لدينا عائلةٌ لتساعدنا، كنت أخشى أن تلتهم طالبان ابني أيضًا، وكامرأةٍ، لم يكن بوسعي فعلُ الكثير لإعالتنا.

«سوف نرحل».. قلت لهما. «ليس أمامي خِيارٌ آخر سوى إخراج أطفالي من كابول، إنهم جوعى، شفاههم مشققة، ليس لدينا شيءٌ هنا».

أومأت رئيسة برأسِها موافقةً وقالت:»لا أحد يرى أن الوضعَ سيتحسن، بل سيسوء، بقدر كرهي لرحيلكِ، لكنني لا أحتمل بقاءكِ هنا في هذه الأوضاع، لو كان محمود جان رحمة الله عليه هنا معكِ لاختلفَ الأمر، لكنّ والأمر هكذا، كابول أسوأ من السجن لكم».

«سوف أحتاجُ إلى مساعدتكما».

أومأ عبد الرحيم برأسه، كان يتوقع هذه المحادثة.

بعد ولادة عزيز بثلاثة أشهر، جمعتُ أطفالي وملأتُ حقيبتين صغيرتين بمتاعنا الضروري فقط: ملابس، ظرفٌ من ورق البرشمان فيه صور عائلية، وما توفر من طعام. لم أقل للطفلين شيئًا حتى قبل رحيلنا بيومين. بدا سليم مستاءً لإخفائي الأمرَ عنه. نحن نعيش في مكانٍ واحد، في الحزن نفسه، ورغم ذلك وفي أفضل أحوالنا، يرتبكُ أحدُنا بسبب الآخر، كنا أسرةً قُطِع رأسُها وتعثرتْ أمورُها إلى هذا الحد.

«ماذا لو اكتشفوا رحيلَنا؟» قال بصوتٍ خفيضٍ متخوِّف.

«لـن يكتشـفوا» وعدتـه. لـم أجـد طريقـةً أخـرى لإجابتـه. خـلا وجهـه مـن أيِّ تعبيـر، نظـرَ إلـى عينـيّ لثوانٍ قليلـةٍ، فتـرة طويلـة، رأى مـا بداخلـي.

قلـتُ لنفسـي إن الأمـورَ ستتحسـنُ حيـن نخـرجُ مـن جـوٍّ كابـولَ المسـمم.

أرسلتُ خبـرًا لبـادر جـان أننـا مسـافرونَ إلـى هـرات. أردت رؤيتـه لمـرةٍ أخيـرة قبـل أن نرحـلَ، لكنـه كان يفضّـلُ العيـشَ فـي راحـة الأمس بأوهـام عـن الغـد. لـم يـزدِ الخطـاب الـذي تلقيتُـه منـه عمّـا كنـت أتوقّعـه مـن أبـي. البسـتانُ فـي حالـة سـيئةٍ حتـى أنـا بالـكاد أتعـرفُ عليـه، قـال. بنَـتْ جحافـل النحـل أنفاقًـا فـي الخشـب. ظـل يبيـت هنـاك آمـلًا أن يخيفهـا لكنهـا لا تخـاف شـيئًا. كان الشـتاءُ المنصـرم قاسـيًا بشـكل اسـتثنائي وعليـهِ تقليـب التربـة أكثـر مـن مـرةٍ إن أراد أن يـرى ولـو سـلة خوخٍ واحـدة هـذا العـام. إن الأشـجارُ أرقُّ مـن الأطفـال، كمـا يـرى. يحزنـه أنـه لا يسـتطيعُ فعلَ شـيء لنـا الآن، لكنـه يتطلـع لرؤيتنـا حيـن نعـود.

للبشـر طرائـقُ مختلفـة فـي الـوداع، خصوصًـا حيـن يكـون إلـى الأبـد.

جنّـدتُ عبـد الرحيـم ليرتّـبَ كلَّ شـيء لهروبنـا. بعـد أسـابيع قليلـة طـرق عبـد الرحيـم بابنـا وناولنـي ظرفًـا كبيـرًا. احتضنـتُ رئيسـة بقـوة، تناقضـتْ عيناهـا الدامعتـان مـع ابتسـامتها المشـجّعة.

كانـت جـوازاتُ السـفر التـي اشـتراها محمـود جاهـزةً، حتـى جـوازه هـو، لمسـتُ صورتـه، بحجـم إبهامـي، وتجـددتْ آلامـي لغيابـهِ

عن تلك الرحلةِ معنا. مع ذلك طلبت من عبد الرحيم إعادةَ جواز سفر محمود مقابل أيِّ مبلغ. لا مجال للعواطف.

«ارتديا أقوى أحذيتكما، اليوم سنبدأ سفرَنا، وتذكّرا، إن سألكُما أحد، نحن ذاهبان لزيارةِ خالتكما في هرات. ليحفظنا الله».

حين مدّ سليم يدهُ في الدولاب ليُخرجَ قبعته الشتوية، لمحتُ ساعة محمود في معصمِه، فتحتُ فمي لأقولَ شيئًا ما لكنني عدلتُ عن ذلك، الأفضل تركُ الأمر بين الأبِ وابنه.

تركنا الكثيرَ مما لا يمكننا أخذه معنا: كرة سليم، ألعاب سميرة، طاقم البورسلين المشروخ هدية زفافي من حماتي. نظرتُ إلى أوانيّ وطاساتي، سوّدتْها النيران، شهدت سجادة غرفة الجلوس المغزولة يدويًا تحوّلنا من زوجَين حديثَين إلى أسرةٍ كاملة، ثم شهدتْ ليلة القضاءِ علينا، سقطتْ عليها دموعُ الفرح ودموعُ الحزن. تركتُ كلَّ شيء، كلَّ قطع حياتنا المتكسّرة، لرئيسة. أعرفُ أن بيتَنا لن يظلَّ خاليًا فترةً طويلة. طالبَ أحدُ أبناءِ عمومة محمود بملكيتهِ بالفعل ما إن بلغَهم خبرُ رحيلنا. صارت كابول لعبةَ الكراسي الموسيقية، بواضعي اليدِ والمجاهدينَ والأقاربِ يتسابقون في الانقضاض على أي بيت خالٍ.

تحقق عبد الرحيم من ساعتهِ بعصبيةٍ. كنا نسير حسب جدول زمني محدد، عرض مرافقتَنا إلى محطةِ الباص، إن أوقفنا أحدهم، سيقول إنه أخي.

حملتُ حقيبةً بيدٍ وعزيزَ بالأخرى من تحت الشادوري، ربط سليم حقيبةً صغيرة إلى ظهرِه وأمسكَ يد سميرة، يسيرانِ خلف

عبد الرحيم لكنهما أمامي. كانا ينظرانِ خلفَهما من حينٍ إلى آخر، كأنهما يظنّان أنني قد أشردُ بعيدًا عنهما.

المحطةُ شارعٌ واسعٌ تصطفّ فيه الباصاتُ عشوائيًا، يقف رجلٌ عند الباب الأمامي لكلّ باصٍ يصيحُ بوجهته. وجدنا باصنا ورأيناه يمتلئُ بسرعة.

سألني سليم هامسًا: «كم ستستغرقُ الرحلةُ مادر جان؟»

«ستكونُ رحلةً طويلة، حاول النوم... سيمرُّ الوقتُ أسرع بذلك».

وقفت وأطفالي في الممر، ذهبتُ إلى حيث تجلس النساء في الخلفِ مع سميرة وعزيز، واتخذ سليم مقعدًا خاليًا حيث يجلس الرجال بالقربِ من السائق. وضعتُ عزيز على حجْري وجلستْ سميرة بجواري، عدد المقاعدِ محدودٌ فاضطرّ بعض النسوةِ الأصغر سنًا إلى الوقوف.

حين بدأ الباصُ يقعقعُ على الطريق الرئيس، رُفِعت الشادوريهات مثل ستائرِ المسرحِ فيما تتخذُ المحادثاتُ سرعتها.

في الساعة التالية، سقطتْ سميرةُ في النوم رغم اهتزازِ وارتجاج الباص على الطريقِ الوعرة، حتى أنا وعزيز غفونا لدقائقَ معدودة، نستيقظُ فقط حين تعلو ضجة الثرثرة. ثم انتبهت إلى أننا لا نتحرك.

قدمي اليمنى تحترقُ بإبر ودبابيس!

بعد ثلاث ساعاتٍ من محاولات الإصلاح والسباب، استطاع السائقُ إدارةَ المحرك أخيرًا. واصلنا طريقنا بإيقاعٍ حلَزوني، تكرر الأمرُ مرتين أخريين، يترجلُ السائقُ ويظل يسبُّ المحرك حتى يعودَ إلى العمل. بعد ذلك بثلاثة أيام، وصلنا إلى وجهتنا أخيرًا،

صاح السائقُ المشاغب في الجميع بأن يجْمعوا أمتعتَهم ويترجّلوا.

وصلنا هرات.

«كان والدكُما يأتي إلى هنا مراتٍ عدة خلال العام، نائبًا عن الوزارة». قلت لأطفالي، «كان مديرَ أحد المشروعات هنا في هذه المنطقة».

ركلَ سليم ترابَ الطريق وهو يتابع الظلالَ الزرقاء للباص.

«لماذا لم يخبرْني بهذا من قبل؟»

«كان ذلك منذ فترةٍ طويلة»، قلتُ، ولاحظت السخطَ في سؤاله.

وقفنا ننتظر، كما أكّد علينا عبد الرحيم من قبل، وبعد ساعةٍ من وصولنا اقترب منا زوجان، همسَ رجلٌ قصيرٌ في الخمسين من عمره باسمي متسائلًا:

«خانوم فريبا؟»

«نعم». أكدتُ له بارتياح.

قال: «طلبَ مني عبد الرحيم ورئيسة جان أن أستقبلَكم». أشار إلى زوجته المرتديةِ الشادوري لتنضمَّ إليه.

أشرتُ برأسي لطفليّ ليتقدماني واصطحبنا عاصمُ وشابنام إلى بيتهِما. شابنام أختُ رئيسة، متشابهتانِ في الصوتِ والصدر الواسع على نحوٍ ملحوظ. سنبيتُ عندهما ليلةً واحدة فقط، علينا مساءَ الغد أن نستقلَّ الباص المتّجهَ إلى حدود أفغانستان مع إيران. كانَ سليم وسميرة محبطَين، خصوصًا بعد أنْ قابلا أطفالَ الزوجين. لعبتْ سميرةُ مع الفتيات فيما حمل سليم عزيز وهو يستمعُ لتحذيراتِ عاصم عن صعوباتِ الطريقِ أمامنا.

«عليكم الحذر من كل مَن ستقابلونه»، أكّد عاصم بصرامةٍ، قلّب الشاي في كوبه ببطء وواصل: «هرات بمثابةِ بوابةِ إيران، لهذا نسمع ونرى قدرًا كبيرًا مما يحدث. طالبان هنا يتحيّنونَ الفرصة لجعل أحدٍ ما عِبرة لمن يعتبر. تعرفون بالطبع قواعدَ مرافقةِ محْرم. وهم يعرفون أن الكثيرَ يحاولون العبورَ إلى إيران، لذا انتبِهوا جيدًا وحاولوا ألا تلفِتوا الأنظار».

يعيش عاصم وشابنام في بيتٍ من ثلاثِ غرفٍ نجا من الهجمات الصاروخية. سقطتْ أجزاءٌ من السطح وألواحُ بعض النوافذ فقط. حين خلعت شابنام الشادوري، بدا الشبهُ بينها وبين رئيسة أكثر وضوحًا. ابتسم سليم وسميرة حين شاهدا وجهها المألوف. استمعتُ إلى كلام عاصم بانتباه.

«ستسافرون في شاحنة صغيرة، في العادة تكون مكدسةً ويكاد النفَس ينعدمُ فيها لذلك ابقِي صغارِك بجانبك. سيكون الناس عصبيين، على السائق أن يعبُرَ بكم الحدودَ إلى إيران، ثمن هذا معروفٌ ومدفوع لكنهم سيحاولونَ الضغط عليكِ لدفع المزيد. احتفظي بنقودك وأشيائك الثمينة كافة مخبأة جيدًا. تظاهري بضيق الحال وامنحيه القليل، وتظاهري بأنّ هذا كل ما لديكِ».

نظرتُ إلى سليم، أريدُ أن أخبره بأن يذهب ليلعبَ كي لا يسمع هذه المحادثة. على الجانب الآخر، ربما من حقّه أن يعرفَ ما هو مقدم عليه.

«ستأخذكم الشاحنة إلى الحدودِ فحسْب. سيكون عليكم العبورُ سيرًا على الأقدام. يرتّب المهربون هذا العبورَ في سِتْر الليل، حين تَصِلون إلى الجانب الإيراني ستجدون شاحنة أخرى

في انتظاركم. ستأخذكم تلك إلى مشهد. أعطاكِ عبد الرحيم عنوان المسؤول عن الاتصال بكِ. هناك الكثيرُ من الأفغان وسوف يساعدونكم إن شاء الله. ما فهمته أنكم تقصدونَ أوروبا، الطريق أمامكم طويل لكن الكثيرين قطعوه».

تنهدتُ بثقل. لاحظ سليم.

«أدعو الله أن نكونَ ممن وصلوا سالمين، هذا هو السبيلُ الوحيد الذي أراه لأطفالي، أرجو أن يكون القرار السليم».

أومأتْ شابنام برأسها بتعاطف.

«أنتِ أم، وقلب الأم لا يُضلّ أبناءها أبدًا»، أكدتْ ويدها السمينة تعصرُ يدي.

غطّ الأطفالُ في النوم، مرهَقين من الرحلة الطويلة، وظللتُ أنا أغفو وأصحو على فترات منتظمة لأجدَني ما زلت في هرات، لا أصدقُ أنني أخذتُ صغاري الثلاثة في تلك الرحلة الخطرة بالفعل. في الغرفة المظلمة، وسط همهمةِ التنفس ليلًا، ما زلتُ أتساءل هل اتخذتُ القرار السليم؟

ماذا كان وعد ملاكي الحارسِ في البستانِ منذ سنواتٍ طويلة مضت؟

«حين ستسيرينَ في الظلام، سأتبعكِ وأنيرُ لكِ طريقكِ؛ حين تظنّين أنكِ وحدكِ، سأكونُ حارسَك. امضِ في طريقكِ وأنتِ تعرفين هذا»

أغمضتُ عينيَّ ودعوتُ الله ألا يكونَ قد نسيَني.

فريبا
17

لا وقتَ لإعادةِ التفكير، كنت سأفقدُ شجاعتي لو كنت مكثتُ يومًا واحدًا آخر، كانت الصحراءُ المنبسطة أمامنا تصيبُني بالدوار والخوف.

لم يكن عزيزُ يرضع جيدًا، ينامُ أكثر ويظلُّ يتململ حين يستيقظ. لم تكن الرحلةُ إلى هرات سهلةً وكنا متعبين.

في الظهيرة، مِلتُ إلى طفليَّ وقبّلتُ جبينَيهما برفق، همستُ لهما ليستَيقظا. اقترب الليل. الوقت المناسب للتسللِ عبر الحدود. حين تنفتح ثقوب ليشق عبرها اليائسونَ طريقهم زحفًا. حوّلتِ الحربُ بعض الأفغان إلى أُسودٍ كما حوّلت قدرًا كبيرًا منّا أيضًا إلى فئران.

أعطتْنا شابنام خبزًا للرحلة. اصطحبَنا عاصمُ إلى نقطةِ اللقاء، تبعه سليمُ وسميرة، تشابكتْ يداهُما فيما يحلُّ المساء وقمرٌ أحدبُ ينير سماءً بلا سحب. وقفنا أمام ورشة ميكانيكيّ وانتظرنا. قد ننتظرُ دقائقَ أو ساعاتٍ، حسبما قالَ عاصمُ وهو يرفع كتفَيه، لكنَّ الشاحنة ستأتي.

بعد أربعين دقيقةً، كان عزيزُ يتلوَّى ويغمغمُ غيرَ مرتاح، حين اقتربت الشاحنة. نحَّيتُ طفليَّ خلفي عند مقدمة الورشة. توقفتِ الشاحنة على مسافة أقدام قليلة منّا.

«*اركبوا*»، همس السائق.. «*بسرعة*».

كانت هذه خطةُ محمود لنا، ذكّرتُ نفسي وأنا أشير لطفليّ أن يصعدا إلى الشاحنة، لأثقَ بأنّ هذا هو الصواب.

في الشاحنةِ أسرتانِ أُخرَيان، لكلٍّ منهما أربعةُ أو خمسة أطفال، همستُ بتحيةٍ وقبعتُ مع أسرتي في ركن من جوفها.

لا مجالَ للدردشة العادية. أذهانُنا مشغولة بهموم كثيرة جدًّا. هدّأ الصمتُ الثقيل تنفسَ عزيز المضطربُ وهوَ يتناغمُ مع المحرِّك الصدئ.

ما إن خرَجنا من هرات، أوقف السائقُ الشاحنة ومال إلى الخلف.

قال بخشونة: «مِن هنا، سنعبرُ الصحراءَ ثم الحدود، ستدفعون جميعًا الآن وإلا سأترككُم هنا».

ترجّل السائقُ من العربةِ وفتح البابَ الخلفي، أشار إلى الرجلِ الجالس أمامي فزحفَ إلى الخارج ليساومَ على أجرةِ نقلِ أسرته. راقبتُ زوجتَه وأطفاله بقلق، متوتّرون من ابتعادِهِ عنهم ولو بضعة أقدام فقط. ثم خرجَ ربُّ الأسرة التالي، نظرتُ إلى طفليَّ، راقبتُهما يحدّقان في الرجُلينِ بلا خجل.

«*لا بدّ أن أكونَ لهما كلَّ شيء*».. قلتُ لنفسي.

ترجّلتُ من الشاحنة لأقابلَ السائق، تركتُ عزيزَ على حجْر سليم، ناولت السائق ظرفًا صغيرًا وانتظرتُ فيما يعدّ النقود التي عددْتُها من قبل مرارًا.

«أنتِ وأطفالكِ تسافرونَ وحدكم؟»

أومأتُ برأسي.

«هذه مشكلة، لا أظن أن بإمكاني أخذكُم معنا».

حاولتُ أن يظلَّ صوتي متماسكًا.

«ما المشكلة؟ نقودك كلُّها معك».

«أنت تعرفين ما المشكلة، أنا أخاطر بعبور الحدود، لكن أنتِ، امرأةٌ بلا محرم... أنتِ تفهمين؟ تلك مخاطرةٌ أكبرُ بكثير بالنسبة إليّ ولم أكن لأفعلها مقابلَ هذا الثمن. هذا ليس عدلًا بالنسبة إليّ».

برغم تحذيراتِ عاصم من قبل، لكنني اشتعلتُ غضبًا حين سمعتُ منطق السائق. إن تم إيقافُنا، لن يدفع أحدٌ ثمنًا أكبر مما سأدفعه أنا، لكنني كنتُ مستعدةً، سأجاريه: «أرجوك، ارفق بي وبأطفالي، لم يعد لدينا شيء، كيف سنأكل؟»

«أختاه، كيفَ سنأكلُ كلنا، إن لديّ أطفالًا أيضًا، هل أبدو لكِ ملِكًا؟ من سيرفقُ بي أنا؟»

كانت الحدود قريبةً إلى حد يمكنُني لمسها.

«هذا كل ما لديّ»، قلتُ وأنا أخلعُ خاتمًا ذهبيًا بحجرٍ أزرق من أصبعي كرهًا.. «كان هذا هديةَ زفافٍ من حماتي رحمة الله عليها، أدعو الله الآن أن يُطعمَني أنا وأطفالي».

«الله كريم يا أختي»، قال وهو يلقي نظرةً سريعة إلى الخاتم قبل أن يدسَّه في جيبِ سترته.. «سيرزقُ أطفالك».

صار الطريقُ وعرًا ما إن تركنا حدود هرات، حين توقفت العربة، حبسْنا جميعًا أنفاسنا، وضعتُ يدي على سليم.

«لقد وصلنا الحدود»، أعلن السائقُ. «الممرُّ الذي يقف عليه الأمنُ على بعد عشرة كيلومترات من هنا. يوجد ممر بين الجبال

سـأقودكم عبـره. إنـه ليـس سـهلًا لكـنَّ الكثيـرَ عبـروه مـن قبـل. أبقـوا أطفالكـم بقربكـم وأبقوهـم هادئيـن، راقبـوا خطواتكـم، توجـد حجـارة زلقـة، احـذروا العقـاربَ والثعابيـن، وأبقـوا أعينكـم علـى ضـوء كشّـافي».

اقتـرب سـليم وسـميرة منّـي، قلقَيـن مـن تحذيـرات السـائق، شـعرتُ بأنفـاس عزيـز مـن تحـت الشـادوري رطبـةً وسـريعة علـى عنقـي، كأنـه قلـقٌ هـو الآخـر.

سـرْنا بحـرص، نتّبـعُ الوهـج الأصفـر البعيـد لكشـافِ دليلنـا، حيـن سـمعتُ همسًـا حانقًـا مـن خلفـي، دفعـتُ طفلـيّ أمامـي دون أن أتفـوه بكلمـة، كانـا خائفَيـن بمـا يكفـي وسـط الظـلال المجهولـة، ظللنـا لسـاعات نشـقُّ طريقنـا فـي الظـلام، نسـقطُ فتتخـدشُ رُكَبنـا، وتلتـوي كواحلُنـا. سـحبتُ الشـادوري عـن رأسـي وتركتـه يتدلَّـى علـى كتفـي، كالمرأتيـن الأخرَيَيـن. لففـتُ عزيـز بقطعـة قمـاشٍ قطنـيّ وربطْتها حـول جذعـي، أمسـكتُ طفلـيّ الآخريْـن بيـديّ فيمـا نبـذلُ قصـارى جهدِنـا لنسـيرَ بحـرص.

انسـحبتْ يدُ سـميرة من يدي وسـمعتُ صرخة.

«سـميرة! ماذا حدث؟ أين أنتِ؟» بحثتْ عيناي عن ظلها.

«لقـد سـقطتْ مـادر»، قـال سـليم بهـدوء. «أنـا أمسـكُ يدهـا». ظلّ ممسـكًا يدهـا وكاحلهـا ملتوٍ تحتهـا.

غمغمتْ سميرة بهدوءٍ في الظلام.

«هـل يمكنـكِ الوقـوف حبيبتـي؟» راقبـتُ المسـافة بيننـا وبيـن الآخريـن تتسـع.

«أنهِضْها وساعِدْها على السير». همس السائق بحنقٍ فيهما. «لا يمكننا التأخّر».

تحسستُ كاحلَها، لمستْ يدي شيئًا ما رطبًا ودافئًا فخمّنت أن صخرةً جرحتها، دعوتُ الله ألّا يكون الجرحُ سيئًا، أخذتُ طرحةً من حقيبةِ ملابسنا وربطتها حول كاحلها.

ابتعد ضوءُ كشاف السائقِ. خفق قلبي بقلق.

ضغطتِ ابنتي على نفسها، لاحظتُ عرجَها، بذل سليم جهده ليسندَها وكان عليه السير بحرصٍ هو الآخر.

ليسامحْني الله على وضعهِما في هذه المحنة.

بعد ساعة، زلّت قدمُ الأم التي أمامَنا، وهي تحملُ ابنها ذا العامين. حطّمت صرختَاهما الصمتَ في الظلام.

توجّه ضوءُ الكشافِ إليهما. بدا وجهُ المرأة مرعوبًا. «ماذا فعلتِ؟» قال زوجُها وهو يساعدُها على النهوض. كانت ذراعُ الطفل ملتوية التواءً بشعًا، انثنَى بين المرفقِ والمعصمِ في كسرٍ واضح.

كانا جزِعَين، أردتُ مساعدتَهما لكنني لم أعرفْ كيف.

صرخ الطفلُ حين حاول والده لمسَ ذراعه، وقف السائقُ يطل عليهما، تنهّد بعمقٍ وبصق في الظلام قائلًا:

«انظرا، ليس بإمكانِكما فعلُ شيء له هنا، إن كان معكما شيء ما بالسكّر، أعطياه إياه، قد يُهدّئه قليلًا، علينا مواصلة السير، سينام بسرعة».

استمرّ بكاءُ الطفل المتألّم حتى طلوعِ الصبح، كانت أمّه تحملُه بحذرٍ شديد وتبذلُ قصارى جهدها كي تمنعَ ذراعَه من الحركة.

صار السيرُ في الصباح أسهلَ وصارَ الأصعبَ النظرُ إلى الأطفال. أعينهم مثقلة، وأقدامُهم متورّمة نازفة وشفاههم متشقّقة.

توقّفنا للراحة نصفَ ساعةٍ فحسب، سرعان ما سينتشرُ ضوءُ النهار فوقنا، أخرجتُ القليلَ من طعامِنا ومنحتُ طفليّ قضماتٍ قليلةً من البسكوت الذي أعدّتهُ لنا رئيسة. سقَيتُ عزيز قطراتِ ماء لكنه كان ما زال ناعسًا. أرضعتُه وهو تحت الشادوري. التقمَ ثديي بضعف.

تكور سليم وسميرة بجانب أحدهما الآخر وسقطا في النومِ خلال ثوانٍ، كاحلُ سميرة متورّم وبنفسجي. بدأ جرحُها الصغيرُ العميق في تكوينِ قشرة. انخلع قلبي للتفكير في ما بذلتْهُ من جهدٍ للحاق بنا.

لاحتْ إيرانُ في الأفق، توجد في انتظارنا عند سفْح الجبل وعلى جانب طريقٍ صغيرٍ عربةٌ داكنة. أشار إلينا السائقُ لنتبَعَه وهو يهرولُ نحوَها، فتح البابَ وتكوّمنا جميعًا في الداخل، رائحةُ عرَقٍ قديم وأنفاسٍ لاذعةٍ معبأةٍ في مساحةٍ صغيرة. رأيتُ ارتياحي المترددَ منعكسًا في وجوهٍ من حولي. قطعْنا كلَّ تلك المسافةِ لكننا ما زلنا قريبينَ جدًا من الحدود. إن أوقفَ أحد ما الشاحنة، قد يُرسلوننا إلى نقطةِ التفتيش ويعيدونَنا إلى أفغانستان.

جلس دليلُنا بجوار السائق، تحدّثا بصوت خفيض وهما ينظران إلى الطريق أمامهما.

نظرتُ من النافذةِ إلى المشهدِ المُتربِ في الخارج. رغم تشابهِ إيران وأفغانستان في الألوانِ والروائح، بدتْ إيرانُ أجنبيةً وغريبة. كنا بعيدينَ عن موطننا.

تناغمتْ تأوّهـاتُ الطفلِ الصغيـر مـع بـكاء عزيـز، رقـدَت ذراعُـه المنكسـرةُ علـى صـدرِه، متورمـة، منثنيـة وبنفسـجية، كانـت أمُّـه تحدّقُ إليـه بعجـز وتمسـحُ دموعَهـا. صـاح زوجُهـا فـي السـائق:

«عـذرًا صاحبـيّ، لكـن يجـب أن نأخـذَ ابننـا إلـى طبيـب لأن ذراعَـه فـي حالـةٍ سيئةٍ جدًّا وتؤلمُـه بشـدة».

«سوف يساعده مسؤولو الاتصال هناك على إيجاد طبيب».

«لكـن أرجـوك، لقـد ظـلَّ يتألـمُ فتـرةً طويلـة، حالتـه تـزدادُ سـوءًا كلّ دقيقـة».

«أنـا لا أعـرف مـكان طبيـب وأنـت هنـا فـي هـذا البلـد بشـكلٍ غيـر شـرعي، فـي حـال نسـيتَ هـذا، إن أردتَ أن تكـون بمأمـنٍ، عليـك أن تنتظـرَ حتـى يأخـذَه مسـؤولو الاتصـالِ إلـى مـكان مـا».

لحسـنِ الحـظّ لـم تسـؤ حـالُ كاحـل سـميرة، مـا زالَ متورمًـا لكـن الجـرح يلتئـم، عزيـز مشـكلةٌ أكبـر، ليـس لديـه الطاقـة حتـى لإحـداث جلبـة.

تكشّـفَ المشـهدُ المفتـوحُ عـن مبـانٍ وشـبكة مـن الطـرق. أوقفَنـا المهرّبـان أمـام بنايـة سـكَنية فـي تايبـاد، مدينـةٌ علـى الحـدود، مبنـى مـن أربعـةِ طوابـق بنوافـذَ مغبشـة تطـلُّ علـى الشـارع.

«اخلعْـنَ هـذه الشـادوريهات والبسـنَ تلـك».. ألقـى السـائقُ بعباءتَيـن سـوداوين فـي خلفيـة الشـاحنة ليمكنَنـا بهمـا الاندمـاج بيـنَ نسـاء إيـران.

أُرسِـلنا إلـى شـقةٍ فـي الطابـق الثانـي، اتجهـتِ الأسـرةُ الأخـرى إلـى الطابـق الثالـث.

«ليكـن اللّه فـي عونـك»، قلـتُ لـلأم ونحـن نفتـرق: «أسـألُ اللّه أن يشـفي ذراع صغيـركِ سـريعًا».

«وليكن في عونك أنتِ أيضًا، أختي الشجاعة»، قالت بصوت كسير. «ليحفظكم الله في هذه الرحلة».

كانت الرحلةُ من أفغانستان إلى إيران صامتةً إلى حدّ كبير، ليست مجالًا لتكوين صداقات، لم أستطع قولَ شيءٍ لأطفالي أنفسهم ولم يسعْني تكوينُ صداقةٍ مع أي غريبٍ قد يأخذُ ولو قضمة صغيرة مما لدينا.

انفتح البابُ وأشارت لنا امرأةٌ إلى شقةٍ ذات غرفتين، كنتُ ممتنةً لوجود مأوَى، تلك إحدَى طرقِ الإيرانيينَ المتعاطفينَ لإيواءِ اللاجئينَ الأفغانِ ولكسْب بعض المال في الوقت نفسه. ارتحتُ بشدةٍ لرؤية المرأةِ الغريبة بعد الرجُلين الغريبَين اللذَين أوصلانا إلى هنا. قدّمتْ لنا وليمةً بسيطةً من الخبز والزبادي. نِمنا بهدوءٍ للمرة الأولى منذ أيام.

بعد ليلةٍ واحدة، وضعونا في باصٍ محلّي وأرسلونا إلى شقةٍ مشابهةٍ في مشهد، مدينةٌ أكبرُ علينا البقاء فيها لنستعدَّ للمرحلة التالية من الرحلة، كان وقتنا في مشهد أسهلَ نسبيًا، نزلنا في استضافة أسرةٍ أفغانية تركتْ كابول منذ شهور، عبروا الدربَ الجبليَّ الغادرَ وصاروا بمأمنٍ من القبضِ عليهم ما إن دخلوا إيران، يعيشون كلاجئين على الكِفاف لكنهم كانوا كُرماء.

منحونا غرفةً ومكانًا لأخذ حمّام دافئ مقابلَ مبلغٍ زهيد. أكل الأطفالُ وعاد كاحلُ سميرة إلى حجمه ولونِه الطبيعيَّين. وناغَى عزيز سعيدًا، الصوتُ الأكثرُ إثارةً للسعادة في العالم. لقد استرددْنا أنفسَنا.

فتحـتْ إيـرانُ أبوابَهـا وتقبلـتْ حشـودَ اللاجئيـن الأفغـانِ وعـاش فيهـا بالفعـل عـددٌ لا يُحصـى منهـم مهاجريـنَ غيـر شـرعيين، لكـنّ إيـرانَ لـم تكـن فـي خطّتنـا أنـا ومحمـود قـط. كان أفغـانٌ كثيـرون يشـكون مـن المعاملـةِ السيئة ونـدرةِ فـرص العمـل. إن أردتُ منـحَ أطفالـي فرصـةً حقيقيـة، علينا أن نواصل. كلما طـال انتظارنـا ثقُلتْ أقدامُنـا.

فـي غضـون شـهرٍ كنـت قـد رتّبـتُ سـفرَنا إلـى تركيـا. حجـزتُ تذاكـرَ البـاص إلـى العاصمـة طهـران. بالعبـاءةِ السـوداء الفضفاضـة وأطفالـي المُتعَبيـن، كنـا نـذوبُ بيـن المُزراعيـن الإيرانييـن المُرتحليـن بحثًـا عـن حيـاةٍ أفضـل.

مـن طهـران اسـتقللنا باصًـا آخـر وعبرنـا الحـدودَ إلـى تركيـا، اسـتخدمْنا هـذه المـرةَ جـوازاتِ السـفر التـي جاءنـا بهـا عبـد الرحيـم، حـدّقَ ضابـطُ الجـوازات إلـيّ وإلـى صورتـي فـي الجـواز، ختمـه وأعـادهُ إلـي بتربيتـةٍ كريهـةٍ علـى معصمـي تجاهلتُهـا فـي ظلّ تأشـيراتِنا المـزوّرة.

صـار بلـدٌ آخـر خلفنـا. حاجـزٌ آخـرُ بيننـا وبيـن الحيـاة التـي تركناهـا خلفنـا. بـدت تركيـا أقل شـبهًا بأفغانسـتان عـن إيـران. اللغـة، الأرض، الطعـام، كلُّ شـيء أجنبـي إلـى حـد أكبـر. حيـن أعيـدُ التفكيـرَ فـي الأمـر، أجـدُ أننـا كنـا نحـنُ الأجانـب، كنـا نازحيـن إلـى أراضٍ لا نعرفهـا وخائفيـن فـي كل خطـوةٍ نخطوهـا مـن أن نُرسَـل مـرة أخـرى مـن حيـث جئنـا، قـدرٌ لا يمكنُنـي تخيّلـهُ حتـى.

كنـت أقـودُ أطفالـي إلـى المجهـولِ ومـا سـيحدثُ لنـا أيًـا كان، فهـو مسـؤوليتي. كان الأسـهل علـيّ أن أُغمـضَ عينـيّ وأختفـي، كـي

لا أكونَ مسؤولةً عن وجبتهم التاليةِ أو عن إبقائهم آمنين ونحن نعبرُ الحدود، لكنهم يعتمدون عليّ، حتى سليم الذي يتجهّمُ وجههُ كرجلٍ كبيرٍ وهو يسألني عن قراراتي. ظِلُّ الشاربِ على شفته العليا، طريقةُ حملهِ حقائبنا على كتفَيه، ساعةُ اليد التي يُخفيها،إنه يعدّ نفسه رجلًا. بقدر ما أردتُه أن يفعلَ ذلك حقًا، كنت خائفةً عليه أيضًا. لا يغرقُ في النهر إلا مَن يثقُ في قدرته على السباحة.

كنتُ أحتفظ بكلّ النقود التي جمعتُها من بيع أمتعتنا في حافظة خيطتُها في ثوبي. احتفظتُ فيها بجواهري أيضًا. هذا كلُّ ما لدينا في سفرنا إلى إنجلترا التي اختارها محمود لوجود أقاربِنا هناك. لم أكن واثقةً من أنه القرارُ الأفضلُ لكنّه أصرّ.

لم أرغبْ في فرض نفسي على أقاربنا هناك، خصوصًا من دون محمود، لكنّ تغيير وجهتِنا سيُعدُّ اعترافًا مني بأن فترةً ما من حياتي الماضية لم تعدْ تعنيني حقًا. لم أملك رفاهيةَ المرأة العاطفية في الشؤون المادية، لكنني عاطفية بقدر ما أشاء في ما يتعلق بزوجي، لن أغيّر وجهتنا الآن. لن أغيّر شيئًا قرره محمود لنا. يجعلني هذا، بطريقة ما، أشعرُ بأنّ يدي ما زالت تمسك يده، أتبعُ خطاه.

كذلك لم تكن لديَّ خطةٌ أفضل. سوف نذهبُ إلى لندن.

فريبا
18

وصلنا إلى منْغن؛ قريةٌ هادئةٌ محاطةٌ بمساحةٍ شاسعة من الأراضي الزراعية. كان الهواءُ نقيًا وذكّرني المشهد الأخضر ببستان أبي، في أول ظهيرة لنا هناك، انطلقنا للبحثِ عن مأوَى، من حسن الحظ، كان محمود، خريج الجامعة، قد علّمَ سليم قدرًا من الإنجليزية مكّنه من التواصلِ مع بعض المحليين على الأقل، كانت إنجليزيتُه أفضلَ من إنجليزيّتي بلا شك.

«تعال يا سليم، لنذهبْ ونتحدثْ إلى هؤلاء الرجال هناك»، قلت له وأنا أشيرُ إلى مجموعة رجالٍ يخرجون من مسجد. عدّلت طرحتي، كنتُ قد خلعتُ العباءةَ الإيرانيةَ السوداء وارتديتُ طرحةً لأندمجَ أكثر في هذا البلد الجديد. تحسّن شعوري بالطرحةِ البسيطة، ذكّرتني بالأوقات الماضية.

«مادر جان، لماذا لا تنتظرينَ أنتِ هنا مع الصغيرين، الأفضل أن أتحدثَ معهم وحدي، أنتِ لا تتحدثين الإنجليزية جيدًا في جميع الأحوال».

أردتُ أن أعترض.

«يمكنني هذا، مادر»، قال وهو ينظرُ إليّ مباشرة.

أومأت له برأسي.

راقبتهُ وهو يسيرُ من رجلٍ إلى آخر، يلوّحُ كلٌّ منهم بيده له، يهزّ رأسه، يتجهمُ، يرفع كتفَيه. نظر سليم حوله، رأيته يتحسسُ الساعة حول معصمهِ، نظر فيها سريعًا ثم انتبه لوجود مجموعةٍ أخرى تقفُ بجوار باب المسجد.

خرج من باب المسجد شيخٌ كبير، يرتدي بذلةً تبدو عليها آثارُ الاستخدام المتكرر، لفتَ نظرَ سليم كما لفتَ نظري. قامته، وشعرُه الأشيب والابتسامةُ الرقيقة على وجهه، لو عاش زوجي عشرينَ عامًا أخرى لبَدا مثلَ هذا الرجل، هل خطرتِ الفكرة نفسها لسليم أم كانَ انجذابه له بشكلٍ ما آخر، لم أكنْ لأسأله. اقترب منه سليم بوجَل، أمال الرجلُ رأسه ليسمعَ سليم جيدًا ثم نظر نحوَنا، وطرفَ بعينَيه.

كان اسمه هاكان يلماز. يعيشُ هو وزوجته، سينام، في منزلٍ متواضع على مقربةٍ من مركز القرية، عمل لسنواتٍ أستاذًا جامعيًا وعملتْ زوجته معلمةً في مدرسةٍ إعدادية. لديهما ابنان صارا الآن رجلَين كبيرَين لكلٍّ منهما أسرة، حين تقاعدا انتقلا إلى منْغن ليكونا بالقرب من إخوة هاكان. كانا عطوفَين ومتواضعين، ومواكبين للأحداث أكثر مما توحي به قريتُهما الصغيرة. كانا ممَّن يرون أمًّا أفغانية تسافر بأطفالها الثلاثة ويمكنهم تخمين ما وراء مشهدٍ كهذا.

أوضح له سليم أننا نبحثُ عن مأوًى مقابلَ مبلغٍ بسيطٍ لفترة قصيرة، وضع هاكان يدَه على كتفِ سليم وقادنا إلى بيتهِ حيث قابلَنا زوجته سينام. امرأةٌ صغيرة الحجم بعينَين ناعمتَين أسعدها وجودُ رضيعٍ يُناغي في بيتهما. رغم تقاعدِها منذ وقتٍ طويل ما

زال لديها حضورُ المعلّمة. شعرُها البني معقوص خلف رأسها في كعكةٍ أنيقة وترتدي ثوبًا قطنيًا بسيطًا بلونٍ أزرقَ سماويٍّ وحزامَ خصرٍ أدكن درجة. أحبّتها سميرةُ على الفور.

منحانا غرفةَ نوم صغيرةً خالية بباب خاصّ يؤدي إلى الخارج. يرحّبان باستخدامنا المطبخ، كما قالا، دون أن يسألا عن مدة إقامتنا.

وجد قلبي حليفًا في سينام رغم اختلاف لغتينا. أخبرتُها بالإشارات والإيماءات -التي لم تفهم أغلبها- أنني كنت معلّمةً في أفغانستان قبل نظام طالبان، وأن طفليّ قد تأخّرا في الدراسة رغم الجهد الذي بذلته في تعليمِهما في البيت.

كدتُ أزغردُ فرحًا حين وضعْنا رؤوسَنا على وساداتٍ ناعمة، بدفء بطونِنا الشبِعَةِ وعطفِ الغرباء.

في الصباح التالي أحضرتْ سينام كرتونةً فيها كتبُ رياضيات وقصصٌ بالإنجليزية. اتّسعت عينا سميرة بفرحٍ أسعدني وجرحَني في آن. أوضحتُ لسينام أن سميرةَ كانت مرحةً لكنها لم تتحدثْ منذ أن غادرْنا بيتنا، بدا أنها فهِمت، ربطتْ بينَ وفاةِ الأب وصمتِ ابنتي، نظرتْ إليها وربّتت لها على المقعد الخالي بجوارِها. جلستْ سميرة فيما تفتحُ سينام الصفحةَ الأولى.

كنت أسمع صوتَ سليم من الغرفة المجاورةِ ومع أنني لا أعرفُ سوى كلماتٍ قليلة بالإنجليزية لكنني فهمتُ أنه يخبرُ هاكان أنه يبحثُ عن عمل، وأنه سيعملُ بكد، وعدهُ.

لم أكن قد تحدثتُ معه عن العمل. تركتُ سينام وسميرة وذهبت إلى النافذة. تحدثَ هاكان عن مزارعَ قريبةٍ يجد فيها المهاجرون عملًا. أردتُ مقاطعتَهما لكنني لم أفعل.

شردَ ذهني.

حين وضع محمود يدَه على يدي للمرة الأولى لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عمّا سيصيره بالنسبة إليّ. من بين الصور الفوتوغرافية القليلةِ التي أخذتُها كانت واحدة من زفافِنا، كان حفلًا بسيطًا. ارتديتُ ثوبًا أخضرَ زمُرديًا، بكرانيش بدايةً من الخصر وحتى أسفله، وأشرطة على الكتفين. طلت لي وجهي إحدى صديقات كوكوكل بمساحيقَ تجميل أثقلت شفتَيّ وأهدابي بالألوان، وأقسمت أنني لن أضعها مرة أخرى أبدًا. يرتدي محمود بذلةً سوداء، تنبسط ياقة قميصهِ على طيّتي السترةِ وفي جيب صدرهِ وردةٌ حمراء، ينظرُ بثباتٍ إلى الكاميرا لكنني أحدّق إلى الأرض مشدوهة.

حين نظرتُ إلى تلك الصورة، أردتُ أن أرجعَ إلى الخلف في الزمن وأُخبرَ نفسي بأن أنظرَ إليه، إنه زوجي. أردتُ أن أُخبرَ العروسَ بأنها، كالمدعوين القادمين متلهفين على حفل سعيد، يجبُ أن تسعَد هي الأخرى لهذا الزفاف.

كان محمود أكثر من زوج، استغرق الأمرُ وقتًا لينمو حبنا لكنه ترعرعَ شتلاتٍ وبراعمَ، تتغذى على الجيّد والسيئ في العالم حولنا. كل وعدٍ قطعناه، كل ضغطةِ يد، كل ابتسامةٍ سرية تبادلناها، كل مرة بكى أحدُ طفلينا وأرحناه، قرّبتْ كل لحظة من تلك اللحظات بيننا. في تلك الليلة، تلك الليلة المريعة حين انتُزِعَ من حياتنا، كانت المسافةُ بيننا قد اختفتْ، كنا ملتصقَين معًا، زوجٌ وزوجة مرتبطانِ معًا ليس بعقد الزواج، بل بتناغم قلبَينا.

لم يستطع الموتُ تفريقَنا، كما عرفت، ما زال صاحبي معي، يرعانا، زوجي الحبيب، ونحنُ نمضي قدُمًا نحو الغد.

«ستضعُ الأقدارُ الأمورَ في نصابها الصحيح في النهاية، وبعد إنجاز العملِ فقط، سيزولُ أثرُ البكاء والليالي المؤرقة».

أردتُ أن أصدّقه.

لكي تصلَ أسرتي إلى حياةٍ جديدة، يجب أن أعتمد على سليم، يجب أن أعترف بأنه ليس طفلًا. كان محمود أفضلَ مني في منح سليم المساحةَ لبسطِ جناحيه، أنا أحتضنُ أطفالي، أخشى دومًا أن أكون أمًّا مهملة، أريد أن أفعلَ لهم كلَّ ما لم يفعلْه أحدٌ لي. أريدهم أن يشعروا بالرعايةِ والحبّ والأمان. لكنني كنت أفشل.

ينظر إليّ سليم نظرةً مختلفةً الآن. ذهبَ البريقُ الصبياني، النظرةُ الواثقة التي كانت تشعرُني بأنني لن أخطئ أبدًا، صار يقفُ بجانبي وليس خلفي، حان الوقتُ لأمنحَه المساحةَ التي يحتاجُ إليها.

لقد جئتُ بنا إلى هنا من كابول، عبرَ إيران وإلى تركيا. كانتْ تلك رحلتي، قصتي.

بيْدَ أن ما سيحدثُ لنا من الآن فصاعدًا سيكون قصةَ سليم بقدر ما هو قصتي. لا يمكنني مواصلةُ سرْد قصته له. لن ينقصَ من شأني كأم إن تركتُ يدَه وتركته يقفُ على قدَميه، أتمنى فقط لو كان محمود معي ليخبرَني بأن هذا هو الصوابُ وأنني لست أمًّا سيئة لسليم.

سمعت صوتَ زوجي الهادئ، شعرتُ بيدَيه تستقران على كتفيّ، إن أغمضتُ عينيّ، سأحسُّ بقبلتهِ على جبيني.

دعيه يتحدثُ فيري. لقد حكيتِ قصّتنا، دعي سليم يحكي قصته هو الآن.

سليم

19

في الصباح التالي، أخذ هاكانُ سليمَ إلى حدود القريةِ حيث يتجمّع أناسٌ بوجوهٍ لوّحتها الشمس في مجموعات، رجالٌ ونساءٌ من كل شكلٍ وحجم، وأطفالٌ يمسكون تنانير أمهاتهم. أوضح هاكان أن الشاحنات ستقلُّ العمالَ إلى المزارع حيث الكثيرُ من العمل.

شعَر هاكان بالقلق لترْك سليم، لكنّه عرف أن وجودَه لن يساعد. انعطف في شارعٍ وذهب لزيارةِ أخته. كان الوقت ربيعًا ودرجة الحرارة في ازدياد، حتى في هذا الوقت المبكّر من الصباح. تحسسَ سليمُ وجهَه بأصابعه، لمَس الشعيراتِ الناعمةَ على شفتهِ العليا. هذا يوم ميلادِ سليم جديد. كان عازمًا على أن يكونَ رجلًا ومستعدًا للتعامل هكذا. حتى أمّه نظرت إليه نظرةً مختلفةً هذا الصباح، كأنها شعرتْ بالتغيير فيه.

عزيز، الطفلُ النازح، يستطيع الجلوسَ والغمغمة الآن. وفي الغالب سيسيرُ خطواتِه الأولى خلال شهر أو اثنين، كما قالت مادر جان. راقبَ سليم أخاه الرضيعَ وهو ينمو وتمنى أن يتم تحوله رجلًا بالسرعة نفسها. أراد أن يكسو الشعرُ وجهَه وصدره وكلَّ المواضعِ الأخرى المعروفة. كان يتفحّصُ جسدَهُ كله بحرصٍ حين يستحمّ، يلاحظ التغييراتِ التي لا يراها أحدٌ غيره. أراد أن

يمتلئَ ساعداه بشبكةِ العروق التي كان يراها على ساعديّ أبيه. تذبذب صوته وتقعر لهذا كان نادرًا ما يتحدث. سرعان، كما يأمل، ما سيلحقُ به صوته.

جعله شعورهُ بالمسؤوليةِ تجاه أسرتهِ والاحترام الذي يبديهِ له هاكان يشعرُ بأنه رجل حتى وإن لم يكن جسدُه كذلك، تجوّل بين الناس، يبحثُ عن وجوهٍ مألوفة، لا يعرف هاكان أحدًا من المزراعين ولم يسعْهُ أكثر من توصيله إلى مكانِ التجمّع هذا. لا يعرفُ سليم شيئًا عمّا سيحدثُ حين يصلُ إلى مزرعةٍ لذلك يبحثُ عن شخصٍ ما قد يساعده.

كان أغلبُهم أكبرَ منه سنًا، يدخّنون السجائرَ وهم يطرفون بأعينهم تحت شمس الصباح الساطعة. كانوا جميعًا قرابة ثلاثين شخصًا. اتخذت النساءُ جانبًا معًا في مجموعة موسعة، بعضهن يرتدينَ طُرحَ رأسٍ مثلثةٍ بألوانٍ زاهية، يربطْنَ طرفَيها أسفلَ ذقونهنّ ببساطة، بقمصان متواضعةً بأكمام طويلة وتنانيرَ تصل إلى كواحلِهن. كانوا في المجْملِ مجموعةً عشوائية، فسيفسائية تشوّشُ العين.

أراد سليم أن يقتربَ من مجموعة النساء لكنّهُ تراجع، إن أراد أن يُعاملَ كرجل، فعليه أن يتصرَّف كذلك. أخذ نفَسًا عميقًا وجلس على الرصيفِ بجوار رجلٍ بدا في الأربعينَ من عمره، فرك سليم راحتَيه بورْكَيه، يفكّر في كيفيةِ بدءِ حوار، تنحْنَح الرجل بخشونةٍ من حلقه وبصقَ بصقةً صفراء سمينةً ومتجمّدةً على جانب الطريق، لو كان بابًا قد انغلق في وجهه لبدا ذلك أكثر ترحيبًا.

انقلبت معدةُ سليم، وقف ونظرَ إلى ساعته، لمس سطحَها ومرر أصابعه على رباطِها الجلديّ البالي، يقفُ خلف الزحامِ ثلاثةُ رجالٍ في أواخر الثلاثينيات، يثرثرونَ بهدوءٍ، سار نحوهم فسكتوا عن الحديث حين اقترب منهم.

«مرحبًا. هل تعملونَ في مزرعة؟» سأل بصوتٍ متباين النغمات، فشعر بسخونة في وجههِ من الإحراج.

تفحّصوه جيدًا، أومأ أحدهم برأسهِ، يرتدي قميصًا أخضرَ ليمونيًا وسروالاً كحليًا، بدا أنه أكبرُ الثلاثة سنًا. فوجئ سليم حين سأله بالبشتو:

«أأنتَ أفغاني؟»

تتحدثُ عائلة حيدري الداريّة، لكن سليم يمكنُه تمييز وفهم محادثةٍ أساسية بالبشتو أيضًا، فأومأ برأسه إيجابًا.

«نعم، نعم أنا أفغاني!»، أكد بالدارية.

«أجئت للعمل؟» سأله آخرُ بغرض التسلية.

«نعم، وصلنا إلى هنا منذ أيام فقط»، مزج سليم بين الدارية والبشتو، بدا أنهم يفهمونه.

«أنت بصحبةِ أشخاص إذن؟»

«نعم، أسرتي، أمي وأختي وأخي». أخرج أحدُهم سيجارةً نصفها مُدخن من قبل وأشعلها مجددًا، ارتفع حاجباهُ بسبب عدد أفراد الأسرة.

«من أين جئت؟»

«من كابول، ذهبنا إلى هرات ثم إلى إيران، ومنها جئنا إلى تركيا لكننا نحاولُ الوصول إلى إنجلترا».. شعر سليم بالارتياح

لعثوره علـى أفغانييـن، كأنـه رأى لافتـة شـارع أكـدت لـه أن مساره الصحيـح.

«إنجلتـرا؟ هـاه؟» قالـوا ضاحكيـن. «بـأم وطفلَيـن آخرَيـن؟ إن السـفر وحـدك صعـبٌ بمـا يكفـي، إن كنـت ذكيًـا، ابـق هنـا واعثـرْ علـى طريقـةٍ لكسـب عيشـكَ دون أن يُلقـى القبـضُ عليـك. هـذا كلُّ مـا يمكنـك أن تأملـه».

لم يقدّرْ سليم تشاؤمهم، فقرر تغيير الموضوع.

«كيف تجدونَ عملًا في المزارع؟»

«سـترى، وسـتتمنّى حينهـا لـو لـم تسـألْ قـط، تأتـي الشـاحناتُ وتقلـكَ إلـى مـزارعَ بمسـاحاتٍ لـم ترهـا فـي حياتـك مـن قبـل، تذهـب إلـى البيـوتِ فيهـا للبحـث عـن مُـزارعَ يمكنـه الدفـعُ مقابـل يـوم عمـلٍ واحـد، سيعرضون عليـك مبالـغَ مقرفـةً أكثـر مـن فضـلاتِ الحيوانـات التـي سـتنظّفها».

«كم يدفعون؟»

«وهـل هـذا يهـمّ؟ لسـتَ فـي موقـفٍ يمكنـكَ فيـه التفـاوضُ، إن اسـتطعتَ نيـلَ شـيء مـا لتأكلَـه، كُلْـه. هـذا ثانـي أفضـل شـيء بعـد النقـود».

أخيرًا تحدّثَ من كانَ يُدخّن، يريد أن يسألَ عن شيء ما.

«أين أسرتكَ الآن؟ هل هم هنا؟»

«نعم، نقيـمُ مـع أسـرةٍ تركيـة، زوج وزوجـة. أعطيانـا غرفـةً صغيرةً، لكننـي لا أعـرفُ إلـى متى».

«ولديك أخٌ وأخت؟»

«نعم، وأمي».

«يا صديقي، ما اسم أختكَ العزيزة؟» قال بغمزةٍ منحطّة.

جزَّ سليم على أسنانهِ وغمغم: «شكرًا على المعلومات». أومأ برأسه لصاحبِ القميص الأخضر وتجاهلَ الآخرين. جُرِحَت كبرياؤه، سار مبتعدًا يشتعلُ غضبًا من معاملةِ أبناء بلدهِ له، كأنه عاجزٌ عن الدفاع عن شرفِ أسرته، لعنَ غباءه لصراحتهِ على هذا النحْو مع غرباء.

انعطف في أحدِ الشوارعِ فوجدَ نفسه يحدقُ إلى نافذةِ عرضِ محلّ سيراميك، كان زجاجُها مغبشًا بنحو أشعره أنه يحدّقُ إلى زمنٍ مختلف. في الداخل رجلٌ أربعينيٌّ يكنسُ الأرضَ ببطء.

أينما يولّي وجهه يرَى أباه.

كان قد رآه في هاكان حتى. شيء ما في طريقةِ خروجه من المسجد، لمحةُ السلام المنعشة في وجههِ بعد الصلاة، ذكّرتهُ بأبيه، موجود في كلّ مكانٍ وليسَ في أيّ مكان.

أعادتهُ أصواتُ المحركاتِ إلى الواقع، هرعَ إلى الجمْعِ وجلسَ في خلفيةِ إحدى الشاحناتِ الثلاث متكومًا في الركن. حرصَ على الابتعاد عن الأفغانِ الذين قابلهم.

كانت المزارعُ مثلما قالوا بالضبط؛ بيوت مشيدةٌ في ملكياتٍ خاصة، تفْصلُ بينها فدادينُ من الحقول الخضراء. حين توقفتِ الشاحنات، ترجّلَ الركّابُ بحقائبهم القماشيةِ الصغيرةِ وتفرّقوا صوبَ المزارع. وقف سليم على الطريقِ الترابية، حائرًا! راقبَ العمّالَ متيني البُنيةِ يتفرّقون يمينًا ويسارًا. رأى امرأةً عجوزًا تسير بخطوات بطيئة، نقرُ عصاتها يحددُ إيقاعها. بدا أنها تتجه صوب بيتٍ أصفرَ متهالكٍ، فتبعَها.

أمـام البيـت، يوجـدُ فتـى لا يزيـد عمـرهُ علـى ثمانيـةٍ أو تسـعةِ أعـوام يغسـلُ حمـارًا بنيًّـا مغبـرًّا. كان البيـتُ متراميَ الأطـرافِ وفـي حالـةٍ أسـوأ مـن البيـوتِ المجـاورةِ لكنـه محـاطٌ بفدادينَ شاسـعةٍ عامـرة بالمحاصيـلِ، بالتأكيـدِ سـيحتاجُ هـذا البيـت إلـى مسـاعدة، إذ يبـدو أن المـرأةَ العجـوزَ هـي المسـاعدةُ الوحيـدةُ فيـه.

تركها سليم تقودُ الطريق إلى البيت.

فـي منتصـف الطريـق نظـرتْ إليـه مـن أعلـى كتفِهـا دون أن تتوقـفَ عـن السـير، كانـت متجهمـةً. أسـرع سـيرَه حتـى اقتـربَ بمـا يكفـي ليـرَى التجاعيـدَ فـي وجههـا الـذي لوّحتـه الشـمس، تنحْنـحَ قائـلًا: «مرحبًـا». لـم تبـدُ أفغانيـة، شـعرُها رمـاديّ وحليـق كالرجـال وترتـدي ثوبًـا مطبوعًـا بالزهـور، مـن قمـاش خشـنٍ جدًّا، بـدا أنـه يحـومُ حـول قدمَيهـا دون أن يلمسَـهما.

نظـرتْ إليـه وغمْغمَـت بـردٍّ مـا. أشـار إلـى البيـتِ الأصفـر أمامهمـا وسـألها إن كانـوا فـي حاجـةٍ إلـى مزيـد مـن المسـاعدة، عقـدتْ حاجبَيهـا وهـزّت رأسـها، لـم يكـن متأكـدًا إن كانـتْ قـد فهمَـتْ سـؤاله، فواصـلَ سـيره.

بأفضـل مـا لديـهِ مـن إنجليزيـةٍ عـرض سـليمُ مسـاعدتَهُ علـى مسـتر بـولات، المالـكُ الطويـل. نظـر إليـهِ مسـتر بـولات مـن أعلـى إلـى أسـفل، رفـعَ كتفَيـه وقدّمـه إلـى الحيـاةِ عامـلًا مهاجـرًا.

فـي نهايـة اليـوم الأول، تلـكأ سـليم فـي الرحيـل، ظنًّـا منـه أن المُـزارعَ سـيدفع لـه أجـرَ عملـه، لكـن مسـتر بـولات هـزّ رأسـه، لـن يدفـع أجـرَ يـوم تدريـب، وأخبـر سـليم أن يعـود غـدًا ليأخـذَ أجـره. ظل سـليم صامتًـا حتـى عـاد إلـى الطريـق المتربـةِ وقـتَ الغـروب، ركل

الأرضَ وبصق عليها. راقبتْهُ المرأة التي عملتْ معه دون أن تنبس بكلمة. في انتظار الشاحنة التي ستعودُ به إلى القرية، مدّ يدهُ في جيبه وأعاد ربْطَ الساعة حول معصمِه. كيف سيشرحُ لمادر جان أنه عمِلَ منذ الصباح وحتى المساءِ بغيرِ أجر؟

عملَ مجبرًا أربعة أيامٍ كاملةٍ بلا مقابلَ سوى قطعةِ دجاجٍ مشويةٍ بين شريحتَي خبزٍ جاف، كان يقطفُ ثمارَ الطماطم حتى يؤلمه ظهرُه وتتخدرُ أصابعه، كانت المرأة التي تبعَها إلى البيتِ أولَ يوم أرمنيةً، عرف هذا في وقتٍ لاحق من الأسبوع، مع أنها لا تتحدثُ الإنجليزية لكنها أوضحتْ لسليم شيئَين مهمّين. أولًا، التمييز بين الثمارِ الناضجةِ وتلك التي لم تنضجْ بعد بالحجم والوزن، وثانيًا أن بولات سيدفعُ له في النهاية. تسامحَ سليم في أسبوعِ عملٍ بلا مقابل لقلّةِ حيلتِه وخوفِه من أن تستغرقَ المحاولةُ في مكانٍ آخر فترةَ تدريبٍ مماثلة.

في نهايةِ الأسبوع، ناولَ بولاتُ سليمَ ورقاتٍ نقديةً قليلةً مجعدة. لا نقاشَ ولا مساومة، حدّقَ سليم في النقود في راحته، لم يقل شيئًا، أومأ، لم تكن تكفي لشراءِ وجبةٍ واحدة فقط لأسرته.

منذ ذاك اليوم بدأ يتلقّى أجرَه في نهاية اليوم لكنّه كان مبلغًا زهيدًا بالقياس إلى عددِ الدلاء التي يعبئُها بالطماطم من الحقول. حين رأت المرأة الأرمنية أصابعَ سليم تعبثُ بنقودهِ بحزن، غمْغَمتْ هي الأخرى بشكوَى ما بلغتها.

تشققتُ أظافره وامتلأتْ بالطين، ظهرت العقَدُ بالفعل في راحتَيه وأصابعه. صار لوجههِ مذاقٌ مالح من كثرة العرَق لكنه يشعر بشعورٍ جيد، لقد عمل كرجلٍ كما كان أبوه ليفعل، لم يكسب الكثير، لكنه يسلّمه كلّه لأمِّه بفخر.

لم يسأل هاكان سليم عن أجرِه، كانت سينام تأخذُ النقودَ القليلة التي تعطيها إياها مادر جان بهدوءٍ وتنفقها سريعًا على الطعام الذي يتشاركانِ فيه وآل حيدري. بديا سعيدَين بوجودِ أطفالٍ، وبذلتْ مادر جان قصارَى جهدِها للاعتناء بالبيت. كانت تكنسُ وتغسلُ الأطباقَ والملابس فيما تدرس سينام سميرةَ الصامتةِ المنتبهة جيدًا. كانت سميرةُ تنقر بقلمِها الرصاص وتنظرُ إلى سينام حين تنتهي من حلّ المسائلِ الحسابية.

ارتاحوا في منّغن، لكن سليم كان قلقًا.

«مادر جان، سنظلُّ هنا إلى الأبد دون أن يمكننا ادخار ما يكفي للسفر إلى اليونان، ربما يمكننا الاقتراض من أحدِ أقاربنا؟ هل يمكننا الاتصال بإنجلترا؟»

جففتْ مادر جان يدَيها في مريولها وتنهّدتْ:

«كنت أفكّر في الشيء نفسه بُني، سأحاول الاتصالَ بهم، لكنني لا أظنُّ أن لديهم الكثيرَ لإرساله، آخر مرةٍ اتصلتُ قال عمُّك إنهم بالكاد يوفرون مصاريفَ دراسة ابنتهما، ربما تحسّنت الظروف الآن. ليس لدينا حلٌّ آخر».

بدأتْ تفكّر بصوتٍ عالٍ: «ربما ليس علينا الذهابُ إلى لندن، ربما يمكننا البدء في مكانٍ آخر».

لكن لا يوجدُ مكانٌ آخرُ للذهابِ إليه. تفرق شمل العائلةُ في الهند وكندا وأستراليا. في الهند فرصُ الحياةِ الأفضل قليلةٌ. أما كندا وأستراليا فلا يمكنُ دخولهما سوَى بتأشيرة.

استندتْ بظهرها إلى المنضدِ وحدّقتْ إلى السقف، بدأتْ بالأمس في تنظيفِ بعض البيوتِ المجاورة، بفضل إشادة سينام

بها، لكن هذا لا يكفي للاستغناء عن عملٍ سليم، نظرتْ إلى ابنها.

«الأمرُ سيئٌ جدًا في المزرعةِ أليس كذلك؟»

كان قد بدأ يحدّثُها عن العمل في المزرعة بعد يومه الثاني هناك لكنّ نظرةَ عينَيها جعلتْه يتوقّفُ فجأة. ابتسم وهزّ رأسه. لانَ وجهُها، سيَنْجونَ بهذه الطريقة، بأنْ يخبرَ أحدُهما الآخر بأنّ الأمرَ أفضلُ الآن مما كان عليهِ من قبل.

سليم
20

جعلَ مستر بولات أيامَ عملِ سليم ذات الأربع عشرةَ ساعةً طويلةً وشاقة، كان شهرُ أغسطس ذروةَ موسم الطماطم، العملُ كثير حتى في مزرعةِ بولات المتداعية، بتربتها الأكثر تحجّرا من المزراع المجاورة.

تعلّم سليم معرفةَ الوقت من موقعِ الشمس في السماء. يظل منذ الصباح يراقبُ ظلّه يطولُ شيئًا فشيئًا حتى يصلَ يومُه إلى نهايته. يحصلُ على ربع ساعةٍ راحةً حين تُحضّرُ زوجةُ بولات الساندويتش، كل يوم الساندويتش نفسه مع كوبِ ماء فاتر. مع ذلك كان الطعامُ يُهدِّئ قرقراتِ معدتهِ والماءُ يُطفئ حريقَ حلقهِ الجاف.

لمستر بولات وزوجتِه أربعةُ أطفال، الفتى الذي رآه سليم في اليوم الأولِ، أوسطهم، أحمد، بعده فتاتان توأمتان، عمرهُما قرابة ثلاث سنوات، أكبرهم فتاة، إكين، اسمها بالتركية يعني «الحصاد».

إكين في سنّ سليم تقريبًا، نحيلة وطويلةٌ مثل أبيها ولها ملامحُه، لم تكن جذابةً حتى لفتى مراهقٍ لاجئ، بشرتُها ملأى بالبثور وخصلاتُ شعرها مجعّدَة كسلكِ تنظيفِ الأواني.

رأت إكين سليم من بعيدٍ وهي تساعدُ أمها في نشْر الملابس على حبل الغسيل خلف البيت، بنهاية أغسطس كانت قد أنْهت

عامها الدراسي وراحت تتجوّلُ في المزرعةِ من باب الضجر، تقضي أوقاتًا متزايدةً مع سليم والمرأةِ الأرمنية. كانت تحب المشيَ خصوصًا حين ينظّفُ سليم الحظيرة، مهمةٌ جديدةٌ أوكلَها إليه مستر بولات لأنها تحتاجُ إلى جهدٍ أكبر من طاقةِ امرأة. كانت الحظيرةُ مأوى لحمارَيْن، وثلاثٍ من الماعز وعددٍ من الدجاجات. هواؤها ثقيلٌ ومحمّلٌ برائحة الفضَلات والصوفِ المبلل. لم يكن سليم قد نظّف فضلات حيواناتٍ من قبل، فألهبت الروائحُ فتحتيّ أنفه. كان يخشى تلك الأيام حين يربّتُ مستر بولات على كتفهِ وهو يمد يده له بجاروف ويشيرُ إلى الحظيرة. قضى بولات دقائقَ قليلةً ليوضّحَ له ما ينبغي فعله ثم سار مبتعدًا.

جمع سليمُ القشَّ والترابَ الرطبَين في عربة اليد ودفعَها إلى ركن في المزرعة حيثُ يوضع الروثُ ليتحلل إلى سماد، علقت الرائحةُ الكريهةُ بملابسه وجلده. وظل يبتعد ما أمكنه عن الناس في طريق عودتهِ إلى البيت مساءً لعلمِه أن رائحتَه كريهة.

كان يجاهد ليتنفسُ من فمه فيما إكين تتجوّلُ بتكاسلٍ خارجَ أبواب الحظيرةِ المفتوحة روحة وجيئة. بدأتْ تتنحْنحُ وهي تمرّ، ثم بدأتْ تجلسُ على صندوقٍ في الركن كمشرفٍ عام على عمله. كيفَ ولماذا تتحملُ معدتُها تلك الروائحَ التي تزكمُ أنفه. ثم ذات يوم بدأتْ تتحدثُ معه بإنجليزيةٍ مكسّرة بدائية.

«ليس جيّدًا»، قالت تُبدي مُلاحظتها: «ما زالتْ قذرة».

«لم أنتهِ بعد»، أجابها سليم وعيناه إلى الأرض، ظن أن الأبَ التركيَّ قد يشبهُ الأفغانيَّ حين يتعلقُ الأمر بالفتيات، لم يرغبُ في إثارةِ مشكلات مع بولات، كانت تُمسك كوبَ ماءٍ في يدها، جرعتُه بصوتٍ عالٍ.

جفّفَ ترابُ الحظيرةِ لسانَه وحلقه، أغضبه صوتُ جرْعِها الماءَ لكنه لم يقل شيئًا.

«ما اسمُك؟»

حين لم تتلقَّ إجابةً كررتْ سؤالها، بصوتٍ أعلى وبضيق: «قلتُ لكَ ما اسمك؟»

«سليم»، غمْغَم يجيبها.

«سليم؟» قالت وهي تلعبُ بشعرها السلكيّ، تمسك أطرافه، تتعرقلُ أصابعُها في عقده: «لا أعرفُ هذا الاسم؟ أهو اسمُ فتاة؟»

عبس وأجابها: «لا».

«لماذا لا تنظُّف هناك؟ ستظلُّ الرائحةُ إن لم تنظّف هذا، ستمرضُ الحيوانات، لن يكونَ أبي سعيدًا».

ظلَّ زامًّا شفتيه، أنهَى عمله بأسرع ما أمكنه وعاد إلى الحقولِ حيث رفعتِ المرأةُ الأرمنية حاجبَها وأومأتْ برأسِها صوب الحظيرة. حين هز سليم رأسهُ بضيق ابتسمتْ، بدأا يفهمان أحدهما الآخر.

بعد ذلك بأسبوع، رأتْ إكين سليم يتجّهُ نحو الحظيرة، فتبعته، قلبتِ الصندوق وجلستْ عليه، مددتْ ساقَيها أمامها.

«الصيفُ حارٌ جدًا، أنا في البيت طوالَ الوقت، الوقت طويلٌ جدًا! المدرسةُ أفضل، الأفضلُ أن أرى أصدقائي».

لم يُسكتْها صمتُ سليم.

«هنا، لا يوجدُ شيء، لا يمكنُني التحدثُ مع أصدقائي، أنا وحيدة»، سكتتْ قليلًا، ثم عاودت، «أنت لا تذهبُ إلى المدرسة لذلك فلن تعرف، هل ذهبتَ إلى المدرسة؟»

جرف سليم الروث بقوة.

«أعـرفُ أنّ العمـالَ لا يذهبـون إلـى المدرسـة، لكـن أبـي وأمـي يقـولان إن علـيَّ أن أدرس لئـلا أكـونَ عاملـة، يقـولان إننـي يجـبُ أن أكـونَ متعلمـةً ونظيفـة لتكـون حياتـي أفضـل. لمـاذا لا تتحـدث؟ مـن الجيّـد أنـك لا تذهـبُ إلـى مدرسـة، فـي المدرسـة يأمـركَ المعلّمـونَ بالتحـدث!» ضحكَـتْ، تنقـرُ بكعبَيهـا الأرضَ المغطـاة بالقـش.

جلجـل صـوتُ مسـز بـولات، وقفـت إكيـن بتهيـدةٍ ثقيلـة. نفضـتِ القـشَّ عـن بنطالِهـا مـن الخلـف وغـادرت الحظيـرة، رمقتْـه وهـي فـي طريقهـا إلـى الخـارج بنظـرةٍ فضوليـة. شـعر سـليم براحـةٍ لمغادرتهـا. الدقائـق القليلـةُ معهـا أشـقُّ عليـه مـن يـوم عمـلٍ لثـلاث عشـرة سـاعة. عـادت مـرة أخـرى قبـل أن يسـتمتعَ بالصمـت التـام تحمـلُ سـاندويتش غدائـه.

«تفضّـل»، صاحـتْ مـن عنـد بـاب الحظيـرة. توقفـتْ ونظـرتْ إلـى لفـةِ السـاندويتش فـي يدهـا، رفعتهـا إلـى وجههـا، قربتْهـا منـه جـدًا حتـى رأى سـليم أنفَهـا يمـسُّ اللحـم: «إنهـا جيـدة، أنـأكلُ معًـا؟»

جلسـتْ علـى الصنـدوق، وفيمـا يقتـربُ منهـا لأخـذِ السـاندويتش قسـمته نصفَيـن بحـرصٍ وناولتْـه أحدَهمـا. راقبَهـا سـليم بغضـبٍ وهـي تلتهـمُ الخبـزَ واللحـمَ بيـن أسـنانها.

«هـذا طعامـي». قـال معترضًـا.

«لكننـا نـأكلُ معًـا»، قالـت مرتبكـة: «مثـلَ صديقَيـن، أوكِ؟»

«لا، لا، لا، ليـس أوك!» آلمَـهُ ظهـرُه، حرقتـهُ أطـرافُ أصابعـه وقرقـرتْ معدتُـه بغضـب.

بـدتْ مدهوشـةً مـن رد فعلـه. تـرددتْ لحظـةً ثـم وقفـت، مـدت يدَهـا فـي جيبهـا وأخرجـتْ كيـسَ حلـوى فيـه كعكتـان صغيرتَـان. ألقـت بـه علـى الصنـدوق وخرجـتْ مـن الحظيـرة دون أن تنطـقَ بكلمـة.

لم يفكرْ وهو غاضب سوى في أنه سيظلُّ جائعًا لبقية اليوم، لن يعينه نصفُ الساندويتش الذي تركتهُ له ولا جدوَى من الشكوى لبولات أو لزوجته. ألقى بالجاروفِ على الأرض ودفعَ بنصف الساندويتش في فمه. نظر إلى الكعكِ وتساءل ماذا يكون وهو يلتهمُه.

لم تكن إكين تغامرُ بالخروج إلى الحقولِ لكنه يشعرُ بعينيها عليه من بعيد، تراقبهُ يجمعُ الطماطم وتتظاهرُ بقراءة كتاب، لاحظت المرأةُ الأرمنية حضورها أيضًا وطرقعتْ بلسانِها استنكارًا. وضعت إصبعها على شفتيها وهزَّتْ رأسها. أشارتْ إلى ستة صفوفٍ من نباتات الطماطم ما زالَ عليهما جمعها وربتتْ على جيبها.

لا تقل شيئًا، كانت تخبره، *عُد إلى العمل لكسْب عيشك*.

عرف سليم أنها نصيحةٌ سليمة. كان نادرًا ما يقلق بشأن النقود وهو طفلٌ صغير. يتساءل فقط إن كان ما معه يكفي لشراءَ قطعةِ حلوى أم زجاجة مياهٍ غازية من السوق. لم يكونوا أثرياء لكن بادر جان يحرصُ على أن يكونَ معهم الكثير. بعد وفاته، صارت مادر جان تقتصدُ في الإنفاق وتخصصُ مبالغَ صغيرةً للبقالة والحاجات الضرورية. كان يعرفُ أن لديهم القليلَ لكنه لم يخطرْ بباله أن ينفد ما معهم تمامًا. الآن بعد أن صار يُعطي مادر جان كلَّ أجره، فهِمَ أن وضعهم المالي متأزمٌ بشدة.

نحن، كثيرًا جدًا، فكّر سليم وهو في الشاحنة في طريق عودتهِ إلى البيت، تذكّر ظرفَ النقود السميكَ الذي أعطتهُ أمّه لعبد الرحيم مقابلَ الوثائق، ثمنَ الوثائق، الطعامَ، وأجرةَ التهريب

مضروبةً في أربعة، ترك كل هذا عائلةَ حيدري على الكفاف. كانت سميرةُ صغيرةً جدًّا لتفهمَ العمل الشاق الذي يقوم به سليم يوميًا، ظلتْ في البيت لتساعدَ مادر جان لكن فقط في الأوقاتِ التي لا تعملُ معها سينام لتلحقَ بدراستها. أما عزيز فكان الأكثرَ تطلبًا.

خجِل من أفكارهِ، إنه يحبُّ أختَه وأخاهُ بشدةٍ لكن الإحباطَ والإرهاق كانا يغلبانه.

كل يوم، تحتاج أمهُ منه إلى المزيد. تجاهل رغبته في أن يرتمي في حضنِها، لا مجال له ليكون طفلًا، ما زال يتألمُ لفقدانه والده، لكنه يفكّرُ كثيرًا أن قراراتِ والده هي ما عرّضتْ حياتَهم للخطر. في ليالٍ أخرى لا يستطيعُ النومَ فيها، يندمُ على شقاوتهِ في طفولته وعلى كلٍّ مرةٍ أغضبَ فيها والده. كان كتلةً من المشاعر حين يتعلقُ الأمرُ بأبوَيه.

أصبح الآن هو المسؤولُ عن كسْب عيش الأسرة، كلما فكّر في هذا زادَ شعورُه بأنه ربُّ الأسرة وقلّ ترحيبُه بأخذِ أوامر من آخرين. كان يُبقي على غرور المراهقةِ لديه تحتَ السيطرة مع مستر بولات لكن حين يتعلقُ الأمر بوالدته، كان يفقدُ السيطرةَ على لسانه، فيقول أشياءَ لم يكن يجرؤ على قولِها قبل عام، يسددُ إليها نظراتٍ يعرفُ أنها تتجاوزُ الحد لكنه يسمحُ لنفسه بها. كان يعملُ ساعاتٍ طويلة، يُطعم الأسرة ويرغبُ في احترام آرائه.

عاد ذاتَ مرة إلى بيت آل يلماز ليجدَ أمَّه تنظفُ المطبخ. سميرةُ والرضيعُ نائمان.

«أهُما بخير؟» قال وهو يُلقي بنفسهِ على مقعد.

«إنهما بخير، مع ذلك عينا عزيز تبحثانِ عنك».. قالت بابتسامةٍ باهتة، وضعتْ طبقَ الطعام أمامهُ وجلستْ معهُ وهو يأكلُ، لا شيء بخير، كان يعرفُ، لكنها لن تُثقلَ عاتقَ ابنِها الصغير بالهموم، إنه يفعلُ ما بوسعه.

من الجيّد أن يشعرَ بك أحد، فكّر سليم، وهو يرقدُ على وسادةٍ ويُغمض عينيه.

فريبا
21

«لماذا يمرضُ طوالَ الوقت؟» سألَ سليم. دخلَ فوجدَني أحمّم أخاه الرضيعَ باسفنجة، كان عزيزٌ شاحبًا وعصبيًا، تقيأ مرتَين بالفعل.

لففْتهُ بمنشفةٍ وأرقدْتهُ على الأرض برفق، لا أعرفُ بمَ أجيبُ سليم.

«ظنّي أنه التغيير، الهواء، الطعام، كلُّ شيء مختلفٌ هنا، وهو صغيرٌ جدًا، لا بد أن جسدَه يجد صعوبةً في التكيّف». وضعتُ قطراتٍ من زيت الزيتون في راحتيّ وفركتُهما لأدفئهما. بدا عزيز حتى وأنا أدلكُ له صدرَه وبطنه غيرَ مرتاح. «ربما يحتاجُ إلى بعض الفيتامينات لتقويته».

لم يكتسبْ وزنًا كثيرًا منذ جئنا إلى تركيا، كنتُ أحاولُ بكلِّ ما يُمكنني، أستخدم الكلماتِ التركيةَ القليلة التي تعلمتُها في السوق لشراء الفاكهة والخضروات. هافوك، بازلاء، موز. حين تخذلني الكلماتُ الجديدة ألجأ إلى لغة الإشارةِ البدائية. نقّبتُ في أجولة الأعشاب ووجدتُ ما أعرفُ خواصَّها العلاجية، غلَيتُها وسقيتُ عزيز ملاعقَ منها. كنتُ أطعمه أفضلَ السبانخ الخضراء، وأطرَى ثمارِ الكمّثرى، وقطعَ لحم ممضوغةً بمزيد من الدِهنِ. لا شيء من كل هذا أضافَ إلى وزنه ولو رطلًا.

ذهب سليم إلى المطبخ، سمعتُ تنهيدتَه العميقةَ وصوتَ جرّ الكرسي الخشبيّ على الأرض. لا أحد منا مقتنعٌ بتفسيري.

«سنأخذهُ إلى الطبيب غدًا»، سمعتُ سينام تقول.. «تناولْ عشاءك، المعدةُ الخاوية ستزيدكَ كدرًا فقط».

كانت سميرة في المطبخ أيضًا. ذهبتْ لتعدَّ لأخيها العشاءَ حين سمعتْه يدخلُ من الباب. تحولت كل مشاعرها لأبيها تجاه سليم، غرامٌ عميق يأتي مع التوقعاتِ والحاجات. وكانت هي المعطفُ الشتويّ الثقيل الذي يُدفئه لكنه يُبطئُ خطوه.

كانت تبذل جهدَها للمساعدة. تهرسُ الفاكهة والخضروات لطعام عزيز، تراقبُه فيما أنظّفُ بيوتَ الجيران أو أقومُ بمهامّ صغيرة. كانت دائمًا ما تبدو منهكةً حين أعود.

قلتُ لها: «عزيز ليس سهلًا يا حبيبتي. إنه ليس بأفضلِ حالٍ وهو معي».

لكنها لم تقتنع.

سرتُ وسينام في الطريق الطويل في القرية إلى عيادة الدكتور أوزديمر الذي كان يفحصُ أبناءها منذ سنوات مضتْ. ما زال يمارسُ الطبَّ بعد أن انضم إليه ابنه. بيتهما عند الطرفِ الآخر من القرية، يفحص الأبُ وابنه المرضى في غرفةٍ صغيرة ملحقة بالمنزل، المكان بسيطٌ ومريح، قدمت لنا زوجته طبقَ بسكوت.

كنت قلقةً جدًّا لأتناول أي شيء. قرأتْ مسز أوزديمر الخوفَ في وجهي ولاحظتُ أنها تريدُ قولَ شيء لكننا لا نتحدثُ اللغة نفسها، تبادلتْ كلماتٍ قليلةً مع سينام ووضعتْ يدها على كتفي لطمْأنتي.

نظـرتُ إلـى ابنـي، رأيتـه للحظـة بعينَـي مسـز أوزديمـر، خصـلاتُ شـعره ملتصقـةٌ بجبينـه الرطـب، بـدأ حجـمُ رأسـه يبـدو كبيـرًا بالنسـبة إلـى جسـده، لـم يبـدُ بخيـر، يجـبُ أن أعتـرف، مـرَّ وقـت طويـلٌ جـدًا منـذ أن رأيتـه يبتسـمُ أو يغمغـم بشـيءٍ مـا. لـم أتخيـلْ موقفنـا دون كـرم هـاكان وسـينام البالـغِ معنـا. تسـاءلتُ كيـف أسـتطيعُ رد جميـلِ هذَيـن الغريبَيـن عنـا تمامًـا علـى كلِّ مـا فعـلاه لنـا.

تلـوَّى عزيـز منزعجًـا لأحملـه فـي وضـعٍ مريـح، يكـره أن أرقـده، أعرفـه جيـدًا لكننـي لا أسـتطيع تخميـنَ مـا بـه، لا أعـرفُ سـوى أنـه ليـس كطفلـيَّ الآخرَيـنِ وكان ذلـك يُرعبنـي.

دخـل الدكتـور أوزديمـر الغرفـة، تلاشـتِ ابتسـامتُه الدافئـة حيـن تقابلـتْ أعيننـا، أدركـتُ كـم بـدوتُ لـه مهمومـةً ونهضـتُ لأحيّيـه. لـه شـعرٌ رمـادي كـثّ وكـرشٌ صلـبٌ أعلـى حزامـه، وثقـتُ بـه وفـي شَعرِه الفضـي علـى الفـور وعرفـتُ أن زيارتـه سـتعود علينـا بخيـر. أومـأ لـي برأسـهِ تحيـةً وأشـار لـي كـي أعـاودَ الجلـوس. سـحب كرسـيًا آخـر مـن أسـفل المنضـدِ وجلـس قبالتـي.

اسـتطعنا بمزيـجٍ فريـد مـن التركيـة والإنجليزيـة والداريـة أن نتواصـل، حيـن تفشـل الكلمـاتُ نلجـأ إلـى الإشـارةِ والتمثيـل. بنـاءً علـى طلبـه أرقـدتُ عزيـز علـى طاولـةِ الفحـص وخلعـتُ قميصـه وبنطالـه. زمّ دكتـور أوزديمـر شـفتَيه بتركيـزٍ قبـل أن تلمـسَ يـده الطفـل. كان عزيـز قـد سـقطَ فـي النـوم لكنـه حيـن بـدأ يسـتيقظُ، كان صـدره يعلـو ويهبـطُ بطريقـةٍ مبالـغ فيهـا، تقلـب يمينًـا ويسـارًا عاجـزًا عـن النهـوضُ بنفسـه.

ضغط الدكتور أوزديمر على بطنِ عزيز وتسمّعَ صدرهِ بانتباه فترةٍ طويلة. استخدم عصا خشبية خفيفة لينظرَ في فمه ثم ضغط بأصابعهِ حول بطنه، مرارًا وتكرارًا، ثم على الجسد كله بوصةً بعد أخرى،خفقَ قلبي.

«دكتور *صاحب*»، قاطعتُه باحترامٍ ما أمكنني. «هل توجد مشكلة؟»

نظرتُ إلى سينام بقلق، أرجو أن يفهمني الطبيب.

تنهّد دكتور أوزديمر بعمق، نزع سماعاتِه الطبيةَ من حول عنقه ولفَّ عزيز في بطانيته قبلَ أن يعيدَه إلى ذراعيّ، وضعتُه في حجري وحوّلتُ انتباهي إلى الدكتور الذي بدأ يتحدثُ ببطء، ينطق بحرصٍ وهو يقرأ تعبيراتِ وجهي. وقعُ كلماته ثقيلٌ على أذنيّ وأنا أحدق بعينَين متّسعتَين لأفهمَ ما يقوله. مشكلة! هذا ما فهمتُه بالتأكيد.

«أي مشكلة؟! هل يحتاجُ إلى مضاداتٍ حيوية؟ فيتامينات؟»

هزّ رأسه نفيًا وهو يرددُ «مضاد حيوي» و«فيتامين»، كلمات لا تحتاجُ إلى ترجمة من الدارية إلى التركية.

أشار إلى صدر عزيز، إلى قلبهِ وردد العبارةَ الوحيدة التي استطاع التواصل بها. «مشكلة.. قلب!».

«قلب؟» كلمة أخرى عابرة للغات، «قلب» بالتركية هي نفسها بالدارية. شعرتُ بذراعيّ يتهدّلان.

نهض الطبيبُ وسحب كتابًا من فوق رفّ علوي. كان كتابًا بغلاف رقيق، لُصِقت أوراقه معًا مراتٍ عدة. بدأ يقلّب الصفحاتِ بحثًا عن الصفحة التي ستساعدُه على توضيح تشخيصه، لكنه

فقد صبرَه بسرعة وألقى بالكتابِ على المنضد، أخذ قلمَ رصاص من درج مكتبهِ وبدأ يرسم.

قرّبت كرسيّي منه، رسم قلبًا وبدأ يفتح قبضته ويغلقُها بإيقاع، ثم رسم تكوينين آخرين وبدأ يشهقُ ويزفر بشكلٍ مبالغ فيه. الرئتان، فكّرت! القلبُ والرئتان. أومأتُ فعاد إلى رسمه التوضيحي، أشار إلى القلب وفتح قبضته وأغلقها مجددًا، وإنما ببطء الآن، ثم أشار إلى الرئتين وبدأ يظللُ الجزءَ السفلي منهما. شيء ما يسدُّ رئتي عزيز. بدأ الدكتور أوزديمر تنفّسه المبالغ فيه مجددًا وإنما بصعوبة الآن، تنفس بشكلٍ أسرع وأصعب، حتى شحبَ وجهه من الإعياء.

فكّرتُ كيف قد يعاني رضيع، رضيعي، صغير جدًا من مشكلات في قلبه. أطبقَ عليّ اليأس، كيف يمكننا إصلاح الخطأ في قلبه؟

عرف دكتور أوزديمر أن رسالته وصلتْ، نقرَ بقلمه الرصاص على المخطّط في حجره. منْغن قريةٌ صغيرة ولا مجال فيها للقيام بأشياء يراها ضرورية. لا توجد أشعةٌ سينية ولا معمل تحاليل. عزيز بحاجةٍ إلى مستشفى والأفضل الذهاب إلى مدينةٍ حيث تتوفر الموارد، ليس لديّ نقودٌ لتلبية ما يحتاج إليه الرضيع. هز دكتور أوزديمر رأسَه. قلّص الطبيبُ عالمي كلَّه في رسمٍ توضيحي على ورقة. أردتُ أن أسمعَ تشخيصه النهائي، فرك جبينه، سحبَ دفترًا صغيرًا من جيب معطفهِ الأبيض وكتب شيئًا ما في ورقة، ناول الروشتة لسينام وأخبرَني أن هذه الأدوية ستساعدُ عزيز مؤقتًا لكن حالته ستسوءُ بمرور الوقت.

دمعتْ عينا سينام، عانت وهي تترجمُ لي.

لم تكن اللغة عائقًا في التواصل بيننا ذاك اليوم. حتى لو كان الطبيب يتحدثُ الدارية بطلاقة، لظللتُ لا أفهم تشخيصَ حالة ابني، نظر إليّ الطبيب، عرفتُ من عينيه أنه ليس مدهوشًا من رد فعلي، يعرف أنني أرفض تشخيصه، تمامًا كما تفعلُ أمهاتٌ كثيرات حتى النهاية وأحيانًا بعد ذلك بوقتٍ طويل.

نحّيتُ جانبًا كل ما أخبرني به وتمسكتُ بما أمكنني التمسكُ به، أردتُ شيئًا ما ملموسًا لأتشبثَ به.

سأعطيه هذا الدواء، قلتُ.. كم مرةً في اليوم؟ إلى متى؟

فهّمني.. رسم بسبابتهِ دوائر متواصلة في الهواء، «هفْتا» تعني أسبوعًا في التركية والدارية، *كلَّ أسبوع*، إشارة يده تعني استمرار الدواء. أومأتُ.

«عودي بعد أسبوعَين»، قال الطبيب. أومأتْ سينام برأسها، شكرتِ الطبيب وسألته عن شيء ما لم أفهمه. هز رأسه ولوّح لها بيده برفق، لمس مرفقي وربّت على جبين عزيز قبل أن يخرجَ من الغرفة.

كنتُ مغيّبة، بدأت سينام تقودُني إلى الباب بتلك الورقةِ المربعة الصغيرة في يدها.

لم أعرفْ كم سيتكلف الدواء، سرنا في طريق عودتنا صامتَتين. في الصيدلية، أخرجتُ نقودًا من حقيبة يدي لأدفعَ مقابلَ زجاجة الدواء التي ناولني إياها الصيدلاني. لا أريدُ الانتظار، كشفتُ بطانيةَ عزيز عن وجهه وأشرتُ إلى فمه. أوضحتْ سينام للصيدلي سببَ استعجالي فأومأ الرجل ذو الشاربِ برأسه وفتح

الزجاجة وصبَّ منها قليلًا في ملعقةٍ بلاستيكية. صببتُ السائلَ القاتم بين شفتَي عزيز النحيلتين.

كان قلبُ ابني الصغير كسيرًا أكثر من قلبي. كتمتُ غضبًا شعرتُ به نحو زوجي، لقراراتهِ التي جاءت بي إلى هنا. لم يكن قدر كبير من كلٌّ هذا خطأه، عرفت هذا حين عاد إليّ صوابي، لكنني أحيانًا أشعر بكتفيّ يرزحان تحت وطأة الأمر كله. وبسُحبِ السخط تلفّ تفكيري في زوجي، كنتُ أرى عنادًا وليس صبرًا، كبرياء وليست مبادئ، وإنكارًا بدلًا من عزم، بهت ضوءُ زواجنا، دعوتُ الله أن أظل أحبُّ زوجي بعد وفاتهِ كما كنت وهو على قيد الحياة.

«بسم الله الرحمن الرحيم» صرخَ قلبي المثقل.

سليم

22

مكتبة
t.me/soramnqraa

استمع سليم بهدوء فيما تخبرُه مادر جان بما قاله الطبيب. احتفظتْ بهدوئها بجُمل مقتضبة وأكدت أن الدواءَ قد أحدثَ فارقًا بالفعل. لكن الحقيقة كانتْ في الفراغات بين كلماتها، الأغوار التي صار سليم وسميرة يفهمانِها ويخافانها. قابلتْ عينا سميرة نظرةَ أخيها، شحبَ وجهها بثقلِ كلِّ ما تسكتُ عنه.

ظل سليم ينظرُ إلى أخيه الصغير، كان عزيز ينام مرتاحًا، تنفسه أهدأ، حين سمع هاكان بالأخبار من سينام، تنهّد وهز رأسه. عدَّ سليم هذا شفقةً ورفضها. لقد ظلّ يشقَى في عمله بمزرعة بولات كلَّ يوم لئلا يصيرَ محلَّ شفقة أحد. كان تعبيرُ وجه هاكان صريحًا وهو يضع يده على كتف سليم الذي أراد أن يهربَ من كلّ هذا.

جلس على حافةِ ملعب كرةٍ مدرسي، ينزعُ العشبَ بيدهِ. عرف من موقع الشمسِ في السماء، أن طلبة المدرسةِ سيخرجون قريبًا، يشعرُ بهم يتحرّكون في مقاعدهم، يراقبون الدقائقَ تمر في انتظار أن يصرفَهم معلّموهم. منذ عمر مضَى، في أرضٍ بعيدة تمامًا، كان مثلهم، لا يطيقُ انتظار لحظةِ أن يدسّ أوراقه وأقلامه في حقيبتهِ ويهرعَ إلى الباب.

لكن هذا وقت مختلف، وهذا سليم مختلف، يشتاق إلى مدرسةٍ وزملاء فصل، إلى أصدقاء، يتوقُ إلى الحياةِ العادية بشكل مؤلم أكثر مما كان عليه الأمرُ في كابول، الحياة العادية الآن قريبةٌ يمكن لمسُها، لكنها مع ذلك بعيدةُ المنال، جاء به سعيه إليها إلى هنا، إلى ملعبِ المدرسة بظلالهِ وعشبه، كان يمرُّ بالمدرسة كلَّ يوم في طريقه إلى موقف الشاحنات. ظلَّ هذا الملعب بمثابة تذكيرٍ دائم له بكيف كان ممكنًا أن يسيرَ الأمرُ على نحوٍ مختلف.

وصل سليم إلى المزرعة في وقتٍ مبكّر ذلك اليوم وأخبرَ بولات بأنه يريدُ المغادرةَ مبكرًا، غمغم بنصفِ الحقيقة عن مرض أخيه، زمجرَ صاحب المزرعة فعرفَ سليم أنه سيخصمُ من أجره، لكن بولات لا عمّال لديه وسليم يعرفُ أنه سيرحب به غدًا.

إن لم يستطعْ عيشَ حياةٍ عادية، فسيراقب الحياةَ العادية. أراد ساعاتٍ قليلةً فقط ليضعَ قدمه في رطوبة العشب، أراد أن يقضيَ ظهيرةً واحدة وحده، بعيدًا عن العمل الذي يقصم ظهره.

حاول تصوّرِ قلب عزيز، تحسس ضرباتِ قلبه هو نفسه، يدقُّ بقوة أحيانًا في صدره. رأى قلبَ حيوان ذاتَ مرة، حين ذهبَ مع أبيه إلى محلّ الجزار لشراءِ دجاجة، وجبة دسمة نادرة يوم العيد بعد صيام شهرٍ كامل. كانت ميزانيةُ بيتهم قد تقلصتْ حين لم يعد دخلُ بادر جان ثابتًا.

راقب سليمُ الجزّار وهو يجففُ يدَيه الملطّختَين بالدم بقطعة قماشٍ ويأتي ليتحدثَ مع أبيه، تبادلا المجاملات قبل أن يطلبَ بادر جان رؤية الدجاج لدَى الجزار. رفع الجزارُ حاجبَيه فشعر سليم، الابنُ الصغير، بصدره ينتفخُ بفخر. لم يكنْ آل حيدري من

الزبائنِ متوسّطي الحال الذين يسألونَ عن أرخص أنواع اللحم، كانوا يشترون أفضلَ ما لديه.

بينما كان أبوه والجزارُ يتساومانِ على السعر، نظر سليم حوله فرأى ما يعرضُه الجزار: لحمُ ماعز نحيلةٍ معلقٌ في مشجب، كُتَل لحمٍ وأعضاءٌ لامعة مرصوصة في صفوفٍ، أثارتْ مخيّلةَ سليم وشعورَه بالغثيان، تذكّر أنه جذب طرفَ كمّ أبيه يسأله.

«بادر جان، ما هذا؟» همس لا يريد أن يلفتَ انتباه الجزار لكنه عاجزٌ عن كبح فضوله.

«هذه قلوبُ دجاج».

ضحك بادر جان والجزارُ لرؤية سليم يضع يدَه على صدره، يحاولُ الشعور بدقاتِ قلبه هو، وعيناه تحملقان إلى قلوبٍ بحجم ثمار المشمش أمامه.

انفتحت بواباتُ المدرسة وتدفقَ الطلبة إلى الخارج، يتزاحمونَ عند البوابات كفيض منهمر. حسدهم على حقائبهم المدرسية، وكراساتهم، وعدم تحملهم المسؤولية.

توجّه فتيةٌ مثله إلى الملعب، كانوا مجموعةً من ثمانية أو تسعة، نظر سليم في ساعتهِ وهم يقتربون، لم يكن يرغبُ في أن يراه أحدٌ يحدقُ ببله. توقفت عقاربُ الساعة عن الدوران الليلة الماضية، حاولَ تعبئتها مجددًا بلا جدوى. كانت ساعةُ مهندس، عملها الداخلي يستعصي على التفسير، الأرجح أن بادر جان كان يستطيعُ إصلاحها، ظل يرتديها على أمل أن تعودَ إلى النبض مجددًا من تلقاء نفسها.

أخـرج أحـدُ الفتيـةِ فـي الملعـب، أطولهـم، كـرةَ قـدم مـن حقيبـةٍ قماشـية، شـعر سـليم بقدميـه تتململانِ بعصبيـة تلهفًـا علـى لمـس جلْـد الكـرة. لـم يسـتطعِ النهـوضَ والابتعـاد.

ربما لـن يلاحظونـي حتـى، فكّـر بينـه وبيـن نفسـه. اسـتدار قليـلًا كـي لا يوجّـه نظـره مباشـرة إلـى الفتيـة الذيـن بـدؤوا يمـررون الكـرةَ بينهـم، تنقـرُ أقدامهـم الأرضَ وتتقاطـع مسـاراتُ ركضهـم فـي الملعب، تعلـو أصواتهـم، بالتأكيـد يتبادلـون تعليقـاتٍ بذيئـةً بالعاميـة التركيـة التـي لا يفهمهـا.

تجمّعـوا معًـا فـي حلقـة واسـعة لوهلـة، نظـر اثنـان منهـم نحـوه، نهـض شـاعرًا بأنـه غيـرُ مرغـوب فيـه، ونفـضَ بنطالـه مـن الخلـف، كان يهـم بالابتعـاد حيـن سـمع صيحـةً موجهـة نحـوه. اسـتدار علـى مضـض، حيـن كـرر قائـدُ الحلقـة الطويـلُ مـا يقولـه، لـم يعـرف سـليم كيـف يجيبـه فقـال وهـو يرفـع كتفَيـه ببسـاطة.

«لا تركيـة».

«لا تركيـة؟» قـال الفتـى ضاحـكًا وحـول لغتـه إلـى الإنجليزيـة. «أتـودُّ لعـب كـرة قـدمٍ أم تفضـلُ النـوم علـى العشـب؟»

شـعر سـليم باندفـاعِ الـدمِ فـي عروقـه، تبـع الفتَـى نحـو الآخريـن الذيـن قسّـموا أنفسـهم إلـى فريقَيـن بالفعـل لكـن أحدَهمـا ينقصـه لاعـب.

«سـتلعبُ معهـم».. قـال الفتـى الطويـل. توقـف ونظـر إلـى سـليم مـن أعلـى إلـى أسـفل. «ألديـكَ اسـم؟»

توقف سليم، يريد أن يتأكدَ أن لا أحد يسخر منه.

«سليم»، أجاب أخيرًا وهو يخلع ساعةَ يده ويضعُها في جيبه.

«سليم؟ أنت تتحدثُ ببطء. أتمنى أن تكونَ حركتك أسرع».

كانت كابول ملأى بفتيان كهذا الفتى. انضم سليم إلى فريقه وحيا اللاعبين بإيماءةٍ سريعة، تفحصوه جيدًا بدورهم وبدؤوا يتّخذون مواقعهم في الملعب.

انتقل إلى عالمٍ آخر والكرة تركضُ من لاعبٍ إلى آخر، صار في كابول، يلعب مباراةً سريعة في الشارع مع أصدقائه وجيرانه قبل حلول المساء. ركض خلف الكرة، يركلها بعيدًا عن فتية لا تعنيه معرفة أسمائهم. يوقفها، يمررها إلى أعضاء فريقه الجديد، فتية كانوا لينظروا إليه باستعلاءٍ لو رأوه في السوق بوصفه عاملًا مهاجرًا أجنبيًا، لكنه هنا ليس كذلك، جاءته الكرة مجددًا، وجّهها نحو الهدف، يبحثُ عن مدافعين ويحاول المرور من الآخرين.

خسر فريقه بفارق هدفٍ واحد لكنه لعب جيدًا بما يكفي لكسب احترام المجموعة، رمق الفتى الطويل سليم بنظرةٍ جانبية طويلة، وهو يلهث ويتعرق.

«من أين أنتَ؟» سأل وهو يمسح جبينه بظهرِ يده.

«أفغانستان»، أجابه سليم مترددًا، لم يبد الفتى ردَّ فعل.

«أنا اسمي كمال».

صار كمالُ وسليم صديقَين، بقدر ما يسمحُ الأمر لفتى محلّي وفتى مهاجرٍ في منغن. منذ ذاك اليوم، كان سليم ينضمُّ إلى الفتية مرةً كل أسبوع للعب مباراة، يستأذنُ من مزرعة بولات ليلعب ساعة أو اثنتين وأحيانًا يعود إلى المزرعة ليستأنفَ العمل. كان مرهقًا ونهمًا في تلك الأيام لكنَّ الأمر كان يستحق، لقد عاد يشعر بالعشب تحت قدميه، وبالتربيت على كتفهِ، وبالهواء يضربُ

وجهه. كان بولات يبصقُ ويعبسُ لكنه يتسامحُ مع غيابِ سليم الذي كان يُنهي ما فاته من عمل.

في البيت، احتفظ سليم بنشاطهِ الجديد سرًا، لم يستطع إخبار أمّه أنه يشعرُ بالحرية ساعةً في الأسبوع. كان يرى وجهها القلقَ حين يعود إلى البيت، تقضي وقتها كلَّه مع عزيز والبحث عن أي عملٍ يعزّز ميزانيتهم. حتى سميرة كانت تساعد، إما بالجلوس مع عزيز فيما تعملُ مادر جان أو تنجز أعمال البيت في بيت هاكان وسينام. ورغم شعوره بالخيانة، احتفظ بسرٍّ رياضته لنفسه.

في الملعب، شعر بعجز لسانهِ المعقود عن إطلاق تعليقاتٍ ذكية حين يُلقي الفتيةُ بالنكات المعتادة. تمنَّى أن يُفسَّر صمته بكونِه لا مبالاة هادئة. ظلَّ كمال يشاكسُه دون أن تحبطَه الاستجابة القليلة.

في المساءات، يتجمّع الفتية أحيانًا في مركز القرية لتناول مشروبٍ غازي والإمعان بهيام في صور النساء اللاتي يرتدين ملابسَ قليلة في مجلات المرأة. قابلهم سليم مرةً واحدة فقط، ظل محرجًا من ملابسِ العمل المتعرقة ويدَيه المتشققتَين. حين عجز عن كتم كل شيء عن أمّه، أخبرها أنه قابلَ بعض الفتية المحليين الظرفاء وقد ينضم إليهم لتناولِ مشروبٍ غازي، فشجعته؛ ما جعلَ شعوره بالذنب يزدادُ لكتمانه عنها أسرارًا كثيرة.

رافق كمالُ سليمَ إلى البيتِ ذات مرة وعرف أين يعيش، لذلك فوجئ سليم حين عادَ إلى البيت من المزرعة ذات مساء بوجودِ صديقه جالسًا في المطبخ مع هاكان. عرف سليم تلك الليلة أن كمال متلوّنٌ كالحرباء، أعجبته تلك السّمة لأنها مفيدة.

«سليم، توقيتٌ مناسب، لديك زائر»، قال له هاكان بابتسامة.

«مرحبًا سليم»، قال كمال بمرح وهو ينهض.

قال هاكان: «كنا ندردشُ فقط، يسعدني أنك بدأتَ تتعرفُ على فتية الحيّ، وقد تكشفُ أنني أعرفُ والد كمال».

«مرحبًا...» أُخِذ سليم على حين غرة، لم يكن سعيدًا برؤية كمال في البيت. «أنت... أنت تعرفُ والده؟»

قال كمال: «نعم، أليس هذا مثيرًا؟ لم تكن لدي فكرةٌ أن هذا بيت السيد هاكان العزيز!»

قال هاكان ضاحكًا «هذه هي منغن، لا بد أن يعرفَ أحدنا الآخر. لكنني لم أرَ كمال هنا منذ كان صغيرًا. كان بطول هذه المائدة بالكاد». ابتسم كمال، يبدو قوي البنية بشكل ملحوظ.

أوضح قائلًا: «نعم، تبيّن أن والدي والسيد هاكان كانا زملاءَ تدريس في جامعة واحدة».

قال هاكان: «بالفعل، لكنَّ والدَ كمال أصغرُ مني بكثير، كان أستاذًا جديدًا واعدًا جدًا. كان الطلبةُ يحبونه حينها وحتى الآن، مع أنني واثقٌ من أن ابنه يفتقده خلالَ موسم الدراسة».

لا بد أن دهشة سليم كانت واضحةً على وجهه، كان أمامه الكثير ليعرفَه عن كمال، نهض هاكان وأخذ فنجانَ شايه إلى الحوض. عبث بشعرِ كمال في طريقه. فهم سليم أغلب محاورتهما لكنه بذل جهده ليركّز. تركيةُ كمال نسخةٌ منقحةٌ مما يسمعه منه سليم في العادة.

«حسنًا، استمتعا بوقتِكُما. كمال، بلّغ والدك تحياتي حين تراه، أخبرْه بأنني في انتظار زيارتهِ حين يعود، سيكون رائعًا أن أدردشَ معه بعد موسم الدراسة».

«بالطبع سيد هاكان سأبلغه، أنا واثق من أنه ستسعده رؤيتك جدًا، سوف يعودُ إلى البيت خلال أسابيع قليلة».

خرج هاكان من المطبخ ولكزَ كمالُ سليمَ في كتفهِ بمرح.

«هيي، هيّا يا رجل. أزل تلك النظرةَ عن وجهك! وامسح العرقَ أيضًا!».

ابتسم سليم بحرج وذهب ليزيلَ عن وجهه ورقبته وذراعيه يومًا من العمل الشاق. كانت مادر جان وسميرةُ وعزيز في غرفة النومِ الخلفية. عزيز نائمٌ ومادر جان تضفّر شعرَ سميرة. حياهما سليم ومال ليقبّلَ خد أمه، أخبرته بأنها قابلتْ كمال وأنها سعيدةٌ لأن هاكان يعرفُ أسرته، يبدو شابًا لطيفًا.

«إنه كذلك».. قال سليم: «سنخرجُ قليلًا، حسنًا؟ سأعودُ سريعًا».

«حسنًا *باجم*، انتبه لنفسك ولا تتأخرْ، من حق الأم أن ترى ابنَها هي الأخرى، أنت تعرفُ ذلك». وعدها سليم بالعودة سريعًا وعاد ليجدَ كمال في انتظاره خلف البيت نافدَ الصبر وسيجارة بين شفتيه.

قال كمال ضاحكًا: «آه، أفضل كثيرًا! الآن قد لا تخافُ الفتيات منّا».

ذهبَ سليم وابن الأستاذ الجامعي إلى السوق يبحثانِ عن مغامرة ما قد تسلّيهما مدة ساعةٍ تقريبًا، كان هذا هو المذاقُ الطيب للحياة العادية حتى أن سليم أراد أن يخرَّ على ركبته ويدعو الله أن تستمرَّ إلى الأبد.

سليم

23

كان كمال وهاكان وسينام أسبابَ استقرار سليم جيدًا في منفن، على بُعد آلاف الأميال من «الوطن». صار من الصعب التفكير في منفن باعتبارها محطةً مؤقتة في طريقهم إلى إنجلترا.

تحسنتْ حالة عزيز بقدرٍ طفيف، ما زال وزنُه وشهيته ناقصَيْن لكنه لم يعد منزعجًا طوال الوقت كما كان من قبل. تناوله مادر جان الدواء في التوقيت المطلوب بدقةِ مواقيت الصلاة، ممتنةً لتحسنه. في زيارتِها الثانية للطبيب الصالح أوزديمر أعدّتْ صنفًا خاصًا من زلابية المانتو، رفض مجددًا أن يأخذَ رسومَ الزيارة فشعرتْ أن عليها إبداء امتنانِها له بأيِّ طريقة.

لكن حتى وإن بدتْ أمورُهم تسير بشكلٍ جيد، كان سليم يعرف أن عليهم في النهاية أن يخطّطوا للخطوة التالية إن كانوا يريدون الوصولَ إلى إنجلترا. حاولت مادر جان الاتصالَ بأقاربهم هناك مراتٍ عدة لكنها لم تنجح.

بدت ممانعةً للاتصال مجددًا حتى مع علم سليم بأنهم أمل آل حيدري الوحيد. صار دواء عزيز عبئًا إضافيًا على ميزانية الأسرة الصغيرة، لا شيء سينقذُه من شقاء الأيام الطويلةِ في مزرعةِ بولات. ولولا كرم هاكان وسينام لكانوا الآن في الشارع بالتأكيد.

بدأ كمالٌ وسليم يقضيان أوقاتًا متزايدة معًا خارج الملعب. سُرّت مادر جان بالمعرفة بين هاكان ووالدِ كمال صديقِ ابنها الجديد، أرادته أن يكونَ اجتماعيًا وأن يستمتع بوقتهِ بعيدًا عن العمل. حين دعا كمال سليمَ لمرافقته إلى زفافِ أحد أقاربه في القرية، كان سليمُ مترددًا، لم يكن واثقًا من استقبال عائلة كمال له، عاملٌ مهاجرٌ بروثٍ تحت أظفاره. لكن مادر جان شجّعته على الذهاب.

كانت حفلاتُ الزفاف في كابول مناسباتٍ اجتماعيةً أساسية، ندرتْ فقط في السنوات القليلة الماضية إثر قيود طالبان الصارمة. لطالما أحبت مادر جان أن تتأنّقَ لذهابها إلى تلك الحفلات، حيث قاعات المآدب، والموسيقى والعروسَان وهما يبدأان حياةً جديدة معًا. ومع أنها لم تتحدثْ كثيرًا عن حفل زفافها هي، لكن سليم يعرف أنه كان أولَ مرة بالنسبة إليها تكون فيها محط الانتباه، وأنه كان بمثابة الخلاصِ لها من صعوباتِ طفولتها. سمع سليم قصة زواج والديه مراتٍ كثيرة، أكثر مما يمكنه أن يحصي، السيارةُ المزينة بالزهور والشرائط، فرقةُ الطبول التي زفّتهما في الشارع، الموسيقى التي استمرت حتى الرابعة صباحًا.

«ماذا سترتدي سليم؟ لنرَ ملابسَك...» قالت وهي تبحث في حقيبة ملابسه وتُخرجُ منها بنطالًا. واصلتْ بحثها قليلًا. «هاكَ قميصكَ ذا الأزرار، هذا سيَفي بالغرض، لماذا لا تجرّبهما الآن؟»

«مادر جان، إن الحفل بعد ثلاثة أيام».

«ماذا لو لم يعودا يناسبانكَ؟ أن نعرف الآن أفضلُ من أن نعرفَ يوم الحفل».

كان البنطالُ يناسبه بشكلٍ مريح والقميصُ يتدلى على كتفيه فضفاضًا، كانا مناسبين.

مساء الجمعة، سار سليم خمسَ عشرة دقيقةٍ حتى وصل إلى بيت كمال، راحتاهُ تتعرقان. في طريق عودتهِ من المزرعة بدأ بتخيّلِ نفسه وهو غريبٌ تمامًا وسط عائلةٍ تركيةٍ في حفلٍ خاص. فكّر جديًا في عدم الذهاب، لكنه قرر تنحية خجلِه جانبًا خشية أن يُحبطَ كمال.

سينضمُّ إلى كمال واثنَين من أقاربه في السيارةِ ليذهبوا إلى الحفل معًا. غادرتْ بقية الأسرة بالفعل. سيُعقد الحفلُ في بيت بمرزعةٍ خارج البلدة وكان الفتيةُ يستعجلون الوصول قبل تقديم العشاء.

كان قريبا كمال أكبرَ سنًا منه، في العشرينيات، لكنهما من الصنفِ الجامح نفسه. يدخّنانِ ويُلقيانِ نكاتًا بذيئة ويعودان إلى البيت لتناولِ طعام أمّهما كلَّ ليلة. بالكاد رفعا حاجبَيهما حين قابلا سليم، لا مُباليان على نحوٍ مُطمئن. صفّوا السيارة وتوجّهوا إلى المنزل، آملينَ الوصول في الوقت المناسب، بعد طقوسِ الزفاف وقبل الطعام والموسيقى.

كان توقيتهم مناسبًا تمامًا بالفعل. كان أفرادُ عائلتَي العروسَين يتصافحون باليد ويهنئُ بعضُهم بعضًا. وحمل الهواء رائحةَ اللحم المشوي وعجائنَ الجبن الساخنة. سرعان ما سيُقدّمُ الطعامُ مما يسمحُ للضيوفِ بالتجوّل قليلًا، وللأقارب ببعض النميمة، وحكاياتِ الأيام الخوالي والشكوَى من الحَر الذي لا يُطاق.

تشـرّبَ سـليم كل مـا حولـه. قـد يُعـدّ هـذا حفـلَ زفـافٍ أفغانيًـا أيضًـا، فكّـر بينَـه وبيـن نفسـه، لا فـارقَ حقًـا. الرجـال يُدردشـون فـي أحـد الأركان، والنسـاءُ يضحكْـنَ فـي ركْـنٍ آخـر. الشـبه بيـن الأتـراكُ والأفغـان أكبـر ممـا كان يظـن.

كان الطعـامُ شـهيًا، لـم يجـد سـليم الوقـتَ لتنـاولِ شـيءٍ حيـن عـاد إلـى البيـت، لذلـك وصـل إلـى الحفـل وهـو يتضـوّر جوعًـا، ثبّـت عينيـه علـى طبقـه. لا يريـد أن يلمحَـه أحـدٌ وهـو ينظـر إلـى الفتيـاتِ فـي القاعـة، إذ لفتـتْ نظـره عـدد مـن الفتيـات؛ كـن يرتديـنَ ملابسَ محتشـمةً لكـن أثوابهـنَّ التـي تصـل إلـى السـمّانة تبـرز منحنياتِهـن الشـابة. كان لإحداهـن شـعر كسـتنائيّ يتمـاوجُ حـول وجههـا ويداعـبُ شـفتَيها الكرَزيتَيـن، بـذل سـليم جهـدًا كبيـرًا لئـلا يحـدّقَ إليهـا.

«أتريـد المزيـدَ مـن الطعـام؟ سـأذهبُ لآتـي بطبـقٍ آخـر، أم تقلـقُ مـن أن يتمـزقَ بنطالـك؟» قـال كمـال لسـليم وهـو ينهـضُ ويلكـزه بمرفقـه.

«لا، سـآتي معـك، يُسـعدني أن يتمـزقَ بنطالـي بسـبب هـذا الكبـاب». سـارا إلـى المأدبـةِ الطويلـة حيـث صوانـي الطعـام. كان العروسـانِ يقفـان فـي أحـد الأركان يثرثـرانِ مـع ضيـوف قليليـن.

«لقـد ظلّـت العائلـةُ تنتظـر هـذا الزفـاف وقتًـا طويـلًا» أوضـح كمـال. «إن العـروسَ ابنـةُ عمـي، والعريـسُ مـن عائلـة تعيـش بالقـرب مـن هنـا، فـي مزرعـةٍ مجـاورة، كان يحبّهـا منـذ سـنوات. هنـاك عائلـةٌ أخـرى طلبـت يدَهـا لابنهـا وريـثِ هـذه الأرض، لكنهـا رفضتـهُ لأن أباهـا لا يحـبُّ عائلتـه فـي جميـع الأحـوال».

«*مثل كابول تمامًا*» فكّر سليم.

ملأا بطنَيهما، استمعا للموسيقى وراقبا الرجالَ يزدادون مرحًا بتأخرِ الوقت. ذكّره التصفيقُ وحركاتُ الأقدام والمرافق مع أنغام الموسيقى والطبولِ والآلات الموسيقية الأخرى بموسيقى كابول الماضية، دارت أكوابُ الشاي والحلوى والعجائنُ المنقوعة في الشراب المحلّى. ظلَّ سليم المتخم بشكلٍ كان قد نسيَه تمامًا، يقبِّلُ البقلاوةَ المقرمشةَ أو قطعَ النوجا المكسوّة بالفستق، تمنّى لو كانت أسرتُه تشاركه في الوليمة. لعقَ أصابعَه الدبقة وتساءل في نفسه عن طريقةٍ لإزلاق شيء ما في جيوبه دون أن يلاحظَه أحد.

«هيي، لندخنَ سيجارة، الجوُّ حار جدًا هنا، صحيح؟» اقترح عليه كمال. وافقه وخرجا من البابِ الخلفي للمنزل، كانت أذناه تطنّان، أخذ نفسًا عميقًا من الهواء المنعش، مدّد ذراعَيه وابتسم. بدا كمال سعيدًا.

«تقضي وقتًا طيبًا، أليس كذلك؟» سأله كمال وهو يُخرج سيجارةً وثقابًا من جيبه.

«لقد مضى وقتٌ طويل منذ أن ذهبتُ إلى آخر حفل. وقتٌ طويل حقًا».

«نعم، حسنًا، هذه هي الحياةُ في منفن، كل يوم حفل»، قال كمال بسخرية، اشتعلت السيجارة بوهجٍ برتقالي في الليل، كانا قد بدأا التجولَ حول سقيفة الفناء الخلفيِّ حين توقفا فجأة.

سمعا أصواتَ انفجاراتٍ تُحطّمُ هدوء الليل، يتبعها صراخٌ.

استجاب سليم غريزيًا أولًا. سحب كمالَ من كتفَيه وطرحه أرضًا.

صاح فيه: «ابقَ منخفضًا!». زحفا على ركبتَيهما إلى جانب السقيفة ليلقيا نظرةً إلى المنزل، فعلَ كمال كما أمره سليم. سمعا طلقاتٍ ناريةً، والمزيدَ من الصراخ، وصوتَ تهشمِ زجاج.

«ماذا يحدث؟» صرخ كمالُ بهلع. تألف أذنا سليم الصراخَ أكثر من الطلقاتِ النارية. صراخُ أشخاصٍ يتعرّضون لهجوم.

«والداي!» صاح كمالُ بصوتٍ كسير.

«اهدأ»، حذّر سليم صديقَه وهو يحيطُه بذراعَيه ليهدئه. «اهدأ لحظة».

اندفع ثلاثةُ رجال خارجَ المنزل، قفزوا في سيارةٍ وانطلقوا مبتَعدين. ركض كمالُ وسليم إلى المنزل فيما تبتعدُ السيارة. كان الصراخُ قد تحوّلَ إلى نواحٍ.

دماء.. قلبت رائحةُ البارود والمعدن معدة سليم. كان الضيوف متكومين في ركنَين من القاعة، علتْ أصداءُ التأوهات على موسيقى الحفل بنشاز مروّع. نزعت امرأتان الستائرَ عن النوافذ لعمل ضمادات. كانت والدةُ كمال إحداهما، ظلت تناديه وهي تمزقُ القماش.

«أماه!» ركض كمال إليها، ألقت بالقماش وأمسكته من كتفَيه.

«ألم يصبْكَ شيء؟ أأنت بخير؟ أوه، الحمد لله!» صاحت.

«أنا بخير، أنا بخير. أين أبي؟»

«يساعدُ أعمامَك هناك». التقطت الستارةَ وهرعتْ إلى جمعٍ حول امرأةٍ.

وقف سليم جامدًا في مكانه.

كان النـاسُ يصيحـون ويهرولـون حولـه، رأى أفواههـم تتحـركُ وسـمع ضجتهـم، ضجـة أشـخاصٍ مرعوبيـن ومجروحيـن. رآهـم يركضـون. حركةُ أذرعهـم وأقدامِهـم مـن حولـه، تدفعُـه أحيانًـا بعيـدًا عـن طريقهـم لكنـه لا يمكنـه التحـركُ حتـى ولـو أراد.

كان قـد عـادَ إلـى كابـول، سـمعَ القصـف، رأى النـاسَ يدفنـون أطفـالًا صغـارًا وأسـرًا تبكـي فقـدان آبائهـا. تباطـأت أنفاسـه وتغبّش بصـره.

لا مفـر، لقـد تبعـه حمّـامُ الـدم إلـى منغـن، يـا لسـذاجتهِ أن ظـن أنـه قـد تركَـه خلفـه. كان الـدم يتراقـصُ حولـه، يسـخرُ منـه ويلكـزُه فـي جانبيـه، تبعـه كلَّ تلـك المسـافة، فـي انتظـار لحظـةٍ أن يرضـى عـن نفسـه. عندمـا كان صغيـرًا اعتـاد أن يدفـنَ رأسـه تحـت الوسـادة كـي لا يسـمعَ أصـوات القصـف. الآن يضـعُ يدَيـه علـى أذنَيـه كـي لا يسـمعَ الصـراخ.

لمـحَ أحـدَ الضحـايـا، والـدَ العـروس، تحـولَ قميصـه الأبيـضُ إلـى اللـون القرمـزي. انسـحب اللـونُ مـن وجهـه وابنتـه تميـلُ إليـه وهـي ترتعـش.

أينما يولي وجهه يرى أباه.

سليم
24

تقلبتْ أمُّه بهدوء وهو يتسللُ إلى غرفة النوم، ما زالَ قلبه يضجّ. سَمِع تنفسَ سميرة الهادئ. حاولتْ عيناه التأقلمَ على الظلام وهو يتحسسُ الأرضَ بيده ليجد فراشه.

«الحمد لله أنك عدتَ إلى البيت»، همستْ مادر جان. «لا بدّ أن الوقت متأخرٌ جدًا، نم قليلًا سليم جان».

«نعم». كان هذا كلّ ما استطاع قولَه حتى لا يتهدجَ صوته.

سار إلى الحمام وفتح صنبورَ المياه قليلًا. ترك الماءَ يمرُّ على يدَيه وبين أصابعه، رفع راحتَيه إلى وجهه وأبقاهُما عليه.

«*نم قليلًا*»، قالت مادر جان «*نم قليلًا*».

خلع بنطالَه وقميصه وانزلقَ تحت غطائه، حدق إلى السقف، تتبع شقوقَه في الظلام يحاولُ محوَ ما رآه من ذهنه. لكنّه تذكر كلَّ شيء: العروس، ثوبُها الملطخُ بدم أبيها، أخوها ذو الساق الجريحةِ لكنه حيٌّ ويصرخ وهم يحملونه إلى سيارةٍ لنقله إلى مستشفى. آخران كانا محظوظَين، خدَش الرصاصُ ذراعَيهما فقط.

«*الحظ*» فكّر سليم «*أمرٌ نسبي*».

كانت ساعةً إلا ربعًا من الفوضى، أمسك قليلون ممن لم يفقدوا صوابهم الزمام وبدؤوا يصيحون بالأوامر. أخذ أحدُهم العروسَ

الذاهلة إلى غرفة خلفية. تحسس الزوجُ الحديث جسده والخوفُ يشله، بحثًا عن جروح ليست موجودة. كان أحدُ المسلحين قد سدد إليه مباشرة وأطلق النارَ لكن الرصاصَ لم يصبْه.

محظوظ.

وجد سليم نفسَه يتلو صلواتِه، كأن يديّ أبيه كانت على كتفَيه، أخذته بعيدًا من النوافذ ووضعته على الأرض. لمس الساعةَ المتوقفة حول معصمِه، افتقد تكاتِها الهادئة التي كانت تهدهدُه حتى ينام.

أخبرهما والد كمال وهو يقلُّهما إلى البيت بما حدث. اقتحم ثلاثةُ رجال الحفل، عرفهم الضيوفُ على الفور، أبناءُ صاحب المزرعةِ المجاورة، فتيةٌ من العائلة التي أرادت العروسَ لابنها. مُهانون وغاضبون، قرروا الأخذَ بثأرهم ليلةَ زفاف العروسين.

سددوا أسلحتَهم نحو والدِ العروس والعريسِ ثم أشقاء العروس. هرع الضيوفُ يستترون، اختبؤوا تحت الموائدِ المرصوصة عليها حلوى الحفل وفي الغرف المجاورة.

لم يطلقوا النارَ على العروس، كعقوبةٍ في حد ذاتها.

لم يرَ كمال في حياته أكثرَ من أنفٍ ينزفُ جرّاء عراكٍ في الشارع.

«الأمورُ مختلفةٌ خارج حدود القرية، الناسُ يأخذون ثأرَهم بأنفسهم حين يشعرون بالإهانة».

مر وقتٌ طويل جدًّا قبل وصول الشرطة. هز رجالُ الشرطة رؤوسَهم وهم يتنقلون من شخصٍ إلى آخر، يقيّمون الضرر. سجلوا ملاحظاتهم لكنهم لم يوضّحوا ماذا سيفعلون بشأن الجناة. قرر

والدُ كمال أن يعيد الفتيةَ إلى بيوتهم، كانت والدة كمال في سيارةٍ أخرى مع النساء.

سقط سليمُ في النوم وهو يفكّر في ما قاله والدُ كمال:

«الناس يموتون والأحقاد لا تموت».

استيقظ فجأةً على صوتِ مادر جان الخائف. كانت تنزعُ عنه غطاءه، نهضَ جالسًا، عيناهُ حمراوان، تحسستْ بيديها صدره ووجهه.

«ماذا حدث؟ لماذا يوجدُ دمٌ على ملابسك؟ هل جُرِحْت؟»

عادت الليلةُ الماضية إلى ذهنهِ بسرعة، مال برأسهِ إلى الخلف ووضع يدَيه على عينَيه.

«لستُ أنا، لستُ جريحًا». كانت سميرة مستيقظةً تمامًا، تحدّقُ فيه بقلق.. «كانوا يطلقونَ النارَ مادر جان. كان فظيعًا».

«يطلقون النار؟ ماذا تقولُ باللّه عليك؟» لم تصدق تمامًا أنه بخير فظلت تبحثُ في جسدهِ عن جروحٍ غير ظاهرة.

دفع يدَيها بعيدًا عنه ونهض ينفضُ النعاسَ عن عينيه، كان قد ألقى بملابسِه المبقعة بالدم بجوار وسادةٍ على الأرض. مشهدٌ مقزز في ساعاتِ الصباح الباكر. أخبرها بكل شيء، بصوتٍ خفيضٍ لئلا يزداد رعبُ سميرة، أخبرها بأنه ساعدَ في حمل شقيق العروس لنقلهِ إلى المستشفى.

لو كان قد نال قسطًا أكبرَ قليلًا من النوم لأمكنه التخفيفُ من حدة الأمر قليلًا. في النهاية بكى، ظل لا يستطيعُ التحركَ فترة طويلة، ثم أجهشَ في البكاء، كانت تستمعُ إليه بانتباه، يدُها على فمها لا تصدق. اقتربت سميرة، جلستْ بجوار أمها واستمعت

بانتباهِ الكبار. همستْ مادر جان بكلماتِ شكرٍ لله على نجاة ابنها.

أخذته في حضنِها وهدهدته كما تفعلُ مع عزيز. لم يقاوم، استمتع برائحةِ أمه، بالراحة بين ذراعَيها وبقبلتها على جبينه، طلبت من سميرة أن تضع الماءَ على النار وتبدأ إعدادَ الإفطار لهاكان وسينام. نهضتْ سميرة المطيعة.

«وماذا عن صديقِك كمال؟ ألم يُصب هو الآخر؟»

«لا، مادر جان، كان في الخارج معي، إنه بخير».

«ووالدته ووالده؟»

«لم يُصابا».

حين جاء هاكان وسينام لتناولِ الإفطار، كان عليه أن يكررَ القصة كلها مجددًا. تحسنت لغته التركية إلى حدٍّ كبير منذ بدأ التسكعَ برفقة كمال والفتيةِ الآخرين. بحث عن كلماتٍ قليلة هنا وهناك لكنه استطاعَ سرْدَ الأحداث. جلس هاكان وسينام بوجهَين مذهولَين، أمسكت سينام يَد فريبا بشكلٍ غريزي، اتضح لسليم كيف يتخذُ الهجوم على حفل الزفاف شكلَ قصةٍ أكثر منه حدثًا حقيقيًا.

ثبتتْ مادر جان نظرها على وجهَيهما بحثًا عن تفسير، كيف لشيء كهذا أن يحدُث في منغن؟ نهضَ هاكان وقال إنه سيذهبُ إلى بيت كمال ليرَى والده. خلال دقائقَ غيّر ملابسَه وغادر البيت.

«لقد تأخرتُ على العمل مادر جان، يجب أن أكونَ في المزرعة الآن بالفعل»، قال سليم وهو ينظرُ إلى ساعة يده عفويًا. «سألقى الكثير لتأخّري هذا».

«سليم عزيزي، أنت لن تذهبَ إلى المزرعة اليوم. بعد ما حدث ليلة أمس، الأمر غير قابل للنقاش، أريدك أن تبقى معي».

نظر إلى يدَيه وأدرك أنه يرتعش قليلًا. عرف أنه لا بد يبدو شاحبًا كالموتى، ورغِب فجأة في الاستحمام، ليمحو أحداث الليلة الماضية عن جلدِه بالماء الساخن.

أعدت له سينام كوبًا من الشاي الدافئ بالعسل وطبَقًا من الجبن والخبز. أكل بصمت. ظلت سميرة قريبةً منه لكنها هادئة. أدفأتْ زجاجة لبنٍ لعزيز ووضعتْه على حِجرها ليتناولَ إفطاره هو الآخر. للمرة الأولى منذ وقتٍ طويل جدًّا بدا رضيعُ أسرة حيدري ذو القلب الضعيف أفضلَ حالًا من بقيةِ أفراد الأسرة.

ذهب سليم إلى الحمّام وفتحَ الماء على أسخن درجةٍ ممكنة. تركه ينهمر على رأسِه ووجهه وكتفَيه، أغمض عينيه ورأى وجه العروس يسيلُ على خدّها خيطٌ من الدم، سمع تأوهاتِ أخيها، فتح عينيه محاولًا رؤية شيء ما آخر لكن الرؤى كانت منقوشة في شبكيةِ عينه. دعكَ جلده حتى احمرّ والتهب. نبَض صدغاه بقوة. أغلق الصنبور، آلمَهُ ملمس المنشفةِ الخشن على جلدِه.

جلست مادر جان في غرفةِ النوم، على حافة فراشها، بدت مصدومة.

«مادر جان؟» قال سليم مترددًا.

«ظننتُ أننا في أمان هنا»، همستْ. «يجب ألا يكونَ هنا مثل الوطن».

جلس إلى جانبها.

«لقد جئنا إلى هنا طلبًا للأمان. ظننّا أن هذا سيكونُ أفضل لكم، ماذا فعلت؟»

دون بادر جان، لا أحد غيرها يتلقى اللوم على خطّتهم التي أوصلتهم إلى منغن. وضع سليم جبينَه على كتفها.

«لم نستطعِ البقاءَ في كابول مادر جان. ليس لدينا شيءٌ هناك. كنا سنتضور جوعًا هناك، كان وضعنا أسوأ من هذا».

«كان عزيز بخير هناك، كان بخير حتى تركْنا بيتنا».. كانت عيناها لامعتين، مفعمتين بأفكارٍ عن الأمس الورديّ لا توجد سوى في ذهنها.. «لم تكن سميرة تغسلُ أطباقَ الآخرين وملابسَهم القذرة، لم تكن أنت تكدحُ حتى تتشققَ يديك. كنا بخير في كابول لكنني جئتُ بكم إلى هنا».

كانت فريبا تريدُ لأطفالها أن يعيشوا سالمين ومعافين وحسَني التغذية وآمنين وأحرارًا من العمل كخدمٍ لدى الآخرين، وقد فشلت في كل هذا.

«مادر جان، لم نكنْ بخير هناك».. ركع على ركبتَيه أمامها، يرتعشُ من طريقة أمه في التحدثِ عنه وليس إليه.. «ألا تتذكرين؟ لقد كنّا مرعوبين، لم يكن لدينا مالٌ ولم نكن لنحظَى بالبيت، كنا بالكاد نستطيعُ التنفس».

«أردتُ لأطفالي أن يعيشوا طفولتَهم، أن يضحكوا ويلعبوا ويتعلموا، أردتُ لهم ما حُرِمتُ منه في طفولتي، إلى أين يجبُ أن نذهب؟ بأي سرعةٍ يجبُ أن نركض؟»

لم يجد كلماتٍ قد تجلبُ أيَّ قدْرٍ من الطمأنينة. آلمه أن يسمع أمه تتحدثُ بتلك الطريقة وأن يسمعَ الأفكار التي ظلت تخفيها

عن أطفالها أغلب الوقت. أكانت ابتسامتُها وابتهاجُها لطمأنتهم فقط؟ لم تكن عيناها دامعتَين، كلامها ليس نتاجَ حالةٍ عاطفية، تلك الأفكارُ من أصدق جزءٍ في روحها. خلاصةُ تحليلٍ دقيق وملاحظات موضوعية، كانت حقيقيةً جدًّا.

«سنكون بخير، مادر جان، سترَين، كان ذلك أسوأ ما في الأمر، سوف نذهبُ إلى إنجلترا قريبًا جدًّا وسنكونُ بخير». تهدج صوته وهو يتحدث. ليس واثقًا من شيء مثلَ أمه.

تغيّر تعبيرُ وجهها على الفور، كأن أحدَهم ضغط زرًا. زمّت شفتَيها ولاحت في عينيها ومضة عزْم. سحبت كتفَيها إلى الخلف وقابلت نظرة سليم الواعدة.

«نعم، بنيّ، هذا هو الأمر بالضبط، سوف نذهبُ إلى إنجلترا». شعر بالارتياح أن نفضتْ أمُّه عن نفسها حالتَها الشبيهة بالغيبوبة، أومأ برأسه يوافقُها بحماس.

«نعم، مادر جان، علينا فقط أن نبقَى قليلًا لكي...»

«لا، علينا أن نغادر! سنغادرُ منغن، سنغادرُ تركيا».

«نغادرُ تركيا؟ لكن مادر جان، نحن لم...»

«لم يكن الله ليُرسلَ نذيرًا أكثر وضوحًا من هذا، حان الوقت لنستأنفَ رحلتنا. سنشكر هاكان وسينام كرمَ ضيافتهما، وندفع لهما ما علينا ونحزمُ أمتعتنا. كلُّ يوم نقضيه هنا سيغوصُ بنا في أعماقِ الحفرة. إن لم نغادر الآن، قد لا نغادرُ أبدًا».

كانت مادر جان تؤمن بالمضيّ قدمًا. لطالما آمنتْ بذلك.

سليم
25

كاد هاكان وسينام يبكيانِ يوم رحيل آل حيدري. حاولتْ فريبا دفع إيجارِ الشهر الأخير لكن سينام رفضتْ بهدوء. أخبرتْ فريبا وقلبها يكادُ يقفز من حلقها، أن تحتفظَ بالمال لرعاية أطفالها. ناولتها حقيبةَ طعام كانت قد أعدته، يكفي أيامًا عدة دون أن يفسد. تعانقتِ الأُمّان بقوة، صارتا في تلك الأشهر القليلة صديقتَين مقربتَين. كانت سينام الصوتَ الذي يهمسُ في أذن فريبا بأن اللّٰه يرسلُ المعجزاتِ على نحو لا يمكنُ توقعه. لم تكن فريبا في ظل ظروفِها الصعبة، تدرك الصوتَ في أذنيها دائمًا فكانت أحيانًا تحسبه صوتَها، لكنّ سينام صديقةٌ حقيقية، كان همسُها الثمين يأخذ بيدِ فريبا دون الحاجة إلى تحديدهِ أو الشكر عليه.

تعلقت سميرةُ بسينام، لم ترغبْ في ترك مُعلّمتِها وصديقتها، مصدر أمانِها.

وقف هاكان بكتفَين متهدّلتَين، حافظ دائمًا على مسافة من الاحترام بينه وبين فريبا والأطفال، كانوا يتامَى وضعافًا ولم يرغب في اقتحام خصوصيّتهم كما يعلمُ أن بقية العالم سيفعلُ معهم. كان ما ألمّ بهم وما سيحدثُ لهم خارج نطاق تحكّمه، كلُّ ما أمكنه فعله لهم أن يمنحَهم مأوَى تحت سقفِ بيته، لإيمانه بأن هذا هو الصواب.

شعر بفخرِ أبٍ حين نظر إلى سليم. رأى إرادةً وعزمًا قويَّين. كان يتأرجحُ بين عهديّ الصبا والرجولة، مرحلةٌ خطيرة. يرى طريقةَ نظرِه إلى أمه، نظرةَ فتى يرفضُ تصديقَ ما لا يعرفه، سيكون على فريبا أن تكافحَ معه، تنبأ هاكان، لكن سليم نقيٌّ جدًا ولن يكون بعيدًا عنها، لف ذراعه حول كتفَي سليم وضغطهما.

طال سليم عمّا كان عليه حين قابلَه أولَ مرة بعد الصلاة منذ أشهر عديدة مضت. عض سليم شفتَه، يشعرُ بخيانةِ والده لاستجابته لعاطفة هاكان الأبويّة. مع ذلك تمنحه تلك اللحظاتُ القصيرةُ بعضَ القوة.

«سليم، أمامك أنت وأسرتك رحلةٌ طويلة وصعبة، والله شهيد على كل ما تفعله لهم ولنفسِك، أنا واثقٌ من أن والدك فخورٌ بك وبالرجل الذي صرْتَه، سندعو الله لكم، ثقوا بالله وخذوا حذرَكُم ولا تخافوا».

أومأ سليم بحزن، كان قد ذهب مرة إلى ملعبِ الكرة بعد أن قال إنه في المزرعة، دخّن سجائرَ وسرق وجباتٍ خفيفة من الأكشاك في الشارع من خلفِ ظهور البائعين. استاء من أخيه الرضيع لتطلّبه ومن بادر جان حتى لعنادِه وإبقائه أسرته في أفغانستان حتى فواتِ الأوان. لا أحد يعرفُ هذا عنه، كان حذرًا، فتى ذا أسرارٍ، أراد من صميم قلبه أن يكونَ الفتى الذي يراه فيه هاكان.

نظر إلى وجه هاكان، ما زالَ شبَهُه غير الواضح بأبيهِ يدهشه، شعر أن ذكرى أبيهِ تخبو بمرور الأيام، كان أحيانًا يبقى مستيقظًا ليلًا يحاول تذكّرَ صورته، أو صوته أو رائحته. كان كلّ يوم جديد

يدفع بسابقهِ إلى مخبأ أكثر ظلامًا في ذهنه. ما يضطرُّه كل ليلة إلى الحفر بعمق ليصلَ إلى تلك المخابئ ليجدَ أباه. تشبّث بالصورِ لديه، يخشَى أن تبهتَ إلى بياضٍ تام، يُخجله الاعترافُ بهذا أيضًا.

لم يهتم بالعودة إلى مزرعةِ بولات رغم استحقاقه أجرَ خمسة أيام عمل. كان يعرف أن بولات لن يدفعَ له أجره إن عرفَ أنه لن يعود. ستجد إكين، التي عادت إلى ملاحقتهِ وكأنَّ شيئًا لم يكن، طريقةً أخرى لقضاء فتراتِ الظهيرة. كان وداع كمال متوترًا، أُسستْ صداقتُهما على خِفة الطفولة، الأنشطة الصبيانية ذات العواقب الطفيفة. زاد الزفاف الدامي ورحيلُ سليم من تعقيد ما بينهما على نحوٍ لم يتوقعه أحدٌ منهما ولم يرغب فيه. تمنّى له كمال بهدوء، دون أن يعنَى برفع شعره عن جبينه، رحلةً آمنة. أدار سليم ظهره لأول صديق له خارج أفغانستان، وهو يعرفُ أنهما لن يلتقيا ثانيةً أبدًا.

غادرَ آل حيدري منغن في باص متجه نحو الساحل الغربي لتركيا، حيث توفّر الموانـي والسفنُ مرورًا آمنًا إلى اليونان. كان معهم جوازاتُ السفر البلجيكية التي أتى بها عبد الرحيم لهم لذلك ليس عليهم التعامل مع مهرّبين، لو مرّوا من الجمارك بتلك الوثائق ستكونُ جديرةً بالثمن الباهظ الذي دفعتْه مادر جان مقابلها.

كانت رحلةُ الباص طويلةً ومنهكة وهادئة، راقب آل حيدري الأراضي التركيةَ الخضراءَ بصمت. كانوا يتركون خلفَهم حياةً استمتعوا بها. أيامٌ مرتْ بالإيقاع المريح لدق الطبل. ومن جديد تواصلُ مادر جان قيادتَهم إلى المجهول.

استغرقت الرحلةُ إلى إزمير يومًا، على الساحل الغربي لتركيا، حين اقتربوا من ميناء إزمير انتعشتْ حواسُّ سليم للهواء المالح، رائحةٌ غير مألوفةٍ لأنفه غير الساحلي، نظر إلى الآخرين، أعينُهم تلمع، تنعكسُ فيها ألوان المياه الفيروزية، البحر، حيث يتقافز ضوءُ الشمس هنا وهناك، من الماء إلى هيكل سفينةٍ إلى جناحي نورس. ابتسمتْ سميرة، أدفأت الشمسُ وجهها. ربّتتْ فريبا على شعر ابنتِها. لحظةُ فرحٍ قصيرة، لكنها تمنحُهم الدافعَ للمواصلة.

عثر سليم على شبّاكِ التذاكر واشترى تذاكرَ ذهابٍ فقط للأسرة بكاملها، بالكاد نظرَ موظفُ الشبّاك، المشغولُ بالثرثرةِ مع الموظف في الشبّاك المجاور، إلى جوازاتِ سفرهم. لوّح بيده حين سألهُ سليم عن تذكرةِ عزيز. بين التذاكر في حوزتهم. نظروا مجددًا إلى الأفق الأزرقِ الواسع مذهولينَ من عدد السفن الراسيةِ هناك. لم يروا في حياتهم مساحةً مائية أوسعَ من نهر.

«المياه خير، نور، أن يُحيطَ المرءَ بحرٌ واسع كهذا...» ملأت فريبا رئتَيها بهواءِ البحر.. «لا بد أنّ في هذا خيرًا لنا».

أسرتُها بحاجةٍ إلى نورِ حُسن الطالع.

أشار موظفُ التذاكر إلى سفينةٍ بلون سماوي، مبنى يطفو على سطح الماء، قفزت معدةُ سليم بفرحٍ صبياني، قاد أمّه وأخويه إلى مقاعدِهم. ألقت الريحُ برذاذ من قطراتٍ صغيرة باردة على خدودِهم. طار شعرُ سميرة وغطى وجهَها فضحكت وهي تحاولُ إبعاده، توقّف سليم وأمه، مضى وقتٌ طويل جدًّا منذ أن سمِعا هذه الضحكة.

حركتْ أمواجٌ ضخمة السفينة، مالَ سليم وسميرة إلى الحاجز ليقتربا من المحيط بأكبر قدرٍ ممكن. كانت الرحلة قصيرةً وقبل أن يتشبّعا بها، أعلن طاقمُ العمل وصولهم إلى جزيرة خيوس اليونانية، حيث ستأخذُ الأسرةَ سفينةٌ أخرى إلى أثينا.

كانوا محاطين بسيّاحٍ يرتدون بناطيلَ قصيرةً ويحملون حقائبَ ظهر، وراكبينَ يونانيين، حملوا حقائبهم على أكتافِهم وحاولوا بقدْر ما أمكنهم ألا يلفتوا الأنظار. في كلِّ محطةٍ في رحلتهم نقطةُ تفتيش، وقد تخذلهم دقاتُ قلوبهم المتسارعة ووثائقهم المزورة.

تبيّن أن دخول اليونانِ أسهلُ كثيرًا مما توقعوا فسرعان ما صاروا على متنِ السفينة التالية. كانت الرحلةُ من خيوس إلى أثينا أطول، فرصةٌ أكبر لفريبا لتتشربَ مشهدَ المياه الشاسع وتدعو الله أن تكونَ بشرَى بأيام أكثر فرحًا. بعد ذلك بثماني ساعاتٍ وصلوا ميناء بيرايوس وبدأتْ أعصابُهم تتوترُ مجددًا. كانت سميرة قد سقطتْ في النوم، ارتاحَ رأسها على كتف سليم. عضت مادر جان شفتَها بعصبيةٍ وهم يقتربون من المرسى.

عاودَهم القلقُ لرؤية رجالٍ بزيّ رسميّ يقفون على رصيف الميناء. حافظوا على وجوهِهم جامدة، خفقت معدةُ سليم كأن ما تحت قميصه بالونًا منفوخًا بشدة حتى أن أدنى حركةٍ قد تتسببُ في انفجاره ولفْتِ أنظار العالم إلى تعدّيه. أشير إليهم ليتقدموا إلى الأمامِ مع الزحام، شعر سليم بالأعين تنصبّ على ظهره لكن شيئًا لم يحدث، كانوا يقفون وسطَ زحام سيارات الأجرة في ميناء أثينا.

تضع تركيا قدمًا في أوروبا والأخرى في آسيا، سيختلف الأمر في أثينا، كان هاكان قد حذّرهم. *ستكونون خارجَ العالم المُسلم، بصرف النظر عن كون ذلك للأفضل أم الأسوأ*».

يعرفُ سليم وأمه أن عبء اللاجئين الأفغان يُثقل عاتق باكستان وإيران والهند بشكلٍ متزايد. لكن الأمر ليس بالمثل مع أوروبا وأمريكا. من نزحَ إلى أوروبا لم يتحدثْ عن العودة قط، كانت أخبارُ حياتِهم السعيدةِ الجديدةِ تنتشرُ كرائحة الخوخ الناضج حين يحملُها نسيم الصيف. أوروبا تتعاطفُ مع الأفغان الذين دمرت الحربُ حياتهم وتمدّ لهم يدَ المساعدة.

كان هاكان قلقًا من نظرة سليم الورديةِ لما ستكونُ عليه الحياة في إنجلترا، تحدث سليم عن عودتهِ إلى الدراسة وعودة أمّه إلى التدريس. يعرف هاكان أنّ المهاجرين، بمن فيهم آلاف الأتراك، يعانونَ في أوروبا، لكنه حذّرهم برفق فقط. قد يكرهُهم البعض للتعدي على أرضهم، لامتصاص لبن أمّتهم، لهيئتهم المختلفة. لكنهم ليس لديهم خِيارٌ أفضل كلاجئين أفغان، لذلك لم يشأ إحباطَهم في وقتٍ مبكر من رحلتهم.

نحّى سليم تحذيراتِ هاكان جانبًا، تجوّلوا في الأنحاء يتساءلون إن كان بإمكانهم عبورُ اليونان. منذ أن غادروا منغن خلعتْ مادر جان طرحتَها التي أجبرتْها طالبان على لبسِها، كانت سعيدة لتركها خلفها. هنا في اليونان، يمكنُها ارتداء ملابسها التي كانت ترتديها وهي شابةٌ في كابول. يمكنها أن تكون فريبا جديدة.

توقفوا عند ثلاثةِ فنادق بحثًا عن مأوًى لكنهم صدموا من الأسعار الباهظةِ التي لا تناسبُ ميزانيتِهم الضحلة. أشفقتْ إحدى

موظفات الاستقبال على سليم فدلّته على فندقٍ أصغر وأرخصَ على بعد نصفِ كيلومتر. رسمتْ له الاتجاهات على منديلٍ ورقيّ قبل أن تعاودَ الانتباه إلى التلفاز الصغير أسفل المنضد.

تبين أن فندقَ «أتيكا دريم» هو أفضلُ خيار، ساومَ سليم في ثمن الغرفةِ من أربعين يورو إلى عشرين، مع الوعد بأن يكونوا نظيفينَ وهادئين تمامًا. رأت الموظفة -امرأةٌ خمسينية- مادر جان بثلاثةِ أطفال وأربع حقائبَ فاستدارت إلى دفترٍ بغلاف جلدي على المكتب، ونقرتْ بقلمِها الرصاص على شبكة الأرقام والتواريخ. كان الفندقُ قد ظل عقودًا بلا تجديداتٍ وبدا أن مالكيه لا يعنون بمظهره كثيرا. ظلوا لوقتٍ طويل على الهامش بسبب الفنادقِ الأحدث في المنطقةِ وكانوا ينتظرون تحسُّن الموقف فحسب. سيخرجون من مجال العمل بالتقاعد ما لم يُخرجْهم نقص النزلاء.

تنهّدتِ الموظفةُ وأومأتْ برأسها بتثاقل موافقة، تحاول جعْل تأجير الغرفةِ مقابلَ مبلغ زهيدٍ يبدو تضحيةً كبرى. سحب سليم النقودَ التي حوّلها في خيوس ودفع للمرأة مقابل ليلةٍ واحدة، فأخرجتِ المرأة مفتاحًا من صندوقٍ خشبي. صعدوا سلّمًا تصدرُ ألواحه صريرًا ثم إلى غرفةٍ بفراشَين. المرتبتان قديمتانِ ومُتكتلتانِ لكنهم كانوا سعداءَ بالوقوف على أقدامهم وتمديدِ سيقانهم وإراحة أكتافهم.

شعَر سليم بموجاتِ الألم في قدمَيه وهو يريحُ رأسه على الوسادة. أغمض عينَيه وفكّر في المسافةِ التي قطعوها. ربما كان الوقتُ مناسبًا بالفعل للرحيل من منغن. أو ربما كان عليهم

الرحيـلُ منـذ وقـتٍ طويـل. إنهـا الخطـوةُ التاليـة فـي رحلتهـم، كمـا أخبـرتْـهُ مـادر جـان.

«*هـا نحـن فـي اليونـان*».. فكّـر وهـو يغـطُّ فـي النـوم..» *لكـن مـاذا الآن؟*»

سليم
26

مـرّت السـاعاتُ واسـتيقظ سـليم، سـمع الأصـواتَ البعيـدة للمحادثـاتِ والمـارة فـي الشـارع فـي الأسـفل. أثينـا حيّـةٌ طـوالَ الوقـت. بـدأ ضـوءُ الشـمس ينثـالُ عبـر السـتائر الشـفافة، مـدّتْ سـميرة ذراعَيهـا وقوّسـت ظهرَهـا ومـا زالـت عيناهـا مُغمضتَيـن. تقلـب عزيـزُ علـى بطنـه وانزلقـتْ قدَمـا فريبـا علـى الأرض، فركـت عينَيهـا ووقفـت. راقـب سـليمُ أُسـرته تبـدأ يومًـا جديـدًا.

غسلوا وجوههم بمـاءٍ بـارد في حمـام صغيـر جدًّا حتـى أن سـليم أمكنـه لمـسُ جدرانِـه الأربعـة دون أن يمـدَّ ذراعيـه. وضعـوا آخـرَ مـا تبقـى مـن الأطعمـة التـي أعدّتهـا لهـم سـينام علـى ورق جرائـدَ وقسّـموه.

أخـذ سـليم حمّامًـا وخـرج ليبحـثَ عـن طعـامٍ وطريقـة للوصـول إلـى إيطاليـا. الأسـعارُ فـي أثينـا أعلـى بكثيـرٍ مـن تركيـا وحتـى فندقهم القديم سيسـتنزفُ ميزانيتَهم سـريعًا. دس جـوازَ سـفره في جيـب بنطالـهِ الجينـز مـع يوروهـات قليلـة.

نصحتْـه موظفـةُ الاسـتقبال، بتثاقـلٍ كمـا كانـت الليلـة الماضيـة، بركوب متـرو الأنفـاق ليصلَ إلـى أومونيـا إن أراد شـراءَ طعـام. زمجـرَ القطـار الفضـيُّ الثعبانـي وهـو يدخـلُ المحطـة ثـم عـاد يختفـي فـي النفـق بحمولـةٍ جديـدة مـن الـركاب. راقـب سـليم مـا يفعلـهُ الآخـرون

وفعل مثلهم، استقلّ القطار ببهجةٍ متوتّرة، تفقّد الورقة في جيبه يطابقُ اسم المحطة الذي كتبتْهُ له الموظفة بالخريطةِ على جدار المترو. أدار رباطَ الساعة حولَ معصمه، دُهش لأنّ لا أحد ممن حوله ينظرُ إليه. بينما هو، على الجانب الآخر، كان مأخوذًا بطنين القطار، ورائحةِ القهوة، وصوتِ فتح ورقِ الجرائد.

كان هاكان قد أخبره أنه سيرَى مهاجرينَ كثيرين في اليونان، أراد أن يجدَهم ويسألهم عن أفضلِ السبل للذهاب إلى إيطاليا أو لشراءِ طعام بمبلغ زهيد. حين رأى رجالًا بالزيّ الرسمي أبقَى عينَيه على الخريطةِ التي أخذَها من الفندق وذاب في الزحام. شق طريقه عبر ساحات المدينة، متاهةٌ من المباني الشاهقة والشوارع الممهدة. ملابسُ الرجال مثلما في تركيا لكنّ النساء مختلفاتٌ تمامًا، كن يسرْنَ ببلوزاتٍ ضيقةٍ وياقاتٍ واسعة بما يكفي لجذبِ نظره اليافع. تتحرك أذرعُهن وسيقانُهن العاريةُ من حوله، دون أن يلحظْن انشداهَه. أشخاص من كلّ شكلٍ ولون يتَجوّلون في الشوارع، كثيرٌ منهم بكاميراتٍ وكتيّبات، يتوقّفون من حينٍ إلى آخر لالتقاطِ صورة.

حمل حقيبتَه الفارغةَ على كتفهِ آملًا أن يملأها بالطعام قبل عودتهِ إلى الفندق. وصل إلى ميدان عام، نسخة أضخم بكثير من نظيره في كابول، بأرصفة وأضواء والمزيد من السيارات، تتفرعُ منه شوارعُ أصغر تصطفُّ على جانبَيها المحلات.

يجلسُ على الأرصفة رجالٌ ببشرةٍ سوداء كالليل معهم أجْولةٌ من الخيش مملوءة بأكياس، تتحركُ أعينهم يمينًا ويسارًا تتفحّصُ المشهد، يغمْغمون للمارة، يحاولون الترويجَ لبضاعتهم. بدوا له أكثر أجنبيةً منه هو نفسه، فلم يقتربْ منهم.

مشى في السوق، مرّ برجُلينِ يبيعان دُمىً راقصة على الرصيف، ذكّر سليم نفسه بهدفهِ ونظر إلى الرجُلينِ، ليسا أسودَين كمنْ رآهم قبل أمتار قليلة، بدا أنهما من الهند. سحبت امرأةٌ شقراء طفلَها الصغير بعيدًا عن الدمى، يعكس شعرُها ضوءَ الشمس. أغرى الرجلُ الطفلَ بأن جعلَ الدمية ترقصُ نحو ساقَيه الممتلئتَين، هزت المرأةُ رأسها، حملتْ طفلها المعترض وابتعدتْ مسرعة.

جلس البائع المتجولُ متربعًا على الرصيف، ضجرًا تمامًا، نظر إلى سليم خطفًا.

سأله سليم بحرص:

«هل تتحدثُ الإنجليزية؟»

أومأ الرجلُ برأسه بشكلٍ غير ملحوظ تقريبًا، فسأله سليم:

«من أينَ أنت؟»

توقّف الرجل، لديه السؤال نفسه عن سليم.

«بنغلاديش»، قال أخيرًا، ثم رفعَ حاجبَيه وأشار بإصبعه إلى سليم.

«أنا؟ أفغانستان».

أومأ الرجلُ كأنه خمّن هذا. لقد ظلّ في اليونان عامًا، كما أخبر سليم، يحاولُ لفتَ أنظار المارةِ لبضاعته بلا جدوى. واصل سليم:

«أنا هنا مع أسرتي، نريدُ أن نذهب إلى إيطاليا...»

«شعب أفغانستاني كثير كثير»، علّق الرجلُ بشرود.

توقف سليم.

«هنا؟ يوجدُ أفغان؟»

كان تعامله مع الأفغانِ في تركيا قد ترك في نفسه مذاقًا سيئًا لكنه مع ذلك ما زال يجدُ راحةً ما في العثور على أشخاص من بقعةِ الأرض نفسها التي جاء منها.

«أين؟ أريد أن أجدَ أفغانًا، ساعدني أرجوك».

«أفغان...» كرر البنغلاديشي، وهو يميلُ برأسه جانبًا، ويشير بيده اليسرى نحو الأفق.

«الأفغانُ ليسوا هنا، إنهم بعيد، يأكلون وينامون معًا».

«أين؟ أخبرني من فضلك أيها السيد؟»

«بعيد، بعيد»، لوّح الرجلُ بيدَيه وهز رأسه تأكيدًا «مترو. لا سير».

ميدان أتيكي، قال البنغلاديشي أخيرًا. كان الميدان بعيدًا بما يكفي لدرجة أن لم يجدْه سليم على خريطةِ المترو. بتلك الأسعار المرتفعة التي رآها، لم يدهشْ أن اتخذ الأفغانُ ملجأهم خارج المدينة. رفع الرجلُ حاجبه ونظر إلى سليم بترقّب. أشار إلى دُماه الراقصة، لم يلمسْها أحد، ولوّح لسليم أن يبتعد.

قرر سليم أن يبحثَ عن طعام أولًا، أحصَى النقودَ الورقية والعملاتِ في جيبه، ليست كثيرة. سار إلى كشكٍ يبيع جرائدَ وزجاجات مياه، علت الشمسُ في السماء، ستشعر سميرة بالجوع قريبًا، مع أنها لن تعلنَ عن ذلك.

لمس ساعتَه بعصبية، كان الناسُ يخرجون من مبنى رماديّ ضخم إلى يمينه حاملينَ أكياسًا بلاستيكية ثقيلة، رأى أرغفةَ خبز تبرزُ من أحد الأكياس، تبع الزحامَ إلى الأبواب الزجاجية المزدوجة.

كان مبنى يشبهُ المطار، عميقٌ بما يكفي حتى أنه لم يرَ نهايته وكان عليه أن يميلَ برأسه إلى الخلف ليرى السقف. تقسِّمُ أكشاكُ البيع القاعةَ إلى ثلاثةِ صفوف. اتسعتْ فتحتا أنفه، شمَّ رائحةَ البحر ورائحة سمك وبصل. انعطفَ يسارًا وسار إلى الأمام، أسالت رائحةُ السكّرِ المكثّف ريقه فتوغّل في السوق.

سار بين صفوف الأكشاكِ. جحظتْ عيناه لرؤيةِ الفاكهةِ والخضروات والأجبان والحلويات والفطائر والزيتون. أخبرتْه ملصقاتُ الأسعار أن الأمل ضئيل في شراء أغلبِ ما يراه.

تسارعت دقاتُ قلبه، وجزءٌ منه يضع الخطة.

لا أحد يراك. تمامًا مثل منغن. اختر بحرص وهدوءٍ وابحث عن مَخرج.

سار ببطء إلى كشك في الصف الأول. كان الرجلُ الواقف خلف الطاولةِ يوضّح شيئًا بشغفٍ لزبونَين يتفحصانِ فاكهتَه المجففةَ بإمعان. حمل سليم كيسَي مشمشٍ مجفف وقلّبَهما ببطء. أخفضَ حقيبتَه من فوق كتفهِ إلى مرفقه، حيث انتظرُ فمُها المفتوحُ الغنيمة، تحركت عيناه على مستوى منخفض يمينًا ويسارًا ببطء.

لا أحد يراك.

أسقط أحدَ كيسَي المشمش في الحقيبةِ بهدوء وهو يميلُ إلى الأمام ليضعَ الآخر على الحامل. نظر إليه البائع خطفًا، رآه يضع الكيسَ فعاود الانتباهَ إلى الزوجَين اليونانيَّين.

ابتعد سليم ببطء، توترتْ عضلاتُه واستعدّ للركض عند أيّ إشارةٍ على أن أحدًا رآه. لكنّ لا شيء. نظر حولَه يبحثُ عن المزيد،

يوجد خبزٌ مسطّح، وخبزٌ مستدير، وقالب جبنٍ على حاملٍ في أحد الأركان، على مقربةِ عشر ياردات تقريبًا من الباب. قرقرتْ معدتُه بتشجيع، يحسب ذهنُهُ حصّصَ كل منهم. أمكنَه من حيث يقفُ قراءةُ السعر على أحد قوالب الجبن. يوروهات كثيرة جدًا. اقترب. الخبز المكتنزُ مرشوشٌ بكثيرٍ من السمسم.

نظر مرةً أخرى إلى المسافةِ بين الحامل والباب. ما إن يخرج من تلك الأبوابِ الزجاجية سيتّجه يسارًا ويعودُ أدراجه إلى الفندق.

وقف حول طاولةِ الخبز ستةُ أو سبعة أشخاص، أغلبُهم عند قسم الكعك والفطائر. التقط أحدَ أرغفة الخبز السمينة بتلقائيةٍ وتفحّصه، ثم التقط رغيفًا مسطحًا ومستديرًا وضخمًا ونظر إليه، غطّى به الرغيف السمين الذي يتدلّى أعلى فم الحقيبة المفتوح مباشرة. حملّ الرغيفَين بيده اليسرى، ومد اليمنى ليأخذَ كتلةَ جبن.

ارتفع فجأةً صوتُ البائع في الزحام واقتربَ الزبائنُ من الطاولة. شعر بتدفّق الدم في خدّيه. رفع بصره فوجدَ أن الرجل، سيدٌ محترمٌ كبير في السن بشعرٍ أشيب ومريولٍ أبيضَ قد قطّع إحدَى مخبوزاته من المعجناتٍ المنقوعةً في الشراب المحلّى، وكان يقدم قطعًا كعيّنة للزبائن الذين لم يلحظ أحدٌ منهم خفة يد سليم.

«إيلا، إيلا!» كان سليم قد أدار ظهرَه للحامل لتوّه، تجمّد في مكانه وفكّرَ هل يستديرُ أم يركض فحسب، حلقه جافٌ كنشارةِ الخشب.

ردد الرجلُ شيئًا ما باليونانية وهو يدفعُ بصينيةِ المعجناتِ نحو سليم.

«أهذا للتذوق؟»

أومأ له الخبّازُ بحماس، وارَى سليم حقيبتَه المملوءةَ خوفًا من افتضاح أمره.

«دوكيماس!» قال الخبازُ بغمزةٍ. أخذ سليم قطعةً من المعجناتِ الدبقة والرجلُ يومئ له ليشجعَه، ثم انتبه الرجلُ إلى امرأةٍ متوسطة العمر وزوجِها كانا يلطّخان زجاج خزانةِ العرض وهما يشيرانِ إلى ما يريدانه. حمل سليم حقيبتَه وسار إلى المخرجِ بهدوءٍ ما أمكنه، تتأرجحُ حقيبته الثقيلةُ على ظهرِه مع كل خطوة.

برّدَ الهواءُ المنعش العرقَ على مؤخرةِ عنقه.

تنفسَ الصعداء، جعلت المعجناتُ المحلاةُ لسانه يلتصقُ بسقف حلقه. كان قد ابتلعها دون أن يتذوقَ أيَّ شيء. سار في الشوارع المتفرعةِ، يشعرُ بالأعين من حولِه تشيرُ إليه باتهام. انعطف مراتٍ عدة ليبتعدَ ما أمكنه عن السوق وزبائنه. خلال دقائق، كان فقدَ الاتجاهات، فوقف يلهثُ تائهًا.

أسند ظهرهُ إلى جدار وبحثَ بعينيه في الشارع حتى رأى لافتةَ المترو. وخزت ابتسامةُ بائع الخبز المشجعةُ ضميرَه.

«*أنا آسف*» فكّر.. كان كذلك حقًا.

لكنه شعَر بشيء آخرَ أيضًا؛ شيء ما لم يتوقعُ الشعورَ به. رفع حقيبته وشعر بحملِها، أرطالٌ من النجاح، سيكفي لإطعام أسرته أيامًا دون أن ينفقوا يورو واحدًا. كانت كل قضمةٍ يتناولونها، وكل شيءٍ يفعلونه، يُقاس بأيامِ جمْعِ الطماطم وتنظيف البيوت.

على شيءٍ ما -القدر، الكون، الله- أن يريحَ آل حيدري قليلًا، برّرَ سليم لنفسه. كانت يدُ عبد الرحيم على أحد كتفَيه، هاكان أمامه، صوتُ بادر جان يرنّ في ذهنه.

سليم جان، بُنيّ، اكسبْ عيشَك بشرف.

في غرفة الفندق. وضعَ غنيمتَه على ورقِ جرائد.

«لو كان أبوكَ معنا لكان سيفخرُ بك جدًّا»، تنهّدت مادر جان وهي تقسّمُ الخبزَ والجبن إلى قطع. «ليباركَك الله لما تفعله من أجل هذه الأسرة، هذا طعامٌ كثير جدًّا! كم تكلّفَ كل هذا؟»

أجابها برقمٍ لا معقولٍ نهائيًّا، وشعرَ بغضب لأنها لم تشكّ في شيء.

أكلوا بصمتٍ صار يسودُ معظمَ أيامهم. كان من الأسهلِ ألا يعلنوا عما يفكّرون فيه. مضغت سميرة ببطء، علقتْ بذور السمسم بين أسنانها، دست خصلةَ شعرها خلف أذنِها. نظر سليم بعيدًا بسرعةٍ، لقد نامت بالقرب منه لليالٍ كثيرة جدًّا لتعرفَه حين يُخفي شيئًا.

«هناك منطقةٌ في المدينة يعيش فيها أغلبُ الأفغان»، أعلن سليم. «سأذهبُ إلى هناك غدًا صباحًا لأتحدّث مع أحد، ربما لديهم شيء مفيد».

«منطقةٌ كاملة للأفغان النازحين؟! ليُباركهم الله...»

فيما كانت تدعو للآخرين، استبعد سليم أن يدعوَ لهم أحد.

«سأحاولُ معرفة طريقة السفرِ من اليونان إلى أوروبا، ربما يخبرونني أيضًا كيف يمكنني كسبُ القليل من المال هنا». حدَّثها عن الرجل البنغلاديشي بائعِ الدُّمى الراقصة، عن المترو وكيف

دفعَ ثمن تذكرته، وصف لها السوقَ والشوارع والميدان الذي ذكّره بكابول. سميرة وعزيز يستمعان، بالَغ في ما يقوله، جعلَ المباني أطول، والقطارَ أسرع والناسَ أكثر ودًّا، خلق من يومهِ رسمًا كاريكاتيريًّا، في الغالبِ من أجل سميرة. كان ذلك أكثرَ متعة، فكّر.

ازدادتْ ثقتُهم بعد امتلاء معداتِهم، أمكنَهم التخطيط للغدِ وللأيام التي ستليه.

«سيكونُ عليك أن تتحلَّى بالعزم والمثابرةِ، وأنا متأكدة أنك كذلك. إن شاء الله يا بُني». تنهّدتْ مادر جان وهي تمضغُ الطعامَ المسروق بامتنان..

«إن شاء الله».

سليم
27

في الصباح التالي، خرجَ سليم إلى الشارع بثقةٍ عززها نجاحُ الأمس. وافق صاحبُ الفندق على إقامتهم بقيةَ الأسبوع بسعرٍ مخفضٍ مقابل مساعدةِ مادر جان في أعمالِ التنظيف والمطبخ. ظلت سميرةُ مع عزيز في الغرفةِ فيما تقوم مادر جان بمهامّها.

سأل عن الطريقِ إلى ميدان أتيكي واكتشفَ أنه أقرب بكثير مما صوره له البنغلاديشي. شق طريقَه في الشوارع بين المحلات. اليومُ أهدأ من الأمس لكنّ الوقتَ ما زال مبكرًا.

اقترب من كُشك، المرأةُ بداخلهِ مشغولةٌ برَصّ علب سجائر، نظر إلى الصحف، يقلبُ صفحاتها الأولى كأنه يفهمُ شيئًا فيها.

زجاجاتُ المياه الغازيةِ إلى جانبِ حامل الجرائد. لا أحد آخر في الشارع، أزلقَ زجاجةً في حقيبته، وعيناه على ظهرِ المرأة. حين استدارتْ له، التقط كيسَ علكة ووضعهُ على المنضد، أخرج من جيبهِ حفنةَ عملاتٍ وأخذتْ هي ثمنَ العلكة، أومأ برأسهِ شكرًا، علقَ حقيبته على ظهره وواصلَ سيرَه على رصيف الشارع.

بعد عدة انعطافاتٍ، أخرج زجاجةَ المياه الغازية وشرب جرعةً كبيرة، فار الشرابُ المحلَّى على لسانه، مذاقُه ليس جيدًا كما توقّع، كذلك لم يشعرْ بنجاحٍ كما شعرَ بالأمس. جرَعهُ بسرعةٍ ما أمكنه، يريد التخلُّص منه.

سار تحت السماء الصافية، ينظرُ بذهول إلى المباني الشاهقة من حوله، بواجهاتِها المزخرفة وأسطحِها الملونة. هذه مدينةٌ حية لا تشبهُ في شيء مشهدَ ومنفن أحاديتيّ اللون. نساءٌ بسيقانٍ عارية يضحكْن ويغمزْنَ ويبتسمْنَ في الشوارع. طلَى بعضهن أهدابهنّ أو شفاههن بالمساحيق وبدَوْنَ كالنساء اللائي كان هو والفتيةُ يتطلّعون إلى صورهنّ في المجلاتِ المعروضة في منفن. ها هنّ، بالقرب منه بما يكفي ليتحدّث معهن. يسير الشبابُ والشابات معًا بلا خجل. وجدَ نفسه يحدّقُ فيهم مباشرةً، لاحظ قليلونَ منهم ذلك فأسرعوا سيرَهم للابتعاد عنه، وكان أغلبُهم منهمكين تمامًا في محادثاتهم.

رأى من بعيدٍ ثلاثةَ شبان أعمارهم في العشرينَ تقريبًا، يقفون مستندينَ إلى تمثالٍ ويثرثرون بهدوء. أعينٌ داكنة وحواجبُ كثيفة وتقاسيمُ وجهٍ حادة. يشبهُ اللاجئونَ أزياءهم كثيرًا. نسخٌ بالية ورثّةٌ من أنفسهم الماضية، صار يمكنُه تمييزهُم من بعيد.

«مرحبًا»، صاح بصوتٍ متردد، كان متأكدًا من أنهم أفغان.

نظروا إليه، ارتفعتْ حواجبُهم فضولًا، كانوا جميعًا مدَرَّبين جيدًا على تمييز المارةِ في الطريق. انتَظروا أن يسمعوا ما لديه.

«أنتم أفغانٌ، أليس كذلك؟»

ابتسموا جميعًا ابتسامات واسعة.

«ما الذي كشفَنا، هاه؟ بطونُنا الخالية أم وجوهُنا الوسيمة الفجة؟» ضحكوا بأصواتٍ عالية، شعرَ سليم براحة، لديه شعورٌ جيّد تجاه هؤلاءِ الرفاق.

«من الجيدِ الحديثُ مع أحدٍ من بلدك، ظلَّ لساني مربوطًا شهورًا».. أقرّ سليم.

«حقًّا؟ حسنًا، أطلق الوحشَ يا صديق، حرّر لسانك!»

«لم نركَ من قبلُ هنا».. قال أحدُهم، الأقصر من بينهم. «اسمي عبد الله، من أين جئت؟»

«من تركيا».

«يا الله، يا لحظّك! نجوتَ من ذاك البحر! سمعنا أن القليلَ لم يحالفْهم الحظُّ الأسبوعَ الماضي، غرقوا في طريقهم إلى هنا. لا بد أن الله قد نجّاك». قال عبد الله.

«أنت محظوظٌ بالتأكيد، كدتُ أغرقُ حين جئت»، أضاف شابٌ آخر، أطولُ منه وله وجهٌ مستدير وشاربٌ خفيف. «القارب الذي جئتُ على متنه...»

نظر إليه أصدقاؤه بود، استعدّوا ليسمَعوا قصته مجددًا.

«كان كألواحٍ من الكارتون والخشبِ الرقائقي ملصقة معًا، لا تزيد حمولتُه عن ثمانية أشخاصٍ لكن أبناءَ الحرام... أنت تعرفهم، وكانت الأمواجُ مريعةً تلك الليلة، في النهار تبدو المياهُ جميلة، لكن ليلًا تُمسي وحوشًا تأكلُ البشر أحياء».

شعر سليم بموجةِ امتنان تغمره.

الحمدُ لله على جوازاتِ السفر التي نجّتْنا من هذا الكابوس.

«متى وصلت؟».. سألَ عبد الله «وهذا جمال -بالمناسبة- وصديقُه حسن، ما اسمك؟»

«سليم، وصلتُ منذ يومينِ فقط، أخبرَني رجل بنغلاديشي بأن الأفغانَ في هذه المنطقة».

«أوه، أنتَ حديثُ العهد في البلد! لنُرحّب بك في اليونان إذنْ لأن لا أحَد آخر سيهتمُّ بذلك». قهقه صديقاه.

«نعم، سيعجبُك المكانُ بقدر ما يعجبنا، صحيح؟» لدَى حسن ندبةٌ طويلة بارزة تمتدُّ على ساعده، حاول سليم ألا يُحدّق إليها.

«منذ متى وأنتم هنا؟» سأل سليم.

«أنا هنا منذ عامَين»، أجاب حسن أولًا. «جاء هذان بعدي بستةِ أشهر. أنت هنا منذ يومين؟ أين تبيت؟»

«بالقربِ من الميناء، لن نبقى هنا، لدينا أقاربُ في إنجلترا ونحن نحاولُ الوصولَ إلى هناك».

«نحن؟ ألستَ وحدك؟» سأل جمال.

«اممم، لا»، قال سليم مترددًا.. تذكّر ألا يبوح بكل شيء. «معي أسرتي».

«أوه، أنت محظوظ! قطعتَ المسافةَ من أفغانستان برفقة أسرتك! كم عددكم؟» سأل جمال بعينَينِ متّسعتَين، بدا مدهوشًا.

«نحن أربعة»، قال سليم ببساطةٍ، لم يرغبْ في ذكْر ما لا داعي لذكْرِه كما فعل من قبلُ في تركيا.

«محظوظ حقًّا!» أكّد عبد الله. «أغلبُ الأفغان هنا في ميدان أتيكي مثلنا، هنا وحدهم. يوجد فتيةٌ كثيرون في مثلِ سنّك، الجميعُ يأملون في التقدم لطلبِ اللجوء لكن هذا البلد لا يقبلُ لاجئين، نحن جميعًا هنا لكننا ينبغي ألا نكون هنا».

«التخلصُ منّا أصعبُ من التخلص من قملِ شعْر حسن»، قال جمال مازحًا. لكَزه حسن في ذراعهِ بمرح. تذكّر سليم كمال والفتيةَ في منغن. استمْتع بفهمِ كلِّ ما يُقال من باب التغيير، كانت

محادثةً بلا جهد.. «وتقولُ إنك تريدُ رؤية أفغان، سنريك أين تجدُهم». قادوه في الشارع مسافةَ عدة مبانٍ ثم انعطفوا يسارًا خلف مبنى كبيرٍ بجدرانٍ عليها رسوم جرافيتي. بدت المنطقةُ مختلفةً بشكلٍ ملحوظٍ عن المناطق التي استكشفها بالأمس، لا محلات، لا سيّاح.

في أرض واسعةٍ مكسوةٍ بالعشب خلفَ المبنى الكبير، تضاعفَ الثلاثةُ الذين قابلهم، كان الرجالُ والشبابُ في كل مكان، يتجوّلونَ خارج خيام مرتجلةٍ أو يجلسون على دلاءٍ مقلوبة. توجدُ ناران يجلسُ حولَهما الرجالُ أو يتمددونَ على الأرض بجوارها. الماءُ في خمس دلاءٍ يشربون منها بأيديهم.

القذارةُ تضاهي أكثرَ المناطق المنكوبةِ في كابول. كان هذا الجانب القاتم من أثينا، العالم السريّ لبشرٍ غيرِ موجودين. ليسوا مهاجرين ولا لاجئين. ليست لديهم وثائق وليس لهم أثر، ظلال تختفي في الضوء.

ذهبَ حسن وجمال للبحثِ عن طعام. سيبحثانِ عن بقايا طعامٍ بالقرب من المطاعم. أخبرهُما عبد الله أنهما يُضيّعانِ وقتهما وأخذ سليم ليقابله ببعضِ الأشخاص.

«حتى هنا بين أبناء بلدِك يجبُ أن تحذرَ من الآخرين، خصوصًا أنت، لأن أسرتَكَ معك وكلّ هذا، مثلًا أترى هذا الرجلَ بالقميص الأصفر؟»

كان الرجلُ يجلس على الأرضِ مستندًا بظهره على شجرة، لاحظ سليم أن الجميعَ في كلِّ مكانٍ في مجموعات، إلا هذا الرجلُ وحده.

«نعم، أراه».

«هذا اسمه صَبور.. لا تقتربْ منه».

«لماذا؟»

أخفضَ عبد الله صوتهُ وبدأ يحكي ما كان على الأرجحِ قصةَ المخيم المفضلة.

«إنه ثعبانٌ، يسرق ناسَه، من ليسوا بحالٍ أفضل منه، في مكان كهذا، لا توجدُ أقفال، لا بوابات، توجد جيوبٌ والأكياس البلاستيك فحسب. في العادةِ يكونُ أثمن ما لديكَ هو الطعام. مع ذلك كان الناسُ يستيقظونَ في منتصف الليل فيجدونهُ يتسللُ كالفئران ويعبثُ في أشيائهم، تضيعُ أشياء صغيرةٌ هنا وهناك، والشيء الصغيرُ يُعدّ كل شيء تقريبًا حين تكون مُعدَمًا».

«في جميع الأحوال، منذ أسبوعَين، حصلَ أحدُ الشباب، كريم، شابٌّ طيب من مزار، على بطاطس من مكانٍ ما وأكل نصفَها. كان يدّخر النصفَ الآخر، يستيقظ في الصباح ليجدَ النصف الآخرَ من البطاطس مفقودًا. ثم نرى حينها، ماذا نرى في وضح النهار؟ صبور، في يده النصفُ الآخر من البطاطس ويجلسُ في ركنٍ بعيد، اشتعل كريمُ غضبًا، سار إلى صبور مباشرةً، وهو شيء لم يفعلْه أحدٌ حتى وقتنا هذا، واتّهمه بسرقةِ البطاطس خاصته. أخبره صبور وجهًا لوجه أنه حصلَ على البطاطس من صدقة كنيسة، مع أنه لم تصلنا أيُّ صدقاتٍ من الكنيسة ذاك الأسبوع.

«ظلّ كريم أمامه، يتّهمُه بالكذب، يطلبُ منه أن يعيدَ إليه البطاطس، وأن يعتذرَ للجميع عن كلٍّ ما سرقه منذ وصل. نظر صبور في عينَي كريم ببرود وقال: «لو أرادَ شخصٌ آخر عملَ

مشكلات معي كما يفعلُ ابن الحرام هذا، فأنا أحذّركم. لديكم جميعًا عائلات في أفغانستان وأنا أعرفُ أسماءكم، لن يُمانع أصدقائي في الوطن من زيارةِ عائلاتكم هناك، جرّبوني لتروا ماذا سيحدث. منذ ذاك اليوم، نحن جميعًا نتجنّبه فحسب».

«لو كان لديه أصدقاءُ مُهمّون كما يقول فلماذا رحل؟» سأل سليم، وهو يدير ظهرَه لصبور غريزيًا.

قال عبد الله يرفع كتفيه: «ربما كان يكذبُ، لكن لا أحدَ يريدُ أن يتأكّد. ابتعدْ عنه فقط».

أخذه عبد الله بعد ذلك إلى مجموعةٍ من ستةِ فتيان يلعبون الورَق. بعضهم صغار، أكبرُ قليلًا من سميرة، رحبوا جميعًا بالوافد الجديد وبمشاركته في بعض من حكمة اللاجئين.

كانوا قد وصلوا جميعًا معًا، مجموعة من قرابة خمسة عشر شابًا، أُشيرَ إليهم بالذهابِ إلى «الوزارة». فأرسلتهم الوزارة إلى مكانٍ آخر يدعَى المجلسُ اليونانيُّ للاجئين، لم يهتم بهم المجلس كثيرًا، أخبرهم أنّ بإمكانِهم التقدمُ بطلب اللجوءِ إن حصلوا على عملٍ لكنهم حذروهم من أنّ لا أحد يعيّن لاجئين في أي عمل، وأنه لا يوجد طعامٌ ولا مأوى لهم.

جاء الشبابُ، برفقة أسرٍ قليلة، من مكانٍ يُدعي باغاني، كانوا ينطقونَ الاسمَ كأنهم يبصقونَ ويهزّون رؤوسهم. باغاني مركزُ احتجازٍ للمهاجرين على إحدى جزر اليونانِ الشاعرية الكثيرة، مبنى مثل قفص، كما وصفهُ الشباب، أكبرُ قفصٍ رآه أحدُهم من قبل. يعج باللاجئين الذين رحلوا من بلادهم، فقط ليُحتَجزوا في اليونان في النهاية. رجالٌ ونساء وأطفالٌ بعددٍ يفوق سعةَ المبنَى

بثلاثة أضعاف. الفناءُ الصغيرُ يأوي جزءًا صغيرًا من المقيمين، يقْضون أيامًا دون أن يخرجوا. وهناك على الأقل مئةُ فردٍ لكلّ حمام.

لم يعرف أحدٌ سوءَ الأوضاع هنا إلّا بعد فوات الأوان. أثّر باغاني على عددٍ قليلٍ من الصغار بحيث كان مجردُ ذكْر اسمِه حتى هنا في ساحة أتيكي يصيبُهم بضيق تنفّس.

كان باغاني في انتظارهم كقاصرين بلا رفقة، لكنّهم لا يريدون العودةَ إلى القفص. قرّر جمال وحسن وعبد الله أن يعيشوا معًا في شقةٍ يتشاركون فيها مع تسعةٍ آخرين. يحلمونَ بالسفر إلى ألمانيا حيث سمِعوا أن اللاجئين يحصلونَ هناك على حقّ اللجوء وعلى مسْكنٍ وطعام. لكن في اليونان يوقفُهم ضبّاطُ الشرطة ليسألوهم عن «أوراقهم».

«لا تعني الأوراقُ أي شيء».. أوضح جمال «لقد منحونا أوراقًا» في باغاني وأخبرونا بأن نحتفظَ بها معَنا طوالَ الوقت. احذرْ من الشرطةِ هنا، حتى بتلك الأوراق، نحنُ أهدافٌ لهم مثل كلاب الشارع. حتى عند بعضِ الكنائس التي توزعُ الطعام، قد تكونُ الشرطة هناك، لا حقَّ لجوءٍ هنا».

قضى سليم النهارَ يستمعُ مُحبَطًا. اليونانُ في ظاهرها ساحرةٌ وجميلة، لكنها مكانٌ عدائيّ، وكثيرٌ من الفتيةِ الأفغان الذين قابلهم نادمونَ على ما دفعوه مقابلَ الوصول إلى هنا.

في الأيام التالية، عاد سليمُ إلى أتيكي، أخبره الفتيةُ عن الأماكن التي ينبغي أن يتجنّبَها وعرّفوه على الكنائسِ التي توزعُ طعامًا وماء.

حين عرفَ عن باغاني، لم يعد يحبّذُ ترك مادر جان أو أحدٍ منهم يتجولُ وحده في الخارج. مع أن لديهم جوازاتِ سفرهم، لكنها كانت مزورةً وفي الغالب سيتم تمييزُ ذلك. لا داعي للمخاطرةِ بترحيل الأسرة إلى تركيا أو الأسوأ من هذا، إلى أفغانستان.

استمرَّ يسرقُ الطعامَ وأشياءَ أخرى كالصابون لكنه كان يشمئزُّ من فعله، وكان خوفه يزداد يوميًا. كان عليه المخاطرةُ بحساب إن أراد ادخارَ ما يكفي للسفر إلى إنجلترا.

تأتي منظمةٌ إنسانيةٌ محلية يونانية بشكلٍ منتظم إلى ميدان أتيكي. يتحدث متطوعوها مع اللاجئين، يحاولونَ المساعدةَ في قضايا الوثائق ويوزعونَ الطعام والماء. كانت معهم ممرضةٌ تضعُ ضمادًا أو تقدّمَ مضادًا حيويًا هنا وهناك. كانت موارد المنظمةِ نفسها محدودةً أيضًا. كانوا في الغالب شبابٌ مثاليون غاضبونَ من سوء معاملةِ بلدهم للاجئين، أرادوا تصحيحَ الأمورِ، وكانوا في أغلب الأحيان المصدرَ الوحيدَ الموثوق به للمعلومات والطعام.

بعضُ الشبابِ الأفغان في الميدان لا يثقونَ حتى بالعاملين في المنظمة. سليم أحدهم. تجنبَ التواصلَ بالعين مع الشباب الذين يسيرونَ في الساحة بتشيرتاتِهم البنفسجيّة، مطبوع عليها اسمُ المنظمة وشعارُها بخطٍّ كبير لتمييزهِم من بعيد. يطرحون أسئلةً كثيرة ويريدون التقاطَ صورٍ أيضًا.

كان يرتابُ في دوافعهم، ينتفخُ صدرُه فخرًا لظنه أنه أكثر دهاءً من شبابِ منظمة الدعم، كأن لديه حسًا شارعيًا أكثرَ من هؤلاء الفتيةِ الذين يسجّلون قصصَهم في دفاترَ صغيرةٍ أو مسجلاتٍ صوتية. فكان يبذل قصارى جهده لتجنُّبِهم.

حتى رأى روكسانا.

سليم
28

«لـن نسـتطيع الاسـتمرار هكـذا سـليم جـان» همسـتْ مـادر جـان لـه، سـميرة وعزيـز نائمـان.

«ماذا تعنين؟»

«خـلال أيـام، سـتنفدُ نقودُنـا ومـا زالَ أمامَنـا طريـقٌ طويـل. لا يمكنُنـا انتظـار معجـزة».

«أعرف».

«الحمد لله أن وجدتَ عملًا مقابلَ الطعام على الأقل».

عـضَّ شـفتَيه، شـاكرًا للظـلام. كان قـد أخبرهـا بأنـه وجـدَ عمـلًا بمقهَـى فـي المدينـة، يكنسُ الأرضَ وينقـلُ صناديـقَ مقابـل طعـام. كان تفسيرًا مقبـولًا، خصوصًـا لأذنٍ ترحّـب بـه. أمـا فـي الواقـع، فـلا أحـد سيشـغله. كان قـد عـاد إلـى السـوق مـراتٍ عـدة وسـرق مـن محـلاتٍ أخـرى، أخـذ مـا يحتـاجُ إليـه لإطعـام أسـرته، كان يقتـرف ذنبًـا، شـعَر بذلـك، لكـن إنـزال العقوبـةِ بـه سـيكونُ ظلمًـا.

«قـد لا يسـتمرُّ هـذا العمـل، علينـا التوجُّـه إلـى إنجلتـرا قبـل أن تنفـدَ نقودُنـا»، وافقهـا.

«نعـم علينـا ذلـك، سـنحتاجُ أيضًـا إلـى دواءٍ لأخيـكَ الصغيـر، لـن أسـتطيع أخـذه إلـى طبيـبٍ ليكتـبَ لـه دواء هنـا، سـيتكلفُ هـذا أكثـرَ ممـا لدينـا وقـد يسـلمُنا أحدهـم إلـى الشـرطة».

«معكِ حق، مادر جان»، أقرّ.

كان تحديدُ الوقتِ لاستئناف رحلتِهم قرارًا صعبًا. إنه رهانٌ في جميع الأحوال.

«علينا معرفةُ الطريقِ إلى إنجلترا، ظني أنَّ القطارَ أفضلُ وسيلةٍ كما أخبرنا هاكان. المطارات مملوءة بنقاط التفتيش، ربما إن سافرْنا برًّا ستزدادُ فرصُنا في العبور».

«سأذهبُ غدًا لأجدَ محطةَ القطار، وسأرَى إن كانَ الأفغانُ يعرفون شيئًا عن القطارات».

«هناك أمرٌ آخر، سليم.. علينا أن نتّخذَ اختياراتٍ صعبةً الآن وقد ظللتُ أفكّر فيها كثيرًا. لا يمكننا البقاء هنا في هذه الغرفةِ لأكثرَ من هذا، حتى السعر الذي عرضوهُ علينا أكثر مما يمكننا تحمّله، نقودُنا تنفدُ بأسرع مما تخيّلْت».

هذه الغرفة المتواضعة بأسلاكِها العاريةِ وجدرانِها المتصدعة بشكلٍ سيئ، والحوض المتداعي الذي يتسرب منهُ الماء، كلُّ هذا كان قصرًا بالنسبة إلى سليم. كان حين يتركُ أتيكي ويدخلُ إلى هنا، ينظرُ إلى الفراش الآخر ويرى أمَّه وأختَه تنامانِ أعلى الأرض بقدَمين وليس في الشارع، يشعرُ أنه ملِك. تمنحُه هذه الغرفة سببًا للاستيقاظِ صباحًا دون أن يشعرَ باليأس الذي يشعر به الفتية في ميدان أتيكي. تمنحه سببًا ليصدّقَ أن القدرَ يخبئ لأسرتِه أكثرَ من قاربٍ متهالكٍ قد ينقلبُ بهم في عرض البحر. الاستغناءُ عن هذه الغرفة يعني الاستغناءَ عن الكثير، لكنّ البقاءَ فيها يعني اختيارَ النزيف البطيء وفقدان الفرصةِ في غدٍ أفضل.

«لن يكونَ الأمر سهلًا، سنحتاجُ إلى مكانٍ آمن، وخصوصًا في الليل». يعرفُ أن بعضَ فتيةِ ميدان أتيكي ينامون ساعاتٍ قليلة فقط خلال اليوم، يخشونَ إغماض أعينِهم بعد غروب الشمسِ وقتَ خروج عالم جديدٍ من الأخطار.

«تبدو ظمآنًا، تفضّل»، قالت روكسانا، المتطوعةُ في المنظمةِ الإنسانية، بإنجليزية سليمةٍ تمامًا تقريبًا، وهي تمدُّ يدَها بزجاجة ماء. نظرَ سليم إلى اليدِ بمعصمها النحيل والذراعِ الرشيقة. صار حالُه أفضلَ منذ تلك اللحظة.

كانت ترتدي تيشيرتًا بنفسجيًا تدسُّه بأناقةٍ داخلَ بنطالِها الجينز الضيّق. يتدلّى شعرُها الناعمُ بلون الليل بحرّيةٍ جانبًا وهي تميلُ برأسها، بدت في مثل سنّه تقريبًا، في السادسة عشرة ربما. لفتتْ عيناها المكحّلتانِ نظرَه برفرفةِ أهدابها. لم تكن تبتسمُ ولا تنظرُ إليه بتعاطف.

«شكرًا لكِ». قال وأخذَ الزجاجةَ منها.

«على الرحب.. ما اسمُك؟» سألتهُ. رغم وجهِها الذي يوحي بأغنيةٍ عاطفيةٍ داريةٍ مُبالغ في رومانسيتها، كانت نبرتُها في منتهى العملية. بدا أنها من النوع اللافتِ للنظر لدرجة تجعلها تتشددُ في سلوكِها من باب الضرورة، لا سيما في مكانٍ مثل أتيكي.

«سليم» أجابها. *وهذا هو كلُّ ما ستخبرُها به*، ذكّر نفسه. لكنه شعَر بمقاومتهِ تضعفُ وهو ينظرُ إلى عينيها.

«حسنًا سليم، أنا لم أركَ هنا من قبل، منذ متَى وأنت هنا؟» تمنَّى لو تقولُ اسمَه مرةً أخرى.

«أسـابيع قليلـة... لكننـي لا أقيـمُ هنـا»، قـال وهـو يشـعرُ فجـأةً بالإحـراج مـن أن تظنّـهُ ينـامُ فـي الحديقـة، رشـف قليـلًا مـن المـاء.

«أوه؟ أيـن تقيـمُ إذن؟».. أخـذ رشـفة أخـرى وذهنُـه يتسـارعُ. *سؤالٌ* جيد.. فكّـر بينـه وبيـن نفسِـه، وقـرر أن يغيّـرَ الموضـوع.

«مـا اسـمُكِ؟» سـألَها بهـدوء، توقّفـتْ ونظـرتْ إلـى أوراقهـا قبـل أن تجيبَـه. كان واضحًـا أنهـا ليسـتْ سـعيدةً بسـؤاله.

«روكسـانا».

«روكشـانا!!!؟»

«لا. بل روك-سـا-انا»، كررتْ توضح نطقَ اسمِها.

«لكن هذا اسمٌ أفغاني... روكشانا!» كررَ بابتسامة.

«إنه اسمي، اسمي اليوناني»، قالت وزمّتْ شفتَيها بحدة.

«لكـن، أتعرفيـنَ إسـكندر، أممـم، ألكسـنْدر، لقـد تـزوّج بامـرأةٍ أفغانيـة، كان اسـمُها روكشـانا، إنـه الاسـمُ ذاتـه» أوضـح لهـا. مـن الجيّـد أن يُبـدي لهـا معرفتَـه ببعـضِ التاريـخ. بـدا أنهـا ندمـتْ علـى الاقتـراب منـه لكنهـا أطالـتْ بالَهـا.

«أنـا لسـتُ هـي، اسـمي روكسـانا. ويكفـي هـذا بشـأن اسْـمي».. قالـت. «أخبرْنـي سـليم، هـل تريـدُ البقـاءَ فـي اليونـان أم تريـدُ الرحيـل؟»

«لا أحد يريدُ البقاء في اليونان»، أجابَها بهدوء.

لـم تبْـدُ روكسـانا، الأقـل سـذاجةً مـن أغلـبِ الفتيـاتِ فـي سـنِّها، مدهوشـةً لسـماعها هـذا.

«إلى أين تحاولُ الذهاب؟»

«إنجلترا»، تنهّد سليم. بقوله وجهتَه بصوتٍ عالٍ، بدتْ له بعيدةً لا يمكن الوصولُ إليها.. «لديّ أقاربُ هناك».

«آه، إنجلترا»، أومأتْ برأسِها وهي تنظرُ إلى اللاجئين الآخرين. «نعم، إنجلترا شائعةٌ جدًّا».

«اليونانُ جميلة، لكنها لا تريدُنا هنا».

«إنها صغيرةٌ. ليس بوسع الحكومةُ مساعدةَ الجميع».

«لكن أنتِ... أنتِ تساعدين».

«نحنُ مجرد أفراد، لسنا الحكومة». لا تريدُ الخوضَ في المذاهب والدوافع، ليستْ هنا لتتغنَّى بالقضية، حضورُها الهادئ يتحدثُ عن معتقداتها. شعَر سليم بلسانِه ينعقدُ أمامها.

«ألا توافقينَ الحكومة؟» شعَر بالخوف قليلًا عليها، من حيث جاء يعدُّ الأمر خطرًا جسيمًا أن تجهرَ بمعارضتكَ للسلطة. كانت شابةً وجريئة. كان أبوه سيحبُّها.

«نحن نؤمنُ بضرورةِ معاملةِ البشر باحترام. ونعرفُ ماذا يحدثُ حين يأتي الناسُ إلى اليونان ونعرفُ أن الأمورَ ينبغي ألا تسيرَ على هذا النحو».

«لا يمكنُ للناس التقدم بطلبِ اللجوء هنا، لماذا يختلفُ الأمر كثيرًا؟»

كانت القصصُ التي سمعها عن اليونان من فتيةِ أتيكي قد أقلقتْهُ من أن تكون الحالُ هكذا في بقية أوروبا، بلا فرصِ حياةٍ حيث قد تظلُّ أسرتُه مشردةً وخائفة من الترحيلِ إلى أفغانستان في النهاية. حياةُ الترحالِ مرهِقةٌ بدنيًا وذهنيًا. لكنه قابل أفغانًا أخبروه بقصصٍ عن عوالمَ أفضل أيضًا. أماكن في عمق أوروبا،

بلدانٌ مثل ألمانيا أو سويسرا، ليستْ متعالية مثل اليونان وتركيا، يُمنح الأفغانُ فيها فرصًا ثانية لعيش حياةٍ طبيعية.

«أغلبُ الناس لا يفهمونَ نظام الحكْمِ عندنا. كيف وصلتَ إلى هنا؟»

لم يرد إجابتَها، أعاد غطاء زجاجةِ المياه إلى موضعه ورفع كتفَيه بمرَح. أضحكتْها مراوغتُه اللعوب.

«نعم، نعم، حسنًا، انسَ السؤال، هذا ما يحدثُ لأغلبِ من يأتون إلى هنا، يُلقى القبضُ عليهم وتقودُهم الشرطةُ إلى مراكزِ احتجاز. يُفتَرضُ أن تكون أماكن نظيفةً وآمنة لكنها ليست كذلك. هناك أعدادٌ كبيرة جدًا ولا يوجد مكان، يقولون إنها مثلُ السجن، حتى للأطفال، يقولون إنها أسوأ من الأماكن التي أتوا منها. أحيانًا يقضون هناك شهورًا.

«يومًا ما، ينفتحُ البابُ ويحصلونَ على أوراقٍ، تقولُ الأوراقُ إن أمامك شهرًا واحدًا لتغادرَ اليونان. بعضُهم يحصلُ على تذاكرَ إلى أثينا حتى يمكنُهم الرحيل من هناك».

«لكن ماذا عن اللجوء؟ ألا يوجدُ لجوء؟» شعَر بالامتنان مجددًا لوجود جوازاتِ السفر المزورةِ ولحسن حظّهم أن أحدًا لم يوقفهم في بيرايوس. ولأنهم قد مرّوا مرور الكرام من نقاط التفتيش. أخبرتْه روكسانا بأن قصّتَهم استثناء.

«لا يوجد لجوءٌ حقيقي. يجبُ أن تعملَ لتحظَى باللجوء، كيف لهم إيجادُ عمل؟» أشارتْ نحو الحديقة. «أولًا، تحتاجُ إلى تصريحٍ بالعمل، ولتحصلَ عليه يجبُ أن تتقدمَ بطلب لجوءٍ، أترَى المشكلة؟»

«لماذا يتحدثُ أصدقاؤكِ مع اللاجئين إذًا ويكتبون تلك الأوراق؟»

«نحنُ متطوعون، نريد أن نكونَ هنا، لا أحد يعطينا المالَ لنأتي. لكننا نريدُ المساعدة».

نظر إليها وتخيّلَ نفسَه في موقفها، حاول تخيُّلَ نفسهِ طالبًا في المدرسةِ العليا في كابول بلا حرب، يعودُ إلى البيت حيثُ أمّه وأبوه. هل سيهتمُّ بقضيةِ غرباء؟ هل سيُعنَى بكيفيةِ معاملتهم إلى حدّ أن يقضيَ وقتَه في توزيع الطعام عليهم وملء الاستمارات لهم؟

كان مجردُ تخيّلهِ صورتَهُ في تلك المشاهدِ القصيرةِ الطوباوية مؤلمًا، مثل منْح نفسِه كلَّ شيء فقط ليحرمَها منه في اللحظة نفسها مجددًا. كأن تتجرع من زجاجةِ سمٍّ وتشعر به يحرقُ ما بداخلك وهو يسري فيك.

ربما لن يعودَ الشخصَ نفسَه الذي كانه أبدًا. الشخصُ الذي كان يضحكُ ويحلمُ ولديه مكانٌ يدعوه بيتَه. ربما يرقدُ هذا الشخص، مثل أبيه، في قبرٍ بلا شاهدٍ في مكانٍ ما بأفغانستان.

في لقائهما الثاني، بعد يومٍ من مغادرة أسرتهِ غرفةَ الفندق، كانت روكسانا أكثرَ مباشرة.

«إيلا، أتريدُ التقدمَ بطلبٍ للجوء أم لا؟» ليست في مزاجٍ للتلاعبِ بالكلمات اليوم. جلسا على درجاتٍ أسمنتيةٍ تؤدي إلى الحديقة، أراد أن يسألَها إن كانت تعرفُ مكانًا يمكنُ لأسرته الإقامة فيه. الليلة ستكونُ ليلتهم الأولى في الشارع.

«روكسانا، أتسألينني عن هذا مجددًا؟ لا أريدُ البقاءَ في اليونان، أريد أن آخذَ أسرتي إلى إنجلترا. وأنت تقولينَ إن اليونانَ لا تمنحُ اللجوء. لماذا هذه الأوراق؟» شعرَ بحماقةٍ وهو يتحدث بالإنجليزيةِ لكنه كان شاكرًا أن أمكنه الوصول إلى هذا المستوَى في المحادثة حتى، لو كان بإمكانهِ التحدثُ بالدارية لقال الكثير، لنظرتْ إليه نظرة مختلفة، فكّر.

«لكنهم يمنحونَ حقَّ اللجوءِ *أحيانًا*. الأمر يعتمدُ على قصةِ الشخص أو الأسرة، الجميع مختلفون». نظرتْ بعيدًا صوب الميدان بحزن.. «ظنّي أن لديكَ قصة».

«قصة! ماذا تقصدين؟»

«قصة.. السببُ وراءَ رحيلكم من أفغانستان، بعضُهم يغادرُ لعدم وجودِ عملٍ أو لمشكلات الحرب، لكن ظني أن لديك شيئًا ما مختلفًا قليلًا. ربما لا ترغبُ في قوله، لكنه قد يساعدك في طلبِ اللجوء».

«رحلنا لأسبابٍ كثيرة».

نظرتْ إليه بصبر، بعد فترة صمتٍ طويلة، بدأ يتحدثُ، بصوتٍ خافت.

«هذا حقيقي، لا يوجدُ عمل وكانت الحربُ بشعة، كان الناس ينتظرون... السلام أو الموت». شرد ببصرهِ بعيدًا نحو الشارع والمباني، لم يتحدثْ من قبل عن حياتهِ في كابول، عن ما رآه. لم يرغب في تذكّر تلك الأوقاتِ المظلمةِ أكثر مما يتذكّرها بالفعل. كانتْ في ذهنه مثل قطراتِ ماء تتساقطُ من صنبور، صوتٌ مزعجٌ يضخّمه الصمت. مع ذلك، واصل كلامه.

«في البدء، لم يُسمَحْ لأختي بالذهابِ إلى المدرسة، ولا لأمي بالتدريس، غادرتْ عائلتنا كلها تقريبًا؛ عماتي وأعمامي وأبناؤهم، غادر الجميع. بقيتْ أسرتي. كنا نسمعُ صوت الصواريخ في السماء وندعو الله ألا تسقطَ على بيتنا. مُنِعت الموسيقى. ليس سوى الحياة على طريقة طالبان. كنا نفكر أحيانًا في أن ربما طالبان أفضل من الحرب. ربما طالبان ستوقف الحرب لكنهم جلبوا المزيد من المصاعبِ».

«لا يُسمَح لأمي بالخروج دون رجل. لم يكن من أحد غيري. كنت أذهبُ إلى السوق لشراءِ الطعام وكانت لدينا نقودٌ قليلة فقط. لم يكن هناك عمل، فهمنا بسرعةٍ أننا لن نجد طعامًا أو نقودًا أو حياة».

استمعت إليه بانتباهٍ. ظلت عيناها في الأرض.

ساد صمت. تجوَّل بين أطلالِ ذكرياته، كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة فقط حينذاك. بالنظر إلى الخلف الآن يتضح بؤسَ موقفهم أكثر، خاصة الآن وقد صار المسؤولَ عن إطعام الأسرة.

«سليم»، قالت بصوتٍ يكاد يعلو عن الهمس. «ماذا عن أبيك؟»

حرّك الساعةَ حول معصمه.

«أبي...» قال ببطء، يشعرُ بصدره يضيقُ وهو يتحدّث.. «كان أبي مهندسًا. يعملُ في وزارة المياه والكهرباء. كان عمله في المياه».

يا له من إجحاف لأبيه ألّا يستطيعَ توضيح عمله بالمزيد من التفاصيل. شعَر بعجزه.

«أبـي... كان يؤمـنُ... كان يؤمـن بأهميـةِ أشياء معينـةٍ للبلـد لكـن بعـض الأشـخاص... ذات ليلـة، جـاء ثلاثـةُ رجـالٍ إلـى بيتنـا. سـمعتهم يتحدثـونَ مـع أبـي. ثـم لـم أرَه بعـد تلـكَ الليلـة قـط».

ضغط بأصابعهِ على عينيه ليمنعَ الدموع. أبقَى رأسه مُطرقًا.

«أنـا آسـفة»، همسـتْ وهـي تضـعُ يدهـا علـى كتفِـه. «لـم أقصـدْ أن...»

«لا، لا»، قـال مسـتاءً مـن وضعِهـا يدَهـا عليـه ومـن الشـفقةِ فـي صوتهـا. منحـه اسـتياؤه قـوة ليبتلـعَ الغصّـة فـي حلقـه. أخـذ نفَسًـا عميقًـا وواصـل برباطـة جـأش: «تركنـا كابـول. كنـا نخشَـى عـودة هـؤلاء الرجـال، أو المـوت جوعًـا فـي بيتنـا».

«سـليم، دعنـي أسـاعدكَ فـي تقديـم طلـبِ اللجـوء، مـن حـق أسـرتك أن يسـتمعَ أحـدٌ لقصتهـا، لديكـم سـببٌ جيـد».

«لكننـا ليـس لنـا أحـدٌ هنـا. ليـس لدينـا شـيء. فـي إنجلتـرا لدينـا عائلـةٌ، بلـدان أخـرى ستمنحُنا شـيئًا مـا. أمـي، أختـي، أخـي، إنهـم فـي حاجـةٍ إلـى طعـامٍ وسـكن».

لانَ وجهُها، لم تعارضْه.

«ماذا ستفعلُ في إنجلترا؟»

«مـاذا سـأفعلُ؟» ضحـكَ سـليم. ارتخـت كتفـاه. «سـأقودُ سـيارةً حمـراءَ وأذهـبُ إلـى المطاعـم ودور السـينما!»

لـم تقل شيئًا، تلاشـت ابتسـامتُه وهـو يفكّـرُ فـي مـا سـيفعلُه فـي إنجلتـرا حقًـا. يريـدُ أن يذهـبَ إلـى المدرسـة مـع أختـه. أن يأخـذَ عزيـز إلـى طبيـب. أن يـرى أمَّـه مُعلّمـةً مـرة أخـرى.

استدار إليها، بلمحةِ حقدٍ على امتيازاتها التي تتمتعُ بها.

«ماذا تفعلين أنتِ هنا؟ تذهبينَ إلى المدرسة، صحيح؟»

تذهبُ إلى مدرسةٍ دوليةٍ في اليونان حيث التعليمُ بالإنجليزية، يريدُها أبواها أن تتعرفَ على جنسيات مختلفةٍ، كما أوضحتْ.

«روكسانا، لماذا تأتينَ إلى هنا؟ لديكِ مدرسةٌ جيدة. يمكنكِ الخروج مع أصدقائكِ، عائلتك. لماذا تريدينَ الوجودَ مع أفغانٍ في حديقةٍ قذرة؟ أنتِ يونانيةٌ، أما نحن فهذا مختلف، نحنُ أفغان، نازحونَ من أفغانستان».

نظرتْ بعيدًا، تتجنبُ نظرتَه الملحَّة.

«نحنُ لسنا مختلفين جدًا يا سليم».

سليم
29

مكتبة
t.me/soramnqraa

استيقظ بشعور وخزِ إبرٍ ودبابيس في قدَميه. استغرق أكثرَ من دقيقةٍ ليدركَ ما به. لم ينَمْ سوى ساعةٍ أو اثنتين، انتابه أرقٌ ولم يغمضْ عينَيه أغلب الليل.

حدّثتهُ روكسانا عن هذا الملعبِ بين البناياتِ السكنيةٍ في حيٍّ للطبقة المتوسطةِ في أثينا. في المساء يسودُه الهدوء. كان بعيدًا عن الشارع المزدحم ولا يمرُّ به أحدٌ بعد إغلاق المحلاتِ القليلة المجاورة. أخفوا حقائبَهم خلفَ بناية وظل سليم يدفعُ سميرة على إحدى الأرجوحاتِ حتى خيّم الليل. تسللت الأسرةُ كلّها إلى بيتِ الدميةِ الخشبيّ الصغير وتكوّروا معًا فيه. كانت مادر جان قد أخذت بطانيةَ صوفٍ من الفندق واستخدمتْها غطاءً وحيدًا.

جلستْ مادر جان وأسندت رأسَها في ركنٍ من بيت الدمية. كانتْ عيناها مغمضتَين لكنه عرفَ من تنفّسها أنها مستيقظة، فتحت عينَيها حين شعرتْ بقدمه تلمسُ قدمَها.

«آسف مادر جان»، همَس. «لم أقصدْ إيقاظَكِ».

«صباح الخير باجم»، قالتْ، كان كذلكَ بالفعل، بدأت السماءُ تتحولُ من سواد الليل إلى أزرقِ طلوع الصبح. «أتمنى أن تكون قد نمتَ جيدًا».

«ظنّي هذا». شعر بألمٍ حادٍ في رقبتهِ وهو يديرُ رأسه. فرك عضلةَ عنقه المنقبضة. رقدت سميرةُ برأسِها إلى جانب مادر جان، ورقدت لفةُ الطبقات التي كانت عزيز بين ذراعيها. بدا أنها لم تتحرّكْ منذ الليلة الماضية.

لكنها لن تشكو، فكّر سليم. مالت عليه.

«باجم، سوف أخرجُ قبلَ أن يبدأ الناسُ النهوض والسير حولنا، سأجلس على إحدى الدكك بجوار الأرجوحاتِ وأتركك أنت وسميرة لتناما وقتًا أطولَ قليلًا. سأوقظُكما حين أرى المارةَ يسيرون في الجوار».

أومأ لها برأسه، «سآتي معكِ مادر جان».

«لا، ابقَ.. ستكونُ سميرة أفضلَ حين تستيقظُ لتجدَ أخاها معها. أنت لم تنمْ جيدًا بالفعل. مدِّدْ ساقيك وحاولْ أن ترتاحَ قليلًا».

كان مرهقًا بشدةٍ فلم يجادلها. أغمضَ عينَيه الثقيلتَين مجددًا. شعَر بأنها عادت بعد دقائقَ قليلةٍ فقط إلى بيت الدمية لتوقظَهما همسًا. كان الناسُ يصطحبون أبناءهم إلى المدرسة، لقد باتوا أولَ ليلة لهم في الشارع. تساءل كم ليلة أخرى سيقضونَها هكذا قبل أن يجدوا سقفًا حقيقيًا أعلاهم مجددًا.

لا يسعُه فعل الكثيرِ في الصباح الباكر. كان بحاجةٍ إلى ستار الزحام ليقومَ بسرقاتهِ. روكسانا في المدرسة، وعدتْ بلقائه في ميدان أتيكي في الظهيرة. كانت أملَه الوحيد، لكنه عرفَ من وجهها أنَّ لا أخبارَ جيدة لديها له.

«لا أحد لديه مكانٌ. هناك احتمالٌ واحدٌ أعملُ عليه لكنني لستُ متأكدةً بعد، كيف كانت ليلتكم؟»

«بخير، هادئة وليستْ باردة جدًا، كانت أفضلَ كثيرًا من أي مكانٍ كنتُ سأجدُه».. ما دام لم يُجَرّوا مقيدي الأيدي بعد، لم يكن ليطلبَ المزيد.

«سليم جان، كيف حالك؟ تتلقّى زيارةً من فتاتك؟» قال جمال بالدارية، فرمقتْه روكسانا على الفور بنظرةٍ حادة، وضيقت عينَيها. نظر سليم إليها ثمّ إلى جمال، الذي لاحظَ ردَّ فعلها هو الآخر.

«إنه كرمٌ منها أن تضيّعَ وقتَها في محاولة مساعدةِ أمثالنا، علينا أن نحترمَها لهذا».. لم يقصد سليم توبيخَ جمال، لكنه لم يرغبْ في سماعهم يتحدثونَ عنها بهذه الطريقة، حتى وإن لم يقصدوا الإساءةَ إليها.

«سليم، المدافعُ العظيمُ عن الشرف!» قال جمال مبتسمًا..

«مرحبًا روكسانا. كيف حالكِ اليوم؟» سأل بإنجليزيةٍ متكسرة.

«بخير.. خذْ بعضَ الساندويتشات من نيكو قبل أن تنفدَ كلها». نبرتُها سطحيةٌ وفاترة.

لم يتساءل جمال بمعدتهِ الخاوية عمّا إذا كانت روكسانا قد فهمتْ ما قاله عنها أم لا، توجه على الفور إلى حيث يقفُ نيكو بكرتونةٍ كبيرة. ساد الصمتُ لوهلةٍ قبل أن تعاودَ روكسانا التحدث إلى سليم.

«القطارُ أفضلُ وسيلةٍ للسفر حقًا. في أوروبا لا يتحققونَ من جوازاتِ السفر طالما تتنقلُ بين دول الاتحاد الأوروبي. الحدودُ مفتوحةٌ الآن، يُمكنني مصاحبتكم إلى محطةِ القطار لشراءِ التذاكر إن أردت».

«أرجوكِ، ستكون هذه مساعدةً كبرى».

«متى تريدونَ السفر؟» عيناها يمنحُها الكحلُ الأسودُ الملطخُ قليلًا نظرة عميقة. مع ذلك، كانتْ، حين تشاء، تدفئان بنعومةِ مِدخنة.

ليس معهُ نقودٌ كافية، كذلك جوازاتُ السفر التي سيريدُ موظفُ التذاكرِ رؤيتها. طلب من روكسانا أن يتقابلا غدًا في محطة القطار. وحتى هذا الوقت، ستظلُّ تبحث عن مأوى أفضلَ لهم.

صبرًا سليم. قالتْ، *ستتحسن الأحوال.*

سقط المطرُ تلك الليلة، بدأ خفيفًا ثم أخذت القطراتُ تَسمنُ وتنزلقُ من بين الشقوق إلى بيتِ الدمية. استيقظَ سليم ليجدَ مادر جان تحاولُ تغطيةَ عزيز وسميرة بما يمكنها إيجادُه، تحاولُ جاهدةً إبقاءَ رأسيهما بعيدًا عن الماء. مضت عشرُ دقائق لا تُحتَمل. كانت سميرةُ مستيقظةً تمامًا تمسحُ دموعًا مطريةً عن خدّيها، تلتصقُ خصلاتُ شعرها برأسها. عزيز فقط من ظل جافًا. وضعتْ مادر جان كيسًا بلاستيكيًا أعلى رأسِه.

«سليم جان، خُذ مكاني مع عزيز. سأذهبُ للبحث عن شيء ما أفضلَ للتغطية، يجبُ أن نظلَّ جافّين» قالت.

«سأذهبُ أنا مادر جان، دعيني أذهب أنا»، عرض.

«لا، باجم»، قالت وهي تمدُّ قدمَها بحرص لتخرجَ من البيت المصغَّر. «أريدُك أن تظلَّ هنا معَهما. لن أتأخّر».

كان الخروجُ عذابًا لها. نظر سليم إلى أختهِ وأخيه. إنه المسؤول عنهما كليًا الآن. غلبه هذا الشعور. أهذا ما تشعر

بـه مـادر جـان أم يختلـف الأمـرُ معهـا لأنهـا أمُّهـم؟ إن كانـت تشـعرُ بالخـوف هكـذا، فهـي لا تُبديـه حقًـا.

مـاذا لـو أصيـبَ عزيـز بشـيء؟ مـاذا لـو بـدأتْ سـميرةُ البـكاءَ؟ مـاذا لـو جـاءَ أحـدٌ وأخذنـا؟

ذهـب سـخطُه مـن كونـهِ المسـؤولُ عـن تلبيـة حاجـاتِ الأسـرة فـي حيـن تظـلُّ مـادر جـان مـع الصغيرَيـن، وحلَّـت محلَّـهُ اللهفـة لعودتهـا. تأخـر الوقـتُ، سـاعةَ خـروج سـكّان العالـم السـفليّ إلـى الشـوارع. إن أوقفهـا أحـدُ رجـال الشـرطة، لـن تسـتطيعَ العـودةَ إليهـم.

نظـر بتركيـزٍ مـن النافـذةِ البلاسـتيكية إلـى بيـتِ الدميـة ليـرَى قامتَهـا، لكنـه لـم يـرَ سـوى الظـلامِ والمطـرِ الـذي جعـل الرؤيـة مسـتحيلةً تقريبًـا. مـرّت الدقائـقُ ببـطء.

حيـن عـادتْ، كان شـعرُها يقطـر مـاءً، وملابسُـها المبللـةُ ملتصقـةٌ بهـا، جمعـتْ حجـارةً مـن الملعـب لتسـتخدمَها فـي تثبيـتِ طبقـةٍ مـن الأكيـاسِ البلاسـتيك جمعتْهـا معًـا لتسـدَّ بهـا تسـرُّبَ المطـر.. أفلـح هـذا.

تبللـتْ ملابسُـهم وخبزُهـم. توقـفَ المطـرُ بعـد قرابـة سـاعةٍ، قبـل شـروق الشـمسِ بفتـرة، طـوتْ مـادر جـان الأكيـاسَ البلاسـتيكية وأعـادت الحجـارةَ إلـى أحـواض الزهـور. احتفظـت بالأكيـاس كمـا لاحـظ سـليم، فـي حـال أمطـرت مجـددًا.

غيّـروا ملابسَـهم بأُخـرَى جافـة فـي حمامـاتٍ عموميـة. أنفـق سـليم يوروهـاتٍ عـدة غاليـةً لشـراء خبـزٍ طـازج وعصيـرٍ مـن محـلّ قريـب. أكلـوا بهـدوء، مُنهكيـن مـن ليلـةٍ مضطربـة.

أحصَى سليم ومادر جان ما تبقّى معهم من نقود، بعد خصم المبلغ الذي قدرته روكسانا لشراءِ التذاكر، دسّ النقودَ وجواز سفره البلجيكيّ في جيبه الأمامي بحرص وانطلق. بحلولِ الظهيرةِ سيكونُ قد اشترى التذاكرَ بالفعل. شعرَ براحة لأنه سيقابلُ روكسانا في المحطة.

تمنّى لو كان مثلها، هادئةً وواثقة من نفسِها. يعرفُ أن أبوَيها يسافرانِ كثيرًا لكنه لا يعرفُ ماذا يعملان. كانت طفلةً وحيدة يمنحُها أبواها قدرًا من الاستقلاليةِ أكبرَ من سنّها. كلّما سألها عن نفسِها تُغيّر الموضوعَ وتعودُ إلى موقفِه هو.

أثارت فيه مشاعرَ يعرفُ أن عليه إخمادَها لكنه لا يستطيع. كان من الصعبِ ألّا يراقبَها، يتمنّى فقط ألا تلاحظَ ذلك. يكبحُ رغبته في لفِّ ذراعَيه حول خصرِها أو دفنِ وجهه في عنقِها. لم تبد قلقة وهي معه، لذلك شكَّ في أنها تعرفُ مشاعره. أو ربما تعرفُ ولا تمانع. كان يستمتعُ بهذا الاحتمال لساعاتٍ في النهاية.

انتظرَ خارجَ محطةِ القطار، محاولًا أن يبدو طبيعيًا ما أمكنه. استخدم نافذةَ عرْضِ أحد المحلات لينظرَ إلى نفسه في مرآة، حاول تصفيفَ شعرِه الأشعثِ بأصابعِه. رآها في الجهةِ المقابلة من الشارع، حقيبةُ ظهرِها على كتفِها مثل فكرةٍ تالية. اعتدلَ في وقفتهِ، ترتدي قميصًا أسودَ بأزرارٍ مغلقةٍ وكمَّينِ طويلَين تطويهُما حتى مرفقَيها، بنطالُها الجينزُ مدببٌ بأناقةٍ عند كاحلَيها.

«مرحبًا، كيف كانت ليلتُك؟» سألته.

«جيدة»، رفع كتفَيه بابتسامةٍ هادئة.

«لكنها أمطرتْ، هل تبللتم؟ لم أعرفْ ذلك إلا هذا الصباح. ظللتُ أفكّرُ في أخيكَ الصغيرِ طوال الوقتِ اليوم». ها هي إشارةٌ أخرى على اعتبارِها إياهُ أكثرَ من مجردِ لاجئ. سجّلَ تعليقها هذا مع تعليقاتٍ أخرى جمعَها من محادثاتهِما ليفكّرُ فيه مليًا لاحقًا.مكتبة .. سُر مَن قرأ

«نحنُ بخير.. كان المكانُ مبللًا لكننا... تدثّرْنا، إنه بخير اليوم».

«يسعدُني سماع هذا، تقول الصحفُ أن المطرَ لن يسقطَ لبقية الأسبوع لذا لن توجد مشكلةٌ مجددًا».

«هذا جيد».

«وهو كذلك، لنذهبْ لشراءِ التذاكر، حسنًا؟» تقدمتْه. نظرا معًا إلى شاشة مواعيدِ القطارات. «هل قررتَ إلى أين تريدُ الذهاب؟»

«نعم، سنذهبُ إلى باتراس ونأخذ سفينةً إلى إيطاليا».

أومأتْ برأسِها توافقه.

«نعم، ظنّي أن هذا أفضلُ الطرق، هل معك النقود؟»

أخرجَ جوازَ سفره والنقودَ المطويّة. أخبرته أن يظلَّ محتفظًا بها، بحثتْ عن شبّاكٍ مفتوح وأشارتْ إليه أن يتبعَها، تقدمتْ إلى الموظفةِ وتصنّعتْ صوتًا مبتهجًا على نحوٍ خاص. راقبها سليم وهي تثرثرُ بودّ، ضحكتِ الموظفةُ وهزتْ رأسها، امرأةٌ في منتصف العمر لم يكنْ ليفكّر في الاقترابِ منها. استدارتْ روكسانا إليه نصفَ استدارةٍ ومدّت يدها، أعطاها النقودَ وجواز السفر دونَ أن تلاحظ الموظفة.

سارا مبتعدَيـنِ بالتذاكـرِ إلـى باتـراس، كانـت مرتاحـةً تمامًـا، لـم يسـتطِعْ أن يتذكّـرَ متـى كانـت آخـرَ مـرة شـعَر فيهـا بالارتيـاح مثلهـا، بـدا لـه أن كلَّ حياتـهِ وتحركاتـهِ قـد ظللَهـا الخـوف. قـد يتغيـرُ مـا يخافـه شـكلًا ولونًـا بمـرور الوقـت لكنّ الخـوفَ خلفَه دائمًـا بخطوات.

اليـومَ الأربعـاء، تذاكـرُ السـفر الجمعـة صباحًـا، السـفرُ فـي العطلـة الأسـبوعية أكثـر زحامًـا وسـتكون فرصتُهـم للمـرور وسـط الزحـام أفضـلَ. قـررتْ مـادر جـان أنـه حـان الوقـتُ لبيـع بعـضِ ذهبهـا. كان علـى سـليم أن يقضـي يومًـا كامـلًا لتحويـل أسـاورها إلـى نقـود يمكنُهم إنفاقهـا علـى الطعـام والمواصـلات.

«لـديَّ أخبـارٌ جيـدة»، قالـت روكسـانا وهمـا فـي الشـارع.. «كنـتُ أتمنـى أن تأتـي أسـرعَ مـن هـذا، لقـد وجـدتُ مكانًـا للإقامـة لـك ولأسـرتك، أعـرف أنكـم ستسـافرونَ قريبًـا، لكـن علـى الأقـل لـن تبيتـوا فـي الشـارع، غرفـةٌ واحـدة، إنـه فنـدقٌ قديـم يديـرُه زوجـان صديقـان لجدّي، سـيبيعانِه خـلال أسـبوعَين أو ثلاثـة ليتقاعـدا، وهـو فـي حـالٍ سـيئةٍ لكـن لديهمـا غرفـة، سـيطلبان منكـم المسـاعدة فـي أشـياء قليلـةٍ فـي الفنـدق، لأنهمـا عجـوزان، لكنهمـا عطوفـان. لقـد شـرحتُ لهمـا موقفكـم وقـالا إنكمـا لـو سـاعدتموهما فـي الانتقـال فلـن يطلبـا مقابـلًا للإقامـة».

«نعـم»، وافـقَ بحمـاس، يـكاد لا يصـدّقُ حسـنَ حظّهـم، ربمـا كانـت مـادر جـان مُحقّـة، ربمـا جلـبَ المطـرُ خيـرًا رغـم كلّ شـيء. ناولتْـه روكسـانا ورقـةً كُتـب فيهـا عنـوانُ الفنـدق.

«لا تشـكرْني، يمكنُـك شـكرهما، ليحالفـكَ الحـظُّ سـليم، أعـرفُ أن الأمـرَ ليـس سـهلًا، خصوصًـا أن أسـرتَك كلَّهـا معـك. أتمنّـى أن

تعاملَكم بقية أوروبا معاملةً أفضلَ من هنا». نظرتْ إلى ساعتها «عليَّ العودة إلى البيتِ لكنني سأكونُ هنا الجمعة صباحًا قبل مغادرتِكم. أريد أن أطمئنَّ عليكم جميعًا وأنتم في القطار. وسوف أدوّنُ لك أيَّ سفينةٍ عليكَ ركوبها من باتراس. أنت تعرفُ، في باتراس يوجدُ مخيمٌ كبيرٌ للاجئين. هناك أفغان أكثر مما في ميدان أتيكي والأوضاعُ هناك ليستْ جيدة. لا تتوقفْ هناك سليم. مما سمعته، إنه نهايةٌ حتمية».

أومأ برأسه، راقبَها تُعلق حقيبتَها على كتفِها وتعبرُ الشارع. أمامه فرصةٌ واحدةٌ فقط لرؤيتِها مجددًا. ليس مستعدًا لتوديعِها اليوم.

جعله رحيلهما الكئيب أكثرَ توترًا، لم يعرفْ ماذا سيحدثُ لهم حين يستقلّونَ القطار أو حتى في باتراس. توقف عند أسواقٍ قليلة في طريق عودتِه إلى البيت وسرقَ ما أمكنه سرقتُه. نحّى أفكاره عن روكسانا جانبًا مذكّرًا نفسَه بالنقود القليلةِ التي أحصاها مع مادر جان. كان الظلام قد خيّم تقريبًا حين عاد إلى أسرته، بدا على مادر جان الارتياح لرؤيته.

بات يفهمُ ما تشعر به كلما غادر، قليلًا فقط. لن يمكنه معرفة كلِّ ما يجولُ في خاطرها بأفضلَ مما يمكنها هي تخمين ما بداخله. هناك أشياء يقولُها أحدهما للآخر بصوتٍ عالٍ، وأشياء يهمسون بها بوجْهٍ يختلج، وأشياء يسكتانِ عنها تمامًا. الأمُّ والابنُ منفصلانِ على أساس السنِّ والدور والرغبة في حماية أحدهما الآخر. لكن الهدفَ من سكوتهما، مع أنهما لن يعترفا بهذا أبدًا، كان لحمايةِ نفسَيهما وعلاقتِهما. أشياء لا يرغب أحدهما في معرفتِها عن الآخر حتى وإن أمكنه ذلك. بعض أسرارٍ أنقذتهما.

أفـرغَ حمولـةَ حقيبتـهِ فقسّـمته مـادر جـان إلـى مـا سـيتناولونه الليلـةَ ومـا سـيدّخرونه للرحلـة. أعطاهـا التذاكـرَ وجـواز السـفر، فدسّـتها فـي الحافظـة التـي تعلّقهـا فـي عنقِهـا، تحـتَ بلوزتهـا.

«أصيب عزيز بنوبةٍ أخرى اليوم»، أخبرتْه بهدوء.

بالفعـل، كانـت بشـرتُه أكثـرَ شـحوبًا عـن الأمـس، رقـد علـى الأرض، خلفَـه وسـادة، زاد وزنـه قليـلًا منـذ أن بـدأ تنـاولَ الأدويـةِ التـي اشـتروها فـي تركيـا. بـدأ يسـير، يـرددُ كلمـاتٍ قليلـةً ويضحـك أحيانًـا حتـى، لـم يكـن سـليم يـراه كثيـرًا وكان حيـن يـراه يُبقـي علـى مسـافةٍ بينهمـا. الأمـر مختلـفٌ مـع سـميرة، كان يحـبّ الوجـودَ بالقـرب منهـا، حيـن تضـع رأسَـها علـى كتفِـه وهـو يحكـي عـن يومِـه. لكـنّ عزيـز كان يحـدقُ فيـه بتوقّـعٍ واحتيـاجٍ إلـى أشـياءَ كثيـرةٍ جـدًا لا يمكنـه تلبيتهـا. أبعـد نظـره عـن عزيـز، يشـعرُ بالذنـب لاسـتيائه مـن الصغيـر.

«يجـب أن نذهـبَ بـه إلـى طبيـب فـي إنجلتـرا، الـدواءُ لا يحسّـنُه كمـا كان يحسّـنُه، لونُـه ليـس جيـدًا ويبـدو شـاحبًا مجـددًا». بـدتْ مهزومـةً، تسـاءل مـاذا سـيفعلُ أخـوه فـي الرحلـةِ المقبلـة. «سـأتصلُ بخالتـكَ غـدًا وأخبرُهـا بخطتنـا، ربمـا تحسـنت أحوالُهمـا الآن». سـكتتْ، تختـار كلماتِهـا التاليـة بعنايـة «سـليم جـان، لا يمكننـا الاعتمـاد عليهـم، علينـا أن نتذكّـرَ هـذا».

«لمـاذا؟ لقـد ظلـت تلـح علينـا للذهـاب إلـى لنـدن، ألـم تعِـدْ بمسـاعدتنا حيـن نصـلُ إلـى هنـاك؟»

«أحيانًـا يرغـبُ النـاسُ فـي المسـاعدة... لكـن شـيئًا مـا يمنعهـم، أريـدُ أن نعتمـدَ علـى أنفسـنا فقـط. فقـد نضطـرٌّ إلـى هـذا مـا إن نصـل».

«لا تهتمّي بهذا الأمر مادر جان، لدينا غرفةٌ الليلة وجدتْها لنا فتاةُ المنظمة الإنسانية، لنذهب الآن قبلَ أن يتأخرَ الوقت، كلُّ تلك الأمطارِ بالأمس، ربما كانت خيرًا بالفعل، كما تقولين دائمًا».

توهّجَ وجهُها كجمر أذكاهُ النسيم، أسرعتْ تجمعُ متاعَهم القليل وانطلقوا ليعثروا على فندق كاتارينو، الفندقِ الأصفر. كان الزوجانِ شيخَيْن عطوفَينِ بما يكفي ليلمِسا خدَّ عزيز برفقٍ ويصحباهم إلى غرفة. حين حاولتْ مادر جان أن تسألَهما عمّا يحتاجانِ إليه من مساعدة لتبدأ على الفور، أشارا لها أن تنامَ الليلةَ وتبدأ في الغد.

يومُ الخميس، خلعتْ مادر جان أساورَها الذهبيةَ التي أهداها لها أبوها قبلَ زفافها، وناولتْ سليم إياها بقلبٍ مثقل. أساورُ أمها، هدية زفافٍ احتفظَ بها أبوها لها حتى زفافِها هي، كانت تحبُّ سماع صلصلتِها الناعمة حين تمدُّ يدَها إلى درْج، أو وهي تغسلُ الصحون، أو تقلبُ صفحة في كتاب. تنظرُ إلى معصمِها، دوائرُ ذهبيةٌ ترقصُ معها في كل حركاتها، خمسُ أساورَ مستديرة من الأم التي لم ترَها قط. فكَّ أبوها رباط الكيس المخملي ووضع الأساور في راحةِ يدها، أحكمَ أصابعَه على أصابعها دقيقةً واحدةً صامتة. هل دمعتْ عيناه أم كانت تتخيّل؟ كان مع عروسهِ مجددًا، المرأة التي لن يحل محلَّها أحد أبدًا، والتي دمّر غيابُها حياتهم. فهمتْ فريبا في تلك اللحظة أنه رغم استمرار حزنِ أبيها على أمها لكنه لن يفهمَ أبدًا حزنَها هي عليها. كأنها فقيدته هو وحده. لم تكرهه لسوء فهمهِ هذا لكنها رأته بشكلٍ أوضح. كانت كوكوكل محقةً بشأنه دائمًا، إنه سعيد ببقائهِ في بستانه

طوال الوقت. لقد قصَّر في حبّه لهم جميعًا، وليس لفريبا فقط، لا عجبَ أن جمعتْ كوكوكل أشياءها ورحلتْ مع بناتها.

وضع أبوها الأساورَ في راحتها، لكنها كانت تشعرُ أن أمها قد دخلت إليها وهي نائمةٌ وأزلقت الأساورَ حول أصابعِها إلى ذراعها. لمسةُ الأمومة الرقيقة التي لم تعرفْها حتى حملتْ سليم بين ذراعَيها للمرة الأولى، قبّلتْ جبينَه وأدركتْ أن لديها الكثير جدًا لمنحهِ إياه، أكثر مما نالتْهُ هي في أيّ وقتٍ مضى.

ما كان سليم يعرفُ شيئًا عن كلّ هذا حين أخذ الأساورَ من أمه، رآها مستاءةً فقط.

«إن ذهني مضطربٌ اليوم. ليتك تؤجّلُ الذهاب إلى محل الرهونات إلى الغد، يمكننا المرور به في طريقِنا إلى محطةِ القطار، يمكننا الذهاب معًا».

«إنه ليس بعيدًا، ولم يتبقَّ لدينا نقودٌ مادر جان. من يعلمُ ماذا سيحدثُ في باتراس، سنحتاجُ إلى نقودٍ للطعام والسفينة وإلا سيدفعون بنا بعيدًا».

«لكن اليوم...»

«سأذهبُ مادر جان. إن اختبأْنا في غرفةٍ كلما قلقْنا لن نصلَ إلى إنجلترا أبدًا».

عضتْ لسانها، ذكّرتْ نفسها أنه لم يعد فتى صغيرًا. بدأت تُلبس عزيز وطلبتْ من سميرة غسْلَ بعض الملابس. ستذهبُ إلى الزوجَين لترى ماذا يحتاجان. أشاحتْ ببصرها بعيدًا وسليم يدسُّ الأساورَ في جيبه ويغلقُ أزراره ليتأكدَ أنها لن تسقط منه.

لم ترَ وجهه المتردد، تلك اللحظةُ التي فكّر فيها في تحذير أمِّه وقرر تجاهلَه لرغبته في أن يكونَ أشجعَ منها.

«سأذهبُ إلى محل الرهوناتِ الآن، وأعودُ خلال ساعتين»، وعد سليم، وعدًا لن يستطيع الوفاء به.

الجزء الثاني

سليم
30

قد تتغيرُ حياةٌ كاملة خلال ظهيرةٍ واحدة. ويواصل بقية العالمُ سيرَه، غيرَ عابئ بمصيبةٍ فردية هادئة تحدثُ على مقربةٍ أقدام قليلة. وقف ضابطُ شرطةٍ إلى يسار سليم، يعبثُ بسلسلةِ مفاتيح بين أصابعه. استند ضابطٌ آخر براحتهِ الممدودة لأعلى إلى الجدار الأسمنتي أعلى كتف سليم اليمنى. شعر سليمُ بأنفاسِهما على وجهه.

«أين تقيم؟» قلبتْ رائحة الثوم في أنفاس الضابط معدةَ سليم. لم يجرؤ على النظر بعيدًا، حدق في انعكاسِ صورته الكاريكاتيري في نظارات الضابط الشمسية، عيناهُ متسعتان ومملوءتان بالخوف، ما زال وجههُ المراهقُ لم يتخذْ تقاسيمَ الرجولة. يؤطر ظِلُّ شاربٍ شفته العليا لكن لا شيء آخر.

«قل ما قلتَه مرةً أخرى من فضلك؟» شعر بصوتهِ يرتعش. التقط في الأسابيعِ القليلة التي قضاها في اليونان عددًا من العبارات باليونانية لكنها لم تكفِ ليبدو مقنعًا. عدّل كتفيهِ محاولًا تثبيتَ كلماته.

«أين تنام؟ أين بيتك؟»

تأففَ الضابطانِ وهزّا رأسيهما لنظرتهِ البلهاء. بشرتُهما أفتح من بشرةِ سليم الزيتونية الداكنة، لوحتِ الشمسُ بشرته أكثر في

الأشـهر التـي قضاهـا فـي العمـل تحـت الشـمس، تحـدثَ الضابـطُ الـذي يمسـك سلسـلة المفاتيـح بالإنجليزيـةِ أخيـرًا.

«أين تقيم هنا؟» سـألهُ بغضب.

تسـارع ذهـنُ سـليم ليخـرجَ بقصـةٍ منطقيـة، لـم يكـن ليقـودَ الضابطيـن إلـى أسـرته.

«أنـا لا أقيـم، أنـا زائـر، أنـا أتسـوّق»، أكـد لهمـا وهـو يشـيرُ نحـوَ المحـلات فـي الشـارع، ضحـك الضابطـان.

«تتسوق؟ ماذا اشتريت؟»

«أوه، لا شيء، اليوم، لا شيء». قال يتمنّى أن يفقدا اهتمامهما.

«لا شيء؟ حسنًا، أين جوازُ سفرك؟ أوراقك؟»

انقبضـت معدتُـه. تـذوقَ عصـارةً مـرة فـي فمـه. «جـواز السـفر؟ ليـس معـي الآن»، فتـح صاحـبُ محـلّ الرهونـات بابـه، رأى الضابطيـنِ حـول كتفَـي زبونـه الأخيـر فعـاد سـريعًا إلـى محلـه.

«لا جواز سفر؟» تبادلَ الضابطان نظرةً لم يفهمها.

«إنه مع... إنه مع صديقي».

«ما اسمك؟»

«سليم».

«من أين؟»

شـعر بدقـاتِ قلبـه تقـرعُ طبلتـي أذنيـه. هـل يمكنـه الهـربُ منهمـا؟ ليـس واردًا، كان مثبتًـا فـي الحائـط فـي سـوقٍ مزدحمـة. يتجـولُ السـياحُ مـن حولـه بيـن المحـلاتِ، يدخلـونَ ويخرجـون، وأجـراسُ الأبـواب تصلصـلُ مـع حركتهـم. أشـاح بائـعٌ متجـولٌ أسـمرُ ببصـره بعيـدًا وهـو يجمـعُ دُمـاه الراقصـةَ فـي جُـوال. نظـرَ المـارة إليهـم

باهتمـام مبهـم لـم يبطـئ مـن سـيرهِم. فقـط الرجـلُ العجـوز الـذي يشـوي ذُرةً أبـدَى تعاطفـه، مسـح يـدَه فـي مريولـه النصفـيّ وجمـع القشـورَ السـاقطة فـي كومـةٍ بطـرف حذائـه.

الجـوُّ حـارٌّ بمـا يكفـي للتعـرقِ حتـى فـي الظـل. كان سـليم ظمآنًـا ولـم يتنـاولْ شـيئًا منـذ ليلـة أمـس، إن ركـض، سيمسـكانِ بـه سـريعًا. يرتـدي كل منهمـا زيًـا رسـميًا أزرقَ وقبعـةً لباديـة وقميصًـا بـأزرارٍ وبنطـالًا. تتدلّـى مـن حزامَيهمـا السـميكَين مخاطـرات سـليم، لاسـلكي، أصفـاد... مسـدس. الركـضُ ليـس خيـارًا، وكذلـك رفـضَ إجابـة أسـئلتهما.

«أنـا... أنـا مـن تركيـا». كان قـد تـدربَ علـى هـذا مئـات المـرات مـع أمّـه وأكثـر مـن ذلـك حتـى وهـو وحـده. حـذّره لاجئـون آخـرون مـن سلسـلةِ الأسـئلة، تمنـى لـو كانـوا قـد نصحـوه بحكمـة.

«تركيـا؟» بـدا الضـابطُ مشـمئزًا. نظـر إلـى الضـابط الآخـر نظـرةً ذات مغـزى. «وكيـف جئـتَ إلـى هنـا؟»

أومأ سـليم برأسـه قائلًا: «بالطائرة».

«ومن معك؟»

هـز سـليم رأسـه، «جئـتُ وحـدي». دعـا الله ألا يفضحَـه صوتُـه وعينـاه. أبقـى يديـهِ ملتصقتَيـن بجانبَيـه.

«وحدك؟ كم عمرك؟ ستة عشر؟»

تمنى سليم أن يستغلَّ غموض سنّه لصالحه.

«خمسة عشر».

«خمسة عشر؟ وأين ماما؟ وبابا؟»

رفع سليم كتفَيه.

«ليسا هنا؟» كان أكبرُ الضابطين سنًا يفقدُ صبره، علّق إبهامَيه في حزامه. هز سليم رأسَه. تبادل الضابطانِ كلمات قليلةً باليونانية، تعبيراتهما الغاضبةُ لا تحتاجُ إلى ترجمة. يعرفُ سليم أن القانونَ الدولي ينص على حق القاصرين في اللجوء، لكنه تعلم أيضًا أن هذه القوانين، في الشوارع، لا تحمي أحدًا بأفضل من مظلةٍ مكسورةٍ في أثناء إعصار.

نظرا إليه جيدًا، من رأسه حتى أخمصِ قدَميه. نقل سليم وزنَه من قدم إلى أخرى، يشعر بنظرَيهما على تيشيرتِه البولو الأسود، الياقةً والكتفان مؤطران بشريط أبيض. بنطاله الجينز بالٍ ومهترئ، غسله مرارًا في الحوض بصابون رخيص. كانت ملابسُه تناسبُه بشكلٍ مريح هناك في وطنه، لكنها الآن، بعد أشهر، صارت معلّقةً على هيكله. شهد حذاؤه المطاطيُّ المتآكلُ وأربطتهُ المسودّةُ على رحلته القاسية. علّق الضابطُ الذي يتحدث الإنجليزية سلسلة مفاتيحه في حلقةٍ في حزامه ولكز كتفي سليم ليُديره، ربت على خصره سريعًا قبل أن يغمغم بشيء ما لزميله.

«استدر». أطاعَ سليم الأمر، عيناه ملتصقتانِ بالأرض. «لا جوازَ سفر؟ ولا أوراق؟»

هز سليم رأسه مجددًا، كان جواز سفرِه البلجيكي الذي تكلف ثلاثمئة دولار في حقيبةِ ظهره، تركهُ في الفندق هناك خشيةَ أن يضيعَ منه قبل سفرهم الوشيك.

«تعال».. كان الأمر بسيطًا، ظن سليم أن صدره سينفجرُ، لم يستطع الذهابَ معهما! وماذا عن أمّه؟ نظر إلى الضابطين ولمح سريعًا شارعًا مرصوفًا بالحصى يزدحمُ بالمارة السياح

والمحليين. ماذا يقول لهما كي يتركاه؟ أيمكنه شراؤهُما؟ إن ذهب معهما سيلقيانِ به في السجن بالتأكيد، وربما يعيدانهِ إلى بلده.

كان سريعًا، لطالما ظلَّ كذلك لكنه في الأشهر الأخيرة الماضية ربما صار أسرع، خف وزنهُ على قدميه بشكلٍ مؤكد واكتسب قوةً من حمله أخاه ومتاعهم القليل. اقتنع بتفكيره، يمكنه فعلها، *عليه* فعلها. إن ذهب معهما، لا أحد سيرعَى أمه وأخته وأخاه.

عادت قدماه إلى الحياة، رغمًا عنه تقريبًا. أزلق رأسه من أسفل ذراع الضابط وانطلق يركضُ بسرعة شديدة. أسرع يمر بمحلّ الرهونات، بائع الذرة، تخبط كتفاهُ السياح المذهولين. سمع صياحًا من خلفه. تتفرع من طريقِ المشاةِ الرئيسِ متاهةٌ من الشوارع الجانبية مملوءة بالأمل. ركضَ في زقاق إلى يساره بمحلات أصغر ومارةٍ أقل. أمتار قليلة فقط وانتهى الزقاق. عليه التوجه يمينًا أو يسارًا. بلا شيء واعدٍ في أي من الاتجاهين، انعطف يسارًا. كان يريد قطع مسافة بينه وبين الضابطين لكنه لا يمكنه العودة إلى الفندق.

انعطف في شارعٍ آخر، رفع كلبٌ ضال يرقدُ على الأرض رأسه بفضول وسليم يلهث ويجولُ بعينيه ليحدد خياراته. أي طريق يسلك؟ هذا الجزء من أثينا مشتت. لا لافتات، لكنه يعرف أن الشارع الرئيس على مبعدة مبانٍ قليلة. انعطفَ ركضًا في أحد الأزقة فخبط في زوجين يسيرانِ وكلّ منهما يحيط خصرَ الآخر بذراعه. تعثرا في سيرهما، سبّاه وهو يستعيدُ توازنه ويرفع يده اعتذارًا. يؤدي الزقاقُ إلى ساحةٍ في منتصفها كنيسةٌ قديمة، أثرٌ مقدسٌ محاط بمحلات فاخرة حديثة. بحثتْ عيناه عن إرشادات،

عـن انعطافـةٍ أخـرى فـي تلـك المتاهـة. شـعر أنـه يلفـت الأنظـار، عينـاه متوحشـتانِ ومكشـوفتان.

«المترو».. تذكّر.

لكـن أيـن مـن هنـا؟ وقـف بظهـرهِ إلـى حائـط وهـو يبحـثُ عـن مهـرب. تنحـدر الشـوارعُ إلـى أسـفل، وممـا يتذكَّـره، كانـت محطـةُ المتـرو أكثـر انخفاضًـا مـن بقيـة السـوق. لـم يسـتقلّ المتـرو منـذ يومـه الأول، لـم يشـأ تبديـدَ نقودهـم فـي حيـن تحملـه قدمـاه جيـدًا. أخـذ نفسًـا عميقًـا وعـاود الركـضَ مجـددًا، تمسـح عينـاه المشـهدَ بحثًـا عـن الـزي الرسـمي الأزرق، لـم يـرَ شـيئًا، أبقـى رأسَـه مطرقًـا وتخفّـى بيـن النـاس، يرجـو سـاترًا بشـريًا. تـردد صـوتُ أمـه فـي ذهنـه، يدفـع قدمَيـه المرتعشـتَين.

ذهنـي مضطـربٌ اليـوم، ليتـك تؤجّـلُ الذهـابَ إلـى محـلّ الرهونـات إلـى الغـد. يمكننـا المـرور بـه ونحـن فـي طريقِنـا إلـى محطـة القطـار، يمكننـا الذهـاب معًـا.

إنـه ليـس بعيـدًا وليـس لدينـا نقـود، مـادر جـان، مـن يعـرفُ مـاذا سـيحدثُ فـي باتـراس، سـنحتاجُ إلـى النقـود للطعـام والسـفينة وإلا سـيدفعون بنـا بعيـدًا.

لكن اليوم...

أنـا ذاهـبٌ مـادر جـان، إن اختبأنـا فـي غرفـةٍ كلمـا خفنـا لـن نصـلَ إلـى إنجلتـرا أبـدًا.

سـيندم لاحقًـا علـى مقاطعتهـا لكنـه لا يمكنـهُ التفكيـر فـي هـذا الآن. لاحـت لافتـة المتـرو مـن بعيـد. أسـرعَ نحوهـا. توقـف عنـد المدخـل المقـوس، سـلم الجسـر يـؤدي إلـى المسـاراتِ المفتوحـة.

ازدادت سـرعةُ سـاقيه وهـو يسـمعُ طنيـن القطـار القـادم، مـا زال لا يـراه، حـاول أن يبـدو هـادئًا وتمنـى أن يختفـي بعيـدًا لكـن عليـه البقـاء قريبًـا.

سـرت الاهتـزازاتُ فـي حذائـه المطاطـي المتـآكل، نظـر بعصبيـةٍ إلـى شـباك التذاكـر فـي الداخـل ووضـع خطتـه. سـيقفزُ علـى الحاجـز الـدوار لحظـة وقـوف القطـار ويسـتقله قبـل أن يسـتطيعَ أحـد إيقافـه ويبتعـدُ عـن هنـا مـا أمكنـه. الأفضـل أيضًـا أن يحـوّلَ مسـاره فـي إحـدى محطـات الريـط ويظـلَّ فـي القطـارات حتـى يتأكـدَ مـن فقـده الضابطَيـن. لـم يسـعه إخفـاء ابتسـامتهِ وهـو يـرى العمـلاق الحديـدي يلـوحُ مـن بعيـد، لـن يخبـر أمّـه بشـأن الضابطَيـن.

وهـو يقفـز أعلـى الحاجـز الـدوار و يقسـم أنـه سيسـتمعُ لحـدس أمـه فـي كل شـيء بعـد ذلـك. قبضـت أصابـعُ غاضبـة علـى كتفيـه وسـحبته إلـى الخلـف، تملّـص منهـا، رفـعَ ذراعيـه إلـى الأعلـى، لكنـه لـم يجـد شـيئًا يتشـبث بـه.

غـرق صراخُـه فـي صـوت القطـار وهـو يتوقـفُ فـي المحطـة ويخـرج منهـا.

فريبا
31

ربمـا كان هـذا قدرهـم، زوجـةٌ بـلا زوج. أطفـالٌ بـلا أب. ربمـا كان النقصـانُ هـو المعنـى الدقيـقُ لأسـرةٍ عاديـة. مـن أيـن جـاءت توقعاتـي العاليـة رغـم كلّ شـيء. إن أفغانسـتان أرضُ الأرامـل واليتامى والفقـدان. فقـدان سـاق أو يـد أو طفـل أو أُمّ. فقـدَ الجميـع شـيئًا مـا، كأن حفـرةً سـوداءَ انفتحـت فـي منتصـف البلـد، لتسـحبَ قطعًـا وأجـزاءً مـن الجميـع فـي هوّتهـا الواسـعة. فـي مـكانٍ مـا تحـت تربتنـا البنّيـةِ يوجدُ كل مـا فقدنـاه. سـمعتُ مـن قبـل أن كبـارَ السـن الأفغـان الذيـن يعيشـونَ فـي الخـارج يقولـون: «ادفنونـي فـي أفغانسـتان حيـن أمـوتُ، أعيدونـي إلـى الأرض التـي جئـتُ منهـا». يقولـون إن هـذا هـو حـبُّ الوطـن، لكنـه ربمـا ليـس سـوَى ظنّهـم أنهـم سـيعودون إلـى كل مـا فقـدوه هنـاك. يوجـد آخـرونَ يرفضـون تـرك أفغانسـتان بعنـاد، بغضّ النظـر عمّـا يحـدثُ فـي شـوارعهم، ربمـا لظنّهـم أن الأرضَ ستنشـقُّ وتعيـدُ إليهـم كل مـا أخذتْـه منهـم.

أنـا لا أومنُ بهذا.

مـا ذهـب قـد ذهـب بـلا رجعـة، حيـن تبتلـعُ الأرض شـيئًا، تبتلعـه إلـى الأبـد، لنُتـرَك وحدنـا نتعثـرُ فـي طريقنـا بشـعورنا بالفقـدان، هـذه أحمالُنـا.

ابنـي يكتسـبُ صـلابـة. يصيـر رجـلًا دون توجيهـاتِ أب. أدعـه يقضي الوقتَ مع رفقائه لأنـه ينبغي ألا يظلَّ مع النسـاء. لا يمكنني تعليمُه سوى ما أعرفه. لكنه بحاجةٍ إلى تعلّم طرقِ الرجال وأدعو الله أن يحفظَه في أثناء ذلك وأن يعينني على استعادته إن ضل بعيدًا جدًا. سيزدادُ سخطه عليَّ إن لم أمنحْه هذه المساحة. إنه رجلٌ بالفعل بكلماتهِ ونظرته الاتهامية في حين يظلُّ وجهُه وجسدُه لفتى. لم يعد الصغيرَ الذي كانه منذ عام مضى.

أفتقدُ سليمَ الصغيرَ الذي كانه، شقيًا وخجولًا. أفتقد ضحكَهُ. أفتقدُ ذراعَيه حول رقبتي. فقدنا كلَّ هذا في الوطن، أرض الفقدان. أعرف أنه، حتى لو وصلنا إلى إنجلترا وبدأنا حياةً جديدة، لن يعود ذاك الفتى أبدًا، ما ذهبَ قد ذهب.

ورث مني أطفالي محنةَ الطفولةِ المعذبة. كأن الفترةَ التي قضوها في رحمي ألصقتْ بهم نصيبهم من المصاعب.

أنتظرُ الآن عودة سليم من محلّ الرهونات. ذهبت أساوري الذهبية، الشيءُ الوحيدُ لديَّ من أمي، الآن، ويمكن اعتبارها من ضمن المفقودات. كرهتُ أن أفقدَها لكن كيف أحتفظُ بها وأطفالي مضطرّين إلى العمل أو جوعَى؟ ما سيأتي به سليم من نقودٍ ستكونُ هديةً من أمي لأطفالي، لن تلمعَ أو تصلصلَ بل ستكون قُبلتَها الناعمةَ على خدودهم.

لم تعرفْ كوكوكل شيئًا عن تلك الأساور قط، الأرجح أنها لم تكن لتلمس رسغي أبدًا لو كانت قد عرفتْ عنها شيئًا.

«ماذا خبأتَ عني أيضًا يا زوجي العزيز؟» سألتُ أبي بنصف غيظ..«ربما تمتلئُ هذه الجدران بالكنوزِ المدفونة في التراب، لماذا لم تعْطني تلك الأساورَ لأضعَها في مكانٍ آمن؟»

«أيُّ مكان قد يكونُ أكثرَ أمانًا من مكانٍ لا تعرفينه؟» أجابها أبي.

«حسنًا، دعني أراها على الأقلّ قبل أن تغادرَ هذا البيت»، أشارت إليَّ أن أقتربَ منها، مددتُ معصمي، لا أريدُ خلع الأساور من يدي ولو للحظة. «همف. تبدو سميكةً من بعيد. لكنها في الحقيقةِ خفيفة جدًا ورديئةُالصنع، أشبهُ بتقليدِ الذهب».

كلُّ صريرٍ في الرواق يقبضُ صدري، أرجو أن يعودَ سليم سريعًا، قال «ساعتان»، وقد مرَّ وقتٌ أكثرُ من هذا بكثير، يجبُ ألا أقلقَ، حين يعودُ سيخبرني بأنه انشغلَ بلعب الكرةِ مع أصدقائه، ولم ينتبه للوقتِ لأنه كانَ معهم. ستبدو على وجههِ علاماتُ شمس الظهيرةِ الساطعة. سأهز رأسي له لكنني سأكونُ سعيدةً به أيضًا، ليت أباه يراهُ الآن، ابننا المشاكس، يحملُ مسؤولية أسرتِه. سيضع زوجي ذراعَه حولي ويبتسمُ كما فعل حين سارَ ابنُنا ذو العام الواحد خطواتِه المنتصرةَ الأولى.

ستتحسنُ الأحوالُ حين نصلُ إلى إنجلترا. أعرفُ أن نجيبة ستساعدُنا رغم ما يقولُه زوجُها. سيكونانِ معنا لنستندَ إليهما حتى نجدَ طريقنا، ولن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، بإذن الله. بعد أن قطعْنا كل تلك المسافة، يمكنُنا صنعُ حياةٍ لأنفسنا في أي بلد، كلُّ ما نحتاجُ إليه فرصةً فقط، مكانًا ما في العالم، لا بد أن في العالم مكانًا يرحبون بنا فيه كأقاربَ طالت غيبتُهم، ولا يرجموننا بالحجارة كثعابينَ في الحديقة.

أرجوك سليم عُد بسرعةٍ. تأخر الوقتُ وما عاد بإيماني القوةُ ليطمئنَني لأطولَ من هذا، أرجوك عُد بسرعة.

سليم

32

بدا الطريق إلى السجنِ بلا نهاية، شعر سليم بالعرقِ يسيلُ على ظهره، كان زجاجُ نافذته مفتوحًا بقدر بوصة، فقط لجعْلِه يتمنى أن يخفضَها أكثر.

«أرجوك، سيّدي، لا بد أن أذهبَ، سأغادر اليونان غدًا، لن أسبب مشكلة. لا أحتاجُ إلى مساعدة».

«ستغادرُ غدًا؟ سهلٌ جدًا، نعم؟»

لا تحتاجُ السخريةُ إلى ترجمة.

وصلوا إلى أطراف المدينةِ حيث لا يجرؤ سائحٌ على التجوال ووجهه ساخنٌ بالبكاء. مروا بالطريق الضيّقِ الذي يؤدي إلى فندق كاتارينو، مبنى بلون الليمون واسمٌ لا يمكن تصوّره. ركّز عينيه على الشارع لكنه لم يرَ أحدًا. خلال ساعة ستغيب الشمسُ وستبدأ أمُّه بالقلق عليه.

اقتيدَ عبر المكاتبِ والضباط، لم يرفع أغلبُهم بصره، أُخِذ إلى زنزانةٍ في خلفية المبنى الأسمنتي حيثُ يقبع رجلانِ إفريقيان وآخرُ يوناني. شعر برغبة في الركض إلى أقرب مخرج لكنه كان يفقدُ شجاعته بمرور كلّ دقيقة. أشار الضابطُ الأكبر سنًا إلى شرطيّ آخرَ ليفتحَ الزنزانة لسليم.

«ادخل».

فَكّر، قال سليم لنفسه.. فكر في شيء ما تقولُه ليثيرَ شفقتهم. شيء ما يجعلُهم يتركونك.

«أرجوك، سأعودُ إلى البيت، أرجوك دعني أذهبُ سيدي»، توسل العفو بشكل غير محددٍ مجددًا.

«ستذهبُ، ستذهب هنا». قال الضابط وهو يدفعُه في ظهره بقوةٍ.

دخل الزنزانة بكتفين متهدّلتينِ بانهزام. نظر إليه السجناءُ الآخرون باهتمام مبهم ناجمٍ عن فراغ، لم يعنوا بالتواصل بالأعين، ناهيك بالحديث! سار إلى ركنٍ من الزنزانة، مساحتها قرابة اثني عشر قدمًا طولاً في اثني عشر عرضًا، واجمًا كحيوان وُضِع لتوّه في القفص. أسند ظهره إلى الجدار البارد وانزلقَ إلى الأرض ببطء. ضم ركبتيه إلى صدره.

ستتركُ أمه سميرة لتعتَني بعزيز وتذهب للبحث عنه، يعرف هذا، قد تحاولُ العثورَ على محلّ الرهونات، ربما سيخبرُها صاحبُ المحل بأن الشرطة أوقفتْه. قد تفقدُ وعيها أو أعصابها هناك في المحل. أعاد النظرَ في أحداث الظهيرةِ وشعر بالقرف من عجزه. ربُّ الأسْرة يجلس، عديمَ النفع، في السجن. انقبضت عضلاتُه اليافعةُ للتفكير في بقاء أمّه وأخويه وحدهم، نقودُ أساور أمه الذهبية محشورةٌ في جوربه الأيسر حيث لن تنفعهم في شيءٍ على الإطلاق.

بات ليلتَه في السجن.

في عزلةِ الزنزانة المشغولة، كان لديه الوقتُ ليفكّر مليًا، ظل عدة أشهر يتلفتُ حوله خوفًا من هذا المشهد تحديدًا، أن يؤول

بـه الأمـرُ فـي زنزانـة. ليس عليـه القلق من هـذا الآن، ذهـبَ الرعـب مفسـحًا المجـال لمخـاوفَ أُخـرى مـع ذلـك.

فيمـا يهـدأ ذهنـه، نظـر إلـى الرجـالِ حولـه، يجلس الإفريقيـانِ جنبًـا إلـى جنـب، يُغمغمـانِ دون أن ينظـر أحدُهمـا إلـى الآخـر. كان اليونانـي يلتفـتُ إلـى الآخريـن وينخـرُ، يتلوّى وجهـه اشـمئزازًا، تجاهلـوه جميعًـا تقريبًـا، شـرد سـليم بأفـكاره.

لو كان أبي على قيد الحياةِ لاختلف الأمرُ.

لـم تكـن فكـرةً جديـدة لكنهـا باتـتْ واضحـةً وحقيقيـة بشـكلٍ خـاص مثـل التسـاؤلِ عمّـا سـيحدثُ لأسـرته. وقـفَ وسـار بطـول الزنزانـة، بالقـربِ مـن الجـدار، لوقـف قطـار أفـكاره، لكـن لا فائـدة، كان ذهنُـه سـجينًا مثلـه.

سـقط فـي النـومِ علـى فتـراتٍ غيـر منتظمـة خـلالَ الليـل، يسـتيقظُ بألـم فـي عنقـه ودبابيـسَ وأبـرٍ فـي سـاقَيه. غيّـر وضعَـه مـرارًا وكـرِهَ رائحـة الأرضِ الأسـمنتية.

هـل أُخبرُهـم بالحقيقـة؟ ألـن يشـفقوا علـيّ؟ إن عرفـوا مـا حـدثَ لـن يعيدونـي إلـى أفغانسـتان بالتأكيد. لكـن مـاذا لـو أعادونـي؟

فـي الصبـاح، اقتيـدَ، بمعدتـه تتلـوّى، إلـى غرفـةٍ أخـرى للتحقيـق معـه. جلـس إلـى طاولـةٍ عاريـةٍ قبالـة ضابـطٍ آخـر قـدّم لـه نفسـه باسـمٍ مـا يبـدأ بحـرفِ الجيـم. كان اسـمه أجنبيًـا وثقيـلًا ولـم يكـن سـليمٌ فـي حـالٍ تسـمح لـه بتكـراره. نفـث الضابـطُ سـحابةَ دخـان كثيفـةٍ مـن سـيجارته أعلـى الطاولـة، حبـس سـليم أنفاسَـه وزفـرَ ببطء، يكـرهُ أن يـدع دخـان سـيجارة الرجـلِ يدخـلُ إلـى رئتيـه كأنـه مـن حـقّ الدخـان تمامًـا.

كان الضابط جيم مختلفًا عن الضابطَيْن اللذَين أحضراهُ بالأمس. أكبر سنًا، في أواسط العمر، وأصغر حجمًا. يرتدي قميصًا رماديًا والبنطال الأزرق نفسه والحزام الثقيل نفسه. يبرزُ جيب صدره بعلبةِ سجائر. ويؤطّر شعرٌ أشيب حليق وجهَه الصخري، يميلُ حاجباه وشاربُه إلى الأسفل بشكلٍ يجعلُ وجهه كله متهدلًا.

تحدث بالإنجليزية جيدًا ولم يبدُ مستعجلًا بأي حال من الأحوال، بدا أنه يفكّرُ قبلَ أن يطرحَ أسئلتَه على سليم. تساءل سليم في ذهنهِ فجأة، إن كان هذا الرجلُ سيشفقُ عليه ويطلقُ سراحه.

«كم عمرك؟» طرفتْ عينا جيم وهو يسحبُ نفَسًا من سيجارته، اصفرّت أسنانُه بسنواتٍ من النيكوتين والقهوة.

«خمسة عشر عامًا»، أجاب سليم، قرر أن يلتزم بما قاله بالأمس.

«خمسة عشر، ممم، خمسة عشر». صمتٌ قصير.. «ومن أين جئت؟»

قضى قدرًا لا بأس به من الليل يستعدُّ لهذا السؤال. بالأمس، قال للضابطين إنه من تركيا، لو كان أخبرهما بالحقيقة لأعاداه إلى هناك، لا يظن أنه سينجو لو عاد إلى أفغانستان وحده.

«تركيا». أجاب متشجّعًا.

«تركيا؟»

أومأ سليم..

«أنت تركيٌّ، ممم، لماذا جئتَ إلى هنا؟»

«أريد أن أدرسَ»، قال بصدق.

«تدرس؟ ألا يمكنك الدراسة في تركيا؟»

لم يجب سليم. سحب الضابطُ ورقةً من دفتره، دفعها نحو سليم على الطاولة قائلًا: «اقرأ هذه».

نظر سليم إلى الورقةِ، ميز الكتابةَ بالتركية، الحروفُ مثل الأبجديةِ الإنجليزيةِ لكنها بنقاط وعلامات مائلة تذكّره بالدارية. كان قد تعلمَ العباراتِ المستخدمةَ في المحادثة ويعرفُ أنه سيتعثرُ جدًا إن حاول القراءة. وُضِع في مأزق. بللَ شفتيه.

«أرجوك سيدي، ماء؟»

أمال الضابط رأسه جانبًا ووقفَ: «ماء؟ بالطبع». خرج من الغرفةِ وعاد بكوبٍ ورقيّ صغيرٍ يحتوي على جرعةِ ماء واحدة تقريبًا، تكاد تكفي لترطيب الحلق. تقبّلها سليم وشعر بآمالهِ في الشفقة تتضاءل. عاد ينظرُ إلى الصفحة أمامه وبدأ ينطق الكلماتِ بثقةٍ ما أمكنه. رفع بصرهُ إلى الضابط.

«ترجم، من فضلك» قال الضابطُ وهو يُخرجُ علبة السجائر من جيبه، أشعل سيجارتَه الجديدة بسابقتِها.

توتر جسدُ سليم كله، كان الضابطُ يتلاعب به، تسارعتْ أنفاسه وشعر بحلقه ينقبضُ، أراد العودة إلى أرضية الزنزانةِ الأسمنتية الباردة. انتظر الضابطُ إجابته.

«أنت لستَ من تركيا»، قال الضابطُ ببساطةٍ حين رأى سليم يتململُ في جلسته.. «أنا أسألك مرةً أخرى. من أين أنت؟» ينطق كلماته بحرصٍ لئلا يدع مجالًا للخطأ في السؤال أو في أهميته.

استسلم سليم.

«أفغانستان».

«أه. أفغانستان. كيفَ جئتَ إلى هنا؟»

«جئت من تركيا».

«بقارب؟»

هز سليم رأسه. «بل بطائرة».

«من دون جوازِ سفر؟»

«لديَّ جوازُ سفر لكن صديقي... أخذه».

«منذ متى وأنتَ هنا؟»

«منذ أسبوع». كذبَ لخوفه، مما يفهمه، كلما طالت فترة بقائه بشكلٍ غير قانوني في اليونان، سيزدادُ غضب هذا الرجل.

«أتريد البقاء في اليونان؟»

هزّ سليم رأسه نفيًا.

«أين تريد أن تذهب؟»

«إلى إنجلترا».

«إنجلترا». فكّر الضابطُ في إجابة سليم تلك قبل أن يطرحَ السؤال التالي.

«كم عمرك؟»

«خمسة عشر»، قال سليم. إن اعترف بكونه في السابعة عشر، لن يُعتَبر قاصرًا وقد يعيدونه إلى أفغانستان.

«خمسة عشر؟» لم يُصدّق الضابطُ المدخّن هذه الإجابة كما لم يصدق الإجابات الأخرى.

«نعم».

فكّر سليم في الظلام الذي تركوه خلفَهم في كابول، أقنع نفسه أن أقسى الضباط قد يشفقُ على قاصرٍ وحيد. خرج الضابطُ من الغرفة وعاد بعلبة شراب بنكهةِ البرتقال، النوع الذي يفضله الأطفالُ في جميع أنحاء العالم، نزع السدادةَ ودفع العلبة على الطاولة نحو سليم، ثم أشعلَ لنفسه سيجارة.

«إن موقفكَ سيّئ»، قال ببساطة، راقب سليم وجهه، لا جدال في هذه الحقيقة. واصل الضابط «وإن لم تخبرْنا بالحقيقة، سيزدادُ موقفك سوءًا».

فيما عدا أسرته، ليس لديهِ شيء ليخسرَه، منهكٌ ويائس، ميّز سليم لينًا طفيفًا في صوت الضابط، نبرة أبٍ يؤنّبُ ابنه. أخذ رشفةً طويلة من زجاجة البرتقال، شعَر بالفوران الدافئ يغلّفُ حلقه بحلاوةٍ مطمئنة. شعر بكتفيه ترتخيان مثلَ علبة المياه الغازية المنزوعة سدادتُها بهسيسٍ هادئ.

«سأخبرك الآن»، قال بضعف. «سأخبرك بقصّتي».

مال الضابط إلى الأمام في مقعده، سحبَ نفسًا عميقًا من سيجارته وأومأ برأسهِ فيما يعود سليم بذهنهِ إلى الليلة الأكثر سوادًا من أي جُرم.

سليم
33

«ابقَ هنا، الطبيبُ سيأتي الآن». راقب سليم المشدوه الضابطَ المدخّنَ يغادرُ الغرفة. طبيب؟ شعَر بالضباب يلفُّ ذهنه من ليلته بلا نوم، يصعبُ عليه التركيز.

بعد ذلك بساعةٍ دخل رجلٌ يرتدي قميصًا وبنطالًا، يعلّقُ معطفَ الطبيب الأبيض على ذراعهِ وحقيبةً جلدية داكنة في يده. كان بدينًا، أزرارُ قميصه على وشك الانفلات. وجهُه مستديرٌ وخدّاه متهدلانِ بيأس، بدا كشخصيةٍ من مسلسل كارتونٍ روسيّ شاهده سليم ذات مرةٍ في فيديو من السوق السوداء.

تمتم الطبيبُ بشيء ما وهو يدخل، وضع حقيبتَه ومعطفه الأبيضَ على الطاولة. أخرج من حقيبتهِ الجلديةِ سماعتَه الطبية، قلمًا ضوئيًا صغيرًا وقفازَين من المطاط. جلس على كرسي الضابط جيم وأشارَ إلى سليم أن يقتربَ منه. نهض سليم وسار إليه ببطء.

نظر إليه الطبيبُ نظرةً عامة ثم نهض ليبدأ فحصه. وجه الضوءَ إلى عينَيه الحمراوَين وفمه الجاف، أشار إليه أن يخلعَ قميصه، شمَّ سليم رائحةَ عرقه وهو يرفعُ ذراعَيه. لم يبدُ الطبيب منزعجًا، وضع سماعتَه على صدر سليم واستمعَ وهو يحدّقُ إلى الأرض بلا تعبير، فحص إبطَيه جيدًا قبل أن يعاودَ الجلوس على

كرسيه، نقر على حزام سليم وقال ببساطة «اخلع هذا». شعَر سليم بالدم يتدفقُ في وجهه.

«لا!» قال بلا تفكير، تراجع إلى الخلف خطواتٍ قليلةً ليدع الطاولة تفصلُ بينه وبين الطبيب.

تنهّدَ الطبيبُ بضجر قائلًا:

«اخلعه، يجبُ أن أفحصَك».. نظر إلى ساعته ثم إلى سليم بتوقّع. عقد سليمُ ذراعَيه، اقشَعرّ جلدُه بالغضب. انتظر الطبيبُ لبرهة، ينقرُ بأصابعه على الطاولة، سرعان ما احتدّ وجهه بجديةٍ وضيّقَ عينيه وهو ينظرُ إلى سليم.

«اخلعه».

حمل صوتُه رسالةً واضحة بأنه لا مَخرج من هذا، شعر سليم بأنه صغيرٌ ووحيد بشكلٍ لا يصدق، أخذ أنفاسًا قليلة بعمق قبل أن يطيعَ الأمر، عبثَتْ أصابعه بالأزرارِ والسحّاب بتوترٍ قبل أن يخفضَ حزام بنطاله إلى الأسفل حتى كاحلَيه. تدلّى سروالُه الداخلي الفضفاضُ على وركَيه، وهو يحدّقُ في السقف.

«اخلع هذا».. لمسَ الطبيبُ سروالَه التحتي من أعلى وهو يرتدي قفازَيه. شعر سليم بدفقة دمٍ حارة تسري في جسدِه كله. عن ماذا يبحثُ هذا الطبيب؟

كان تنفسه زفيرًا بطيئًا ومرًا، يجاهدُ لدفع الإهانة عنه في الهواء. أمسك سروالَه التحتيّ أسفل ركبتَيه. عدّل الطبيبُ نظاراته ونظر باهتمام إلى ما بين فخذي سليم، سحب من حقيبتهِ شريط قياسٍ ورقي، لم يقفْ سليم عاريًا أمام أحد منذ كان طفلًا صغيرًا، أراد جزءٌ منه أن يلكمَ الطبيب في نظارتهِ الفضولية في حين أراد

الجـزءُ الآخـر أن يتكـوّرَ فـي ركـنٍ ويبكـي. انتهـى الفحـصُ قبـل أن يفعل شيئًا.

«حسـنًا، انتهينـا». قـال الطبيـبُ وأشـار إليـه أن يرفـعَ سـرواله وبنطالَه الجينـز، فيمـا يخـطّ شيئًا فـي دفتـر صغيـر بحجـم كفّ يده. «ألَديـكَ أي مشـكلات صحيـة؟» سـأله وهـو يرتـدي ملابسـه.

«لا، لا مشكلات».

«وكـم عمـرك؟» عـاد السـؤالُ يطفـو علـى السـطح. خطـر لـه أن هـذا هـو سببُ الفحـص، مـا يفسّـرُ تركيـزه على مـا بيـن فخذَيـه، أكثـر مـا تغيـر فيـه خـلال السنوات القليلـة الماضيـة.

«خمسة عشر»، أجابَ بمكْر.

«همـف». سـكتَ الطبيـبُ ونظـر لوهلـةٍ فـي وجـه سـليم ثـم خـطّ ملحوظـاتٍ أخـرى، جمـع أدواتـهِ، حمـل معطفَـه الأبيـضَ وخـرج مـن الغرفـة ولـم يقـل شـيئًا آخـر.

وحيـد الآن، أخـذ سـليم يـذرعُ الخُطـى فـي الغرفـة، يزيـدُ إرهاقُـه مـن غضبـه، أطلـق صيحـةً قصيـرة ارتـدّتْ مـن جـدارٍ إلـى آخـرَ، ثـم أطلـق صيحـةً أخـرى، أطـول وأعلـى.

وضـع راحتَيـه وجبينَـه علـى الجـدار، شـعر بـه بـاردًا وحقيقيًـا، حقيقيًـا أكثـر مـن تفاصيـل موقفـه كافـة. وضـع راحتَـه اليمنـى علـى الجـدار مجـددًا، بقـوة أكبـر هـذه المـرة.

مـرارًا وتكـرارًا، أقـوَى وأقـوى، يلطـم براحتـهِ الحائـطَ البـارد فيمـا تُعـاد الأربـع والعشـرونَ سـاعةً الماضيـة فـي رأسـهِ: يُمسـكه الضابـطُ مـن مرفقـه وهـو يخـرجُ مـن محـلّ الرهونـات، دخـانُ السـجائر ينـدفـعُ فـي وجهـه، فحـصُ الطبيـب لأعضائـه التناسـليةِ باهتمـامٍ أشـدّ مـن

اهتمـام ضابـطِ الجمـارك بـأوراقِ سـفرهم، أمُّـه تنهـارُ فـي الفنـدق أو تبحـثُ عنـه فـي الشـوارع، سـميرة مرعوبـةٌ وصامتـة، أبـوه يراقـبُ ويهـزُّ رأسـه بإحبـاط، صـدرُ عزيـز الضئيـل يثقلـه ضيـقُ التنفـس. انفجـر كلُّ شـيء فـي رأسـهِ كقصـفٍ صاروخـي غزيـر، اسـتهدف رأسَـه وكتفيـه دون أن يمكنـه الفـرار لأي مـكانٍ أو فعـل أي شـيء.

كان يخبـطُ الحائـطَ بيديـه الاثنتَيـن، غاضبًـا وباكيًـا، فلـم يلحـظِ انفتـاحَ البـاب مـن خلفـه.

«هيـا! هيـا!» شـعرَ بيـدٍ تجذبـه مـن كتفه، كان الضابـطُ جيم، تتدلَّى سـيجارةٌ من شـفته السـفلى بشـكلٍ غير مستقر. «أأنتَ مجنون؟»

اسـتدار سـليم وانهـارَ علـى الأرض، أضعفـه التنفيسُ عـن غضبـه. لـم يـأكلْ منـذ ظهيـرة الأمـس، بـدا كأن الضابـط وسـليم قـد أدركا الأمـر فـي الوقـتِ نفسـه، غـادر الضابـطُ الغرفـةَ وعـاد بطبـق، قطـع قليلـة مـن الدجـاجِ المشـويِّ والخبـز الشـامي، ووضعـه علـى الطاولـة بفظاظـةٍ: «تنـاول شـيئًا».

تباطـأتْ أنفـاسُ سـليم. تحرّقـتْ راحتـاه ونبَضَتـا ألمًـا. عـاد إلـى الطاولـة مهزومًـا، أخـذ الطعـامَ ومضغـه قضمـةً تلـو الأخـرى، دون أن يتـذوقَ شـيئًا. حـدّق إلـى الطبـق، تـرك عينيـه تتغبشـانِ وعضلاتـه ترتخـي. راقبـه الضابـطُ كمـن يراقـبُ عيّنـةً فـي مرطبـان، تأسـرُ نظـرَ مراقبهـا.

أكل سـليم دون أن يرفـعَ بصـرَه أو يقـولَ شـيئًا، ربمـا حيـن تتوقـفُ معدتـه عـن التلـوي سـيمكنُه التفكيـرُ فـي طريقـةٍ للخـروج مـن هـذا المـأزق. ربمـا سـيمكنُه التفكيـر فـي طريقـةٍ ليعـودَ إلـى أمـه.

سليم
34

نظـر ضابطـان تركيّـانِ باشـمئزازٍ إلـى سـليم ولاجئيـنَ آخريـنَ. كان سـليم ودزينـةٌ مـن المهاجريـن غيـر الشـرعيين مـن أمثالـه قـد أعيدوا إلـى إزميـرَ علـى متـن قـاربٍ كالماشـية. لـم يكـن الضابطـان التركيـان مسـرورينَ بهـذا لكنهـا القوانيـن. ينبغـي إعـادةُ اللاجئيـن إلـى البلـد الـذي دخلـوا منـه، وعلـى ذلـك البلـد التعامـل معهـم. كان هـذا سـببَ سـخطٍ دائـمٍ بيـن الشـرطةِ التركيـةِ واليونانيـة. فـكان التسـليمُ مقتضبًـا.

راقـب سـليم الضبـاطَ اليونانييـن يغمـزونَ بأعينهـم وهـم يسـلّمون كومـةَ الأوراق ويكبّـون حمولتَهـم علـى الأراضـي التركيـة. تبـادل الجانبـان كلمـاتٍ قليلـةً لكـنّ مشـاعرَهما كانـت واضحـة.

ليسوا مشكلتَنا بعد الآن.. قالت وجوهُ الضباط اليونانيين.

شكرًا على لا شيء.. الردُّ الساخر لوجهَي الضابطَين التركيَّين.

أفرغـا غضبَهمـا علـى اللاجئيـن، أمسـكا أذرعَهـم ودفعاهـم إلـى شـاحنةٍ تنتظـرُ أمـام المينـاء. تخبطـت أقدامُهـم وأكتافهـم. توجـد نافـذةٌ صغيـرة فـي مؤخـرة الشـاحنةِ تبـذل وسـعَها لتهويـة المسـاحةِ المكتظـة بلاجئيـن ظلـوا فـي زنزانـةِ الحجـز اليونانـي أيامًـا وأسـابيع وشـهورًا.

كان سليمُ في كل خطوةٍ من طريقه يُقسم أنهم لو أطلقوا سراحَه سيغادر اليونان على الفور. غرقتْ توسلاتُه في بحر توسلاتٍ أخرى سمعتْها السلطاتُ سابقًا من مهاجرينَ آخرينَ كثيرين في أثناء ترحيلهم.

أراد أن يكونَ الاستثناءَ الذي يكسرُ القاعدة. أراد أن ينظرَ خلفه إلى تلك اللحظةِ ويرى كيف أوشكَ على ترحيله، إبعاده تمامًا عن أسرته. لكن كلّ شيء؛ المقعد الذي يجلسُ عليه، الروائح التي تحيطُ به، الأشخاص الذين يقفون أعلاه، كل هذا يخبرهُ بأنه لا يختلفُ بأدنى قدرٍ عن أيٍّ من الركاب القذرين من حوله.

كان أغلبهم أفارقةً. قليلون من أوروبا الشرقية (خمّن سليم من هيئتهم ولغتهم غير المألوفة)، وبعضهم من الأتراك حتى. لم يكن هناك أفغانٌ غيره، ما أشعرهُ بالوحدة والارتياحِ في آنٍ. لم يكن في مزاجٍ للتحدّث وهو يعرفُ أنه عديم النفع.

أين تظنُّني مادر جان الآن؟ هل يمكنُها العثور على محل الرهونات؟ ربما ذهبوا إلى محطةِ القطار لينتظروني هناك، ربما استقلّوا القطارَ حتى، على أمل أن أظهرَ، قد يكونون في أيّ مكانٍ الآن. مادر جان، لا بد أنكِ مذعورةٌ الآن! كيف سألقاك مجددًا؟ ماذا سأفعلُ وحدي؟

كان ذهنُه عاصفةً، قاطعت لحظات سلامٍ صواعقُ كهربيةٌ من الذعرِ وسيولٍ من الندم.

خيرٌ كثير جدًا.

لمس بأصابعِ ساعته. مضى يومانِ منذ القبض عليه.

ليتكَ تؤجّلُ محلَّ الرهوناتِ إلى الغد، يمكننا المرور به في طريقنا إلى محطةِ القطار، يمكننا الذهاب معًا.

إن اختبأنا في غرفةٍ كلما قلقنا لن نصلَ إلى إنجترا أبدًا مادر جان.

أطرق برأسه وذهنُه يعيد المحادثةَ للمرة الألف.

لماذا عارضتُها؟ أرجوك يا ربّي، لا تجعلْ هذه آخرَ محادثةٍ بيننا.

تذكر ليلتَه الأخيرةَ مع بادر جان. جمعَ ذكريات الندم معًا كحبات المسبحة.

كانت الرحلةُ طويلةً، شاقة. شعرَ براحةٍ وهم يدفعونه ليترجّلَ من الشاحنة نحو مبنى كئيبٍ آخر. أُدخلوا كلّهم إلى غرفةٍ كبيرة وحاول كلٌّ منهم إيجادَ موطئ قدمٍ له على أرضيتِها الأسمنتية.

اصطفّ مع الآخرين بحذاء جدارٍ من الطوب الرمادي. لمس كاحله، يتمنّى ألا يراه أحد، ما زالت لفة النقودِ هناك، حيث وضعها، دعا الله ألا يفتّشه أحد، لو صادروا نقوده، سيصيرُ بلا شيء حقًا.

مرت ساعات. يوجد مرحاضٌ في الركن حيث قضوا حاجتهم. يتحرق الهواءُ برائحة الأمونيا. أجهشَ رجلانِ بالبكاء، لم يعنيا بإخفاء وجهَيهما. فُقدت الكرامةُ منذ وقتٍ طويل مضى.

أغمض عينَيه. كانوا يُخرجونَهم من الغرفةِ واحدًا أو اثنين كل مرة ويقودونَهم إلى الغرفةِ المقابلة، بعضُهم يعود وآخرون لا يعودون. لم يعرف ماذا يرجو، حين أشار الحارسُ إليه تبعَه عبر الرواق، أمروه أن يجلسَ إلى طاولة صغيرة. نظر ضابطُ شرطةٍ إليه ثم إلى ورقةٍ على الطاولة.

تذكّر ما قلته في اليونان لتكونَ إجاباتك واحدة.

بدأ التحقيق. صار الأمرُ مألوفًا لديه.

من أين جئت؟ لماذا غادرت تركيا؟ ماذا كنت تفعل في اليونان؟ من كان معك؟ كم عمرك؟ الحقيقة... كم عمرك؟

أنا من أفغانستان، لا أريد اللجوء في تركيا أو في اليونان، أنا وحدي، عمري خمسة عشر عامًا.

أمكنه الإجابة على أغلب أسئلتِهم بالتركية، مع ملء الفراغات بالإنجليزية. بدا أن الضابط يتسلّى بهذا.

خمسة عشر؟ همف. السخريةُ المتشككة نفسها.. *لماذا تركت بلدك؟*

قرر أن يكون صريحًا معهم، بشكل انتقائي.

أريدُ الذهاب إلى إنجلترا، في بلدي يوجد طالبان، إنهم خطِرون، لم يكنْ لدينا مال، لا مدرسة، لا عمل، إنهم يقتلون الناس.

هل يفكّرون في إعادته؟ لا يمكن.. لن ينجوَ هناك وحده لو أعادوه.

هل أنت جندي؟

جندي؟ لا! كنتُ تلميذًا، كان أبي مهندسًا، أخذوا أبي و... وقتلوه.

انكسَر قلبُه لقوله هذا. بدوا مُرتابين. لقد عرّوه وأعادوه إلى هنا كالماشية وما زالوا يريدون المزيد.

لا تريد أن تكون في تركيا؟

هز رأسه نفيًا.

لكنك تتحدث التركية.

أومأ برأسه، لا يعرفُ هل يفيده هذا أم يضره.

هل تعرف أحدًا هنا في تركيا؟ هل عشتَ هنا؟

تلك أسئلة أكثر التفافًا. أخبرَ الضابطَ بأنه قابل بعض الفتيةِ لكنه لا يعرف مكانهم وأنه عاشَ في قريةٍ صغيرة وعمل في مزرعةٍ لكنه لا يتذكّر أين تلك القرية، لا يريد العودةَ إلى هناك، أكّد للضابط.

غادر الضابطُ ثم عاد برفقةِ آخر، وقفا خارج الغرفةِ يتحدثانِ بهدوء، لم يستطعْ سماعَ ما يقولانه ولم يتمكّن من الاستنباط من تعبيرات وجهَيهما المبهمة. هل أخطأ في إحدَى الإجابات؟ هل يظنانه يكذب؟ عن ماذا يتناقشان؟

آلمَه رأسه، سبّب له المزيجُ بين روائح عرقِ البشر والجوع ودخان السجائر صداعًا نابضًا. كان منهكًا وشعر بالكرسي يؤلم عظامه.

دخل الاثنان معًا.

يجب أن تغادر تركيا.

أومأ سليم برأسه.

لا تعُد إلى تركيا أبدًا، وإن ألقي القبضُ عليك في مكان آخر، لا تخبرْهم بأنك ذهبت إلى تركيا قط، لا تتحدث التركية، أنت تتحدث الإنجليزية قليلًا، يكفيك هذا.

لم يكن متأكدًا من معنى تحذيراتِهم، بدا أنهم سيعْصِبون عينَيه، ويديرونه مراتٍ عدة ويدفعون به نحوَ المجهول. هل

سيعيدونه إلى اليونان؟ إلى إيران؟ لم يسر الضابط تردده، ربما أخطأ فهمه.

اقترب منه خطوةً واسعة واحدة ولطمَه على صدغه.

تملّكَ سليم خوفٌ شديدٌ فجأة.

لو رأيناكَ في تركيا مرةً أخرى ستكونُ تجربةً مؤلمة.

لطمة أخرى. آلمتْه أذناه، أبقى رأسَه مطرقًا.

أتفهمُ ما أقوله؟ أنت تتحدثُ التركية، لا؟ لماذا لا تتحدث الآن؟

أفهم..استطاع أن ينطق أخيرًا.

أمسكَه الضابطُ من مرفقه وقاده بسرعةٍ عبر الأروقة وخارج باب.. تعثر سليمُ وهو يحاولُ ملاحقته.

لسع ضوءُ الشمس عينَيه. رفع يدَيه يظللهما تلقائيًا. شعر بلكمةٍ قوية في جانبه فسقط أرضًا. ركلة حذاء أخرى في الجانب الأيسر من قفصهِ الصدري وتراب يندفعُ في فمه.

ربما تكونُ في الخامسة عشرة من عمركَ حقًا. لكنك تسقطُ كفتى، ليسَ كرجل.

ضحك الضابط.

إياك أن نجدكَ في تركيا مجددًا، غادر ولا تعد.

نهض سليم ببطء وأومأ برأسِه. لقد أطلقوا سراحه. صفق الضابطُ الباب. سليم في الخارج. توقفَ، ظنّ للحظةٍ أنه فخٌ أو اختبارٌ ما. مرت لحظةٌ ولم ينفتح الباب، لم يأتِ أحد من المنعطف.

سار خطواتٍ قليلة بعيدًا عن المبنى. لم يحدث شيء. انطلق بدفقة من الأدرينالين في الركض على الفور. أمكنه الهرب، ركَض

في الشوارع الهادئة متخفيًا بجانب المباني، لا يعرف أين كان ولا إلى أين يذهب، لكنه يريدُ أن يبتعدَ عن قسم الشرطة قبل أن يغيروا رأيهم.

لهث وهو يمسكُ ركبتَيه بيدَيه. كان فمه جافًا وخشنًا وهو يحاول بصَقَ التراب الملتصقِ بلسانه. تقيأ عصارةً صفراءَ إلى جانب جدار. شعر بألم شديد في جانبه الأيسر، تنفس بعمقٍ وانتظرَ أن يهدأ.

لا صوتَ خطواتٍ خلفه، لا صوت ركضٍ ولا ضباط يلاحقونه. لن يبحثوا عنه لكنهم أوضحوا له أنه ينبغي ألا يجدوه، يجب أن يغادرَ هذه المدينة بأسرع ما يمكنه، لديه نقود. هل يمكنه العودةُ إلى اليونان من دون جوازِ سفر أو أي وثيقة؟

«ماذا أفعل مادر جان؟ أرجوك أخبريني ماذا أفعل!»

حاول أن يهدأ، شعر بأفكاره تدور بعيدًا عنه شيئًا فشيئًا.

ركّز، فكّر، يمكنك هذا.

هدأ تفكيرُه، سمع صوتَ أمه وفوضَى ذهنه تنحسرُ.

تناولْ شيئًا، وابحثْ عن مكانٍ آمنٍ للمبيت، ثم عد إلى اليونان.

نظر حوله. لا محلات ولا أكشاك. لا يوجد مارة ليسألهم. صار أحد فتية ميدان أتيكي الآن، خرج من قصّتِه ودخل قصتَهم، لم يعد لديه امتياز جوازِ السفر والأسرة، ليست لديه أساورُ لبيعها لكن لديه النقود التي ظل يخبئها. لاحقته الرحلاتُ التي سمع عنها في أتيكي من الناجين الذين قابلهم.

بدأ ضبابُ رأسه ينقشع، مسح فمَه بظهر يده.

لا بد أنني أبدو مزريًا.

سار في الشوارع يبحثُ عن المناطق المزدحمة وما يحتاج إليه؛ طعام ومأوى وطريقة للعودة إلى منغن.

منغن المكانُ الوحيد الذي يمكنه التفكير فيه. يمكنه هناك اللجوء إلى هاكان وسينام ليُساعداه في العثور على أمّه. أراحتْه فكرة العودة إلى بيتهِما مجددًا.

أمرُ الطعام سهلٌ إذ كان بائسًا ومرهقًا بما يكفي ليدفعَ مقابله. إنه بحاجةٍ إلى قوته ليواصل. عبس صاحبُ المحل باشمئزاز لكنه تقبل اليوروهات المبللة بالعرقِ التي سحبَها سليم من جوربه.

هدأ الخبزُ المحمصُ بالسمسم، أرخصُ ما استطاع شراءه، من غضبِ معدته. كان الوقتُ ظهرًا. شعر بأعين تنصب عليه وتخيل أصابع تشير إليه نحو طريقه. آلاف الطبولِ الصغيرة في ذهنه تتوسلُ إليه أن ينام.

وجد حمامًا عموميًا وغسلَ القذارة عن وجههِ ما أمكنه، كوّر الماءَ في كفَّيه وغسل جسدَه جزءًا تلو آخر، حرك ذراعَه اليسرى ببطء، جانبُه يؤلمه.

كان بعضُ فتية أتيكي قد تحدثوا عن رحلتِهم إلى اليونان، أخذ بعضُهم قواربَ صغيرةً يقودها مهرّبون. وتسلل آخرونَ في شاحناتٍ تنقلها السفن. كِلتا الطريقتين خطيرة. يعرفُ الجميع قصصًا عمّن تجمّدوا وغرقوا في المياه أو دُهسوا أسفلَ شاحنات النقل. لا يعرف حتى كيف سيجدُ مهرّبًا، الأفضلُ العودةُ إلى منغن، ليستعيدَ نفسه ويخططَ جيدًا.

كان اختيارًا مؤلمًا لكنه خرجَ من الحمّام بقلبٍ نصفِ عازم. سأل المارةَ وعثر على محطةِ الباص. سيغادرُ باصٌ إلى منغن خلال ست ساعات. اشترى تذكرتَه وانتظر.

سقط في النوم على همهمةِ محركِ الباص الهادئة، على الأقل لا توجدُ نقاط تفتيشٍ في الطريق إلى منغن، لا ضباط شرطة. يمكنه التحدثُ بلغةِ هذه البلدة قليلًا. يرتطم رأسه في المسند الخشن مع كلّ نتوءٍ في الطريق. حلمَ أنه على متن باصٍ مع مادر جان وسميرة وعزيز يجلسونَ في المقاعد المجاورة له. كانوا في طريقهم إلى منغن معًا، تحت مقاعدهم حافظة حليّ ذهبيةٍ مع بقية متاعهم.

كانت الرحلةُ أطولَ مما يتذكّرُ لكن منغن بدتْ كما هي ومُرحِّبة. رأى المسجدَ حيث اقتربَ من هاكان أولَ مرة، انتابه شعور جيد.

مر بالمحلّ الذي كان هو وكمال يسرقانِ منه السجائر والحلوَى للتسلية، كان ظهرُ البائع لشباكِ البيع وهو يرصّ علبَ الحلوى، دس سليم يدَه في جيبهِ وواصل سيره.

كان الوقت بداية المساء. رأى ضوء منزلِ هاكان وسينام من بعيد. أراد أن يركضَ إلى الباب وينهارَ على الشرفة لكنه لم يرغب في إقلاقهم. سار بخطواتٍ متمهلة، يفكرُ في ما سيقوله. تسارعتْ أنفاسُه، ارتعشتْ أصابعُه وهو يطرقُ الباب.

فتح هاكانَ الباب، جحظت عيناه حين رأى فتى بالكادِ تعرّفَ عليه.

«سليم!»

«مستر يلماز...» قال سليم، «ليس لديّ مكانٌ آخر لأذهب إليه...»

«ادخل، ادخل!» مدّ هاكان عنقه نحو الشارع، «ماذا عن...؟»

«إنهم ليسوا معي». أوضح سليم.

زمَّ هـاكان شـفتَيه وقـاد سـليم إلـى المطبـخ، صـاح ينـادي سـينام التـي ذُهلتْ أكثـر لرؤيـة سـليم. ألقـت بذراعَيهـا حولـه. أغمـض عينَيـه. شـعر بارتيـاحٍ للوجـود بينهمـا لكنـه تذكـر قذارتـه، كاد أن يدفعهـا عنـه مـن أجلهـا هـي. تركتـه لتعـد شـايًا سـاخنًا وتسـخّن بعـض الطعـام، جلس هـاكان وسـليم إلـى مائـدة المطبـخ.

«أين أمُّك العزيزة؟ وأخواك؟ أهم بخير؟»

«لا أعـرفُ، ظنـي أنهـم بخيـر لكننـي لا أعـرف، ربمـا اسـتقلوا القطـارَ أو ظلـوا ينتظروننـي فـي اليونـان لكننـي لا أعـرفُ كيـف أعـود إلـى هنـاك».

كانـت ردودُه متقطعـةً ومحيـرة، وبـدا منهـكًا كمـا يشـعر. تبـادل هـاكان وسـينام نظـراتِ اهتمـام.

«تنـاولْ شـيئًا مـا بنـيَّ العزيـز، تبـدو كأنـك لـم تـأكلْ منـذ أيـام!» اعتنـت بـه سـينام فيمـا يحـاولُ هـاكان أن يفهـمَ منـه مـاذا حـدث منـذ أن غـادروا منفـن.

«لقد ركبتم السفينةَ إلى أثينا، جميعكم؟ أين مكثتم؟»

كان سـليم مرهقًـا جـدًا لينتقـي مـا سـيخبرهُما بـه، حكـى لهُمـا عـن الفنـدقِ الأول ثـم عـن الأفغـان الذيـن قابلهـم فـي ميـدان أتيكـي. عـن قرارهـم تـرْكَ الفنـدق وادخـار يوروهـاتِهـم لسـفرهم وعـن الليالـي البـاردة التـي قضوهـا فـي الملعـب.

انكمشـتْ سـينام لسـماعِه يحكـي عـن فريبـا والطفلَيـن الصغيـرَين ينامـانِ تحـت المطـر البـارد. واصـل سـليم، تحـدثَ عـن الفنـدق الأصفـرِ وتذاكـرِ القطـار التـي اشـتروها. ثـم وصـل إلـى محـلّ الرهونـاتِ والشـرطة. بـدأ صوتُـه يختنـق. وضعـت سـينامُ يدَهـا فـوق

يده. قسمُ الشرطة في اليونان، قسمُ الشرطة في تركيا ثم المكانُ الوحيدُ الذي يمكنه التفكير في الذهاب إليه، بيت آل يلماز في منغن. شعَر في تلك اللحظات، على نحوٍ غريب، بهاكان وسينام أقربَ إليه من جميع خالاتهِ وأخوالهِ. إن عرفت مادر جان أنه معَهما، سيريحُها ذلك كثيرًا.

مال هاكان إلى الخلف في كرسيّه. كوالدين، فكّر هاكان وسينام في الفكرة نفسها، الحلُّ الوحيد أن يتّصلوا بالفندق الأصفر لكنّ سليم ليس معه رقمُ الهاتف.

«ربما وجدْنا الرقم لكننا سنحتاجُ إلى كمبيوتر»، قال هاكان.

«كمبيوتر؟ أسرةُ كمال! لديهم كمبيوتر!»

«سليم، لقد انتقلتْ أسرةُ كمال من هنا بعد ذلك الزفاف، ذهبوا، لكنّ لدي صديقٌ آخرُ بالقرب من هنا ربما يستطيع المساعدة. سأذهبُ إلى بيته لأرى إن كانَ بإمكانه إيجادُ شيء ما. لكن أولًا، أخبرني بكل ما تتذكرُه عن هذا الفندق».

كتب سليم اسمَ الفندق واسمَ الشارع بأفضل ما أمكنه تذكّرهما. غادر هاكان للبحثِ عن رقم هاتف الفندق، وحضّرتْ سينام لسليم حمامًا كان في حاجة ماسة إليه.

هدّأ الماءُ الدافئ من توتّر رقبتِه لكنه لم يُهدئ ذهنه. لا يمكنه البقاءُ هنا إلى الأبد، عليه العودةُ إلى اليونان.

ارتدى الملابسَ التي وضعتها له سينام، بنطالًا وقميصًا صغُرا على ابنَيها من قبل فتركاهُما. عاد هاكان بأخبارٍ جيدة. استطاع الوصولَ إلى رقم هاتف الفندقِ عن طريق الإنترنت. كان سليم على وشكِ السقوط في النوم على أريكتِهما لكنه استيقظ مسرورًا فجأة.

«يجبُ أن أتصل! يجب أن أتصلَ بهم الآن! ربما كانوا هناك!»

«أعرف»، ابتسمَ هاكان لكنه بدا مترددًا. «لدي بطاقة اتصال، يمكننا محاولةُ الاتصال الآن لكن... لكن سليم، تذكّر أنه من المحتمل أن يكونوا قد غادروا بالقطار، قد لا يكونون هناك وهذا ليس سيئًا».

أومأ سليم برأسه. كان سعيدًا أنه لن يتّصل بنفسه، سواء وصل إليهم أم لا، سيكونُ بحاجةٍ إلى شخصٍ ما بجانبه حين ينهي الاتصال.

قرأ هاكان التعليماتِ على ظهر البطاقةِ وضغط الأرقامَ حتى أجرى الاتصال أخيرًا. ناول سليم السماعةَ، الذي ابيضّت مفاصلُ أصابعهِ وهو يستمعُ إلى رنين الجرسِ على الطرف الآخر.

تكة.. نحنحة تليها غمغمة ما.

ميز سليم صوتَ الرجل العجوز.

«أرجوك! أريد أن أتحدثَ إلى أمّي، هل أمي موجودة؟» كانت كلماتُه مزيجًا من الإنجليزية والتركية والفارسية. انفصال عاطفي بين أفكاره ولسانه.

«من المتحدث؟» سأل الصوتُ بحيرةٍ وشك. وضع هاكان يده على مرفق سليم، تحدثْ ببطء، أشار إليه. أخذ سليم نفسًا عميقًا وركّز ليتحدثَ بالإنجليزية.

«من فضلك، أنا اسمي سليم، كنتُ أقيم في الفندق مع أمّي، أريد أن أتحدثَ معها، إنها هناك مع أخي وأختي!»

«آه، الفتى! إن أمك تبحثُ عنك، إنها في الغرفة، ربما يمكنك الاتصال لاحقًا، أنا الآن مشغول».

«لا، أرجوك، لن أستطيع. أمي، يجبُ أن أتحدثَ معها الآن!» ميز العجوزُ اليأسَ في صوت سليم.

«حسنًا، حسنًا»، غمغم بشيء ما باليونانية لم يفهمْه سليم.

كان الصمت طويلًا. راقب هاكان وسينام وجهَ سليم بقلق.

جاء صوت فريبا متقطعًا عبر الهاتف، قفز سليم على قدَميه، كحيوانٍ مربوط، ابتعدَ بقدر ما سمح له سلك الهاتف.

«سليم؟ سليم، باجم؟» قالتْ بصوتٍ مرتعش.

«نعم، مادر جان»، قال. «هذا أنا».

«باجم، أين أنتَ؟ أوه، الحمدُ لله! كنتُ قلقة بشدة!»

«أنا في منغن، مادر جان، مع كاكَه هاكان وخالة جان. قبضتِ الشرطة عليّ وأعادتْني إلى تركيا».

«الشرطة؟ أوه يا الله، أنتَ في تركيا!» تسارع ذهنُها ليستوعبَ عواقب الخبر. «أأنت بخير؟ هل تأذيت؟»

«أنا بخير، مادر جان. سأجدُ طريقةً للعودة إلى اليونان لكنني لا أعرفُ متى».

لم يكن عليهما اتخاذ القرارِ المؤلم بقدر ما كان القرارُ المؤلم قد اتُخِذ لهما بالفعل. تحدث سليم أولًا.

«مادر جان، لديكِ جوازاتِ السفر وتذاكر القطار. خذي سميرة وعزيز وتوجهوا إلى إنجلترا بأسرعِ ما يمكنك. سيكون عليَّ أن أجد طريقةً للعودة لكن هذا لن يكون قريبًا لأن أوراقي ليست معي. لكن إن انتظرتموني قد تسوءُ حالة عزيز».

«يمكنني إرسال جواز السفر إليكَ بالبريد، يمكنني إرساله إلى عنوان سينام جان». كان صوتُ مادر جان محملًا بالذنب. «لكن

سليم جان، ماذا عن النقود؟ هل أخذتِ الشرطة كلّ شيء منك؟»

«لا، معي النقودُ من محلّ الرهونات، إن أرسلتِ إليّ جواز السفر سآخذ المسار نفسَه من هنا مرة أخرى وقبل أن تلاحظي سأكونُ في إنجلترا». أراد بجزءٍ منه أن تقول لا، أن تخبره بأنهم سينتظرونه في اليونان ليذهبوا إلى إنجلترا معًا. بالطبع أرادت أن تنتظره لكنهم عليهم التفكير في قلب عزيز الضعيف.

«أوه بني، ليحفظك الله من كلّ سوء. سليم جان، أخبرني بعنوانِهما، سأرسل إليك جواز السفر بالبريد. إن صديقتك، روكشانا، جاءتْ إلى محطة القطار، رأتْنا وعرفتنا، إنها عطوفةٌ جدًا وقالت إنها ستعود مجددًا إلى هنا اليوم، يمكنها مساعدتي في إرسال جوازِ السفر إليك».

هل قابلتِ مادر جان روكسانا؟ عاد يجلسُ على المقعد وأراحَ جبينَه على يده، رأسه مطرق، أغمضَ عينَيه وترك الشعور بالامتنان يغمرُه.

شكرا لكِ، روكسانا، شكرًا لكِ.

نقر هاكان على ساعته، سينفدُ رصيدُ بطاقة الاتصال سريعًا.

«مادر جان، ليس لديَّ المزيدُ من الوقت على هذه البطاقة». استدار إلى هاكان وسأله عن العنوان. ردده على مسْمعِ مادر جان بسرعةٍ وهاكان يكتبه على ورقة.

«سليم جان، باجم، سأرسلُ إليك تذكرةَ القطار وجوازَ السفر. سامحني بنيّ، سنستقلُّ نحن القطار، ربما غدًا، عزيز بحاجةٍ إلى طبيب. لكن أنت انتبه لنفسكَ جيدًا، أرجوك! صلِّ لله في كل خطواتك وأبْقِ عينيكَ مفتوحتَينِ حبيب قلبي، صدقْني كان بودّي أن...»

انقطع الاتصال.. وضع سليمُ السماعةَ. بانقطاع صوتُ أمه تغيرتْ رحلته، صار وحدَه الآن، ستكون الليلةُ أولَ ليلةٍ يمكنُ فيها لأسرة حيدري أن تنامَ بهدوء نسبي، وهم يعرفون مكانَ كلِّ فردٍ منهم وأنهم بخير. قابلتْ روكسانا أسرته وسوفَ تكونُ معهم في الخطواتِ القليلة المتبقية. تشعرُ فريبا بالراحة لعلمِها أن سليم عند سينامُ وهاكان. الليلة، إن استطاعوا ألّا يفكّروا في الغد، سينالون جميعًا قسطًا من الراحة.

زحف إلى مرتبتهِ المألوفة وسقطَ في النوم خلالَ ثوانٍ.

استيقظ في الصباح، نظر إلى شقوقِ الجدار التي ظلَّ ينظرُ إليها عدة أشهر، سار بنظرهِ مع خطوط الصدع، حيثُ تساقطَ الطلاءُ وبدا السقفُ عاريًا. مرّر أصابعَه في شعره، ثم أسفل ذراعيه. لمس جانبَه وطرفَ بعينهِ ألمًا حين لمسَ ضلوعه، كان يلمسُ الشقوق المشابهة في جسدِه هو، حيث بدأ حمْله يشققُه ويعرّيه.

تساءل كم لبث نائمًا. انثال ضوءُ الصباح الباكر من الستائر القطنية الرقيقة. انقشع ضباب ذهنه، ظل نائمًا لأكثر من نصفِ يوم واستيقظ بذهنٍ صافٍ.

سينتظرُ وصولَ جواز سفرهِ بالبريد، قد يستغرقُ هذا أسبوعين بلا دخل. لا يوجدُ سوى شيء واحدٍ لفعله، نهضَ وزرّر قميصَه. سيعودُ إلى المزرعة!.

بصقَ مستر بولات وابتسمَ بخبثٍ لكنه كان بحاجةٍ إلى المساعدة. أشار بيدهِ له أن يتوجّه إلى الحقلِ ويبدأ العمل.

قهقهتِ المـرأةُ الأرمنيـة حيـن رأتـهُ كأنها كانـت تعـرفُ أنـه سـيعود. هـزّت رأسـها وواصلتْ عملها وهـي تغمغمُ بشـيءٍ مـا مـن بين أسـنانِها لـم يكـن ليفهمَـه حتـى ولـو صاحـتْ بـه لأعلـى نحـو السـماء.

مع ذلك فهمه.

مـا جـدوَى كلّ هـذا؟ حزمـتَ حقائبـك وركبـتَ السـفينة ودعـوتَ الله بمـاذا؟ لـم يتغيـرّ شـيءٌ لأن لا شـيءَ يتغيـر، حاولـتَ التحـررَ مـن تلـك النباتـات لكنهـا سـتنمو لتضيّـقَ عليـك الخنـاقَ مجـددًا.

لـم يقـل لهـا شـيئًا لكنـه وقـفَ للحظـةٍ وظهـره للشـمس، ظلُّـه مكتنـزٌ وشـجاعٌ بيـن صفـوف نباتـاتِ الطماطـم. كانـت مخطئـة، لقـد تغيـر كل شـيء منـذ أن كانَ هنـا آخـرَ مـرة. صـار لاجئًـا حقيقيًـا الآن لكنـه لاجئ رأى المحيـط. سـمع صـوتَ موجـه وشـمّ رائحـةَ هوائـه المالـح. غيرتـه كل خطـوة فـي الرحلـة وعدلتـه علـى نحـوٍ لا رجعـةَ فيـه. لقـد عبـر المحيـط مـرةً وسـيعبرُه مجـددًا، ليـس برفقـة أسـرته وإنمـا برفقـةِ الطفـرات الضئيلـةِ فـي كينونتـهِ التـي تمنحُـه القـوةَ ليفعلَهـا وحـده.

فريبا
35

أدعو الله ألا تواجهَ أيُّ أمٍّ الخيارَ الذي كان عليَّ مواجهته. لا شيء أصعب منه.

أشعرُ بذنبٍ ثقيلٍ جدًا يستنزفُ كل طاقتي لأضعَ قدمًا أمام الأخرى وأواصلَ مسيرتي.

كيف عاد سليمُ إلى منفن، لن أعرفَ حتى أراه مجددًا. لم يكن لي أن أتركَه يغادرُ غرفة الفندق تلك أبدًا. كان عليَّ أن أتصرفَ كأمّ وأرفعَ صوتي وأتمسكَ برأيي. اقشعر جلدي ذلك اليوم حينَ تحدثَ عن ذهابهِ إلى السوق. أيوجدُ ذنبٌ قد تقترفه أمٌّ أكبر من تجاهلِ حدسها؟ لقد نحيتُ حدسي جانبًا لأنني أردتُ منحَه مجالَه الذي يريده، المجالَ الذي كان أبوه يرى أنهُ يحتاجُ إليه ليصيرَ رجلًا.

لم يكنْ محمود محقًا دائمًا. يمكنني رؤية ذلك من هنا، بوضوحٍ كالسماء الصافيةِ الزاهية. كان يتخذُ القراراتِ بعقلِه، يدافعُ عمّا يؤمنُ بأنه الصوابُ والمنطقيُّ والمعقول، كلُّ تلك المفاهيم المثاليةِ التي خذلتنا. كابول ليست المكانَ المناسبَ للتفكير العقلاني، كنتُ أعرفُ هذا، أخبرتُه به، كان علينا الرحيلُ قبل وقتٍ طويل، كان علينا اللحاقُ بأخواتي إلى الأماكن الأكثر أمانًا حين كان عددُنا كاملًا. تركتُه يُسقِط حدسي، فأدرْنا ظهرَينا لنُذُر الله.

كُرهُه، مع ذلك، يُعدُّ إحدى درجات الكفر.

مع أنه ليسَ هنا، لكنني لا أستطيعُ تغيير محادثةٍ دارت بيننا. لا يمكنني تغيير مسارٍ اتخذناه معًا. وقفتُ بجانبهِ لأنني كنتُ أحبّه وأثقُ به وأحترمُ القرارَ الذي نتوصلُ إليه معًا. جذبتْ طيبةُ قلبه، الرحيقُ الذي يفرزُه للعالم، نحلةً، ثم اثنتَين، ثم جاء السربُ كله ليحيطَ به بطَنينٍ، حتى حانت اللحظةُ وأطلقت جميعًا سمَّها. حتى بعد مماتهِ، ما زال بإمكاني سماعُ الطنين، يحومُ حول أسرتي.

لكنْ، هذا كان قراري، أنا من تركتُ سليم، ابني البِكْر، يخرجُ من البابِ إلى العالم القاسي والآن أبكي لأنه لم يعدْ. أنا الأم التي أقسمتُ ألا أكونَها أبدًا.

لديّ أعذار. عزيز يبدو في حالة مُزرية. لا يزدادُ وزنه ويبدو الإجهادُ على وجههِ الشاحب، الأوردةُ الزرقاءُ الضئيلةُ في جبينه، فقراتُ ظهره التي تبدو كخرزاتٍ في خيط، يجب أن أعرضَه على طبيبٍ إن أردتُ أن يعيش ليرَى أخاه مجددًا. وزنهُ خفيفٌ جدًّا بين ذراعَي، طفلي الأخير الذي سأحملُه أطول فترةٍ ممكنة، لأنه سيجعلُني أمًّا لهذه الفترة. حين يستيقظُ أراقبُ حركاته، أرى فيه سليم أيضًا. يشبه أخاه الأكبرَ كثيرًا، عنيدٌ ومثابر. كلٌّ منهما يكافحُ بطريقتهِ الخاصة لكن سليم يمكنُه الوقوف على قدمَيه. أخبرني صوته، آمنًا في بيت هاكان وسينام، أنه يستطيعُ إيجاد طريقه.

اتخذتُ القرار. استقلّنا القطارَ من أثينا. أكان بوسعي فعلُ أيّ شيءٍ آخر؟ كنتُ كذلك. لكن حدسي أخبرني بأنّ عزيز لن يمكنه. سامحْني، سليم، لكننا لا نستطيعُ انتظارَك. علينا من أجلِ أخيك، أخوكَ الذي أعرفُ أنك غاضبٌ منه وتعشقه، أن نمضيَ قدمًا.

لا شـيء أسـوأُ مـن الاختيـار بيـن طفلَيـن، إن خُيِّـرتُ بيـن ذراعـيَّ اليمنـى أو اليسـرى سـأختار ذراعًـا. لكـن إن خُيِّـرتُ بيـن اثنَيـن مـن أطفالـي سيتَمزّقُ قلبـي إلـى آلاف القطـع. الأطفـالُ متّصلون بالجنـة، كلُّ نفـسٍ لهـم، كلّ ضحكـةٍ، كلّ لمسـةٍ، بمثابـة رشـفةِ مـاءٍ لرحّـالٍ فـي الصحـراء. لـم أكـن أعـرفُ هـذا وأنـا طفلـة، لكننـي عرفتُـه كأم، حقيقـة تعلمْتُهـا وأنـا أشـعرُ بقلبـي ينمـو ويتمايـلُ ويرقـصُ وينكسـرُ لـكلّ طفـلٍ مـن أطفالـي.

راقبتْنـي سميرة بصمت، لـم تعـد فتـاةً صغيـرة، بـدا علـى جسـدِها الانحنـاءاتُ الرقيقـة لشـابة. الحمـد لله، تبـدو أكثـرَ حكمـةً منـي حيـن كنـتُ فـي سـنّها. كنـتُ سـاذجةً، أتذكّـرُ كيـف كنـتُ أصـدّقُ النـاس؛ الفتـى فـي البسـتان وكوكوكل. ظنـي أن ابنتـي صامتـةٌ لأنهـا تعـرفُ أن الـكلام لا يعنـي شـيئًا، لا يحقـقُ شـيئًا. ظلـت رابطـةَ الجـأش كامـرأةٍ كبيـرةٍ منـذ أن غادرنـا كابـول. اعتنـتْ بأخيهـا الصغيـر بقـدر مـا اعتينـتُ بـه، ظلـتْ تهدهـدُه فـي أثنـاء نوبـات الارتعـاش والتعـرّق، تحايلُـه بصبـر لتُطعمَـه حيـن يدفـعُ بالطعـام بعيـدًا عنـه، وتحمـلُ حقائبنـا بـدلًا منـي حيـن لا أسـتطيع. كان ذلـك أكثـر بكثيـر مـن أي كلمـاتٍ قـد تنطـق بهـا رغـم اشـتياقي إلـى سـماع صوتهـا، وأكثـر مـن كل شـيء، إلـى سـماع ضحكتِهـا.

إنهـا تفتقـدُ سـليم، تشـعرُ بالنقـصِ فـي غيابـه ولـن تتحـدثَ حتـى يعـود، حتـى تسـتعيدَ شـيئًا مـن عالـم ظـلَّ يسـلبُها مـا لديهـا فقـط. قلبهـا كمـرآةٍ لقلبـي ومـن أجلِهـا فقـط يمكنُنـي حبـسُ دموعـي. لقـد نالنـي مـا يكفـي مـن الخـوفِ والقلـق والفقـدان. سـئمتُ الشـعورَ بالحصـار. أسـتيقظُ كل صبـاحٍ لأجـدَ أن لا شـيء تغيّـر، فأشـعرُ بأننـي انتهيـت.

لـولا أطفالـي لكنـتُ قـد انتهيـتُ بالفعـل. مـن أجلهـم، لا يمكننـي الانتهـاءُ بعـد.

قـد أجـد سـليم مـرةً أخـرى. قـد أعانقُـه وأسـمع صوتَـه وأراه بيننـا مجـددًا. حتـى وإن حالفنـي الحـظُّ لأفعـلَ هـذا، لـن أعـود الشـخص نفسـه، سـأظلُّ دائمًـا الأمَّ التـي تركـتِ ابنَهـا ومضَـتْ. هـذه جحيمـي التـي أعيـشُ فيهـا الآن وسـأبقى فيهـا إلـى الأبـد.

خـرج القطـارُ مـن المحطـةِ، نحـن فـي طريقنـا إلـى إيطاليـا، ينظـر النـاسُ إلينـا لكـن تذاكرَنـا لا ريـب فيهـا، وكذلـك أوراقَنـا، حالفنـا الحـظ حتـى الآن. ظـلَّ اللّٰه معنـا.

تُحـدقُ سـميرة إلـى الخـارج مـن النافـذة، يرتـاحُ رأسُ عزيـز إلـى جانبهـا. تفكّـر فـي أخيهـا، بـلا شـك، وتتسـاءلُ إن كانـت أمُّهـا قـد اتخـذت القـرارَ السـليم. لا أسـتطيعُ شـرحَ الأمـر لهـا. إذ تصعـبُ صياغتُـه فـي كلمـات.

سليم

36

ظلَّ سليم كلَّ يوم يعودُ إلى البيت بسرعةٍ ليرى إن كان جوازُ السفر والتذكرةُ قد وصلا أم لا. بعد أسبوعٍ من عودته إلى منغن، اقترب من هاكان بخجلٍ شديد وقدّم له ورقاتٍ نقديةً قليلة مقابلَ إقامته. هزّ هاكان رأسَه وأخبره بألا يذكرَ أمرَ النقود مجددًا. عض سليم شفتَيه وأومأ برأسه إيماءةَ شكرٍ عاجزةً لكنها مفهومة.

مرت عشرةُ أيام ولم يصلْه شيء من أمّه. ساء مزاجُه أكثر حين لاحظت إكين عودتَه. كانت تقفُ خلف المنزل تتظاهرُ بالقراءة أو العناية بالأعشاب التي تزرعُها أمُّها خلف مطبخها. تبذلُ جهدًا لتظلَّ مرئية، تراقبُ سليم من زاوية عينها. كانت تقولُ أشياء لا يريدُ سليم سماعَها.

«أين ذهبتَ؟ ظل أبي يسبُّ مدة يومَين حين لم تأتِ، أنت محظوظٌ لأنه سمحَ لك بالعملِ مجددًا».

كان بولات من وقتٍ إلى آخر يأمرُها بالعودةِ إلى المنزل لكنهُ لم ينتبه لاهتمامِها بسليم. كانت محادثاتُهما غيرُ متوازنة. هي تتحدثُ وهو يستمع، يخشى قولَ شيءٍ قد تسيءُ فهمَه. يعضُّ لسانه وهي تتحدثُ عن المدرسةِ والراديو وأشياءَ لا يمكنُه معرفتها.

مـر سـتةَ عشـر يومًـا ومـا زال جـوازُ سـفره لـم يصـل. كان ينـامُ بصعوبـةٍ. اتصـل هـاكان بالفنـدقِ مجـددًا فأخبـره المالـكَ بـأن الأسـرةَ قـد غـادرتْ منـذ وقـتٍ طويـل. تمنّـى سـليم أن يكونـوا قـد اسـتقلّوا القطـارَ بنجـاحٍ، وغالبًـا بمسـاعدة روكسـانا. ربمـا وصلـوا إلـى إنجلتـرا الآن رغـم أنـه لا يعلـمُ شيئًـا عـن خطـةِ مـادر جـان للسـفر مـن إيطاليـا إلـى إنجلتـرا.

كان جـوازُ السـفر سببًـا آخـر للقلـق، لا يعـرفُ إن كان قـد فُقِـد فـي البريـد أم صـادروهُ أم أنهـم أخطـؤوا كتابـةَ العنـوان. سـينتظر. فذلـك الدفتـرُ الصغيـر الثميـن، بصـورةٍ فوتوغرافيـة لوجهـهِ مُتجهمًـا وتاريـخ الميـلاد المختَـرع، هـو سـبيلُه الوحيـدُ لتجنـب شِـراك المـوتِ التـي تحـدّثَ عنهـا فتيـةُ أتيكـي. تذكّـر المهربَيـنِ الفظّيـنِ اللذَيـنِ عبـرا بهـم الحـدودَ إلـى إيـران. سَـمِع أن المهـربَ قـد يبيـع أمَّـه مقابـلَ المزيـدِ مـن المـال وقصصًـا أسـوأ مـن ذلـك مـن آخريـن. العالـمُ السـفليُّ بـلا قوانيـن ولا أخلاقيـاتٍ ولا شـبكات أمـان. البعـضُ يمـرُّ منـه بنجـاح. وآخـرونَ يفشـلون تمامًـا. لا أحـد يعـرفُ شيئًـا عمّـا يحـدث حقًـا فـي العالـم المُظلـم للتهريـب خلـف القصـصِ الطافيـةِ علـى السـطح.

ذات ظهيـرةِ أحـد أيـام الاثنيـن، سـارت إكيـن ببطـء خلـف المنـزلِ حيـث كان سـليمُ يقلّـبُ التربـة لبـذورٍ جديـدة ويتسـاءلُ عمّـا سـيفعله إن لـم يصـلْ جـوازُ السـفر فـي نهايـةِ الأسـبوع.

«كلّمـا رأيتـكَ، أجـدك غارقًـا فـي الطيـن حتـى ركبتَيـك، أراهـنُ أنـك فـي المسـاء حيـن تسـتحمُّ يسـيل منـك المـاءُ أسـود». قالـت بابتسـامة.

أبقـى رأسـه منخفضًـا وضـربَ الفـأس فـي الأرض بقـوة. لـم تعـرفْ لمـاذا لـم يضحـك.

«أنت لا تتحدثُ كثيرًا، لا أعرفُ لماذا أنتَ هادئ هكذا، أكنتَ تعملُ في مزرعةٍ في بلدك؟ لقد عشتُ في هذه المزرعة طوال حياتي لكنني أراهن أنكَ تقطف طماطمَ في اليوم أكثر مما قطفتُ أنا طوال حياتي».

لو كان في حالةٍ مزاجيةٍ مختلفة لأدركَ أن بعضَ ما قالته تقصدُ به الإطراء. لكنه شعر بكلامها يحكه كورقِ الصنفرة.

كانت ترتدي بلوزةً وتنورةً بكُسَرٍ تصلُ إلى سمانتَيها. مالت إلى قضبان السور وبدأتْ تلعب بطرفِ جوربَيها، تشدّ واحدًا إلى ركبتِها ثم الآخر. فكّر في روكسانا. فتاتانِ مختلفتان.

«هل تعملُ أمكَ أيضًا؟»

«لا».

«وماذا عن أبيكَ؟» قالت تستفزه. قبضتْ أصابعُه على يد الفأس بقوةٍ عصبية. هزّ رأسه.

«لديّ عملٌ لأنجزه»، قال بكلماتٍ تتمددُ بشدةٍ على وشك الانفجار. لم تنتبه إكين لشيء.

«أعرفُ، أنت عاملٌ جيد ولهذا سمحَ لك بابا بالعودة، قال إنك على الأقلّ لستَ كالآخرين». قالت وهي تواري فمَها بيدها. «سمعتُ أن بعضَ المهاجرينَ يجلبونَ مخدراتٍ معهم، يقول بابا إنها تصيبُ الكثيرَ منهم بالكسل والخمول».

«إكين، دعيني وشأني! أنا أعمل!» صاح فيها. لم يعدْ يحتملُ جملةً واحدة أخرى منها. سقطَ فكُّها.

«ليس لك أن تأمرَني بالعودةِ إلى البيت»، قالت تعتدلُ في وقفتها.

«أنتِ لا تعرفينَ شيئًا عن أسرتي أو عن سبب اضطراري إلى العمل هنا في هذه المزرعة، وقد سئمتُ من الاستماع لكِ!»

«أنا أعرفُ أكثرَ منك!» صاحت بدفاعية، «أنتَ لا تعرفُ كيف تتحدثُ مع أحدٍ يحاولُ أن يكونَ صديقك. لا تعرفُ سوى الطماطمِ وروث الحيوانات! على الأقل أنا أذهبُ إلى المدرسة ورائحتي ليست رائحةَ روث! ربما عليكَ أن تتعلمَ أشياءَ قليلةً قبل أن تصبحَ كرجل مجنون!»

«أنتِ تعرفينَ الكثير؟ أنتِ لا تعرفينَ شيئًا! لقد ذهبتُ إلى المدرسةِ أيضًا لكن المدارس أُغلقتْ حين سقطت الصواريخ على بيوتِنا، غادرنا وجئنا إلى هذا البلد وأنا أعملُ هنا مقابلَ لا شيء تقريبًا، أعمل لأعيلَ أسرتي... لأطعمَها. أتعرفينَ الشعورَ بالوحدة؟ أن لا يوجد أحدٌ لمساعدتك؟» اضطربَ صوته. ما زالتِ الفأس في يده يُحرّكها في التربةِ بغضبٍ مكثف. نسيَ وجودَ إكين تقريبًا، لم يُعنَ بها.

«لا أعرفُ أين أسرتي»، همس بكآبة. «يظنُّ أبوكِ أنه يعطي الكثير جدًا من ماله لكنني أعملُ أيامًا كثيرة مقابلَ لا شيء. وقد عدتُ للعمل هنا لأن لا خيارَ آخر لدي».

سكتتْ إكين.. أخيرًا.

جمع غضبَه وركّزه في عمله الذي عليه إنجازه. لم يُعْن برفع بصرهِ ورؤيةِ تعبير وجهِها. لم يرَ عينَيها تدمعانِ أو كيف عضّتْ على شفتِها وابتعدتْ وهي ترتعش. اضرب، اسحب، ارفع.. ظل يحركُ الفأس لأن هذا كلَّ ما يمكنُه.

لم يرها مدةَ أسبوع بعد ذلك. أبعدها انفجارُه. لم يأسف. كانت عصبيتُه تزدادُ بمرور كلِّ يوم. مرت ثلاثةُ أسابيعَ الآن منذ أن تحدّث مع أمه، لا يعرفُ إلى متى سيظلُّ يأملُ في وصولِ جواز السفر.

عادت إكين.. كان الوقتُ في الصباح الباكرِ وسليم في الحظيرة بعد أن أومأ برأسهِ بتحيةٍ سريعةٍ لبولات الذي كان بدوره على ظَهر محراث متوجهًا إلى حقلٍ بعيد. مستر بولات في العادة صامتٌ، يعملُ أوقاتًا طويلةً لكنها لا تقارنُ بأوقاتِ سليم أو المرأةِ الأرمنية.

دخل سليم الحظيرةَ وتفقّد المذاود، بحث عن دلوٍ ليجلب ماءً نظيفًا .

«سليم».. كان صوتُها همسًا خجولًا .

«ممم»، نخر يُجيبها. لم يُعنَ بالالتفاتِ إليها وهو يبحثُ في كومة الأدواتِ عن دلو.

«أنا.. أنا آسفة».. كانت خلفَه الآن. بعيدًا عن ظهره ببوصاتٍ قليلة، شعر بأصابعِها تلمسُ كتفَه فتوتّر. اعتذار؟ هذا ما لم يتوقعه.

«لم أقصدْ أن...»

أومأ برأسهِ، كرَدّ هادئ على اعتذارها. بدت صادقةً وكان منهكًا بشدةٍ ليغضب. عنت له كلماتُها أكثر مما توقع. جعلتْهُ يشعر بإنسانيتهِ بقدر أكبرَ قليلًا مما شعرَ به منذ وقتٍ طويل مضى. هدأ مزاجه.

تحركتْ أصابعُها من كتفَيه إلى مؤخرةِ عنقه ببطءٍ وعمد، شلّت حركتَه، لا يعرفُ ماذا تفعل. خشِيَ أن يتحرك. كانت لمستُها رقيقةً على نحوٍ أدهشه، أرقَّ كثيرًا من كلماتِها. اقتربت منه. شعر بأنفاسِها الدافئة على مؤخرةِ عنقه.

ماذا تفعلُ؟ يجبُ أن أتحركَ. يجب...!

مررت أصابعَها في شعرِه الداكن، هرشتَ فروةَ رأسه ثم عادت إلى عنقِه وكتفيه، لمست يدَها الأخرى كتفَه وتلكّأتْ على ذراعِه، لم تكن واثقةً لكنها، حين لم يبتعد، مالت إليه وضغطت بوجهِها في المساحة بين كتفَيه. تحركَ بداخلِه شعورٌ ما، أغمضَ عينيه.

دفعتهُ برفقٍ إلى ركنٍ في الحظيرةِ بعيدًا عن ضوء الشمس. تكسّرُ القشُّ تحت أقدامِهما. تحركتْ قدماهُ تتبعانِها دون أن يلتفتَ إلى وجهها. لم يستطعْ مواجهتَها، كان الضوءُ خافتًا، يتسللُ من فتحاتٍ صغيرةٍ بين ألواحِ السقف.

لماذا تفعلُ هذا؟!

«أردتُ أن أتحدثَ معكَ فحسب»، همستْ له بهدوءٍ شديدٍ حتى أنه لم يكن متأكدًا إن كان سمعَها حقًا أم يتخيّل.

استدار ببطء، يدفع جسدهُ فضول بلا تفكير، تواجها لكن الظلمةَ كانت متسامحةً. لمستْ خدّه، وجد سهولةً في نسيان المحادثاتِ المريعة التي دارتْ بينهما، مال بوجهه وتقابلتْ شفاههما، شعرَ بجزءٍ آخرَ منه يمتدُّ إليه القلق، ما دامت عيناه بقيتا مغمضتَين، يمكنُه تجاهلُ العالم.

تحركتْ أقدامُهما في القش.

«سليم...» همستْ. فتحَ عينَيه وتراجعَ فجأةً كمن لمسَ موقدًا ساخنًا.

جالت بخاطرِه آلافُ الأفكار، ماذا لو دخلَ مستر بولات؟ لماذا يلمسُها حتى؟ تراجعَ خطوةً إلى الخلف واصطدمَ بجدار. استعادت إكين وعيَها، مدهوشةً من تحولِه المفاجئ.

«يجبُ أن... يجبُ أن تذهبي»، قال ببساطةٍ. وقفتْ لحظةً ثم دارتْ على عقبَيها وخرجتْ من الحظيرةِ بسرعة. تركتْهُ وحده يتساءلُ أيّ عاقبةٍ يتوقّع إن اكتشفَ أبوها أو أمُّها... ضجّت دقاتُ قلبه لمجردِ التفكيرِ في الأمر.

ظل يذرعُ الخطى في الحظيرة متسائلًا إن كان عليه الرحيل من هنا قبل أن يأتيَ بولاتُ ليطردَه. انتظر وأصاخَ السمع لصوت مستر بولات الغاضبِ يقتربُ من الحظيرة. لم يسمع شيئًا. اقترب من باب الحظيرةِ ونظر إلى الخارج بتوجّس، رأى مستر بولات ما زال بعيدًا على محراثِه. كانت مسز بولات خلفَ المنزل، تعلّق ملاءاتٍ على حبل الغسيل. ولا علامة على وجود إكين.

عاد إلى عملِه بحذرٍ لكنه استغرقَ ساعاتٍ قبل أن يعود نبضه إلى طبيعته. ظلت عيناهُ تندفعانِ هنا وهناك وهو يعمل، لا يريدُ أن يفاجئه أحد. غربت الشمسُ وتركته منهكًا ومتعرقًا من يوم مُرهِقٍ بشكل استثنائي.

في الصباح التالي تساءلَ وهو في الشاحنةِ إن كانَ يتجّه إلى فخ ما. اقترب من المزرعةِ بحذرٍ وتوجّس، لكن بولات، كعادتِه، بالكاد انتبَه لظهوره. بقيَ على حذرِه طوال اليوم وكان ممتنًا لعدم ظهور إكين. ظلَّ يفكّر في تلك اللحظات في الحظيرة حائرًا في تفسير تصرفاتِها وعاجزًا عن فهمِ دَوافعها.

أي فتاةٍ تلمسُ فتى؟ ياللعار.

لكنه تساءلَ أيضًا لماذا تقرّبتْ منه؟ نبرتُها المتعاليةُ وتعليقاتُها الخبيثةُ... أكان كلُّ هذا واجهة؟

حارَ أكثرَ من ردِّ فعلهِ، لم يبتعدْ عنها؟

تفاعلَ معها بإرادتهِ الخاصة، ما زال يشعرُ بملمسِها على أطرافِ أصابعه، بمنحنياتِها نصفِ الناضجةِ. الليلةَ الماضية، رقدَ على مرتبتِه وترك أصابعَه تتحركُ على رقبتِه، كما فعلتْ إكين. فشعرَ بإثارة.

تساءلَ إن كانت قد ابتعدَتْ غضبًا أم لشعورِها بالعار.

من حينٍ إلى آخرَ، يظنُّ أنه لمحَها تراقبُ من النافذة الخلفيةِ أو تمرُّ من الباب الجانبي. ظلتْ مختفيةً. كان ممتنًا لذلك. ليس لديه ما يقوله لها.

صار أكثرَ قلقًا في انتظار الظرفِ الذي وعدتْ أمُّه بإرساله، إلى حد أن سأل الجيرانَ في حال وصلَهم الظرفُ بالخطأ. مضى شهر ولم يصلْه شيء. بقدر ما كان هاكان وسينام يحاولانِ أن يبدوا متفائلينِ، لاحظ أنهما بدأا يفكّران في أنّ الظرفَ لن يصلَ أبدًا.

كسرت إكين صمتَها أخيرًا. كانت الشمسُ على وشك المغيب، وقد فرغ لتوّه من زرعِ كيس بذورٍ أعطاه له بولات. حان الوقت لزراعةِ محاصيل الشتاء وأراد بولات أن يزرعَ شمندر السكّر. أعاد الأدواتِ إلى ركنِها في الحظيرة، ورقدَ هناك يمدّدُ ظهره، سمع خشخشةَ القش فاستدارَ ليجدَ قامةَ إكين النحيلةَ عند باب الحظيرة. لم تقتربْ منه.

«هل انتهيت؟» قالت بهدوء. كانت تنظر بعيدًا، إحدى قدَميها خلف الأخرى في وضعٍ خجِلٍ. شعرَ سليم بارتباكِها وغمرتهُ موجةُ عطف.

«نعم»، أجاب، ظلَّ في مكانه. المسافةُ بينهما حماية.

«أنت لا تحبُّ العمل هنا». كان ذلك استنتاجًا وليس سؤالًا. أيًّا كان ما ستقولُه فقد تدرَّبتْ عليه، تخيّلَها تقريبًا، تراقبُه من بعيدٍ وتفكِّر في ما ستقوله.

«ظننتُ أنكَ ربما تحبُّ أن... أنا لم أقصد أن أتسببَ في غضبكَ أو حزنك، لم أكنْ أعرف، أريدكَ أن تأخذَ هذا وألا تعودَ مجددًا، الأفضل ألا تعودَ إلى هنا». مدّت يدها بشيءٍ ما ملفوفٍ في ورقة.

«ما هذا؟»

«خذه فقط، وارحلْ أرجوك... ارحلْ فحسْب أرجوك». بدا صوتُها متكسرًا كطفلٍ على وشك الانفجار في البكاء. تقدمت خطواتٍ قليلةً بيدِها الممدودة، ظلّتْ على مسافة. كأن نارًا ستحرقُها لو اقتربتْ منها.

صار ما تمسكُه في متناول يده. فأخذه. لا يمكن التنبؤ بتصرُّفاتِها لكنها تغيرتْ. شعر بأنها لا تلاعبُه وأن أيًّا كان ما تقدمه له ليس قرارًا سهلًا.

قبضتْ أصابعُه على الورقة. استدارت إكين وركضتْ خارجَ الحظيرة. راقبَها تذهب قبل أن يفضَّ الورقة المطويةَ بحرص. وجد بداخلها لفة نقودٍ تركية سميكة. اتسعتْ عيناه. كانت النقودُ أكثرَ مما يمكنه تقديرُه، ورقات نقدية بفئاتٍ مختلفة.

ذُعِر ، طوَى النقودَ ودسّها في جيبه،أصاخ السمعَ لصوت خطواتٍ تقترب فلم يسمعْ شيئًا. من أين حصلتْ على تلك النقود؟ حين لم يرَ أحدًا يقترب من الحظيرة، تنحّى جانبًا وأخرج النقودَ من جيبه. مرر أصابعَه في الورقاتِ النقدية، تسارعت دقاتُ قلبه وتعرّق، ظلَّ يسألُ سؤالًا واحدًا.

هل آخذُها؟

بعد شهورٍ من العمل الشاق مقابلَ كلّ ليرةٍ، وبيعهِ أساورَ مادر جان الذهبيةَ مقابل يوروهاتٍ قليلة وسرقةِ الخبز لإطعام أسرتِه، لم يجد حلًا آخر. كان بحاجةٍ إلى تلك النقودِ ورأى أنه يستحقُّها. دسَّ اللفة في جيبهِ وغطّى بقميصه بروزَها. أخذ نفَسًا عميقًا وخرج من الحظيرةِ وسار عبر الفناء نحو طريقٍ فرعي. لم يستدرْ ولم يتوقفْ ليرى إن كانت المرأةُ الأرمنية خلفَه.

جلس على ظهر شاحنةٍ وضغط جيبَه في جانبها، أبقَى رأسه مطرقًا ولم ينظر إلى أحدٍ من الركاب وهم يقطعون الطريقَ المتربةَ للعودةِ إلى القرية.

في جيبه عالمٌ من الإمكانات. يمكنه الدفع لمهرّبٍ ليحمله عبر المحيط إلى اليونان. في الأسبوع الأخير، أدركَ تمامًا أن جواز السفر الذي ينتظره لن يصل. وأن كلَّ يوم يقضيه في منغن يوم ضائع. وأن عليه أن يلحقَ بأسرتِه الآن. دفعته النقودُ في جيبه إلى أخذ القرارِ الذي يعلم أن عليهِ اتخاذه.

يعرف أيضًا أن إكين سرقتْ هذه النقودَ من أبيها. لا سبيل لعودتهِ إلى مزرعةِ بولات الآن.

أنا بحاجةٍ إلى هذا، ظللتُ أفعلُ كل شيءٍ بناءً على أوامر مستر بولات، ثم أفعلهُ مجددًا لأنه لم يكن جيدًا بما يكفي. كنت

اللاجئَ الذي لا يمكنُه المعارضة. هذه النقودُ ستخرجُني من هنا وتعيدُني إلى أسرتي، فيمَ يهمّ لماذا فعلتْ هذا؟

اتخذ قرارهُ وهو يدخل البيت من البابِ الجانبي، سمع سينام في المطبخ، لن يخبرَهما بشأن النقود. لن يستطيعَ توضيحَ الأمر لهما. سيذهبُ إلى الميناء ليبحثَ عن قاربٍ متجه إلى أثينا. هذه هي الطريقةُ الوحيدة.

حين تأكد من إيواء هاكان وسينام إلى فراشِهما، ظلَّ يعدّ النقودَ مرارًا حتى اقتنعَ أنها حقيقيةٌ وكافية لإعادتهِ إلى مساره، كان المبلغُ أكبرَ بكثير من المبلغ الذي حصلَ عليه من محل الرهونات مقابلَ أساورِ أمه الذهبيةِ.

لم يرَ أمَّه بلا تلك الأساورِ من قبل. يعرفُ أنها أساورُ جدته، هديةٌ منها للابنةِ التي لم ترَها. تحسسَ ساعةَ يده على معصمهِ، لا بد أن مادر جان كانت تشعرُ بالمثل نحو الأساور. صلتها الوحيدة بأمها.

مع أنه لم يكن يعرفُ أين أمّه، لكن يمكنه الآن رؤيتُها وسماعها بوضوح أكثر من أي وقتٍ خلال الأشهر التي ارتحلا فيها معًا. يتخبط أحدهما بالآخر على متن الباصاتِ والسفن، ينامان معًا في الغرفة نفسها ويسهرانِ على سميرة وعزيز. انقشع الضبابُ وتجسدت أمُّه أمامه كشخصٍ حقيقي. أغمضَ عينيه في الظلام ولفّ نفسه بعناق أمهِ الحاني. دعا الله من أجلِ فرصة أخرى.

سليم
37

كان وداعُ هاكان وسينام أصعبَ هذه المرة، فرغم نقوده وعزمِه، لم تكن لديه أيُّ وثائقَ تسهّلُ عليه عبور الحدود.

فوجئ مُضيفاه العطوفانِ بقرارهِ المفاجئ لكنّهما لم يحاولا إقناعَه بالعدول عن السفر. شغلت سينام نفَسها بجمع بعض الطعام، زوجَي جواربَ من الصوف، ثلاثةِ قمصانٍ ومعطفٍ ثقيلٍ لسليم. لفَّ الملابس ودسَّها في حقيبةِ الظهر الصغيرةِ التي يحملُها على كتفه، كانت الرياحُ الباردة تبشّر بشتاءٍ قاسٍ والملابسُ الإضافيةُ قد تنقذُه.

ظلت لفةُ النقود في جيبهِ حيث الشعورُ بضغطِها على وركهِ يُطمئنه. لو أُلقي القبضُ عليه سيجدونها، لكنه لم يستطعْ إخفاءها في أيّ مكانٍ آخر.

استقل الباصَ المتجه إلى الساحل. اقشعرّ جسدُه والباص يقتربُ من قسم شرطةِ أزمير حيث أطلقوا سراحَه بوداعٍ فظ. تعرقتْ راحتاه، لم يستطع استجماعَ شجاعتهِ وهو وحيد. لاذ بكلماتٍ سمع والداه يهمسانِ بها في لحظاتِ القلق، ولحظات الأملِ ولحظات استجداء راحةِ البال.

بسم الله الرحمن الرحيم

فكّر مليًا في الطريقَين اللذَينِ يعرفهما للوصول إلى اليونان. يعرفُ أن بإمكانه البحثُ عن مُهرّبٍ لينقله عبر المحيط. سيكلفه هذا الكثيرَ من النقود، خصوصًا لو شمَّ المهربُ رائحةَ يأسه. وإن كلفه هذا كلَّ ما يملك فلن يبقى معه شيءٌ للسفر من اليونان إلى إيطاليا.

تحدث فتيةُ أتيكي عن أشخاص عبروا في سفن شحنِ بضائعَ تغادرُ من تركيا إلى أثينا. تحمل السفنُ الشاحناتِ لنقلها. أخبره جمال بتفاصيلِ هذا الأمر، لم تكن صورةً جميلة تلك التي رسمَها.

في البدء، تتسللُ إلى خلفية الشاحنةِ دونَ أن يراك أحد. الموانيء مزدحمةٌ لذلك عليك فعلُ ذلك والسائقُ والحرسُ مشغولون. ثم عليك البقاءُ هناك، بلا حركة حتى تصعدَ الشاحنة إلى السفينة. حين يحدثُ ذلك يجبُ أن تظلَّ ساكنًا وهادئًا تمامًا مهما طالت مدةُ الرحلة. الجزءُ المهمُّ يأتي بعد ذلك في الميناء الأخير حيثُ يجبُ عليك مغادرةُ السفينةِ دون أن يلاحظَك أحد.

في مكانٍ ما بين منغن والميناءِ قرر سليم أن يحاولَ شقَّ طريقه بنفسه. المهربون مخاطرةٌ كبيرة ولا يمكنه إهدار نقودهِ كلها وما زال طريقه طويلًا.

ترجّلَ من الباص وتوجّه بسرعة إلى شارع صغيرٍ ليحددَ اتجاهاته. جال بعينَيه بحذر بحثًا عن الزيّ الرسمي. عليه التوجّه إلى الميناء. كان الوقت ظهرًا وقد لايستطيعُ التسللَ إلى خلفيةِ شاحنةٍ اليوم، الأفضلُ أن يعثرَ على مكانٍ آمن قريب لقضاءِ الليلة.

سأل صاحبَ محلٍّ عن اتجاه الميناءِ فنصحه بركوبِ باصٍ آخر. أوصله الباصُ المحليّ الأصغرُ بكثير، إلى نقطة التقاء البلدةِ

بالمحيط. رأى السفنَ الضخمة نفسَها راسيةً وأخرى أصغر تطفو بجانبِ أرصفةِ الميناء، ومجموعات من الناس يروحون ويجيئون، والحرسَ وأطقمَ العمل والركابَ يجوبون في كلِّ مكان. الاندفاعُ الجنونيّ نحو المنحدَر خطةً غير قابلة للتنفيذ.

كن ذكيًا، كن حذرًا جدًا.

كان الميناءُ مزدحمًا. وقف سليم أمام طريقٍ رئيسٍ يفصلُ بين البلدة والميناء. رأى خلف البواباتِ عددًا من الحاويات الضخمةِ، صناديق شحنٍ مستطيلةٍ عملاقة بمختلف الألوان والكتاباتِ على جوانبها، راقب نقلَ عددٍ منها إلى السفينة.

لكن كيف تعرفُ حين ينقلون الحاويةَ إلى أين تذهب؟

قضى المساءَ يراقبُ السفن، يدرسُ العملَ فيها وأنماطها، ويسجلُ ملاحظاتٍ بخصوص أرصفتِها. عليه تحديدُ المكامنِ، الأماكنِ التي يمكنه الاختباء فيها دون أن يلاحظَه أحد.

في مكان بعيد، يوجدُ مرفأ سفنِ الركاب. سافرت أسرةُ حيدري من هناك لتعبرَ المحيط إلى أثينا. كانت تلك الرحلةُ البحرية مختلفة! تملكهم الرعبُ من القبض عليهم لكنهم كانوا معًا، راحة في حد ذاتها، ابتهجوا يومها حين رأوا البحرَ وسمعوا صوته.

لم تكن لدينا فكرةٌ كم كان الأمر سهلًا حينئذ، ليته يكون سهلًا هكذا مجددًا.

ظل يسير حتى وصلَ إلى منطقةٍ معزولةٍ مكسوة بالعشب أمام الميناء على الطريق السريع، خلفها مباشرة موقع بناءٍ. رأى عمالَ البناء يجمعون أدواتهم ويتوجّهون صوب الطريق. لديه من

هنا مشهدٌ جيد للميناء، توسّد حقيبته بعد أن أسندَها إلى جذع شجرة ورقد يفكّر. الوقتُ متأخرٌ ومن الصعب معرفةُ ما يحدث بعيدًا هناك لكنه انتبهَ جيدًا في جميع الأحوال. ركز جيدًا ليرى ما يمكنه رؤيته. خلال ساعة، تألّقت السماء بغروبٍ رائع بدرجاتٍ من البرتقالي والبنفسجي. بعد ذلك بدقائق، خيم الظلامُ وصار وحده تمامًا.

حمل حقيبته وسار بحذرٍ إلى مبنى صغير قريب ما زال تحت الإنشاء. اختلس النظرَ من نوافذه المتربةِ ولم يرَ أحدًا في الداخل سوى مواسير مكشوفة وطوب وأدوات في كل مكان. الأبواب موصدة. تسللَ من الخلف وحاولَ الدخول من النوافذ، حالفه الحظ. عبر من نافذةٍ غير موصدة وسقط بضجةٍ مكتومة داخل غرفةٍ بهيكلها الأساسي فقط، دون جدران. اقشعرَّ جلده لكلّ صريرٍ وعواء. ارتدى قميصًا إضافيًا وأغلقَ سحاب سترته ومدّد قدمَيه على مشمّعٍ رماديّ مطوي.

استيقظ على أصواتِ رجال قادمينَ من بعيد. فتح عينَيه ببطء.

عمال البناء! كان الوقتُ صباحًا وقد عادوا لبدء يومِ عملٍ جديد. أخذ حقيبتَه وخرج من النافذةِ قبل أن يدخلوا الغرفة. سمعهم يصيحونَ من خلفه لكنه لم يتوقفْ ولم يلتفت. ركضَ، اندفع بين السياراتِ لعبور الطريقِ السريع، واختبأ خلفَ بنايةٍ سكنية. كان يلهثُ، لسانُه سميكٌ وجافٌ كأنه مغلفٌ بالتراب الأبيض الذي ظل ينفضُه عن ملابسِه وشعره. بعد أن تأكّد أن لا أحد يتبعه، سار نحو محلّ لشراء زجاجة عصيرٍ ثم عاد إلى العمل.

تُحمَّل الحاويـاتُ أولًا علـى الشـاحنات، ثـم إلـى السـفن. اقتـرب سـليم قليـلًا مـن فنـاء الشـحن فوجـدَ الحاويـاتِ كلهـا موصـدةً ومنيعـة عليـه، ليس مـن السـهلِ اقتحامُهـا. كانـت هنـاك شـاحناتُ نقـل، ثمانـي عشـرة شـاحنة تتراجـعُ بظهرهـا إلـى السـفينة ببـطء فيمـا يسـيرُ الـركاب فـي صـف واحـد أعلـى المنحـدرِ علـى مسـتوى الرصيـف، بـدأت خطـة سـليم فـي التبلـور.

ذهـب إلـى شـباكِ التذاكـر وسـأل عـن جـدولِ مواعيـد السـفن. ناولتْـه الموظفـة مطويـةً أخذهـا إلـى خـارج الميـنـاء ليقرأهـا.

بحلـول الضُّحـى، كان قـد راقـب ثلاثـةَ سـفنٍ ترسـو وتنطلـقُ بحمولـةٍ جديـدة مـن الـركاب والشـاحنات. كان قـد بـدأ يشـعرُ بالجـوع حيـن لفـت نظـره شـيءٌ مـا. شـابٌ أسـمرُ بـدا أكبـرَ منـه بسـنواتٍ قليلـة، يتجـولُ بشـكلٍ طبيعـي عنـد السـور المحيـط بفنـاءِ الشـحن. يـداه فـي جيبِيـه. مبهـمٌ بقـدر مـا يحـاولُ أن يبـدو، كان بطـولِ سـتة أقـدام تقريبًـا ويميـل برأسـه يمينًـا ويسـارًا كل عـدة دقائـق. ميّـز سـليم المشـيةَالمرتبكة للاجـئ علـى الفـور.

راقبـه يقفـزُ بخفـةٍ وسـرعة أعلـى السـورِ المعدنـيّ إلـى الميـنـاء، مـد عنقَـه ليـراه بشـكلٍ أفضـل. شـقَّ الإفريقـيُّ طريقـه مـارًا بالحـاويات ووقـف عنـد منطقـةِ تراجـع الشـاحناتِ إلـى السـفن. تـوارَى خلـف حاويـةٍ حمـراء، انتظـر دقائـقَ قليلـةً قبـل أن يتعلـقَ فجـأة بشـاحنةٍ تنتظـر دورهـا للرجـوعِ إلـى السـفينة. اندفـع إلـى الفجـوةِ بيـن مقصورة الشـاحنة والمقطـورةِ، محـاولًا إيجـاد مسـاحةٍ للزحـف أسـفلها. حبـس سـليم أنفاسَـه.

ركض رجلانِ نحوه. عُثِر عليه!

اقترب سليم خطواتٍ قليلةً يريد أن يعرفَ ماذا سيحدثُ، سمع الإفريقيُّ الصياح وهب سريعًا. اندفع في المتاهةِ بين الحاوياتِ، ينعطفُ يمينًا ويسارًا فيها.

عض سليم لسانه:

«كان من الممكن أن أكون أنا من يطاردونه.. بسهولة».

قفز الإفريقيُّ بحركةٍ رشيقة أعلى سور الميناء وركضَ يعبر الطريق السريع، على مقربة أمتارٍ قليلة من حيث يقفُ سليم. فيما يقترب، رأى سليم الدمَ يسيل من يده، لم يبدُ على الشاب أنه لاحظ جرحه.

«هيي!» صاح سليم. «مرحبًا!» نظر الشابُّ حوله وهو يُبطئ ليلتقطَ أنفاسه، نظر إلى سليم بشكّ.

«يدُك!» كان على بُعد عشرين قدمًا الآن، جبينُه يلمع، بدا مذهولًا لكنه قرر سريعًا أن سليم ليس خطرًا حقيقيًا. ربما ميّز هو الآخر حالَ سليم المشابهَ لحاله.

«يدُك!» كرر سليم وهو يشيرُ إلى راحتهِ اليسرى.

نظر الرجلُ إلى أسفل، لم يُدهش. أومأ لسليم وسارَ في الشارع، حريصًا على إخفاء يده.

زاد خوفُ سليم، كان سماعُ قصص فتيةِ أتيكي شيئًا والوقوف في الميناء ومراقبة مطاردة الأشخاص شيئًا مختلفًا تمامًا. لا يتخيلُ ما كان سيحدثُ لو وقع الإفريقي بين أيديهم.

في الليلتَين التاليتَين نام سليمُ في موقع البناء القريبِ وغادر مبكرًا قبل وصول العمال في الصباح. أنفق أقلَّ ما يمكنه على الطعام، ما يكفي ليسدّ جوعَه فحسب. قضَى النهارَ في دراسةِ

الميناء. رأى الإفريقي يعودُ ليمسحَ المشهدَ بعينيه مرة أخرى، يده مربوطةٌ بضمادةٍ من قماش ويبقيها قريبةً من جسده. لم يقم بأي محاولاتٍ جريئةٍ كما لم يبدُ مهتمًا بالتحدثِ مع سليم.

في اليوم الثالث، قرر سليم أن يشقَّ طريقه إلى الرصيف. ستصلُ سفينةٌ متوجّهة إلى أثينا في الظهيرة، قبل وصولِها بثلاثين دقيقة، اصطفتْ ثلاثُ شاحنات عند المنحدرِ على استعدادٍ لصعود السفينة، ترجل منها السائقون، للدردشةِ والحصولِ على بعض الطعام.

بدأ سليم لعبتَه الخطرةَ، علقَ حقيبته على كتفِه وسار نحو الشاحناتِ بشكلٍ طبيعي. بدأ الركابُ يقفون صفًا، يجرّون خلفهم حقائبَ سفر صلبةً على عجلات أو يحملون على أكتافِهم حقائب قماشية. تمنى سليم أن يذوبَ بينهم.

حادَ عن صفّهم وسار نحو الشاحنات، يتصاعدُ دخانٌ كثيف من أنابيب العادم. اقترب أكثر بعد أن تأكّد أن لا أحد يلحظه. يقف سائقان أمام شاحنة، يديران إليه ظهرَيهما. كان على بعدِ ثلاثين قدمًا منهما، إن استطاعَ الوصول إلى خلفية المقصورة، سيمكنه القفزُ في تلك الفجوة ومنها إلى أسفلِ الشاحنة. عليه أن يتحرّك بسرعة.

أشار أحد السائقين إلى شيء ما بعيد، تحرك سليم قبل أن يفكّر في الأمر مرّتين. اندفع نحو الشاحنة بخفّة ما أمكنه. ما زال السائقان على الجانب الآخر يتحدّثان. بحث خلف المقصورة عن شيءٍ ما ليتمسكَ به، وجد أنابيبَ وأسلاكًا متشابكةً لكنه لم يجدْ مساحة لينزلقَ إلى الأسفل ويتشبثَ بشيء، جلس القرفصاء وتمسك بشيء ما ساخنٍ جدًا فتراجعت يدُه لا إراديًا.

وجد قضيبًا يمتد من خلف الإطاراتِ الأمامية إلى أسفل بطول الهيكل، كان رفيعًا لكنه قد يستطيع التشبث به. قلب حقيبة ظهره ليريحَ عليها بطنه، بينما يمسكُ القضيب انفكّ جزء منه وسقط على الأرض محدثًا ضجّة. انتبه السائقان لصوتِ ارتطام المعدن بالرصيف، دارا خلفَ الشاحنة في اللحظة التي اندفع فيها سليم في الركض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اركض.. اركض فقط.

كانا خلفه يصيحانِ ويسبّان.

اركض.

كان الفتية في وطنهِ يراهنونَ عليه عدّاءً، يراهنونَ على أنه أسرعُ من السائقَين وأنه سيهربُ منهما دون أن يستطيعا الاقترابَ منه. كان بتلك السرعةِ في ملعب كرة القدم، سريعًا جدًّا على قدَميه إلى حد يمكنه فيه إدارةُ رأسه إلى الخلفِ والابتسام للفتَى الذي يلاحقه، وهو يلهثُ ويرفع يدَيه.

لكن ذلك سليم مختلف. كان ذاك الفتى لديه أمٌّ وأبٌ في البيت ليعود إليهما. كان بطنه مشبعًا بطعام أعدّته أمّه وينتعلُ حذاءً رياضيًا. ذاك الفتى ليسَ هنا.

كان مَن يركض هربًا من السائقَين جائعًا ووحيدًا ولا قوةَ لديه سوى لاقتطافِ ثمار الطماطم وتنظيفِ الحظيرة فيما يراقبه شخصٌ ما من أعلى كتفه.

كان هذا أسهل كثيرًا في إمساكه.

أمسكاه من ياقته وسحباه، طارت قدماه في الهواء وما زالتا تحاولانِ الاندفاع إلى الأمام. طرحاه أرضًا.. ارتطم وجهه بالأسفلت، مزق فكّه ألمٌ حاد.

سيتذكر بقيةَ ما حدث على هيئةِ شذرات ومقتطفات، تذكارات تركها على جسدهِ رجلان ضجرا من استغلال اللاجئين ومن تفتيشِ رجال الجمارك شاحنتيهما مرارًا، أحذية عالية الرقبة وكلمات غاضبة.

حاول النهوض على قدمَيه. ترنّح.

دفقة أدرينالين أخرى.

اركض.

صاحا من خلفه.

خفتَ صوتاهُما بنجاحه في قطعِ مسافةٍ بينه وبينهما.

تضربُ حقيبةُ ظهرِه صدرَه بعنف. اختبأ خلف مبنَى من الطوب، بعيدًا عن الأنظار. انحسر الأدرينالين، بدأ يشعرُ بجسده مجددًا. آلمته ضلوعُه وشعر برجلَيه مشوّهتَين. تمزق قميصُه وتلطخَ بنطاله بالطين، ضجَ نبضه في أذنَيه، لكن ليس بما يكفي ليغطّي على صياحِهما.

تجوّلَ بشفتيه تنزفان في الشوارع الجانبية الضيقةِ، بعيدًا عن المارة، يريدُ أن يختفي.

وصل إلى مستودعٍ خالٍ وانتظر حتى اعتادتْ عيناه الظلمة. تكوّر بجوار الجدار، أغمض عينَيه لينسى جروحه.

أرجوكَ ربي دعني أرتاح هنا.

كان كسيرًا،لا يعرفُ إلى متى سيمكنُه التحمّل.

سليم
38

ليومَيـن تقريبًـا، ظـلّ سـليم نائمًـا، فقـد الشـعورَ بالليـل والنهـار، كلمـا أراد النهـوض، يخذلُـه عقلـه بعجـزهِ عـن جمْـع قـواه لمواجهـة يـوم جديـد وتجاهـلِ جوعـه.

في اليـوم الثالـث، طالبـتْ معدتُـه بالطعـام، سـئمتْ مـن زجاجـة العصيـر التـي أخرجهـا مـن حقيبتـه. لمـس شـفتَه وعـرف أن تورّمهـا قـد ازداد. يمكنـه التحـركُ قليـلًا، لـم يعـد الألـمُ كما كان. غيّر ملابسَـه ووقـف. رأسُـه يـدور.

لقـد أخطـأ فـي حسـاباتهِ. لـم يكـن حـذرًا. لا يعـرفُ مـا يكفـي عـن الشـاحنات وهياكلِهـا وهـذا مـا جعلـه يخفـق. شـعر بالفشـل.

تجـوّلَ فـي الخـارج، يقـي بيدَيـه عينَيـه من الشـمس السـاطعة. سـار إلـى السـوق واشـتَرى رغيـفَ خبـزٍ وزجاجـة لبـن مـن أحـد المحـلات. راقبـه البائـعُ بحاجـبٍ مرفـوع لكـن سـليم أبقَـى رأسـه مخفضًـا ودفـع لـه بهـدوء، يرجـو ألا يلفـتَ الأنظـار.

تلـوّتْ معدتـه وهـو يـأكلُ لكنـه شـعر بالقـوة تعـاودُه وبذهنـه يصفـو. عـاد إلـى موقـع البنـاء والشـمسُ تبـدأ رحلـةَ مغيبهـا، اشـترَى فـي طريقـه المزيـدَ مـن الطعـام ووجـدَ ملجـأه المتـربَ المألـوف.

لا خيـارات أخـرى، عليـه المثابـرةُ وإلا سـيتعفّنُ فـي هـذه البلـدة، بعيـدًا عـن أسـرته. ستُشـفَى جراحـه، عليـه التعلـمُ مـن أخطائـه.

عاد يراقبُ أرصفةَ الميناء من مسافةٍ كافية لئلّا يراه أحدٌ من سائقي الشاحنات. حدّق في السفن وحاولَ إيجادَ منفذ لها. يرتدي أفرادُ طاقم العمل زيًا موحدًا باللونَين الأبيضِ والأزرق ويرشدون الركّابَ إلى السفن. لا سبيل للمرور بينهم إلى سطح سفينة.

يمكنه المحاولةُ مع الشاحنات مجددًا. ربما يذهبُ إلى مؤخرة الشاحنة هذه المرة، مع أنه يتذكّر أن أحدَ فتية أتيكي أخبره عن صديقٍ مات من تنفسِ دخان العادم فترةً طويلة.

عاود النظرَ إلى الحاوياتِ المنيعة، تضاءلتْ آماله، بدأ يفكّر في البحث عن مُهرِّب، مع أنه ليس لديه أدنَى فكرةٍ عن أماكنهم. غدًا، وعدَ نفسه، سيتجولُ في البلدة بحثًا عن لاجئين، لا بد أنّ أحدًا منهم يعرف مُهرِّبًا. عاد إلى أرصفة الميناء لجولةٍ استكشافيةٍ أخرى قبل حلول المساء.

ستنطلق آخرُ سفينةِ شحن متجهةٍ إلى أثينا خلالَ ربع ساعة. رأى وهو يقتربُ من السفن سائقًا يترجّلُ من شاحنته ويسير إلى منطقة التحميلِ حيث تقفُ شابّتانِ في الزيّ الرسمي الأبيض والأزرق تدرْدشان.

حين تأكد أن لا أحدَ يلاحظُه، ذهب إلى خلفيّةِ الشاحنة وجثَم على الأرض لينظرَ إلى الهيكل السفلي. لم يجد شيئًا يمكنه التعلق به دون أن يكررَ خطأ الأسبوع الماضي. عاد يقف وحدّق في قفل البابِ الخلفي للشاحنة، لا سبيل للدخول. تفقّد أسفل الباب ولاحظ شيئًا آخر.

توجد منصّةٌ، والأهمُّ من هذا، يوجدُ مزلاج صغيرٌ في جانب الباب.

صعد إلى المنصةِ وتمسّك بجانبِ الشاحنة. تدبّر أن يضعَ قدمه اليمنى على المزلاج الصغير. أحكم قبضة أصابعَه على حافةِ الشاحنة، تسارعتْ أنفاسُه واضطربتْ. دفع نفسَه إلى الأعلى مستندًا بوزنه إلى المزلاج الصغير، كادت قدمُه تنزلقُ من فوقه، مد نفسه إلى أعلى ما أمكنه ليصلَ إلى حافة سطحِ الشاحنةِ لكن أصابعه لم تصلْ. سمع أصواتًا تقتربُ. سيعود السائقون. عليه أن يتحرك إلى الأسفل أو إلى الأعلى.

بدفعةٍ عازمةٍ واحدة أخيرة، رفع وزنَه على قدمه اليمنَى وأرجعَ اليسرى إلى الأعلى. أمسكَت يداه الحافة المعدنية. استقرتْ قدمه على حافة السقف بضجةٍ مكتومة، جاهد ليسحبَ بقية جسدهِ إلى الأعلى.

تحرقت عضلاتُ ذراعَيه من المجهود لكنه نجح، رقد على بطنه مسطحًا وساكنًا ورأسُه مائلٌ جانبًا، يأملُ ألّا يلمحَ أحدٌ حقيبة ظهرهِ من أسفل. اقتربت الأصواتُ لكنه ميّز من نبراتها العادية أن لا أحد لاحظَه في ستر الليل.

بعد ذلك بدقائق، ارتجّت الشاحنةُ بدوران محرّكها. كان يتحركُ في اتجاه السفينة. ارتجاجٌ آخر والشاحنة تعودُ إلى الخلف على المنحدر. التصقَ خدّ سليم بالمعدن البارد. استعد للمزيد.

صفَّ السائقُ الشاحنةَ في موقعها بجانب شاحنات أخرى. جاءت شاحناتٌ أُخرى بعدها وصار الهواءُ ساخنًا ومعبأ بالأدخنة. رفع سليم قميصَه إلى فمهِ وأنفه. سمع صوتَ بابٍ ينغلقُ ثم صوتَ

خطواتٍ تبتعد. ترددت أصداءُ أصواتٍ في المساحة التي تصطفُّ فيها الشاحناتُ وكان من الصعبِ تحديدُ الاتجاهات التي تأتي منها. رفع رأسَه قليلًا ورأى شخصَين يعبران المنحدر ويغادران السفينة. جاء دور ركوب المسافرين، يمكنه تخيلهم يصعدون إلى السفينة وهم يجرّون أمتعتَهم. منذ فترةٍ ليست طويلةً صعد هو وأسرتُه إلى السفينةِ بتلك الطريقة المتحضّرةِ نفسها.

لا يصدّقُ ما آل إليه أمره.

خلال دقائق، صدرَ نفيرُ البوق، رُفِعتِ المنحدراتُ وأُغلِقت الأبواب. تشبثَ بسطح الشاحنةِ في بطن السفينة، يخشَى الفرح بهذا النجاح الصغير. حين تأكّدَ أن لا أحد يسيرُ في المكان، جلس ببطءٍ وحاول أن يميز ما حوله. كان المكانُ مظلمًا ولم يستطِعْ تحديدَ الكثير، ما طمأنهُ، لأنه هو أيضًا لا أحد يراه.

المحطة التالية خيوس، يتذكّرُ أنها مسافةٌ قصيرة، ساعة تقريبًا. ثم منها إلى أثينا، رحلةٌ أطول، تسع ساعاتٍ ربما. ظلّ يفكر في طريقة لمغادرة السفينةِ بعد أن ترسو في أثينا. كان قد راقبَ تفريغَ شحناتِ السفن القادمة من أزمير مرارًا وتكرارا. كلُّ ما يأملهُ أن يبقى على سطح الشاحنةِ دون أن يلاحظَه أحد حتى اللحظة التي يمكنُه فيها الهبوط على الأرض والركض.

حين سمع تغيرًا في ماكينات السفينة، خمّن أنهم يقتربون من خيوس، رفع نفسه قليلًا وهو يرقدُ على بطنه لينظرَ إلى ساعته.

لقد وصلتَ حتى هنا، بادر جان.

بعد ذلك بدقائق، صدر نفيرُ البوق مجددًا وواصلت السفينةُ الإبحار. كان الوقتُ ليلًا والركابِ في الغالب يغفون على مقاعدِهم

المبطّنـة. فتـح حقيبـةَ ظهـره شـاكرًا لأنـه اشـترَى كيـسَ شـرائح بطاطس وزجاجـة عصيـر فـي وقـتٍ مبكّـر اليـوم. سـيحتاجُ إلـى قوتـهِ فـي بيرايـوس.

تذكّـر أسـرتَه وتسـاءلَ أيـن قـد يكونـون. علـى متـنِ قطـار. فـي مقـرّ احتجـاز. ينامـونَ فـي حديقـة. وثائقَهـم مـزورة جيـدًا وسـوف تمرّرهـم. قال لنفسـه.

تحسـسَ لفّـة النقـودِ فـي جيبـه. إكيـن! تذكّـر طريقتهـا فـي تحريـك مشـاعرهِ بداخلـه، مشـاعر بالذنـبِ والفضـولِ فـي الوقـت نفسـه. ربمـا كان عليـه إطلاقهـا.. لمجـردِ العلـم، لـم يفهمْهـا ولـم يفهـم شـيئًا ممـا حـدث.

وروكسـانا، سـيجدُها حيـن يصـلُ إلـى أثينـا، سـتكون علـى علـمٍ بمـا حـدث لأمّـه وأخوتـه. أغمـض عينَيـه وتخيـلَ وجهَهـا. يفتقدهـا، يفتقـدُ التحـدثَ مـع أحـد. طفـا علـى سـطح نـومٍ خفيـف، يمـزجُ ذهنـه بيـن الحقيقـي والخيالـي. كانـت روكسـانا وليسـت إكيـن، مـن لمَسـت خـده بأنفِهـا. كانـت يـداهُ علـى خاصرتِهـا، أيقظـه إحسـاسٌ برعشـةٍ كهربيـةٍ غريبـة.

كانـت السـفينةُ هادئـةً مـا عـدا طنيـنَ المحـرك. تلـكأ حلمُـه. حـاول تركيـز ذهنـه علـى ذلـك الشـعور، قربـه مـن روكسـانا. حـاول منعَـه مـن التبخّـر فـي يقظتـهِ كمـا يحـدثُ للأحـلام السـعيدة دائمًـا.

فقـد إحساسَـه بالزمـن فـي الظـلام. لا يعـرفُ كـم تبقّـى مـن الوقـت قبـل الوصـول إلـى بيرايـوس. أغمـض عينَيـه مجـددًا وحـاول النـوم.

فتـح عينَيـه فجـأةً علـى أصـواتٍ فـي منطقـة البضائـع. انقلـب علـى بطنـه علـى الفـور وسـطّح نفسَـه. كانـت الأصـواتُ قريبـة.

بيرايوس، كان السائقون يعودونَ إلى شاحناتِهم استعدادًا للانطلاق. الركّابُ في طريقهم إلى الباب حيث سيسْتعيدون أمتعتَهم. رأسه يؤلمُه، ظلَّ يتنفسُ هواءً معبأ بالأدخنة السوداء لساعات، تجاهلَ الصداع وحاولَ الاحتفاظَ بتركيزه.

ألقت السفينةُ بمرساتها وتوقفتْ في الميناء. اصطفت الشاحناتُ في مواجهة المنحدر. حين أزيحت البواباتُ كلّها وتسللَ منها نور هلالٍ مفعم بالأمل، سمِع سليم باب مقصورة الشاحنة ينفتحُ وينغلق. عادت المحركاتُ إلى الحياة بصخب، شعَر بحركاتِ التروس أسفلَه والشاحنة تنطلقُ.

كان الوقتُ قبل طلوع الصبحِ بقليل. تحرّكت الشاحنةُ إلى الميناء وواصلت.

رفع رأسه قليلًا. يسير الركاب بأعينٍ ناعسة، يشقّون طريقهم إلى الطريق الرئيس أو موقفِ سيارات الأجرةِ على مقربةِ أمتار قليلة. ظلَّ على حذره من الزيّ الرسمي، أي شخصٍ قد يحاول إيقافَه. ما زالت أرصفةُ الميناء قريبة، لاحظ ذلك وعاد يخفضُ رأسه مجددًا، يأملُ أن تتوقفَ الشاحنةُ في مكانٍ ما قبل أن تتجّه إلى أيِّ طريقٍ رئيس.

بعد ربع ميلٍ من الطريق، توقّفتِ الشاحنة، كان توقُّفها إشارةً حمراء وفرصتَه الفضلى. أمسك حقيبتَه، علقها على كتفيه وانزلق من فوق سطحِ الشاحنة بسرعة، يتحسسُ بقدمه بحثًا عن المزلاج ليساعده على الهبوط. وجده في اللحظةِ التي تحركتْ فيها الشاحنةُ مجددًا.

شعرت قدمُه اليسرى بالمنصّة. احتكّت يداهُ بجانب الشاحنة، صر المعدن لاحتكاكه بجلده. انصبّت أضواءُ كشافاتٍ على ظهره، تلاها نفيرُ أبواق. قفز على الأرض، كاحلاه يصرخانِ. تقدم سائقُ الشاحنة على الطريق، لم يلاحظ الأبواقَ والصياح من خلفه، فيما اندفعَ سليم إلى أحدِ الأزقة قبل أن يستطيعَ أحد ملاحقته.

أشرقتِ الشمسُ قبل أن يتوقفَ عن الحركة. مر بأماكنَ مألوفة، أول فندقٍ نزلوا فيه، المطعم الذي اشتروا منه بعضَ الطعام يوم وصولهم ومحطة المترو التي استقلّ منها المترو ليستكشف أثينا. ظلَّ على حذره. كانت هيئتُه مزرية، لم يستحم بشكلٍ لائق منذ أسبوع. شعرُه ملتصقٌ برأسهِ وملابسُه متربةٌ وممزقة. المبيتُ في مواقع البناء وعلى أرصفةِ الميناء ليس سهلًا.

روكسانا، عليه أن يصلَ إليها. إنها الشخصُ الوحيدُ الذي سيخبرُه بمكانِ أسرته وماذا حدث لجوازِ سفره. لكنه لا يريدُ رؤيتها وهو على تلك الهيئة. بحثَ عن حمّام عمومي. غسل جسدَه في الحوض جزءًا تلو آخر وارتدى ملابسَ نظيفة.

استقل المترو إلى أثينا، كان يومَ عملٍ وقد تذهب روكسانا إلى ميدانِ أتيكي بعد مدرستِها. ليست لديه طريقة أخرى للوصول إليها.

غادر المترو في أقربِ محطةٍ لفندق كاتارينو وسار على قدمَيه. أعصابُه على حافة الانهيار. توقّع بنصف عقلِه أن يرى أمَّه أو سميرة. كانت زوجةُ المالك تخرجُ من المطبخ حاملةً سلةَ خبز، عرفته على الفور.

«أهلًا!» صاحتْ مبتسمة.

اندفعَ نحوها.

«أرجوكِ، هل يمكنكِ إخباري، أمّي... هل هي هنا؟»

«أمك؟» سألته مرتبكةً. «أمك ذهبتْ، ليست هنا». لوحَّتْ بيدها نحو الباب.

تهدّل وجهُه.

بالطبع لم تعدْ هنا، لقد مر ما يزيدُ على شهرٍ منذ أن تحدثَ إليها. كان سعيدًا من أعماق قلبه الأكثر نبلًا لسماعهِ أنها ليستْ هنا حتى الآن. تمنّى أن يكونوا قد اقتربوا من إنجلترا.

سألتهُ المرأة عن شيء، لم يفهمْها ولم يستطعْ تجميعَ كلماتٍ لسؤالها عن شيء آخر. رفعتْ كتفَيها اعتذارًا وعادت إلى شأنها.

عاد إلى ميدان أتيكي، وجدَ جمال وعبد الله، حكى لهما عن إعادتهِ إلى تركيا وافتراقِه عن أسرته. هزا رأسَيهما تعاطفًا لكنهما لم يُدهشا. حين كان هنا آخر مرةٍ كان يشعرُ باختلافه عنهم. بأنه أفضلُ منهم. ذهبَ كل هذا الآن. وحده، صار واحدًا منهم الآن. يرى نفسه في وجوهِهم، في ملابسِهم الرثة وأكياسِهم البلاستيكية التي يحتفظون فيها بمتاعهم التافه.

بات ليلتَه في أتيكي، لكنه تذكّر قربه من صبور اللص، فدسّ نقوده في سروالِه التحتي ولف رباط حقيبتِه حول معصمه. بعد الأيام والليالي الكثيرة التي قضاها وحدَه في أزمير، شعر براحة لوجوده وسط أشخاصٍ يعرفهم ولسماعه مزاحَ الفتية واستفزازَ بعضهم لبعض.

في اليوم الثاني بعد عودته. أراد أن يبحثَ عن طعامٍ لكنه خشي أن تفوته رؤية روكسانا. أسند ظهرَه إلى جذع شجرةٍ يستمعُ

لعبد الله وهو يحكي عن طفولته؛ كيف كان يبصقُ بذور البطيخ في جدول الماء خلف بيتِهم، ويخيف أبناءَ عمومتِه الصغارَ بحكاياتِ عن الجن. رسم عبد الله صورةً لأفغانستان لم يكن ليغادرَها أحد أبدًا. كان يستعيدُ الأشياء الجيدة فقط، يعرف سليم هذا جيدًا. كلهم يعرفونَ هذا جيدًا.

ثم جاءت! هبّ ناهضًا على قدمَيه حين رأى «تيشيرتات» بنفسجية. انفجر عبد الله ضاحكًا وضربَ سمّانتَيه.

«آه، السبب الحقيقي لعودتِك! تظنّها ستنقذُك وتمنحُك الحقَّ في اللجوء، صحيح؟»

«عبد الله، لا تقلْ هذا، الأمر ليسُ هكذا».

كان مرتبكًا. اقترب منه أربعةُ متطوعين، فحبس أنفاسه، رأى روكسانا تحملُ صندوقًا كبيرًا.. سار إليها، أرادَ أن يركض لكنه لم يرغبْ في لفتِ المزيد من الأنظار إلى روكسانا من أجل سلامتِهما هما الاثنان.

ناداها باسمِها بهدوء.

اتسعت عيناها دهشةً.

«سليم؟»

وضعت الصندوقَ على دكةٍ ووضعتْ يدَها على ذراعه.

«سليم، أين كنت؟ ماذا حدثَ لك؟» نظرتْ إليه من أعلى إلى أسفل بسرعةٍ، فقدَ وزنَهُ بشكلٍ ملحوظٍ خلال الأسبوع الماضي فقط.

«أأنت بخير؟»

«نعم، أنا بخير»، قال، واعيًا لمَستها. توتّر جسدُه فتراجعتْ، خفتتْ دهشتَها، قاوم رغبته في عناقِها ودفْنِ وجهِه في شعرِها.

«أخبرْنـي»، قالـت وهـي تجلسُ علـى درَجٍ أسـمنتيّ وتتطلـعُ إليـه ليجلـس بجانبهـا. سـألها هـو أولًا:

«روكسانا، أمي... أين ذهبت؟ هل استقلوا القطار؟»

غـادروا فـي اليـوم التالـي لمحادثتـهِ أمـه. ذهبـت روكسـانا إلـى محطّـة القطـار وتعرفتْ عليهـم مـع أنهـا لـم ترَهـم مـن قبـل ورغـم عـدم وجودِ سـليم معهـم. خمّنـتْ أنهـم هـم، حسـبما قالـت، مـن نظـرةِ وجوههـم. بـدوا كمـن ينقصهـم شـيء مـا... أحـدٌ مـا. لـم تخبـرْه بالكثيـر عـن أمّـه، أخفتْ كيـف بـدت مـادر جـان حقًّـا بكلمـاتٍ بسـيطة. سـاعدتْهم روكسـانا علـى ركـوبِ القطـار المتجـهِ إلـى إيطاليـا، ثـم لـم تعـرفْ عنهـم أي شـيء بعـد ذلـك. كان ذلـك منـذ شـهر.

«ألم يصلْك شيءٌ عنهم؟» سألته.

«لا.. أرجو أن يكونوا مع خالتي الآن». أجابها بتنهيدة

«هل يمكنكَ الاتصال بخالتك؟»

لـم يكـن معـه رقـمَ هاتفهـا، لـم يكـن لديـه لا الوقـتُ ولا التفكيـر السـليم ليسـألَ أمـه عـن رقـم الهاتـفِ فـي محادثِتهمـا الوجيـزة الأخيـرة. ليسـت لديـه طريقـةٌ للاتصـال بأسـرتِه ولا للعثـورِ عليهـم حيـن يصـلُ إلـى لنـدن.

أرادت روكسـانا أن تعـرفَ كلَّ مـا حـدث. أخبرتهـا مـادر جـان بشـيء مـا عـن الشـرطة، لكنهـا لـم تـزدْ عـن هـذا.

حكَـى لهـا سـليم القصـةَ كاملـةً وهـي تسـتمعُ إليـه بانتبـاه. عضـتْ شـفتَها وهـزتْ رأسَـها وهـو يصـفُ كيـف ظلـوا يركلونـه قبـل إطـلاق سـراحِه فـي تركيـا. شـعر براحـة أخيـرًا بعـد التحـدث عـن هـذا مـع شـخصٍ مثلهـا، شـخص يسـتمعُ دون أن يـردد أنـه كان يعـرفُ أن هـذا سـيحدث.

«سليم، هذا سيّئ. عليك فعلُ شيءٍ ما. لن يمكنك البقاءُ عالقًا هنا مثل هؤلاء الآخرين»، حذرتْه وهي تنظرُ إلى بقية الأفغان الذين يتجولونَ بلا هدف في المتنزه. «يجبُ أن تجد طريقةً أفضل، ليت معك جواز السفر ذاك الذي أرسلتُه لك بالبريد، أنا واثقة من أنه سُرق، لا يمكنك الوثوقُ بوصول ظرفٍ لعينٍ حتى من هنا إلى هناك دون أن يفتّشه أحد».

«لقد ضاع. عليّ أن أذهبَ إلى إيطاليا بلا جواز سفر، لن يكون الأمرُ سهلًا».

«لا، سيكون ذلك خطيرًا جدًا». فكّرتْ قليلًا، «ربما يمكنكَ الحصولُ على جواز سفر آخر. لكن... لكن هذا يتضمنُ أخطارًا قليلة».

«جواز سفر؟ من أين؟» نظر إليها بفضول. هل تعرفُ هذا النوع من المعلومات حقًا؟

«لكنه مكلف، جوازاتُ السفر الأوروبية... مئات اليوروهات ربما»، قالت بصوتٍ غير واثق. «ربما أمكنني سؤال أحدٍ ما، ظني أنه سيعرف».

أخبرها بأن لديه مالًا، كان جادًا بخصوص شراء أوراقٍ ثبوتية ويثق بها بشدة.

«ساعديني أجد ذلك الرجل».

«احتفِظْ بنقودكَ مخبأة جيدًا سليم، لا تنطق كلمةً عنها للفتية هنا»، حذرَتْه وهي تشيرُ برأسها نحو الآخرين.

خطر له أن فتاةً مثلها يجبُ ألا يكون لها أدنى صلةٍ بميدان أتيكي، غابة الأسمنت والعشب، تحفّها المباني والأشجارُ الساكنة

المخادعة. يرقدُ فيها الرجالُ العاطلون على فرْشٍ من الكراتين. بدت المنطقة كأفغانستان منكوبة أكثرَ منها بلدًا أوروبيًا مستقرًا. كان عليها الركضُ بعيدًا عن هنا لكنها لم تفعل. أثار هذا فضوله.

«لماذا تفعلينَ هذا روكسانا؟» سألها بشرود. لم تقلْ شيئًا، تركتْ سؤاله يذوبُ في الصمت بينهما.

نظر إليها. ماذا ترى؟ أترَى ملابسَه أم شعرَه الملبد؟ أترى صديقًا أم لاجئ؟ لم يعرفُ ماذا يتوقّع من أوروبا لكن بالتأكيد ليس هذا. لم يتوقّع أن يصيرَ مهددًا بالخطر في كلّ خطوةٍ من طريقه. لو كانت روكسانا تحاولُ إصلاح ما حدث له ولأسرته حتى الآن فأمامها طريقٌ طويل.

أشار إليها أحدُ المتطوعين من بعيد، يريدونَ مساعدتها.

«سوف أسألُ مَن أعرفُه عن جواز السفر». عادت نبرتها الجادة العملية. «أين ستبيتُ الليلة؟ أتريدُ العودة إلى الفندق؟»

هزّ رأسه. ربما هي هنا لأنه يجعلُها تشعر بكونها محسنةً ومعطاءة. ربما يتعلقُ الأمرُ بها هي فقط وليس له أدنى صلة به. شعَر بشيء ما مرّ يضربُ جذوره بداخلهِ مع أنه لا يعرفُه ولم يكن فخورًا به.

«لا. سأبقَى هنا».

أومأت برأسها، وقفتْ ونفضتْ بنطالَها بيديها. لم يعرف كم مرةً سألتْ نفسَها هذا السؤال، لماذا تُعنَى بالمجيء إلى هنا؟ لماذا تُعنى بفعل شيءٍ واحدٍ للاجئ واحدٍ في حين يوجد الآلافُ منهم في طريقهم إلى هنا؟

كان يمكنها الابتعاد عنه. يمكنها وضعُه في الفئة نفسِها مع الآخرين. لكنها لم تكن تراه كما ترَى الآخرين وكانت تعرفُ أنه صار مختلفًا بعد أن غادرَتْ أسرته.

أسِفتْ لأنها لا تعرفُ ما الذي حدثَ لأسرتِه. كانت قد راقبتِ القطار يخرجُ من المحطةِ لكن بعد تلك اللحظة، قد يحدثُ أي شيءٍ لفريبا والصغيرَين.. أي شيء.

فريبا
39

اصطحبْتُ طفليّ من سكةِ حديد إلى أخرى، من بلدٍ إلى أخرى. عند كلّ نقطةِ تفتيشٍ، كلّ هيئةِ جوازات، أتوقعُ القبضَ علينا. أسوأ مخاوفي مثل أعلى آمالي، فراقُ طفليّ، أتساءلُ إن كان فراقُ سليم أبديًا أم إنهُ الوحيدُ الذي قد يفلح. سميرةُ فتاةٌ صغيرة، توقيتٌ خطرٌ لتكونَ فيه وحدها، عزيز هشٌّ كزهرةٍ ستذبلُ سريعًا إن سقطت من غصنِها. أدعو في بعض نقاطِ التفتيش أن يُمنح أطفالي حقَّ اللجوءِ حتى وإن أعادوني أنا من حيث جئت. في نقاط تفتيشٍ أخرى، أدعو أن يرسلونَنا معًا. الأمهاتُ في المِحَن تخطرُ لهن أفكارٌ غريبة.

حين كانت الهجماتُ الصاروخية في الوطن على أشدِّها، كانت إحدى زميلاتي المعلمات تتخذُ قراراتٍ مخبولةً كلّ ليلة. ذات ليلةٍ، أرقدت أطفالَها معها وزوجها، جميعهم في غرفةٍ واحدة. ليلة أخرى، جعلتْ كل طفلٍ ينام في غرفةٍ منفصلة وحدَه. كانت كلّ ليلةٍ رهانًا، أن ينجوا جميعًا أو يلقوا حتفَهم معًا. أو يمكنهم الرهان على نجاةِ واحدٍ أو اثنَين منهم. كانت كلّ ليلةٍ، بلا كلل، تدعو اللّه من صميم قلبِها أن يأخذَها إنْ أخَذ أحدًا من أطفالها. تلك دعواتٌ لا تُدعى إلا سِرًّا لأنها إذا نُطِقتْ قد تُسوِّد اللسان.

في العام الأخير، فيما كنتُ أجاهدُ لمنح أطفالي حياةً آمنة، نما لديّ شعورٌ بأنني مجرمةٌ أكثر من أي شيءآخر. حتى التقوَى أمرٌ غامض.

من اليونان إلى إيطاليا، من إيطاليا إلى فرنسا، نحنُ الآن في المرحلةِ الأخيرةِ من رحلتنا، من باريس إلى لندن على متن قطارٍ فضّي أصفر يبدو كصاروخٍ يمرقُ في نفقٍ تحت الأرض. هذه هي الرحلةُ الأخيرة، أتركُ عزيز في رعاية سميرة وأجمعُ جوازات سفرِنا البلجيكية. أضعُها في حقيبةِ يدي الجلديّة السوداءِ وآخذُها معي إلى حمّام عربةِ القطار، مربعٌ ضيّق من الفولاذ المقاوم للصدأ. أمزّق كلّ صفحة منها إلى قطعٍ صغيرةٍ، واحدًا بعد الآخر، وألقي بها في التواليت كندَفِ الثلج التي سنراها في لندن. أمزّقها لأمحو هوياتِنا المزورة. عدتُ فريبا مجددًا، عاد طفلاي سميرة وعزيز مجددًا.

حذّرني كلُّ مَن قابلتهم حتى الآن.

يجبُ ألّا يروا أيَّ جوازاتِ سفر. لا تخبريهم كيف وصلتُم إلى هناك. قولي لهم إنكم تريدونَ اللجوءَ فحسب. أخبريهم لماذا اضطررتِ إلى الهروب. وكيف جاؤوا لأخذ محمود؛ ما حدث له قد يكونُ الشيء الوحيدَ الذي سينقذُك.

تفتيشُ الجوازات في لندن مختلفٌ تمامًا عن أي جوازاتٍ أخرى، هذه المرة سنكونُ صادقينَ وفي أشدّ حالتنا ضعفًا. ظللْنا حتى الآن، نتخفَّى ونُخفِضُ رؤوسنا لنختبئَ كلما مررْنا بشخصٍ بزيٍّ رسميّ، خلال أقلَّ من ساعةٍ، سيتغيرُ هذا.

ارتعشَتْ يداي وأنا أقفُ بجوار التواليت أراقبُ القطعَ الصغيرة تختفي تمامًا في دوامةِ المياه، استندتُ إلى الحائط، وأسندت يدي إلى حافةِ الحوض المعدني. ملمسه باردٌ ومنعش.

المعدنُ في كلّ مكان؛ القطارات، القضبان، المحطات. كلُّ محطةٍ وحشٌ من الفولاذ، شُيِّدتْ بعقلانيةٍ وبلمعةِ الحداثة. الساحةُ، الممراتُ، الأسقف، هذا هو الفرقُ بين عالم الأفغان وهذا العالم. هذا العالمُ يقف راسخًا ولامعًا وقادرًا. أما نحنُ الأفغان فقد شيّدْنا بيوتَنا، وحتى أُسَرنا، من الطين والتراب، هشّةٌ جدًّا حتّى ليسهلَ القضاءُ عليها بالعطْس فقط. وقد حدث، وما زالوا يعطسون، مرارًا وتكرارًا.

أريدُ حياةً لا تتسربُ فُتاتًا من بين أصابعي، يومًا ما سأعود إلى التراب لكن حتى ذلك الحين يجبُ أن أناضلَ أنا وأطفالي.

أفكّر في أبي، وحدَه في بستانهِ الذاوي، ينامُ في غيضةٍ من الأطلال العضوية، لا أعرفُ إن كان حيًا أم ميتًا. مضَى وقتٌ طويل جدًّا منذ أن سمعتُ صوته. أعرفُ لماذا رفض الرحيل. لقد تعلمَ أن يحب تحول كلّ شيءٍ، قبولٌ نتمتعُ به فقط حين نقتربُ من نهاية الطريق. لا يعنيه إن حانتِ النهاية اليومَ أو غدًا، إنه على استعداد للعودةِ إلى الأرض، من وإلى الأرض، سيظلُّ يتنفس ترابَ البستان المتهالك كل يوم حتى تمتلئ به رئتَاه مثل ساعة رملية. حينها سيتوقفَ الزمن.

يسهلُ عليّ حبُّه من بعيد. من هنا لا أرى ضعفَه أو فشله. لا أرى سوى تلك اللحظاتِ البهيةِ حين نظر إليَّ كفَتاتهِ العزيزة الغالية، حين تحدثَ عن أمي وجعلني أشعرُ بالكمال. بقية طفولتي... حسنًا، ربما من الأفضل حقًا أن تتفتتَ إلى لا شيء.

نظـرتُ إلـى وجهـي فـي المـرآة، أبـدو أكبـر سـنًا بكثيـرٍ ممـا أتذكّـر. ألمـسُ جلـدَ وجهـي. خشـنٌ. لكننـي سـعيدةٌ تقريبًـا. لـم أكـن مخلوقًـا رقيقًـا مـن قبـل، كلّ يـوم يـزدادُ جلـدي سُـمكًا وأجدُنـي أفعـل أشـياءَ لـم يخطـر علـى بالـي قَـط أنني سـأفعلها، ولا حتـى بمسـاعدةِ زوجـي. كلمـا ازددتُ خشـونة ازدادتْ فرصنـا فـي النجـاة.

تركـتُ طفلـيّ وقتًـا طويـلًا جدًا. أنـا بحاجـةٍ إلـى هـذه الدقائـق مـع ذلـك، يمكننـي خلالَهـا جمـعُ أشـلائي والعـودة إليهمـا أمًّـا.

لكـن الثوانـي تمـرُّ وعلـيّ العـودة إلـى طفلـيّ. اقتربـت اللحظـةُ التـي ظللْنـا ننتظرُهـا.

سليم
40

بعد ذلك بنصفِ أسبوع عادتْ روكسانا. حار سليم في ما يقولُه لها. لم يكن مرتاحًا لطريقة انتهاء آخر محادثةٍ بينهما. تمنّى ألا تلحظَ لمحة الحقد القبيحة بداخله. أجرت التوزيعاتِ المألوفة مع زملائها قبلَ أن تتّجه إليه.

«هل يمكنكَ مقابلتي في الملعب الذي بتَّ فيه مع أمّك؟ في وقتٍ لاحقٍ الليلة، قرابة الثامنة مساء؟» وافق سليم، همَّ أن يعتذرَ منها لكنها سارتْ في طريقها بسرعة، قبل أن يحاولَ فتح محادثةٍ أخرى، غادرت هي والمتطوعون الآخرون.

لم يرد تفويتَ موعده معها، قضَى الظهيرة يستمعُ إلى عبد الله وحسن يحكيانِ نكات المُلّا الأحمق نفسه التي حكياها آلافَ المرات من قبل. واحدة عن الملّا واليقطينة، وأخرى عن المُلا وحمارٍ أعور. يعشق الأفغانُ السخريةَ من رجال الدين.

يرى الشبابُ وهم يسيرونَ على ضفّة النهر المُلّا على الضفة الأخرى فيصيحون عليه: «يا رجل، كيف نعبرُ إلى الجانب الآخر؟» فيجيبهم الملا: «أأنتم حمقَى؟ أنتم على الجانب الآخر بالفعل!»

ضحِك حسن. الضحكُ على نكتةٍ ضحكْت عليها من قبل في أفغانستان يعني تذكّر الأوقاتِ الطيبة. كان في نكاتِ الملّا المملة تلك حنينٌ حلوٌ إلى الوطن. وكان سيستمتعُ بها أكثر لولا قلقه بشأن الوقت.

أدار ساعتَه حول معصمِه. بالنظر إلى السماء، الساعة قرابة السابعة مساءً.

«يا شباب»، قال متثائبًا وهو ينهضُ ببطء، أراح يدَيه على ركبتَيه، قوّس ظهره وأطلق نخرة صغيرةً إلى حد ما «ظهري متخشّبٌ... ظني أنني سأسيرُ قليلًا في الأنحاء».

«أتريد السيرَ حقًا، إن شئتَ طلبتَ من سائقي توصيلك!».

ابتسم سليم مرغمًا وأجابه: «المرة القادمة ربما».

في الملعب، تدفعُ ثلاثُ فتياتٍ أنفسهن على الأرجوحات، يمددْنَ أرجلَهنّ ويعدْنها وهنّ يَملْن إلى الخلف. يتسلقُ صبيّانِ في سن المدرسة سلّمًا خشبيًا ويعبرانِ نموذجَ جسرٍ. يراقبْهم والداهم، يختلسانِ نظراتٍ جانبيةً إلى سليم.

أيقلقُهما؟ ربما سيُدهشان إن عرفا أنّهما يُرعبانِه.

جلس بظهره لهما متعمدًا على دكةٍ بعيدة، وشردَ ببصره بعيدًا في الأفق. فكّر في المغادرةِ والعودة حين يأخذانِ أطفالَهما. لكنه لم يشأ المخاطرةَ بتفويت موعدِ روكسانا. هي من تجعلُه يشعرُ بإنسانيتِه مجددًا ولم يكنْ ليستهينَ بهذا. توجدُ صحيفةٌ على دكّة قريبة. التقطها وعاد إلى دكّته، يتظاهرُ بقراءة اليونانية.

جاءت أخيرًا، وقفتْ خلفه دون أن تنطقَ بكلمةٍ. كان الأطفالُ قد غادروا حينها، أخذَهم والداهُم وهما يحدجانه بنظرةٍ أخيرة. جاءت متأخّرة، ربما تعرفُ أن سليم سيظلُّ في انتظارِها طوال الليل.

«سليم».

التفتَ لسماعهِ صوتها. لماذا يشعرُ بشيء ما خطأ في لقائهما على هذا النحو؟ لماذا يشعرُ بإحراجٍ شديد من هذا؟ شيء ما سرّي في الزمانِ والمكان.

«هاك، جرّب هذا»، قالتْ وهي تناولُه لفةَ ورقٍ شمعي. جلستْ بجوارهِ على الدكَة.

«ما هذا؟» سألها وهو يفضُ اللفة.

«كباب.. أمي تعد كبابًا رائعًا. أردتُكَ أن تتذوقَه أنت أيضًا». انزلقتْ في جلستها على الدكة، أزاحت الصحيفةَ وجلست بجانبه. الكبابُ لا يزال دافئًا، سال ريقه لمذاق اللّحْم الأحمرِ والتوابل.

«تعلمتَ قراءة اليونانيةِ إذن، صحيح؟»

ابتسمَ وهو يمضغُ اللحم. ذابت القضمةُ الأولى في فمهِ بمذاق أفضل من أيّ شيء يمكنه تذكّره.

«هل أعجبك؟»

«ممم، طعمُه كالـ... كالوطن». لعقَ شفتَيه وأغمضَ عينيه. «شكرًا لك!»

ضحكتْ.

«على الرحب. خمّنتُ أنكَ ستستمتعُ به»، قالت.. «أردتُ أن أتحدث معكَ لأرى إن كان لديكَ أيُّ أفكارٍ بشأن الوصول إلى أسرتك، أتعرف؟»

تنهّد. «لا أعرف».. لا يزالُ جزءٌ منه يحملُ ألمَ وكدماتِ الرحلة من أزمير.

قالت: «لقد سألتُ من أعرفُهم ولا أحد منهم يعرفُ شيئًا عن إصدار أوراقٍ ثبوتية، ظني أنهم يخشونَ إخباري، أنا آسفة جدًا سليم، كنت أتمنى أن أساعدَك».

شعر بالإحباط، لكنه صار معتادًا على هذا الشعور.

«أعرفُ أنك تحاولين، لا بأس، عليَّ إيجادُ طريقةٍ أخرى».

نال منه العمل في المزرعةِ، والحياة في الشارع والجوع والضرب. لم يكن جسدُه ينمو بقدر ما يتقدمُ في السن تحت الضغط. إنه متأكدٌ من أن هذا ما تراه روكسانا حين تنظرُ إليه.

«لديّ فكرة، كنتُ أفكّر في خالتكَ وزوجها. حين تصلُ إلى إنجلترا، أين ستذهب؟ إنها بلدٌ كبيرٌ وقد تتوهُ فيها بلا عنوان. أخبرني بأسمائهما، ربما يمكنُني مساعدتكَ في العثور عليهما؟ سأبحثُ على الإنترنت، لا أعدك بشيء لكنّ المحاولةَ جيدةٌ على الأقل».

«ستحاولين؟».. مسحَ الدهن عن شفتَيه بالورق الشمعي. «خالتي في لندن، يعيشون في شقة».

أخرجتْ قلمًا وورقةً من حقيبتها، «اكتبْ لي أسماءَ خالتك وزوجها وأبنائهما. اكتب كلَّ شيء وسأرى ماذا سأجد».

«خالتي اسمها نجيبة، إنها أخت أمي، زوجها حميد حيدري، وهو قريبُ أبي. هذه هي الأسماءُ التي رأيتُها في الخطابات التي أرسلاها لنا في أفغانستان».

«جيد»، قالت وهي تضعُ الورقة في حقيبتها الصغيرة، «وشيء آخر سليم».

أي شيء، فكر في نفسه، *لتجلسي هنا وتواصلي الكلام فقط*.

كان يسرّه الاستماعُ إليها، رؤيةُ شفتَيها تتحركان، مشاهدتُها وهي تبعد خصلاتِ شعرها عن وجهِها، ورمش أهدابها.

«أعرف أن العيشَ في أتيكي ليس سهلًا». كلمة أتيكي مرادفٌ جيدٌ لكلمة الشارع. «وفكرتُ في أن... أردتُ فقط القول إنه لو شئتَ، يمكنكَ المجيء إلى بيتي نهاية هذا الأسبوع لتستحمَّ جيدًا. فكّرتُ أن هذا قد يجعلكَ بشعورٍ أفضل».

أشرقَ وجهُه. التفت لينظرَ إليها مباشرة تحت ضوءِ مصباح الشارع، رأى وجهَها يحمرّ.

«سيكونُ أبي وأمي خارجَ المنزل فترةً من الوقت خلالَ العطلة الأسبوعية. إن شئتَ يمكنكَ المجيء مدة ساعةٍ لتحظى بحمام دافئ».

تساءل إن كان عليه قبولُ عرضِها. لن يعرفَ والداها شيئًا عن زيارته. ماذا لو عادا إلى البيت فجأة؟ هل يستحقُّ الأمر المخاطرة؟ نظر إليها مجددًا. استدارةُ شفتَيها التامةُ، التمردُ الهادئ في عينَيها، نعم، بالقطع يستحقُّ المخاطرة.

أجابها: «هذا كرم شديد منكِ، نعم من فضلك». أومأتْ وأشارت إلى بنايةٍ في نهاية الشارع. أخبرته أن يبحثَ عن مظلةٍ خضراء أعلى الواجهة. عليه الذهابُ يوم السبتِ ظهرًا. كتبت رقمَ الشقة على ورقةٍ أخرى وناولتْه إياها، نهضتْ لتغادر.

«تأخرَ الوقت». استدارت له مجددًا، كأنها تذكّرتْ شيئًا. «سليم، لن تخبرَ الآخرين في أتيكي بشيء، أليس كذلك؟ نحنُ... أعني متطوعي المنظمة... ليسَ من المفترض أن نتواصلَ مع... يجبُ أن يقتصرَ عملنا على أتيكي فقط. هل تفهمُني؟»

أومأ لها برأسِه. لم يكن لديه أدنى نيةٍ المشاركة في هذا مع الشباب في أتيكي. النفسُ السيئةُ تصطاد دائمًا في المياه العكرةِ وهذا تحديدًا هو ما ستجذبه إلى السطح.

راقبها تعدلُ حزام حقيبتِها الصغيرة وتسيرُ مبتعدة. لم يستطعْ إبعاد نظرهِ عن التمايلِ المتناغم لشعرِها وردفَيها، أنوثةٌ رقيقة.

السبتُ بعد ثلاثةِ أيام. رقد في أتيكي ليلًا، يتخيّلَ نفسه يسيرُ إلى بيت روكسانا. أغمض عينَيه وراح يحلم.

في حلمه، كان في الحمّام، ينهمرُ الماء الدافئ على وجههِ وكتفَيه. يشعر جلدُه بانتعاش. جمع الماءَ في يدَيه المتكوّرتَينِ وشرب. جففَ نفسه بمنشفة، خرج إلى غرفةٍ كبيرةٍ وخالية، مظلمةٍ إلى حدّ أنه لم يرَ جدرانَها. اقتربتْ منه روكسانا ببنطالِها الجينز الذي يحتفي بكل ثنْيةٍ يافعة. ابتسمت، لمستْ كتفَيه المبللتينِ ومسحتْ قطراتِ الماء عن صدره، جذبتهُ إليها.

استيقظ فجأةً. هبّ ينهضُ جالسًا. كان الظلامُ حالكًا. تذكّر أنه في أتيكي على سلَّم مبنى قديم وعبد الله على مقربةِ أقدام قليلة منه يشخر. كان حلمًا، راودَه الشعورُ المألوف وغيرُ المريحِ مع ذلك بالاستثارة، انتظرَ أن يبارحَه.

لكنه حينها أحسّ بشيءٍ ما آخر.

رأى حين اعتادتْ عيناه على الظلمةِ قامةً ممتلئةً لرجلٍ يجثم عند قدَميه. ميّز سليم من خيالَ الظل أنه صبور.

«ماذا تريد؟!» صاح فيه فجأة.

«لا بد أنكَ كنتَ تحلمُ حلمًا جيدًا». همس صبور بلؤم.

اعتدلَ سليم في جلسته. امتدّتْ يده بسرعةٍ إلى جانبه ليتأكد من وجود نقوده في أمان. كان قد لفّها في قطعة قماشٍ ودسها في سرواله التحتي، أأمنُ مكان أمكنَه التفكير فيه. شعر بكتلتِها في حقوه.

«ماذا تريد؟» سأله مجددًا.

واصل عبد الله شخيرَه بلا انقطاع.

انبعثت من صَبور رائحة عرقٍ قديم. شعر سليمُ بيدهِ السمينةِ على ذقنه، ثم انزلقتْ إلى ركبتهِ. جعلته لمستُه يهب واقفًا. وقف الاثنانِ أمام أحدهما الآخر.

«أردتُ أن أتأكدَ من أنك تنامُ جيدًا فقط، يا فتايَ العزيز»، قال صبور ضاحكًا. «يمكنك الآن العودةُ إلى أحلامك وسأعود إلى أحلامي أنا أيضًا».

راقبه سليم وهو يبتعدُ بهدوءٍ في الظلام، بين متاهةِ الأجساد، عائدًا إلى خيمته المرتجلة.

استحال النومُ بعد ذلك. حدّقَ في الظلام يصيخُ السمع لصوتِ خطوات. لعنَ عبد الله لنومه طوال الوقت. ظل يفكّرُ منذ متى وصبور هنا؟ هل وضعَ يدهُ عليه وهو نائم؟

جعله هذا الخاطرُ عصبيًا وخائفًا. لقد سمع عن سرقاتِ صبور ولا شيءَ أكثر من هذا. كان الأمرُ مخيفًا حتى تخيّل أنه من نسج خياله. لكن حتى تحت عباءة الظلام، كان حقيقيًا، حدثَ لتوّه وجعل جسدَه يقْشَعر.

ثقُل جفناهُ عند الفجر، في الأمان النسبيّ لضوءِ النهار، كان من الصعبِ مقاومة إغماضِهما.

استيقظ عبد الله ليجدَ سليم يطرفُ بعينهِ ببطء.

«ماذا؟ هل استيقظتَ بالفعل؟ صباحُ الخير يا صديقي! مرحبًا بيومٍ جديد في أتيكي. أتمنى لو كان بإمكاني تقديمُ إفطار لائق لكنني لن أفعل لتحظَى بالخبرة الأتيكية الحقيقية»، قال عبد الله ساخرًا.

سليم، بوجهٍ متجهم، عاودَه صحوُه فجأة؛ زال نعاسُه سريعًا بالحاجة إلى مشاركةِ أحدٍ في ما حدث الليلةَ الفائتة.

«عبد الله، حدث شيءٌ غريبٌ ليلة أمس».. قال بتوتر، ليس متأكدًا من ردةِ فعل صديقه. ربما بدا الأمرُ كله مختلقًا.

«هذا ليس غريبًا في الحقيقة، هذا يحدثُ للجميع. مرحبًا بك في عهد الرجولةِ يا فتى». جلس عبد الله ومدّ ذراعَيه أعلى رأسه.

«اسمعني لدقيقة، أيمكنكَ هذا؟ لقد استيقظتُ في منتصف الليل وكان صبور يجلسُ هناك، عند قدميّ مباشرةً». أشار سليم إلى المكان الذي وجدَ فيه صبور جاثمًا.

«ابن الحرام، كان يحاولُ سرقة أشيائنا!» التفتَ عبد الله حوله وبحث عن كيسهِ البلاستيكي الذي يحتوي على أشيائه. ارتاح حين وجد كل شيء في مكانه.

«لا أعرفُ لماذا كان هنا، لا أظنه كان يسرقُ أيَّ شيء، كان يتصرفُ... كان يتصرفُ بغرابة».

«بغرابة؟ ماذا تقصد؟»

«أقصد أنه... حسنًا، حين استيقظت كان... كان جالسًا هناك فحسب يراقبُني». فرك الضبابَ عن عينَيه، يصعبُ عليه صياغة الكلمات. «ثم لمسَ رِجلي».

اعتدل عبد الله في جلسته، تجهّم وجهُه بقلق.

«لمس رجلك؟ لماذا لم توقظني؟»

هز سليم رأسَه. لا يعرفُ لماذا.

«لقد سألتُه مرّتين ماذا يريدُ وظننتُ أن هذا سيوقظُك لكنه نهضَ ولا أعرفُ ماذا فعَل».

شعر سليم بقذارةٍ استثنائية هذا الصباح. كرهَ وجوده على مسافةِ ياردات قليلة من صبور.

سكت عبد الله، فرك عينَيه بخشونةٍ وأخفضَ صوته قائلًا: «كان هنا ولدٌ صغير الشهر الماضي. أتتذكرُه؟ طفلٌ صغير في سن المدرسة، كان معه أخوه الأكبر. عمومًا، استيقظَ هذا الولدُ ذات ليلة مذعورًا كأن الجنَّ يلاحقه، حين استيقظْنا في الصباح كان يتقيأ. حين حاول أخوه التحدثَ معه، أخذ يصرخُ بأعلى صوته. لم تكن لدينا أدنَى فكرةٍ عمّا حدث له لكنني لاحظتُه ينظر في اتجاه صبور مرتَين. وكان صبور ينظرُ إليه ببرودٍ لم أره قط. أرعبني، حقًّا. بعد ذلك بيومين، ركضَ الولد في شارعٍ مزدحم وصدمتهُ سيارة. لقى حتفَه هناك على الطريق».

هزّ عبد الله رأسه للذكرى.

«كانت مصيبة، جُن جنونُ أخيه تمامًا بعد ذلك، جاءت الشرطةُ وأخذته دون أن يقولَ أحدُنا شيئًا. لم يكن ليعيشَ طويلًا بحاله التي كان عليها»..

أطلق عبد الله تنهيدةً عميقة.. تُزعجه الذكرى.. «لا أعرفُ ماذا حدث لكنني منذ ذلك الحين وأنا أتساءلُ إن كان لصبور صلةٌ بالأمر. كان الولدُ ينظر إليه نظرةً غريبة حقًّا. وبدا صبور على الجانب الآخر كأنّه يُسكتُه بنظرته فقط».

شعر سليم بحلقهِ ينقبض.

جلس عبد الله بركبتَيه مضمومتَين إلى صدره. تنقر قدمُه اليمنى بالإيقاع المتسارعِ لقصته.

«يكفينا سوءًا احتجازُنا هنا لكن أن نُحتجزَ معه، رحمتك يا الله. سأحذّرُ حسن وجمال على الأقل. إن رحنا نخبرُ الجميع لا ندري ما قد يفعلُه هذا الحيوان. علينا أن ننتبهَ لأنفسنا جيدًا سليم، وأحدنا للآخر. هذه هي الطريقةُ الوحيدةُ للنجاة في مكان كهذا».

أومأ سليم برأسِه، إنه بحاجة إلى وسيلةٍ لحمايةِ نفسه. أدركَ الآن أنه وحده وبلا دفاعاتٍ حقًا. في الأشهر السابقة لاختفائه كان بادر جان يحتفظ بسكينٍ تحت مرتبته. ظن أن طفلَيه لم يلاحظا لكن سليم رآها وتساءلَ ممَّ يخافُ بادر جان ليخاف منه هو الآخر. لكنه، بامتياز الطفولة، كان يستطيعُ إغماض عينَيه مطمئنًا لأن أباه سيدافعُ عنهم ضدّ أي شيء. ربما تلك هي اللحظةُ التي يكبرُ فيها الطفل، فكّرَ، حين لا تعدُّ سلامتكَ مسؤولية أحدٍ غيرك.

عليه الانتباهُ لنفسه الآن، كما قال عبد الله.

سيعثرُ على سكينٍ مثل بادر جان. سيجد شيئًا ما ثقيلًا ومميتًا، ليس للزينة.

كان بإمكانه النوم لكنه سار مبتعدًا بدلًا من ذلك، شق طريقه بين المحلاتِ في السوق، تفقّد نوافذَ العرض وتجوّل في محلاتٍ قليلةٍ تبدو واعدة. وجد سكاكين مطبخٍ قليلة، وخنجرًا عتيقًا بغمدٍ معدني مزخرفٍ، ومطواةً عليها العلمُ اليوناني. لا شيء من هذا سينفعه.

في محلّ صغيرٍ في أحد الأزقة، وجد ما يبحثُ عنه تحديدًا. كانت نافذةُ العرض مكدسةً بأشياء، وتبشّر بالفوضى في الداخل.

كان هنـاك ماكينـةُ خياطـة وكرسـيٌّ وكتـبٌ مكدسـة، وأدواتُ طبـخ وملابـسُ أطفـال وحـذاءُ عمـل برقبـةٍ عاليـة وكـرةٌ أرضيـة قديمـة. دخـل، أعلـن رنيـنُ جـرسٍ عـن دخولـه. لا بـد مـن وجـود سـكّين معقولـة فـي مـكانٍ مـا فـي هـذه الكومـة مـن الأشـياء. كان محقًّـا. صاحـبُ المحـلّ رجـلٌ كبيـر فـي السـن بنظـاراتٍ بإطـارات سـلكية، يُمسـك مفـكّ براغـي مصغـرٍ فـي يـده ويحرّكـه داخـلَ سـاعةٍ عتيقـة بـرزتْ دواخلُهـا وانتشـرتْ علـى السـطح الزجاجـيّ أمامـه. يقبعُ خلفـه صـفٌّ مـن السـاعاتِ القديمـة بمختلـف الأعطـال، أومـأ سـليم للرجـلِ وراح يتجـوّلُ بيـن ثلاثـةِ ممـراتٍ ضيقـة.

صحـونٌ أعلـى وسـادات، ترمـوس محـاطٌ بأجهـزةِ كاسـيت، نظاراتُ قـراءةٍ مُسـتخدمةٍ بجـوار صنـدوقِ لمبـات. لا منطـقَ ولا زمـن فـي هـذا المحـل. ظلـتْ عينـاه تمسـحانِ المـكانَ حتـى وقعتـا علـى رفٍّ سـفلي، وجـد أسـفلَ كومـةٍ مـن مفـارش المائـدة مقبضًـا برونزيًـا مدفونًـا. سـحبه سـليم ووجـدهُ خنجـرًا فـي جـرابٍ برونـزي مزخـرف. سـحبه مـن الجـراب ووجـدَ النصـل بطـول سـتّ بوصـات مبقّـعٍ بالصـدأ. كان قديمًـا ومهمـلًا. مـع ذلـك كان أجمـلَ مـن أيِّ سـكينٍ رآهـا سـليم مـن قبـل.

هـذا بالضبـط مـا يريـدُه، لمـس النصـلَ بحـرص. شـعرَ بقـوةٍ ورهبـةٍ وهـو فـي راحتـه. لا يـزال الطـرفُ حـادًا بمـا يكفـي ليحـزّ إصبعـه وهـو يضغـطُ عليـه. أعـاد الخنجـرَ فـي غمـدِه وعلّقـه عنـد خصـره. يناسـبُ بنطالَـه الجينـز، ثقيـلٌ لكـن يمكـنُ إخفـاؤه. عـاد إلـى العجـوز فوجـدَه لا يـزالُ مشـغولًا بتـروس السـاعةِ القديمـة.

«أريد أن أشتريَ هذا من فضلك،كم ثمنُه؟»

رفع العجوزُ بصرَه، نظاراته تكادُ تسقط عن طرفِ أنفه، نظر إلى الخنجرِ ثم إلى سليم.

«عشرونَ يورو»، أجابه وعادَ إلى ساعته. تململَ سليم في وقفتهِ يفكّر في ما يمكنه دفعه.

«مستر، سأعطيك عشر يوروهات، لا مشكلة».

«عشرون يورو».

«مستر أرجوك، عشر يوروهات». رفع الرجلُ بصره مجددًا لينظر إلى سليم جيدًا، خلع نظاراته ووضعَها على المائدة.

«ثمانية عشر».

سكت سليم قليلًا، تذكّر ليلة أمس واليد التي لمستْ ركبته.

«خمسة عشر، أرجوك»، قال أخيرًا.. تنهّد الرجلُ وأومأ برأسه. مدّ راحتَه وسليم يعدّ نقوده، دسّ سليم المقبضَ في حزام خصره. همّ بمغادرة المحل لكنه توقفَ وسأل الرجل: «مستر، هل تصلح هذه الساعة؟»

«ممم»، كان صاحب المحلّ قد عاد بالفعل إلى عملهِ ولم يعْنَ برفع بصره.

«هل لك... هل لك أن تنظرَ إلى ساعتي؟»

ارتفع رأسُ الرجل حين سمعَ كلمة ساعة. مد يده، فكّ سليم رباط ساعته عن معصمهِ بسرعةٍ ووضعها في راحة الرجل.

قلّبها الرجل، هزّها برفق وقربها من أذنه. غمغم بشيء ما وبحث في سلة بلاستيك حتى وجدَ الأداة المناسبة. فتح ظهر الساعة وأخرج مجموعةً من التروس الرقيقة، لمس التروس برقة ونكزها ونقرها. أجزاءُ الساعة صغيرة جدًا، لم يستطع سليم

رؤيـة مـا كانَ يفعلـه. بعـد عـدة دقائـق، أغلـق الرجـلُ ظَهـر السـاعة مجـددًا، قلّبهـا وأعـاد ملأهـا.

ثم أعادها وقد عادتْ إلى الدوران إلى سليم بفتور قائلًا:

«إنها سليمة الآن، يمكنكَ ضبط الوقت».

أخـذ سـليم السـاعة، فقفـز قلبـه فرحًـا وهـو يـرى عقـربَ الثوانـي يـدور، سـاعة أبيـه تـدورُ مجـددًا!

«شـكرًا لـك سيدي! شـكرًا جزيـلًا لـك! شـكرًا!» مـال سـليم علـى المنضـد وأحـاط بذراعَيـه صاحـبَ المحـل المذهـول.

«نعم، نعـم»، ابتعـد الرجـلُ عـن ذراعَـي سـليم ولوّح لـه بيده يصرفه. انطلـق سـليم مجـددًا بمعنويـاتٍ مرتفعـةٍ ووجـد قطعـةَ قمـاش خـارجَ محـل ملابـس لـفّ بهـا مقبـضَ الخنجـرِ وربطَـهُ حـول خصـره، ثـم عقدَهـا بإبزيـم حزامـه ليثبّتَ الخنجـر مكانـه.

إلـى يسـاره طريـقٌ يـؤدي إلـى الفنـدق. نظـر إلـى يمينـهِ توجـدُ لافتـاتٌ تشـير إلـى سـوق الأطعمـةِ التـي سـرقَ وجباتهـم الأولـى منهـا. عـض شـفته ندمًـا حيـن تذكّـر كل مـا سـرقه. لـن يكـرر هـذا أبـدًا، أقسَـم علـى هـذا.

علـى الرجـلِ، كمـا فكّـر، أن يكسـب عيـش أسـرتِه بشـرف. صـار مـن الضـروري ألّا يشـعرَ باليـأس ولا بكونـهِ مجرمًـا.

ثمّـة شـيءٌ آخـرُ عليـه فعلـه مـن أجـل لـمّ شـملِ أسـرة حيـدري. كانـت أمُّـه سـتحذّرُه مـن التسـرعِ فـي هـذا لكـن عـدم وجـود مجـالٍ لـلآراء الجريئـة أو الرومانسـية هـو تحديـدًا مـا جعلـه يقـرر، فـي ومضـةٍ فكّـر واحـدة، أن يتجـه شـرقًا. لـم يكـن ليناقـش هـذا الأمـر معهـا فـي جميـع الأحـوال. ربمـا كان البقـاءُ مفلسًـا مـا منحـهُ الجـرأةَ

ليتصـرفَ بشـكلٍ غيـر عقلانـي.

استمعَ إلـى تـكاتِ سـاعتهِ المُطمئنّـة، فابتسـمَ راضيًـا عـن خطتـهِ وتحـرك بخطـواتٍ واثقـة.

سليم
41

«أسـرِعْ». قالـت روكسـانا وهـي تمسـكُ مرفقـه. «لدينـا جيـرانٌ يدسّـون أنوفهـم فـي كلّ شـيء».

دخـل سـليم إلـى بيـتِ روكسـانا متوتـرًا. لـم يمكنـه تخيّـلُ مـا قـد يحـدثُ إن عـاد والدُهـا إلـى البيـتِ ليجـدَ لاجئًـا أفغانيًـا يجلسُ فـي غرفـةِ المعيشـة. غمغـم قائـلًا: «ربمـا يجـبُ أن...»

«لا بأس، ادخلْ فقط».

أغلقـت البـابَ بعـد أن ألقـت نظـرةً أخـرى سـريعةً إلـى الـرواق لتتأكـدَ مـن أن أبـوابَ الشـقـقِ الأخـرى كلّهـا مغلقـةٌ. اطمأنّـتْ وقادتْـهُ مـن الردهـة إلـى غرفـةِ المعيشـة.

جالـت عينـاه فـي الغرفـةِ، مسـحَها كلهـا فـي نظـرةٍ واحـدة. أرائـكُ بيـج أنيقـة تحيـط بطاولـةٍ واطئـةٍ بلـون القهـوةِ عليهـا عـدة كتـبٍ. على الحائـط صـورٌ فوتوغرافيـة قديمـةٌ معالَجـةٌ بحبـر السـبيدج. تضفـي سـتائرُ الكتّـانِ فـي خلفيـة الغرفـة شـعورًا بالهـدوء. شـقّتُهم فـي حجـم بيـتِ آل حيـدري فـي كابـول تقريبًـا لكنهـا تبـدو أكثـر حداثـةً وأوسـعَ بكثيـر.

قالـت روكسـانا: «خـرجَ والـدي فتـرة الظهيـرةِ فقـط، لذلـك علينـا أن نسـرعَ، أردتـك أن تسـتخدم حمامًـا لائقًـا فحسـب».

صوتها مختلفٌ، ليست هادئةً كعادتها. بل تتململُ وتنظر بعيدًا. لم يكن متأكدًا إن كانت قلقةً لوجودها معه وحدهما أم تخشى عودةَ والدَيها مبكّرًا على نحو غير متوقّع.

«روكسانا، ربما سأغادر...»

«لا»، قالت مدركةً سوء ترحابها، أخذت نفسًا عميقًا وبدأت مجددًا: «لا بأس. كلُّ شيء بخير». ابتسمت، استعادت رزانتَها. انبهر سليم وحسدَها بينه وبين نفسه، شعرَ أن قلقه يهزمُه هو.

قادتهُ من غرفة المعيشةِ إلى رواقٍ ضيّقٍ وأشارت إلى باب قائلة: «هذا هو الحمّام وهاكَ منشفة، يوجدُ في الداخل شامبو وصابون.. سأنتظركَ في الغرفة الأخرى، حسنًا؟»

كان أكثر من ذلك، كان رائعًا، لم يرَ مثل حمامِهم من قبل. جعلت الجدرانُ الصفراء بلون الليمون الحمامَ ساطعًا ومبهجًا. الحوضُ إناءٌ زجاجيٌّ مثبَّت بالجدار. على رفٍ وحيد يوجد صفٌّ من الأواني الخزفية الصغيرةِ بلونٍ أخضرَ داكنٍ يبرز من كلٍّ منها فرعٌ صغير من زهورِ أنفاسِ الطفل. وللدوش بابٌ من الزجاج المصنفَر.

شعَر سليم بحرجه وغرابتهِ في أجمل حمام رأته عيناه. أدار الصنبورَ، خلع ملابسَه ووضع خنجرهُ وحافظتَه على بنطاله الجينز. دخل تحت الدوش وتركَ الماء الساخنَ يغمره. تكونتْ عند المصرف دوامةٌ قاتمة، ظل يدعكُ جسده حتى سال الماء منه نظيفًا. غسل شعرَه ثلاثَ مرات ثم أغلق الصنبورَ على مضض. وقف لحظةً، الحمام دافئ ومعبأ ببخارِ الماء.

الماء، فكّر في تقدير جديد، خيرٌ بالتأكيد.

جفف نفسه بالمنشفةِ، ارتدى ملابسه وخرجَ إلى الرواق. إلى يساره أبوابٌ فرنسية نصفُ مفتوحةٍ تؤدي إلى غرفة مكتب. في منتصفِ الغرفة مكتبٌ خشبيّ كبيرٌ منحوت بلون كرزي. جوانبُها الثلاثةُ مشغولة بأرففٍ خشبية باللون الكرزيّ نفسه ومكدسةٌ بالكتب، كتبٌ كثيرة جدًّا! ذكّرتْ سليم حين أخذه والدُه إلى عمله في إدارة الماء والكهرباء. زارا حينها مكتبةَ الإدارة التي كانت مكدسةً بكتبٍ سميكة بصفحاتٍ مهترئة وأغلفةٍ متربة. كان سليم على علم تام بأنهم لن يسمحوا لولدٍ في الخامسة من عمره بالتجولِ بين صفوفِ الكتب، وبأن هذه الحقيقةَ أكثرُ أهميةً من أي كتابٍ في المكتبة الضخمة.

لسنوات بعد ذلك، ظل والده يضحكُ وهو يذكّرهُ بأهم جزءٍ من ذاك اليوم.

«ثم جاء كبيرُ المهندسين وسألكَ إن كنتَ تحبُّ أن تعمل في مبنى كهذا حين تكبر فأجبته: لا سيدي، أمي تغضبُ أحيانًا لأنها تقول إن أبي يتوه بين الكتبِ. ولا أريدُها أن تغضب مني أيضًا».

تعجّب سليم من كيف لم يمل بادر جان من تذكّر ذلك التعليقِ الطفولي البسيط. لكنه، في جزءٍ منه هو الآخرُ، لم يكنْ يمل من سماعه.. عاد إلى الحاضرِ بتنهيدة.

لا بدّ أن هذه غرفة مكتبِ أبيها، فكّر.

تقدم في الغرفةِ ثلاثَ خطواتٍ لينظرَ عن قربٍ إلى الكتب المرصوصة بدقة حسب طول كعوبِها. لمسَ جاكتات الأغلفة الملساء. كثيرٌ منها بالإنجليزية، وبعضها باليونانية. توجد كتبٌ

عن الطب والفلسفة، مما فهمه. استدار إلى الرف خلف المكتب، جذبَ شيءٌ ما في الرف السفلي نظره؛ حروفٌ فارسية على كعوبِ صف كامل من الكتب.

انحنى ليلقي نظرةً أفضل. بالطبع، عناوين مثل «أفغانستان، تاريخ أمة»، «أفغانستان: الإمبراطورية المنهارة»، «مختارات من الشعر الأفغاني». لماذا لديهم كتبٌ كثيرةٌ هكذا عن أفغانستان؟ هل يتحدثُ والد روكسانا الدارية؟

تذكّر حين كان الفتيةُ في أتيكي يلقون بتعليقاتٍ ساخرةٍ، وبذيئة أحيانًا، بشأنها، نظراتُها الباردة التي كانت تسددُها نحوهم، كأنها تعرفُ ما يقولونه تقريبًا. نظر حوله في المكتب، مرتبكًا. على رفٍ آخر في الغرفة يقبع تمثالٌ صغير، لا يزيد طوله عن خمس بوصات، نسرٌ منحوت من حجر اللازورد اللامع، حجرٌ أفغاني لا تخطئه العينُ تمامًا مثل البراقع الأفغانيةِ ذات اللون نفسه.

«هل انتهيت؟» قالتْ روكسانا وهي تقفُ على عتبة الباب.

استدار سليم متفاجئًا وخجِلًا من تجاوزه.

«آسف، فقط رأيت الكتبَ وأردت أن أرى... يوجدُ كثيرٌ جدًا لكن... روكسانا، أبوك، هل يتحدثُ الدارية؟»

«ماذا؟!» تفاجأتْ بشكل ملحوظ.

«توجدُ كتبٌ كثيرة عن أفغانستان بالدارية، وهذا الطائرُ، هذا الحجرُ من أفغانستان. لماذا ...؟» تعثرتْ أفكاره نصفُ المتضحة وهو يحاولُ فهمَ الأمر كلّه. «أمّي. هل تحدثتِ مع أمي؟ هل تتحدثين أنتِ الدارية؟ أبوكِ... هل عملَ في أفغانستان؟»

هزتْ رأسها، تنهدتْ وابتسمتْ بارتباك.

«هيا سليم، إن أبي... أبي لم يعملْ في أفغانستان»، صوتها همس حانق.

«لماذا إذن...»

«لقد *عاشَ* هناك، وُلِد هناك، أبي أفغاني!».

سقط فكّه. نظر إليها وهو يضيّق عينَيه، كأنه يراها للمرة الأولى. إن كان أبوها أفغانيًا، فستكون هي الأخرى...

«نصف أفغانيةٍ نصف يونانية»، أوضحتْ وإحدى يدَيها على صدرها. «أمي يونانية، جاء أبي إلى هنا في شبابهِ لدراسة الطبِّ لكنه أكمل على نحوٍ مختلف. تزوجَ أمي وظلَّ هنا منذ ذاك الحين. تعلمتُ منه بعضَ الدارية، ليس بقدرٍ كبير لكنه يكفي للمحادثة».

صفّق بيدَيه وأشرق وجهه بابتسامة.

«أنتِ أفغانية!» صاح بالدارية، تنزلقُ الكلماتُ من لسانه بلا مجهود. «عرفتُ أن ثمة شيئًا ما بشأنك! كنتُ فقط لا أعرفُ ما هو! ألهذا تفعلينَ ما تفعلينه؟ لكن والدَكِ، في الغالب لن يعجبه وجودُك مع فتيانٍ أفغان، خصوصًا أمثال...»

أنقذَته من قول ما لم يستطعْ قوله.

«والدي لا يعرفُ كيف أقضي وقتي. لن يعجبَه الأمر، لكن ليس للأسبابِ التي تظنُّها تحديدًا. الأمرُ أكثر تعقيدًا من ذلك، أنا لا أخبر أحدًا لأنني أعرفُ أن الأمرَ سيسببُ مشكلات. أريد أن أساعدَ لكن يمكنك أن تتخيلَ كم سيكون الأمرُ صعبًا لو عرف هؤلاء الصبية أن أبي أفغاني».

تفهّم ذلك تمامًا. طالما ظلتْ يونانيةً، سينظرون إليها طبقًا للمعايير اليونانية فقط. لن يحكم الرجالُ في أتيكي على ملابسِها وسلوكها بالمعايير الأفغانية. لكن إن عرفوا أنها أفغانية، لن يتسامحوا معها كثيرًا. وإن تسامحوا، فقد يحاولونَ ملاحقتها. قد يحاولون التقرب إليها لشتّى الأغراض الخاطئة. مجرد تخيّل هذا جعله يرغبُ في إبعادِها عن أتيكي.

«أنتِ محقة، لن أقولَ شيئًا».

«شكرًا لك. لنأكلْ شيئًا ثم نغادر».

تبعها إلى المطبخِ حيث كانت قد سخنتْ فطيرةَ سبانخ رقيقة، وبعضَ الدجاج المدخن، وشيئًا ما بأوراقٍ خضراء. أكل حتى كاد بطنُه ينفجر. ضحكتْ حين رأته يميلُ إلى الخلف وينخر بتعب.

«كيف كانَ الطعام؟ يبدو أنكَ استمتعتَ به».

«أوه نعم، أعجبني جدًا! أكلتُ ما يكفيني لثلاثةِ أيام»، أجابها ضاحكًا وهو يربّتُ على بطنه.

«جيد. الآن دعني أنظفُ الأطباقَ ثم سنغادر. يمكنك الانتظار في الغرفةِ الأخرى إن شئت».

«لا، أريد أن... سأبقَى معكِ، سأساعدك». قال بخجلٍ. لمعت عيناها وراحا معًا يمحوانِ آثار غدائهما السري. ثم أخذت روكسانا سترتَها وخرجا.

«اليوم سنذهبُ إلى أكروبوليس، هل ذهبتَ إلى هناك من قبل؟»

«أكرو... ماذا قلتِ؟!»

«أكروبوليس»، قالت ببطء. «اتبعْني. سأريك».

في هذا اليوم الوحيد، كان سليم سائحًا، سائحًا مفتونًا بمرشدته الخاصة. تجوّلا في شوارع أثينا المزدحمةِ ومناطقها بمختلف نكهاتها حتى وصلا إلى أسفلِ السلّم المؤدي إلى أكروبوليس، أطلالٌ قديمة أعلى تلةٍ تُشرفُ على منظرٍ خلابٍ لأثينا. كان قد رآه من بعيد لكنّه لم يغامرْ بالاقتراب منه مطلقًا. اليوم، حدّثته روكسانا عن معبد أثينا، كيف تغيّر عليه الحكمُ كثيرًا على مدار التاريخ، وكيف حكَمه العثمانيونَ في وقتٍ ما. أرتْه المسرحَ الروماني وشرحتْ له كيف كانَ مركزًا مجتمعيًا ذات يوم.

كان مذهولًا.. جلسا يستريحانِ على جدارٍ واطئ يشكّلُ سورًا للمبنى، ركلَ بقدمهِ حجرًا بشرود.

«فيمَ تفكّر سليم؟»

«مم؟ أوه. أفكّر في أن هذا المبنى قديم جدًّا، منذ سنواتٍ كثيرة ، لكنه يبدو أفضلَ من أحدثِ مبنى في كابول».

ما أراد قوله إن ألفَي عامٍ من السلام قد تزولُ في شهرٍ واحد من الحرب.. فهمتْهُ روكسانا.

قالت: «نعم، حسنًا، البشرُ بارعون تمامًا في تدمير الأشياء، الأشياء الجيدة».

قال: «كابول في حالةٍ مزريةٍ حقًا، الجميع يُغادرون.. حتى في كابول، يعيشُ الأفغان لاجئين». نظر إليها سريعًا ثم عاد ينظرُ إلى الأرض وأضاف: «هذا كلُّ ما يراه الناسُ حين ينظرون إلى الأفغان».

«سليم»، قالت برقة.. «أنا لا أرى لاجئًا حين أنظرُ إليك، بل أرى صبيًا يجبُ أن يكونَ في فصلي الدراسي، نتبادلُ الكتب ونلعب معًا رياضاتنا المفضلة، ونجلسُ معًا في المقهى.. أراكَ أنت».

لمستْ أصابعُها يدَه وعصرتْها بشكلٍ خاطف قبل أن تتركَها.

سألها: «هل يفتقدُ والدُك أفغانستان؟ لقد ظلَّ بعيدًا عن الوطن مدةً طويلة جدًا، لا أعرف، ربما سأعودُ يومًا ما، أحيانًا أفتقد بيتي».

«لا، أبي لا يفتقدُ أفغانستان. إنه يحبُّ وطنه لكنه يقولُ إن أفغانستان مثل امرأةٍ جميلة جدًا إلى حد ليس في صالحِها، لن تأمنَ أبدًا، حتى من شعبِها. لقد غادرَها حين كانت الحياةُ لا تزالُ طبيعيةً لكنه صار مختلفًا على ما أظن. بعد الحربِ، قال إنها لم تعد البلدَ نفسه. إنه يستمعُ للأخبار ويتحدثُ مع عائلته هناك لكن هذا يُحزنُه أكثرَ فحسب».

«لكن أن تُقيمَ فترةً طويلة جدًا في بلدٍ مختلفة... لا يوجدُ مسجدٌ للذهاب إلى الصلاة فيه...»

«مسجد؟ إن والدي ليس رجلَ دين. إنه يرى أن الناسَ يدمرون الدين وأن الدينَ يدمّر الناس.. يقول إنه يؤمنُ بالله لكنه لا يؤمنُ بالناس».

ربما كان أبوها محقًا، لكن سليم لم يسمعْ من قبل عن أفغاني لا يعتبرُ نفسه مسلمًا.

سألها كيفَ تعلمتِ التحدثَ بالدارية.

«من أبي وجدّتي. عاشتْ معنا سنواتٍ قليلة قبل وفاتِها. أبي يحبُّ اللغةَ والشعرَ. الأشياء الأخرى هي ما تفطرُ قلبه، ظنّي أنه

سعيدٌ هنا في اليونان لكنني أحيانًا... أحيانًا أجده يقرأ كتبَه أو ينظرُ إلى صورٍ قديمة. ظني أن قطعةً من أفغانستان ما زالت في قلبهِ وهي ما تُحزنه».

نهضَتْ ونفضتِ الترابَ عن بنطالها الجينز. لم تحبّذ مناقشةَ أفكار والدِها مع سليم. «تأخّر الوقت»، قالت تغيّرُ الموضوع. «عليَّ العودةُ إلى البيت».

كان يخشَى من هذا، لحظةَ أن تتركه.

«روكسانا، شكرًا لكِ... على كلِّ شيء، كان يوم جميلًا». وقف وعلّق حقيبتَه على كتفِه.

«على الرحبِ والسعة». أجابتهُ وتوجّها ليهبطا السلّم، يحاولانِ ألا يفقدَ أحدُهما الآخرَ في زحام السائحينَ والمرشدينَ السياحيّين الذين يتحدثونَ بمختلفِ اللغات. حين وصلا سفْح التلة، التفتتْ إليهِ فجأةً قائلة: «شيءٌ ما آخر، أخبارٌ جيدة لك»، أخرجتْ من حقيبتها ورقةً صغيرة. «ظنّي أنني وجدتُ عنوانَ خالتكَ في لندن!»

اتسعتْ عيناه.

«وجدتُ اسمَ زوجها على الإنترنت. ظني أنّ هذا هو العنوان، لم أجد رقمَ الهاتف لكن على الأقلّ ستعرفُ إلى أين تذهبُ حين تصلُ إلى هناك».

أخذ منها الورقةَ وحدّقَ مذهولًا في الرقمِ واسمِ الشارع المكتوب فيها. شعر بأنّه اقتربَ من أسرتِه بشكلٍ مؤكد، منحتْه روكسانا وِجهةً حقيقية.

«روكسانا، لقد ساعدتني. وساعدت أمي. شكرًا لكِ حقًا».

بدا على حافةِ البكاء، تململتْ ونظرتْ بعيدًا، مرتبكة.

«أراكَ لاحقًا».. قالت وهي تضغطُ على كتفهِ برفق:» انتبه لنفسِكَ سليم».

عاد إلى أتيكي مجهدًا من يومهِ سائحًا. بدأ عبد الله يغيظُه ما إن رآه. إذ بدا منتعشًا بسبب الاستحمام رغم ملابسه الرثة نفسها.

«حسنًا، حسنًا، حسنًا، أهذا هو سليم أم نجمٌ سينمائي؟ حفلُ زفافِكَ اليومَ أم ماذا؟ كيف صار شعرُك نظيفًا هكذا؟» عبث بشعر سليم ليتأكدَ جيدًا، مال سليم برأسهِ وابتسم.

أجابه كاذبًا: «وجدتُ زجاجةَ شامبو، أخذتُها وذهبتُ إلى حمام عموميّ ودسستُ رأسي في الحوض، كان يجبُ أن ترى كيف كانوا ينظرون إليّ هناك».

«بالتأكيد سينظرونَ إليك!»

جاء الليل. تكوّرَ أغلبُ الشباب في الأركانِ لينالوا قسطًا من الراحة. كان سليم وعبد الله وحسن وجمال في ركنٍ واحد، رصوا كراتينَهم جنبًا إلى جنب، دواعي الأمنِ أهم من الخصوصية. القاعدةُ التي يفهمُها الجميع هنا ضمنًا. ظلّ صبور بعيدًا طوالَ اليوم وبدا مرهقًا حين عاد. كان أولَ من أوَى إلى ركنه أسفلَ شجرة.

جيّد.. فكّر سليم بينه وبين نفسه. *نم فحسب ودعْنا وشأننا*.

حلمَ بروكسانا مجددًا. كانت تسيرُ في حديقةٍ مع مادر جان وسميرةِ وعزيز. كان عزيز يسير، خداهُ سمينانِ وورديّان، قدماه المقوستانِ بالكاد تلاحقانِ سيرهن. كنّ يضحكْن ويثرثِرْن. كانت

سميرة سعيدةً جدًا، يدُها في يد روكسانا. ثم التفتتْ روكسانا إليه بعينَين تلمعانِ بغرام.

استيقظ فجأةً. ظلامٌ حالك. لم ير أي شيء. توترتْ حواسّه كلها. شمَّ رائحةً ما... عرَق؟ حاول أن يثبت تمامًا. لم يسمع شيئًا ولم ير شيئًا.

أنت تتخيلُ أشياء.. قال لنفسه، *عُد إلى النوم*.

أغمض عينيه يتمنّى أن يعاودَه حلمه. حين أوشكَ على السقوطِ في النوم، شعر بيد على فخذه. انتفضَ مرعوبًا. كتمتْ يدٌ أخرى فمَه. أمسكَ معصم اليد بكلتا يديهِ يحاول إبعادَها عنه لكنها كانتْ قويةً وصلبة. أنفاسٌ ساخنةٌ في أذنه.

«اثبت يا فتايَ العزيز. اثبت. اهدأ فقط وسنكونُ أصدقاءَ جيدين». كان يعبثُ في إبزيم حزام سليم. حاولَ سليم التملّصَ من قبضته لكن وزنَ صبور الثقيلِ كان كلّه عليه. بالكاد يمكنُه التنفس.

«اهدأ وإلّا ستندم».

لا، لا، لا! حاولَ إزاحةَ اليد عن فمِه وأنفه. ساقاه تركلانِ دون جدوى، حاولَ إزاحتَها بيدَيه لكنها كانت ثقيلةً وراسخة. *لا، لا، لا!* انقلبتْ معدتُه حين امتدت اليد الأخرى إلى خصره.

مدّ يده إلى جانبِه وعبثَ حتى وجد المقبضَ أسفلَ ظهره. ظل يحركُ يده حتى شعر بالمقبض يستقرُّ بين أصابعِه أخيرًا. كان بالكاد يرَى خيال الظلّ أعلاه لكنه يشعرُ بالأنفاسِ القذرة على وجهه.

أمسك المقبضَ، وبحركةٍ واحدة، نزع النصلَ وطعنَ الكيانَ المظلمَ أعلاه. سمع شهقةً وتراجعَ الكيانُ عنه. ابتعدت اليدُ عن

فمـهِ، وانسـحبتِ الأخـرى مـن بيـنِ فخذَيـه.

«دعْني! دعْني! دعْني!» صاح سليم بصوتٍ عالٍ.

رأى الكيـانَ يتحـرك، يترنـحُ وهـو يبتعـدُ فـي الظـلام. كان الآخـرونَ قد استيقظوا.

«ماذا يحدثُ؟»

«من يصرخُ؟ هل الجميعُ بخير؟»

«ماذا يحدثُ هنا؟»

كان سليم واقفًا على قدميه. اعتادت عيناهُ الظلمة، ميّز قامةَ صبور وهو يبتعد مترنحًا، ممسكًا جانبه الأيسر. شعرَ سليم بأحدِهم يمسك ذراعَه فقفزَ متراجعًا.

«هيي، هيي، سليم! إنه أنا، عبد الله! ماذا حدَث؟»

ماذا حدث؟ ليس متأكدًا. أكان هذا حقيقيًا؟ ماذا فعل لتوه؟ شعر بخدرٍ، ودوارٍ. نظر إلى أسفل ورأى السكّين، ما زالت في قبضتهِ المحكمة.

«أوه ربي، أوه ربي. أوه ربي». كادَ يجن «لقد كانَ هنا! كان جاثمًا عليّ!»

«هيي، إنه صبور! لقد جُرح صبور!» صاحتِ الأصواتُ في الظلام.

«إنه ينزفُ!»

«ماذا حدث له؟ من فعلَ هذا؟»

كان عبد الله واقفًا بجوار سليم. أخرجَ من جيبهِ قداحة وأشعلها. لمع النصلُ الصدئ في يدِ سليم. سقطتْ قطرةُ دمٍ من طرفه.

«هل طعنتَه؟» همس عبد الله مذهولاً.

«أنا... أنا... كان جاثمًا عليّ! كانت يداه...»

واصلت الأصواتُ البعيدة الصياحَ، كانوا مرتبكينَ ومرعوبين.

«لقد جُرحَ، ليفعل أحدٌ ما شيئًا!»

شعر سليمُ بأصابعهِ رطبةً ولزجة، نظر إلى يدهِ اليمنى.

«سليم، توقّف! أين تذهب؟ سليم، انتظر!»

ظلّت قدما سليم تضربان الأرضَ وهو يركضُ في الشوارع الجانبيةِ الصغيرة وينعطف يمينًا ويسارًا في الأزقة الضيقة. تعثر وسقط على حصَى الشارع في الظلام. لا شك في الدم الذي جفّفه الهواء الآن على يدِه اليمنى، يشعر به، يشمُّ رائحتَه، الرائحةَ المعدنيةَ للحياة؛ تذكّر منغن، حين رأى شقيقَ العروس، ملابسهُ الدامية ووجههُ يتلوّى ألمًا.

تمنّى أن يُلقي بنفسِه بين ذراعيّ أمه، أن يدفنَ وجهَه في كتفها ويسمع صوتَها الهادئ يخبرُه أنه فعلَ الصواب. تمنّى لو كان أبوه نائمًا بجواره، لم يكن صبور ليجرؤ على الاقترابِ منه. لكنه كان ممتنًا لأن أحدًا من والدَيه لم يكن معه في تلك اللحظة، ليرى ابنه، هاربًا ليلًا، ويداه ملطّختانِ بالدم.

سليم
42

وضع سليم الإبريقَ الألومنيوم على الموقدِ المرتجل. طوبٌ مرصوصٌ على شكل مربّعٍ واللهبُ الصغير في منتصفه. مقبضُ الإبريق ساخنٌ ويزدادُ سخونة، تلعقُ ألسنة اللهبِ قاعَه المسودّ. اقترب من النار، برودةُ الهواء اليوم تحديدًا تجعلهُ يشعر بسترتِه خفيفةً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدأ الماءُ يغلي.

«هل غلا؟» صاح علي من الداخل.

أجابه سليم: «نعم، للتو». خرجَ علي ونظر إلى الإبريق، فتحَ كيسَ شاي وأسقطَ نصفَه في الإبريق بحرصٍ شديد.

«ارفعْهُ الآن من فوق النار، سأجلبُ الخبزَ لنتناولِ إفطارنا. يبدو أنها ستمطرُ اليوم. ما رأيك؟»

شد سليم كمَّه على يدِه واستخدمهُ ليُمسكَ مقبضَ الإبريق. تجاهل تعليقَ علي الأخير، إذ ظلَّ يردّدُه كلَّ يومٍ خلال الأسبوعَين الماضيين، بغض النظر عمّا تبدو عليه السماءُ بالفعل. لم يلحظ سليم الأمرَ في اليوم الأول، لكنه في اليوم الثاني، حين كانا في الداخل وزخّاتِ المطر تضربُ بالفعل المشمّعَ أعلاهما، وتنبأ علي مجددًا بأنها ستمطرُ اليوم، ظنَّه سليم يمزحُ، لكنه حين التفتَ إليه رأى وجهه متجهمًا ومتأملًا.

كان علي في سنّ سليم تقريبًا لكنه أقصرُ منه بكثير. تعرّف عليه سليم حين وجدَ مخيم اللاجئين الأفغان في باتراس وانجذبَ إليه تحديدًا لأنه بدا صغيرًا وهادئًا. كان من «الهزارة»، قومٌ مختلفون عن قومِ سليم. لو كانا في كابول لشكّل ذلك فارقًا كبيرًا، لكن في مخيم اللاجئينَ بباتراس، حيث الجميعُ يأكلون وينامون في القذارةِ نفسها، الأمرُ لا يهمّ كثيرًا.

كان مخيمُ اللاجئين في باتراس مختلفًا تمامًا عن ميدان أتيكي الذي يعتبر ركنًا مهملًا من المدينة، محددًا بالمباني وعلى مقربةِ أمتارٍ قليلة من الحياة العادية. أما باتراس فكانتْ مدينةً من العِشَشِ الصغيرة، أفضلَ من أتيكي بشكلٍ ما وأسوأ بشكلٍ آخر. بدلًا من الكراتين في أتيكي، تُستخدمُ هنا البطاطينُ الخفيفة وعرباتُ التسوّق جدرانًا وأسقفًا. حتى أن أحدَهم فتحَ صالونَ حلاقةٍ مُرتجل، إذ وجدَ كرسيًا ومقصًا. يستخدمُ البعضُ المشمّعَ الثقيلَ سقفًا حين لا يجدونَ موادَّ أخرى أكثرَ صلابة. والمئاتُ ممن يعيشونَ هنا، أغلبهم أفغانُ إلى جانبِ بعض الروم والأفارقةِ التائهين، يصنعونَ مواقدَ صغيرةً من الطوب والحجارةِ لإعداد وجباتٍ بسيطة. كانت ظروفُ السكن أفضل، لكنّ المخيمَ أكبرُ ويشدّ انتباهَ المناطقِ المحيطة به أكثر. كان وصمةَ عارٍ في جبين المدينة، مكانٌ يتجمع فيه النازحون واللاجئون في حالٍ من البؤس والقذارة، لم يعرفِ اليونانيون ماذا يفعلون بباتراس، هل يسوّونه بالأرض أم يطوّرونه، لأن اللاجئينَ سيعودون إليه حتمًا.

المفترضِ أن باتراس محطةً انتقالية. حتى قبل الأفغان، كان لاجئونَ آخرون يصلون إليها في طريقهم إلى إيطاليا وبقيّة

أوروبا. من المعروف أن بها طرقًا كثيرة للتسللِ إلى إيطاليا، إما بالشاحناتِ، أو بسفنِ الشحن. سليم جزء من هذا التاريخ المشترك.

كان قد غدا رحّالةً مخضرمًا حين وصل إلى باتراس. قضى فيها أشهر الآن، بالتأكيد مرّ عيدُ ميلاده في وقتٍ ما لكنه كان من الصعبِ أن يعرفَ ومن الأصعب أن يهتمّ. تغبشتْ حساباته للأيام والأسابيع خلالَ أسفاره.

يجب أن أغادرَ باتراس.. فكّر وهو يراقبُ الشاي يترسّب، يرشحُ اللونُ العنبري من الأوراقِ في الماء الساخن.

عاد بذهنهِ إلى أتيكي، كما يفعلُ أحيانًا كثيرة في النهار وعلى نحوٍ لا مفرَّ منه ليلًا. تذكّر ليلتَه الأخيرةَ هناك، ويدَ صبور المعروقةَ على فمِه، وذهول عبد الله حين رأى السكّين، وركضَه ليلًا ليبتعدَ عن هناك بأقصَى ما يمكنه. غسلَ الدم عن يدَيه المرتعشتَين وتكوّر على نفسِه في أحد الأزقةِ حتى طلوع الصبح. لم يودّعْ أحدًا، ولا حتّى روكسانا. لم يهتم بالعودةِ لأخذ حقيبةِ ظهره، لم يكن بها سوَى ملابسَ إضافيةٍ قليلة. استقلّ أولَ باص استطاع إيجادَه إلى باتراس، حيث لم يصعبْ عليه العثورُ على مستعمرةِ اللاجئين.

تساءل إن كان صبورُ قد ظلَّ حيًا، لم يكن تساؤله لأنه قد يندمُ على قتله، بل لأن الأمرَ يغيّرُ تعريفَه لنفسه. أكان الجرح سطحيًا أم مميتًا؟ سيظلُّ السؤال بلا إجابة. رغم ابتعادهِ عن أفغانستان، ظل ملاحقًا بالحرب والدماء. اللاجئون لا يهربونَ من مكانٍ واحدٍ فقط، عليهم أيضًا الهربُ من أنفسِهم ومن آلافِ الذكريات مرارًا

وتكرارًا حتى يمضيَ وقتٌ كافٍ ويقطعونَ مسافةً كافيةً بينهم وبين بؤسِهم. حينها، يمكِنُهم الاستيقاظُ على يومٍ أفضل.

كانت لياليه عذابًا، يستيقظ كثيرًا ويرى ظلالًا، عادَ إلى طفولته، إلى الوقتِ الذي ينمو فيه المخُّ بما يكفي ليشكّلَ من الظلام مخلوقاتٍ وأخطارًا. قلقُه يزدادُ ويشعرُ بشخصيته تتغير. كان الناسُ إما يستفزونَه أو يخيفونه، نادرًا ما يمكنهم فعلُ شيءٍ آخر.

«أرأيتَ ساقَ وحيد؟» سأله علي.. «لقد خيّطوها كجِوال أرزّ! ظلّ يعرجُ في الأنحاء ويخبرُ الجميع أن الجرحَ لا يؤلمه لكنني سمعتُ أنه بكَى كالطفل وهم يخيّطونه».

«نعم، رأيتُه».

كان وحيد قد تعرّض للملاحقةِ وهو يحاولُ التعلّقَ بإحدَى الشاحناتِ المتجهةِ إلى إيطاليا. جَرح السورُ المعدنيُّ الذي اضطُرّ إلى القفز عليه قصبةَ ساقِه. اعتنى به طاقمُ إسعافٍ تابع لمنظمةٍ إنسانية لها مركزُ خدمةٍ قريب من المخيم. لم تكنْ حالة وحيد فريدةً من نوعها.

«أتعرفُ في أيّ يوم نحن؟» سأله علي.. «إنه *دا* محرم.. ظللتُ محتفظًا ببعض السكّر والأرزِ لهذا اليوم. سأعدُّ «شيربرينج» الليلة. وسنصلّي جماعة».

دا محرّم هو الذكرى السنويةُ لاستشهادِ حفيد النبي محمد في معركة. تحتفلُ عائلةُ علي بهذا اليوم، مثلَ أغلب العائلات الأفغانية، بإعداد الشيربرينج أو حلوَى الأرز، وتوزيعِ الطعام على الفقراءِ، والصلاة.

«اليوم؟ حقًا؟» كان الوعدُ بالشيربرينج أهمَّ من الحدثِ نفسه. سال ريقُ سليم وهو يتذكّرُ طراوةَ وروعةَ الحلوى التي كانت تعدُّها مادر جان، وعليها بعضُ الفستقِ المطحون، وكيف كانت تذوبُ في فمه. سأل علي: «أتعرفُ كيف تعدُّه؟»

بالفعل، يعرفُ علي جيدًا جدًا كيف يعدُّ حلوَى الأرز. تناولا الشيربرينج تلك الليلةَ مع ثلاثةِ شبابٍ آخرينَ يعيشونَ في عِشةٍ مجاورة. تجمّعوا في الداخل، يضحكونَ ويُغيظُ أحدهم الآخر. قضوا دقائقَ قليلة في الصلاة. لم ينلْ أحدٌ منهم أكثر من ملاعقَ قليلةٍ لكنها كانت كافيةً لتحليةِ أفواههم.

«تعرفون ما يقولون؟» قال علي مازحًا.. «حتى أقدم نعلٍ نعمة كبرى في الصحراء».

بعيدًا عن هذا الاحتفال، كان سليم منطويًا على نفسه. لا يهتمُّ كثيرًا بتكوينِ صداقات هنا. ظلَّ هادئًا ويستمعُ. لكلِّ شخصٍ في المخيّم قصةٌ لكنه لم يحبّذْ حكْي قصته. ليس من شيم الرحالة عقد علاقات مزيفة، أخبرَ نفسه.

تُذكّرهُ باتراس بأزمير على شواطئ اليونان. نقطة خروجٍ فيها السبلُ المخادعةُ نفسُها للوصول إلى البرّ التالي. حاول كثيرًا التسللَ إلى الشاحنات لكنه فشلَ فشلًا ذريعًا وكاد يُلقى القبض عليه. ظلَّ يُراقب المتَشردينَ الآخرين وحاولَ الاستفادةَ من أخطائهم.

ظل طوال الوقتِ يحتفظُ بوسيلتي حمايتِه حول جسده، نقوده وخنجره. يحرصُ ألّا تراهما عينُ مخلوق ويحتفظُ بهما في متناول يدِه حتى وهو يستحمُّ في منطقة الاستحمامِ المرتجلة. كان يرمقُ

الجميع بنظراتِ الشك. مع ذلك كان بحاجةٍ إلى المأوى الذي يوفرهُ المخيم وكان علي الطيّب خيرَ شريكِ سكنٍ له في تلك الظروف. يحبُّ علي التحدثَ ونادرًا ما يطرحُ أسئلةً. كان اتفاقًا مناسبًا.

كان سليم يتوق إلى المغادرةِ قبل أن يحدثَ أي شيء. حتى أفراد الطاقمِ الطبيّ اليوناني كانوا عُرضةً للملاحقة في النزاع المتصاعد لنقدهم الحكومةَ علانية. كان اللاجئون على حافة هاوية. ازداد وجود الشرطة لتوقيفهم وسؤالهم عن أوراقِهم.

كلُّ يوم تكرارٌ لليوم السابق. يستيقظُ ويتحسسُ نقوده وسكّينه، يقوم بجولةٍ على المخارج محاولًا العثورَ على فتحةٍ يمرُّ منها إلى إيطاليا.

الصباحُ مجددًا، سمع علي يسيرُ في الخارج ويقضي حاجتَه خلف عُشّتهما، ثم عاد مبتسمًا.

«استيقظتَ؟ صباحُ الخير. رأيتُ حلمًا جيدًا ليلة أمس. كنا نسير، أنا وأنت، في تلك الشوارع ذات المباني الكبيرة، مثل التي في الأفلام. حولنا أناسٌ في كلّ مكان يرتدونَ ثيابًا فخمةً ويقودون سياراتٍ فارهةً. سألناهم عن تلك البلد وخمّن ماذا قالوا... أمريكا! أتصدقُ هذا؟ ظنّي أنك لو سرتَ مسافةً كافية، ستصلُ إلى أمريكا في النهاية، صحيح؟» قال علي ضاحكًا.

«انسَ أمريكا».. غمغم سليم بعينَين ثقيلتَين بالنوم. «يصعبُ علينا بما يكفي الوصولُ إلى إيطاليا».

«حقيقي».. قال علي ضاحكًا. «اليوم لا يبدو مناسبًا للسير وقتًا طويلًا في جميع الأحوال. يبدو أنها ستمطرُ اليوم». فتح البابَ مجددًا، أخرجَ رأسهُ منه ونظرَ إلى سماءٍ ساطعةٍ زرقاء.

لـم يرغـب سـليم فـي التلكـؤِ فـي هـذا الصبـاح الباكـر. أسـرع يغتسـلُ بمـاءٍ بـارد بسـبب هـواء الليـل. كان المخيـمُ حيًـا مهلهـلًا، عشـش لصيقـةٌ بعضهـا ببعـض. تتدلّـى حبـالُ الغسـيل مـن عشـة إلـى أخـرى كخيـوط العنكبـوت. لـم يكـن فيـه إمـداداتٌ حقيقيـة للكهربـاء أو المـاء لكـنّ بعـضَ اللاجئيـن اسـتطاعوا توصيـل ماسـورةِ ميـاهٍ مـن مبنـى سـكني قريـب. فكانـت ماسـورةُ ميـاهٍ وحيـدة تمـد المسـتعمرةَ كلهـا بالميـاه بشـكلٍ متقطّـع يتقبلـه اللاجئـون بسـرور.

عـاد إلـى الميناء والرقصـة المعتـادة للشـاحناتِ والسـفن والركاب. شـاهد قليليـنَ يحاولـون الهـرب، يقيسـونَ الأسـوار المعدنيـة ويقتربـونَ مـن الشـاحناتِ بحـرص، يتفحّصـون هياكلَهـا بحثًـا عـن موطـئ قـدم، يحرّكـون المقابـضَ ليـروا إن كان بإمكانِهـم الصعـودُ إلـى المقطـورات.

نظـر حولَـه، علـى مسـافةِ أمتـارٍ قليلـة منـه توجـد ثـلاثُ شـاحناتٍ فـي صـفٍ واحـد ولا يوجـد سـائقٌ واحـد فـي مجـال الرؤيـة. دفعتـه قدمـاه دفعًـا ليجـرّبَ حظـه.

مسـح بعينَيـه المنطقـةَ مجـددًا، جعلـت إمكانـاتُ اللحظـة دقـات قلبـه تتسـارع وحلقَـه يجـف. اندفـعَ يعبـر الشـارع ويقفـز مـن أعلـى السـور، علـى أرض الجانـب الآخـر. هـرولَ إلـى الشـاحنات المتروكة. عـددٌ قليـل مـن شـباب المخيّـم هنـاك، يفكّـرون فـي أفضـل السـبل للصعـودِ إلـى شـاحنة.

حـاول أحدهـم فتـحَ قفـل إحـدى المقطـورات. انزلـقَ اثنـان منهـم أسـفلَها بالفعل ليتفقّـدا هيكلهـا. شـاهد أقدامَهمـا تتدلّـى على الأرض وهمـا يسـتعدانِ للرحلـةِ القصيـرة علـى متـن سـفينةِ الشـحن.

مال برأسه إلى الأسفل ليرَى بماذا يتشبّثان. رأى فتى في مثل سنّه تقريبًا، بالحكم من شاربه. وجههُ أحمرُ وهو يجاهدُ لرفع جسدِه كله عن الأرض. التقط نظرةَ سليم فقال: «ابتعد يا أخ، لا مكانَ سوى لشخصٍ واحد هنا!»

أومأ سليم برأسه متفهمًا. نظر حوله يبحثُ عن شاحنةٍ أخرى، جُحر فأر آخر يزحفُ إليه، لكنه لم يجدْ. خائبو الأمل، عاد هو وأربعةٌ آخرون إلى السور.

«الشرطة! الشرطة! اهربوا يا شباب!» صاح صوتٌ مذعور.

استدار سليم فرأى عربةَ شرطةٍ قادمة على الطريق. أسرعوا في ركضِهم وقفزوا من أعلى السور بأسرع ما أمكنهم، توقّفت السيارة على مسافةِ ياردات قليلةٍ وانفتحِ باباها، ترجّل منها ضابطان.

قفز سليمُ مع الآخرين، تألّم كاحلاه من السقطة، هب واقفًا وركض في اتجاهٍ مختلف عن الآخرين. تفرّقوا جميعًا، ألقى الشرطيان القبض على شابّين بعد مطاردتِهما بفتور لأمتار قليلة. بقدرٍ ما يثبتُ قوة الشرطيين فقط. انعطفَ سليم في أحد الشوارع ليختبئَ خلف سلةِ قمامة أمام بنايةٍ سكنية، يلهث، صدره يتحرّق.

بعد مضي عشر دقائق عاد سيرًا إلى المخيم. كان علي يجلسُ خارجَ العشّةِ مع أربعةِ شباب آخرين، على دلاءٍ وصناديقَ من الخشبِ الرقائقي مقلوبة.

«أين كنتَ يا سليم؟» صاح علي.

«كنتُ في الميناء»، أجابه وهو يجلسُ مع الآخرين. لم يُدهشْ أحد. لا يمكنهم الذهابُ إلى مكانٍ آخر في باتراس، خصوصًا مع العداءِ المتزايد نحوهم.

«حظٌّ سيِّئ، صحيح؟» كان قد قابلَ هؤلاء الشبابَ من قبل لكنه لا يتذكرُ أسماءهم، أكان هذا فريد؟ أم فيصل؟

«نعم. جاءت الشرطةُ وهربنا».

هز حارسُ رأسه. كان في الثلاثينياتِ من عمره، من كبار السن حقًا في مجتمع القاصرين هذا. آراؤه مختلفة قليلًا عن الآخرين.

«أيمكنكَ لومُهم؟ ألا ترى المخيم؟ لقد ظللنا لاجئينَ وقتًا طويلًا لكن ليس بما يكفي لننسَى كيف يجبُ أن تبدو المدينة حقًا، الناس لا يريدون النظرَ من نوافذهم لرؤيةِ هذا المنظر».

ساد صمت. كان حارس محقًا، لكن الغضب أفضل. الاستياء شعورٌ يوحّد بين اللاجئين، تشعر أفضلَ حين تجلس مع الآخرين وتتفقُ معهم، لديكم عدوٌّ مشتركٌ وكفاح واحد. تشعر أفضل حين يفهمكَ آخرون. منطق حارس لن يمنحَهم القوةَ التي يحتاجونَ إليها للمواصلة.

نظر علي إلى السماء وقال: «يبدو أنها ستمطرُ اليوم حقًا».

«ماذا باللّه عليك بينكَ وبين المطر!» انفجر سليم كزجاجة كوكاكولا مرجوجة.

حوّلهُ الحديثُ عن المخيم ومحاولة الهروبُ من الميناء هذا الصباح إلى قنبلةٍ انفجرتْ في وجه علي في تلك اللحظة. «طوال الوقت، كل يوم!»

ساد صمتٌ، أدهش انفجارُه الآخرين. جمد وجهُ علي وظهرت عليه بقعٌ حمراء. ندم سليم على كلامه على الفور لكن بعد فواتِ الأوان، نظر في الأرض، خجلًا من النظر إلى وجه علي.

وقف علي وذهب إلى الداخل.

«أنت لا تعرف شيئًا عنه، أليس كذلك؟» سأل حكيم بنبرةِ تأنيب.

رفع سليم بصره.

«أليس لديكَ أيُّ احترام لشابٍ شاركك في سكنه؟»

«لم أقصد...»

«أتريد أن تعرفَ ما حدث له؟ كان علي يسكنُ في شارعنا في كابول. كان هو وأخوه خارجَ البيت حين نادَتهما أمه ليعودا إلى الداخل. أخبرتهما أن السماءَ قد تمطرُ وأن عليهما الدخول. أطاعها أخوهُ ودخل، وظل علي في الخارج. قال إنه سيجدُ آخرين ليلعب معهم، ثم ركض بعيدًا في الشارع، حينها سقطت الصواريخُ على بيتهم مباشرةً، قتلتْ أسرته كلّها. عاد ركضًا ليجد أخاه يترنّحُ وهو مشتعلٌ بالنيران ويسقط على الأرض في الشارع. حاول إخماد النار لكنه لم يستطع.

«كسره هذا. صار كل ما يتذكّره تحذيرَ أمه له بأن السماء قد تمطر. لا يسمعُ سوى صوتَها يتردد في رأسه مرارًا وتكرارًا. ظني أنه يتمنّى لو كان قد عادَ إلى البيت وسُحِق مع أسرته تحت تلك الصواريخ بدلًا من العيش بذكرى رؤيتِهم يموتون».

حدّق سليم إلى الأرض. وجهُه يتحرق بالندم.

«لذا دعه وحديثه المجنون لشأنه».

«لم أعرفْ أنه...»

«بالطبع لم تعرف. لكن أتظنُّ أن أحدًا هنا لديه قصة سعيدة؟»

لاذ سليم بالصمت. وقف حكيم وتنهّد بيأس. وقف الآخرون أيضًا وإنما لسبب مختلف، بدأ زحامٌ ما يتجمّع بالقرب منهم. شبابٌ يهرولون ويصيحون وينادون الآخرين.

شعر سليم بغربةٍ شديدة في تلك اللحظة.

«ماذا يحدث؟» صاح حكيم.مكتبة سُر مَن قرأ

«نادوا أكبرَ»، صاح أحدُهم. «إنه نعيم! لقد قتِل في الميناء اليوم! إنهم يعيدون جثته!»

سليم
43

لـم يكـن أكبـرُ مُـلّا حقيقيًـا، لـم يـدرس الديـن رسـميًا، لكنـه كان أحـد الكبـار فـي المخيـم ويتمتـعُ بسـمعة جيـدة لحفظـه سـورَ القـرآن، والأهـم مـن هـذا وذاك نبرتـه الهادئـةُ المقنعـة التـي تسـد فجـواتِ مؤهلاتـه.

حيـن أعـادوا الجثـةَ إلـى المخيـم، أدركَ سـليم أن نعيـم هـو الفتَـى الـذي كان أسـفلَ الشـاحنة وأخبـره أن يبتعـد.

كاد نعيـم يصـلُ إلـى السـفينة بالفعـل قبـل أن يفقـدَ قبضتـه وينزلـقَ تحـت الشـاحنة. فـي الغالـب أصابـه دخـانُ العـادم بالـدوار. شـعر سـائقُ الشـاحنة وهـو يقودهـا نحـو السـفينةِ بارتطـام بشـع تحـت إطاراتـه وصيـاح أصـوات مـن بعيـد. صـرخ السـائقُ نفسًـه صرخـةً تجمِّـد الـدمَ فـي العـروق حيـن وجـد جسـدَ نعيـم المضـرّج بدمائـهِ تحـت إطاراتـه الملطخـة بالدمـاء.

رأى الأفغـانُ القليلـون الذيـن وقفـوا يراقبـونَ مـن بعيـد الفتـى وهـو يسـقطُ ويتدحـرجُ تحـت الإطـارات. كانـوا بعيديـن تمامًـا فلـم يسـعهم سـوى أن خـروا علـى ركبهـم وصاحـوا باسـم الله. حيـن وصلـوا إلـى الشـاحنةِ، لـم يكـن بوسـعهم سـوى جمـعِ جسـده.

تدلـى جسـد نعيـم بـلا حيـاة، يحملـه رجـلان. بـدأت التفاصيـل البشـعة فـي الاتضـاح وهمـا يقتربـان. كان وجهـه وجسـده قرمزييـن بكدمـات مريعـة. تدلـى مرفقـه الأيسـر بشـكل غيـر طبيعـي.

أشاح سليم ببصره بعيدًا. شعر بمعدتهِ تنقلبُ وأغمض عينَيه. سار ببطء، ثم بسرعة، ثم ركضَ إلى المراحيض في ركنٍ خارج المخيم. أفرغ معدته مرةً، وثانية، وثالثة. تنفّسَ بعمق وتذكّر النظرةَ العازمة على وجه نعيم، كاد ينجحُ.. كاد.

أصدر أكبرُ التعليماتِ، سيُدفنُ نعيم مساء اليوم نفسه. السرعةُ ضروريةٌ طبقًا لقواعد الإسلام وكذلك للقلقِ المكتوم من تدخّلِ السلطة المحلية. غسلوا جثمانَه الهامد وكفّنوه بملاءةٍ بيضاء، كما يفعلونَ في وطنهم. قرروا دفنَه في غابةٍ قريبة من المخيم، كثيفة الأشجار.

دار الهمسُ بين اللاجئين عن احتمال مجيء الشرطةِ إلى المخيم، لكن شيئًا لم يحدث. لا يهتمُّ رجالُ الشرطة بالسير بين عشش مغطاةٍ بالمشمّع، يهتمّون فقط حين تخرجُ الفوضى إلى بقيةِ أجزاء باتراس.

أمر أكبرُ الرجالَ بالوقوف جنبًا إلى جنب. ولّوا وجوههم صوب مكّة، أمامَهم جثمانُ نعيم. انضمَّ سليم إليهم، مع أنه تمنّى لو كان في أيّ مكانٍ آخر. وقفَ علي إلى جانبه، تسيل الدموعُ على وجهه. اصطفّوا خلف أكبر بحزنٍ وتضامن. شكّلوا ثلاثة صفوف، قرابة خمسينَ شابًا، رؤوسُهم مُطرقةٌ وأياديهم متشابكةٌ أسفل سررِهم مباشرة، مرافقهم إلى جانبَيهم. صاح عبد الرفيق بالتكبيرات.

لم يكن سليم قد صلى منذ وفاة والده، لكنّ الدعاء ينزلقُ الآن على لسانه بسلاسة. همسٌ ردده آلافَ المرات وهو طفل، أصواتٌ تعلن عن خبرةٍ مشتركة، دربٌ مشترك للنجاة. شعَر بدعمٍ يصلُه

من الواقفين بجواره. كانت الصلاةُ رحلةً في حد ذاتها، أخذته إلى الوطن بكلماتٍ هادئة. حين صلى فهم، ما كان يفصلُهم عن نعيم سوى نَفَسٍ واحد. لحظةٌ واحدة قاتلة قد تُعيد أيًا منهم إلى التراب الذي جاؤوا منه. كان نعيم قريبًا بما يكفي ليمد يده ويلمسه.

صلّى سليمُ على جثمان الفتى بمشاعر الاحترام والذنبِ والخوف، كان من الممكن أن يكون هو من سحقَته الشاحنة. وأن يكونَ جثمانه هو من يُصلّي عليه الرجال هنا.

فقد مكانه. جاهد ليسمع همس جارِه يعلو على بكاء علي.

لم يحظَ أبي بجنازةٍ كهذه.. الله وحدَه يعلمُ كيف عاملوا جثمانه. لم يغسلْه أحد، ولم يُصلِّ عليه أحد، ولم يحملْه أحد إلى لحدِه بأدنى قدرٍ من الشعائر. كان يجبُ أن أحملَه أنا. كنتُ سأفعلُ له كلّ هذا لو كنت أعرف. كنت سأعتني أنا بجثمانهِ. لن أستطيعَ الصلاةَ على قبره أبدًا.

فقد تركيزَهُ مرات عدة. شردَ ذهنُه في اتجاهات بائسة، فكّر في الحرب، وفي أبيه وأسرتِه وإلى متى سيظلُّ معلقًا في الهواء، عند نقطةٍ ما، سينهار.

تحوّلَ بكاءُ علي إلى نُواح، كان يُنادي نعيم ويغطي وجهَه بيديه. يتحدث باكيًا. توتّر جسد سليم كله، تململ في وقفتِه وحاول تجاهلَ صوت علي، حاول سماعَ صلاته هو.

خرج حكيم وابن عمّه من صفّ الرجال وأخذا علي من مرفقَيه. اصطحباه بعيدًا بهدوء ليواصلَ الآخرون صلاة الجنازة دون تشتيت. خفت صوتُه وهم يبتعدون.

فهم سليم الأمرَ الآن، فهم أن بإمكانِ البشر التحملُ لدرجةٍ معينة فقط قبل أن يجد العقلُ طريقتَه الخاصة للنجاةِ من العاصفة.

حملوا جثمانَ نعيم. أراد الرجالُ جميعًا حملَه فوق أكتافهم. لاحظ أكبرُ سليمَ يقف في الخلف فنادَاه لينضمَّ إليهم.

«من الواجب حملُ إخواننا باجم.. تعالَ وشارك».

باجم، سمع سليم، *بُنيّ*، ارتخت كتفاه، لم يدْعُه أحدٌ ببنيّ منذ أشهر، لا بد أن روحَه تتضورُ جوعًا لها.

«لهذه الأعمالُ ثوابٌ كبير».. تقدم سليم إلى الأمام، ربما أفاده ثوابُ العمل الصالح، فعلَ كما أخبرَه أكبر. كان صفانِ من الرجال يحملون الجثمان. حشر سليم نفسَه بين الرجال ورفع يدَه اليمنى، كان يلمسُ ركبة نعيم. ارتعشتْ يده وركّز بصره على قدَمي الرجل الواقف أمامه.

لا تفكّر.. نفذ فقط.

مع ذلك، كان من الصعب ألا يفكّر. شعر بالاختناقِ والرجالُ يلتصقون بعضهم ببعض لحملِ الجثمان. ضاق صدره، كأنهم سحبوا الهواءَ من مساحةٍ صغيرة. نفَسٌ واحد. نفَس واحدٌ يفصلُه عن نعيم.

تقدم آخرون لأخذِ دورهم في حمل الجثمان، تلهف سليم على ترك مكانهِ لأحد، ووقف على حافةِ الزحام. نظر إليه أكبرُ وأومأ له برأسه استحسانًا، شعر سليم بالامتنانِ لوجود أكبر.

أرقَدوا الجثمانَ في الحفرة التي حفروها بأيديهم، وبأدواتٍ معدنية وشعور بالأخوّة. لا نعش، قطعتانِ من ورق الكرتون المقوَّى

فحسب، هذا أفضلُ ما أمكنهم وأفضلُ ما يأملون فيه حين ينتهي بهم الأمرُ مكان نعيم، قبرٌ مرتجلٌ كمحطة النهاية لحياةٍ مرتجلة.

سليم
44

رغم استغراقِه وقتًا أطولَ مما يمكنُه حسابه، عاد سليم إلى الميناء. كان الآخرون متخوِّفين بالقدر نفسِه ليحاولوا مجددًا. عرفوا من المعاونين الطبيِّين والنشطاء في باتراس أن لا أحدَ في الميناء يعرفُ شيئًا عمّا حدثَ لنعيم. قال البعضُ إن الفتى سار بعيدًا عن مكان الحادث وزعم آخرون أن أصدقاءه حملوه. لم يثرِ الأمرُ الكثير من الأسئلة.

كان يائسًا، لكنه ليس أمامَه خِيارٌ آخر. ظل يتسكّعُ ويراقبُ الشاحناتِ والركاب من بعيد. حين يغمضُ عينَيه يرى وجه نعيم. فكّر في العودة إلى المخيم، لكنه لم يبقَ لديه سوى ثلاثمئة يورو وعليه المخاطرةُ إن أراد الذهابَ إلى إيطاليا والتمسك بالأمل لاستكمال طريقه.

ظل يراقبُ ويدرس ويحاول فهمَ مواعيدِ وعملِ سفن الشحن والشاحنات. قد تأتي الفرصةُ في أي وقت، ظلّ يذكِّر نفسه. أبقى عينَيه مفتوحتَين وتذكر ما فعله في إزمير، الأمر مُمكن.

حين جاءت الفرصةُ، كانت لحظةً عادية وغيرَ متوقعةٍ كأي لحظة أخرى.

قفز من أعلى السور وظل يقتربُ من الشاحناتِ شيئًا فشيئًا. كان خلفَ بعض حاويات البضائع حين سمعَ شاحنةً تتوقفُ وتطلق

عمودًا كثيفًا من دخانٍ أسودَ نحو السماء. هبط منها سائقٌ ضخمُ الجثة، يكسو ساعدَيه شعرٌ كثيف، وفتحَ الباب الخلفي. زحف سليم على الأرض وراقبَ بتركيز.

استغرقَ ما حدث بعد ذلك ثوانيَ قليلة، دقيقةً فارقة بشكل خاص. رن هاتف السائق المحمول، نغمةً عالية وحادة. أجاب السائقُ بسعادة. أبطأت المحادثةُ السارة خطواته وقادته بعيدًا. كان سليم على مسافةِ قرابة ثمانية أقدام من الرصيف. ظلّ يراقبُ السائق، الهاتفُ على أذنه وعلبة مياهٍ غازية عند شفتَيه، يسير متمهلًا نحو كابينة القيادة.

لم يتوقفْ سليم ليفكّر، لو توقّف لن يغادرَ باتراس أبدًا. فتح باب الشاحنةِ فقط بما يكفي ليمر بجسدِه النحيل.

صار في الداخل. انحشر في الظلام الدامسِ بين ما بدا كراتينَ مكدسةً. تحسسَ بيدَيه ينتظرُ أن تعتادَ عيناهُ الظلمة. لا ضجة في الخارج، حتى الآن على أي حال. انزلقَ بين عمودَي كراتين مرتفعَين وجلس متكورًا، حرك الكراتينَ ليضعها أمامه ليصنَع حائطًا. قبع ساكنًا ومتوترًا، ينتظر.

سالَ العرَقُ على ظهره.

في تلك اللحظاتِ لم يفكّر في أمهِ ولا سميرة ولا عزيز. لو فكّر في مدَى حاجتِه إلى الوجودِ بينهم مجددًا، في لحظة عناقِهم ورؤيةِ لمعان أعينِهم لرؤيته، فقد يُفسد اللحظةَ. ركّز تفكيرَه في الشاحنةِ والسائق والبقاءِ ساكنًا.

اقتربَ صوتُ السائق. عاد إلى باب الشاحنةِ، ما زال يتحدثُ في الهاتف. ألصقَ سليم ذقنَه بصدره، ضم ركبتيه متكورًا ما أمكنه.

انفتح البابُ على وسعه. تدفق الضوءُ فحبس سليم أنفاسَه. فتح السائق أحد الصناديق، عبثَ بمحتوياته ثم أغلقَه مجددًا. صلصلتْ قواريرُ زجاجية لاحتكاكها معًا. ضحكَ السائقُ، لا تزال المحادثةُ السارة تشتتُ انتباهه. انغلق البابُ وسمع سليم تكّة القفل.

ظلامٌ دامس.

صار وحدَه.

تنفّس.

فريبا

45

تركتُ أفغانستانَ وبين يديّ ثلاثةُ أطفال، الآن أمسكُ يدَ ابنتي. أنا وسميرة لا نحتملُ النظر إحدانا إلى الأخرى، ولا نحتملُ أن تتركَ إحدانا الأخرى. يوجد كوبُ شاي باردٍ على الطاولة أمامي، وبعضُ المجلات وعلبة مناديل ورقية. لا يمكنني أخذ ولو رشفةِ شاي واحدة ونحن ننتظر. المجلاتُ ليس فيها سوى صور لأشخاصٍ يبتسمون لا يشبهونني في شيء ولا يعرفون شيئًا عن حياتي. لا يتبقّى لي سوى علبة المناديل. يبرز منها نصفُ منديل كأنه يدعوني إلى أخذه، لكنني أرفض.

لونُ طلاءِ الجدران أزرقُ فاتحٌ، لون برقعٍ أفغانيّ تُرك في الشمسِ ليجفّ. أتساءلُ متى سأرى هذا اللونَ فأفكّرُ في ريش الطيور أو المياهِ المتلألئةِ تحت الشمس. حتى الآن ما زال يأخذُني إلى الخلف، وليس إلى الأمام.

يدا سميرة دافئتانِ، ترتدي سترةً كانت قد صغرتْ على ابنة نجيبة. تبدو فيها فتاةً جديدة. بدأ وجهُها في الامتلاء بالفعل. جمعتُ خصلات شعرِها للخلفِ بمشبكٍ على شكل سلحفاةٍ أهدتها إياه خالتُها، أحدثَ ذلك فارقًا كبيرًا. التفكيرُ في الشَّعرِ والملابس رفاهيةٌ. تذكرتُ ملابسي في سنواتي الأولى مع محمود، الآن أفكّرُ في عدم أهميةِ الملابس... ومع ذلك في قدرتِها على تغييرِ الحياةِ.

قد تكونُ الحقائق متناقضةً تمامًا، الأكثرُ سوادًا والأكثرُ بياضًا معًا في وقت واحد.

مرت الآن ساعتان. الوجوهُ حولنا عطوفةٌ ومتسامحة. يتحدثون ببطء وأناة. تبتسمُ الممرضاتُ لسميرة وهي تبادلهنَّ الابتسام. هذا يجعلُ الأمرَ أسهلَ عليّ، أن يُؤخذَ مني أصغرُ أبنائي، وأراه وهم يجرّونه بعيدًا، يثْني أصابعَه فتنشبُ في نياط قلبي. وضعتْ ممرضةٌ يدها على ذراعي وشدّتْ عليها برفق، تقول بلا كلماتٍ إنها أمٌّ هي أيضًا، وإنهن سيعْتَنين بابني جيدًا.

إن أمكنهم إصلاحُ الخللِ في قلبهِ سيكون لديّ أملٌ.

حدث الكثيرُ في الأسابيع القليلةِ الماضية منذ أن وصلنا. كان الجزءُ الأصعبُ هو الخطوةُ الأولى ــــ الاقتراب من ضابط الجوازاتِ بلا شيء سوى الحقيقةِ العارية لسبب وجودِنا، رايةٌ بيضاءُ تتوسلُ الرحمة. عبسَ الضابطُ وتأففَ وقادنا بعيدًا في حين يراقبُ الآخرون، مُمتنّين لأنهم ليسوا في موقفنا ويمدّون أعناقهم ليسمعوا ما يُقال. كنا موضوعًا مثيرًا للفضول. ثبّتُّ عينيَّ على الضابط، عاجزةً عن مقابلة نظراتِ المحدّقين.

قضينا ساعاتٍ في غرفةٍ قبل نقلِنا إلى غرفةٍ أخرى. عند نقطةٍ ما، جاء رجلٌ إيراني، ترجمَ لهم كلامي إلى الإنجليزية ليفهمَني الضباط، لم يبتسمْ لي، ولم يتفوه بكلمةٍ واحدة غير المطلوب منه إخباري به. لم يكن صديقًا أو حليفًا، وكان حريصًا على توضيح هذا.

بدأت الإجراءاتُ. أرسلونا إلى مأوًى، مبنى بغرفٍ صغيرة وحماماتٍ مشتركة. كان هناك لاجئون آخرون، جميعهم يمرّون

بالإجـراءاتِ نفسـها. أشـخاصٌ مـن الأجنـاس واللغـات شتّى. عاجـزون عـن التواصـل، كنـا ينظـرُ أحدُنـا إلـى الآخـر بحـذرٍ وريبة، كأننـا يحسـدُ بعضنـا بعضًـا علـى فرصـةٍ وحيـدة، كأنَّ واحـدًا فقـط مـن بيننـا مـن سـيمكنه الفـوز. نتسـاءلُ مـن منـا صاحـبُ أفضـل قصـة. مَـن منـا الأجـدر بتعاطـفِ هـذا البلـد؟ منافسـةٌ مزعجـةٌ وصامتـة.

أُجريَتْ معنـا مقابـلاتٌ أخـرى. قلتُ كل شـيء بالتفصيـل. حكيـت لهـم عـن زوجـي وعملـه والأعـداءِ الذيـن صنعهـم لنفسِـه بشـكلٍ مـا. حكيـت لهـم عـن الليلـةِ التـي جـاء فيهـا الرجـالُ إلـى بيتِنـا وأخـذوه بعيـدًا. حدقـت سـميرة فـي الأرضِ وهـي تسـتمعُ، لـم نتحـدثْ عـن تلـك الليلـةِ منذئـذٍ. كـرر المترجـمُ القصـةَ علـى امـرأةٍ كانـت تسـجّلُ الملاحظـات، أومـأت المـرأة برأسِـها، وقلبـت الصفحـةَ إلـى الأسـئلة التاليـة. حكيـتُ لهـم عـن سـليم وكيـف اختفَـى فـي الطريـق، حكيـتُ لهـم عنـه ليسـجّلوهُ فـي دفاترِهـم إلـى حيـن عودتِـه. تأكّـدوا مـن الأسـماءِ وتواريـخِ الميـلاد وأسـماءِ الأقـارب وعناوينِهـم والتفاصيـل كافـة. سـألوني مـرارًا وتكـرارًا عـن المعلومـات نفسـها، مـراتٍ كثيـرة جـدًّا حتـى خشـيتُ أن أتعثـرَ فـي إجاباتـي، رغـم أنهـا حقيقيـة.

سـمَحوا لأختـي نجيبـة بزيارتِنـا، ألقيـتُ بنفسـي بيـن ذراعَيهـا. أن توجـدَ مـع عائلتُـك يعنـي أن تشـعرَ بإمكانيـةِ نمـو جـذورك مجـددًا. حيـن سـألتني عـن سـليم هـوَى قلبـي. كنـتُ آمـل، إلـى حـد مـا، أن يكـون قـد سـبقني إلـى إنجلتـرا ووصـلَ إلـى بيـت خالتـه بالفعـل، فـي انتظارنـا. عانقتْنـي أختـي بقـوة. جـاءت معَهـا أسـرتها، حميـد والأطفـال، كان لـمُّ الشـمل حلـوًا ومـرًا، يلفُّـه ضبـابُ وفـاة محمـود. مسـحَ حميد دموعَـه لرؤيتـي بـلا زوجـي، ابـن خالتـه. للحظـة، زالَ كلّ

ما كان بيننا، الطريقةُ الملتوية التي تزوجَ بها من أسرتِنا. انتابني قلقٌ آخر أكثر إلحاحًا، سليم لا يزال مفقودًا، بذلتُ أختي قصارى جهدِها لطمأنتي.

سيأتي قريبًا جدًا قريبا جان. لطالما كان ماهرًا، إنه ابن أبيه.

نعم، هو كذلك.

نعيشُ الآن في شقةٍ صغيرة بغرفةِ نومٍ واحدة ومطبخٍ صغير. متواضعةٍ ورائعةٍ في آن. منحونا، إلى أن ينظرَ في التماساتِنا، بطاقاتِ هويةٍ وبضعةَ جنيهاتٍ كلَّ أسبوع للطعام. الأهم من هذا وذاك، أنا ممتنة لأنهم اهتمّوا بمرض عزيز. كان الطبيب التركيُّ العزيز محقًا، عزيز لديه ثقبٌ في القلب ويحتاجُ إلى جراحةٍ عاجلة، كما قال الأطباءُ هنا. سيعالجونَه إلى أن ينظر في التماسنا. بمترجمٍ أو دون مترجم، كنتُ عاجزةً عن التعبير عن امتناني حين سمعتُ بهذا.

ليتني أستطيعُ إبلاغ سليم بهذا. أبحثُ عنه في كلّ مكانٍ نذهبُ إليه. أنظرُ إلى الفتيان بنفسِ طوله ولونِ شعرِه وأدعو الله أن يأتي أحدُهم نحوي ركضًا. أسمع صوتَه في الزحام من حين إلى آخر فألتفت فجأة، أتساءلُ إن كنتُ قد مررتُ به دون أن ألحظه. ماذا لو كانَ هنا لكنه لا يستطيع إيجادي؟ تعرفُ سميرة سبب تصرفاتي هذه ولا تُدهش، هي أيضًا تفعلُ هذا. الأصعبُ من أي شيء ألّا أعرف أين هو.

أجرؤ على التفكير في عالمٍ كامل، على الحلم بأن المرأة التي تكتبُ تلك القصة في تلك الصفحاتِ الكثيرة ستخبرُني بأن ولدًا اسمه سليم حيدري هنا ويبحثُ عن أسرته. أحلم بأن أخبرَه بأن

أخاهُ بخير، أحلمُ باستلامنا خطابًا يؤكد أننا لن نُطردَ من هنا وأنه مسموحٌ لنا بالعملِ والذهابِ إلى المدرسة والبقاءِ في هذا البلد حيث الهواءُ النقي والحياة أقربُ إلى المعدن منها إلى التراب.

وفيما أفكّر في كل هذا تقتربُ مني امرأةٌ في زي المستشفى الأخضر. رأسُها مغطى بقماشٍ أزرق، الأزرقُ الفاتح نفسه لطلاء الجدران. نزعتْ كمامتَها وهي تقتربُ. حدقتُ إلى وجهها، لا أطيق صبرًا لأعرف الأخبار التي تحملُها عن ابني. لا يمكنني معرفة شيءٍ من عينَيها. لا أجرؤ على النهوض لئلّا أنهار، لا يمكنني فعل شيءٍ سوى الانتظار والاستماع.

لن يطولَ الأمر أكثرَ من هذا الآن.

سليم

46

مرة أخرى، لغةٌ جديدة. مرة أخرى، أناسٌ جدد.

لكن كلّ شيءٍ متشابه، الشعورُ المألوف بالتيه. الأشياءُ نفسها التي تجعلُه يتعرّقُ وتجعلُ حلقه يجفّ: الزيُّ الرسمي واللاجئون ونقاطُ التفتيش والقطاراتُ ورؤية الطعام.

بعد وقت بدا بلا نهاية، شعر سليم بالسفينةِ تتوقفُ عن الحركة والشاحناتُ تبدأ انطلاقَها. سارت الشاحنةُ ببطءٍ على المنحدر، إلى الميناءِ في باري، على ساحل إيطاليا الشرقيّ. الهبوطُ من الشاحنةِ هو الجزءُ المهم. انتظرَ سليم أن يتوقفَ السائق ويفتحَ الباب. حين حدث هذا، ألقى سليم بنفسِه على الرصيف، كاد يُسقطُ السائق أرضًا. كفأر اكتشفَه أحدُهم في حفرة، نهضَ على قدَميه وانطلق يركض.

اركض.. اركض فحسب.

لسع ضوءُ الشمس عينَيه اللتين اعتادتا الظلمة. ركض نحو طريق، سمعَ صياحًا خلفه. ركض أسرعَ وانعطف يسارًا حين رأى فتحةً بين مبنيَين. كانت ركنًا في شارع. حين قطع مسافةً معقولة، ألقى بنفسه بين سلّتي قمامةٍ وانتظر.

عاود السير مجددًا وقت الغسق. سار بهدفٍ لكن بلا وِجهة، مذهول من نجاحِه في الوصول إلى هنا. رفع عينَيه إلى المباني

العالية. لقد وصل إلى العاصمة، لم يرَ مثلها سوى في كتبِ أبيه فقط.

«هنا».. فكّر بخوفٍ وأمل معًا «قد أتوه».

تجوّل في الشوارع الضيقةِ بعيدًا عن زحام المرور. مرّت به أسرة، تدفعُ الأم عربةَ طفل ويحملُ الأبُ ولدًا صغيرًا على كتفَيه. أشاح بنظرِه بعيدًا. حتى بعد شهورٍ وأميالٍ بينه وبين كابول، ما زال الجرحُ يؤلمه، أقربُ له من الدم في عروقِه. متى سيمكنُه النظر إلى أبٍ وابنه دون أن يشعرَ بسم يسري في جسدِه؟ حتى الليلة التي أخذوا فيها بادر جان، لم يكن قد لاحظَ أبًا وابنه من قبل. الآن ينجذبُ نظرُه لهما. جَلْدُ ذاتٍ لا يمكنه مقاومتُه لأنه في كلّ مرةٍ يأمل، بذلكَ الجزء منه كفتًى يأبى أن ينهزمَ، أن تكونَ هي المرة التي يتحولُ فيها الخَل إلى عصير.

ثم الأمهات. وفتياتٌ في سن سميرة. ورضّعٌ بصحة جيدة. ظل يشيح بنظره بعيدًا عن العالم كثيرًا جدًّا. كان وحيدًا أكثر مما يتخيل.

استجمعَ شجاعته ليدخلَ إلى محلٍّ صغير. اشترى ساندويتش وعصيرًا ببضعةِ يوروهات. وضع البائعُ وجبته في كيسٍ ورقي وعاد إلى عمله. تنهّد سليم بارتياح.

وجد متنزّهَ أطفال معتمًا قليلًا. مرّ بالأرجوحاتِ والزلّاقة وصندوق الرمال. سار إلى دوّامة الخيل، قرصٌ مطليّ بالألوان الأساسية. دفع سليم القضبانَ الحديديةَ فدارت الدوامة. تحركت ببطءٍ وصريرٍ يسببُ قشَعْريرة. يحوّلُ الليلُ ملاهيَ الأطفال إلى مدنٍ شبحيّةٍ خاليةٍ من الأصواتِ البريئة لضحكِ الأطفال ولعبهم.

عاشَ في تلك الفجوات، في الأماكن المهجورةِ ليلًا، والأماكنِ الخاليةِ من وجوهٍ مشرقةٍ ومبتهجة. في الأركانِ التي لا يلاحظُها أحد، بين الأشياءِ التي يرميها الناسُ من الأبواب الخلفية.

نام ليلته خلفَ دوامة الخيلِ متكورًا على نفسهِ واستيقظ عند شروقِ الشمس. عادت الأبواقُ وحركةُ الحياة إلى المدينة مجددًا. نفضَ عن نفسه التراب وسار إلى شارعٍ جانبي. اليوم، سيخططُ للخطوة التالية.

تسير النساءُ بأكياس بقالةٍ وأطفالٍ صغار. بدت المحلاتُ مألوفةً. اللغةُ أجنبية. الأشياءُ مختلفة لكنّها متشابهة. ظلَّ حذرًا لرؤية الزيّ الرسمي. عليهِ أن يجدَ أفضلَ السبل للوصولِ إلى وجهته، إنجلترا. كان قد نجحَ في ركوب الباصات في تركيا وفكّر أن يحاولَ هنا. استجمعَ شجاعته ليقتربَ من امرأةٍ عجوز، أحنَى الزمن ظهرها. سألها بمزيج من اليونانية والإنجليزية عن محطة الباص. انزعجتْ منه فلوّحتْ له بيدها وسارتْ وهي تنقرُ بعصاها على الأرض. واصلَ سيره ويداه في جيبَيه.

رأى رجلًا عجوزًا بشعر رمادي يجلس وحدهُ خارجَ مقهى. طوَى الرجل جريدته ووضعها تحتَ ذراعه حين اقتربَ منه سليم وهو يبذلُ جهدًا ليكرر سؤالَه ثانية.

أومأ الرجلُ برأسه، وجهُه مغطّى كله تقريبًا بحافة قبعته العريضة. لصوتهِ بحّة ناعمة، تشي بطحن السنين.

«دوفي لا ستازيون؟ سي، سي».

بسلسلةٍ من إشاراتِ اليد، أشار لسليم إلى طريقٍ رئيس ومنعطفٍ إلى اليسار. ثم كرر الإشاراتِ وهو يتحدثُ ببطء وصبر حتى تأكد أن سليم فهم عمومًا الاتجاه الذي عليه السير فيه.

وضع سليم يدَه على صدره وأطرقَ برأسه شكرًا، شعرَ بشبهه ببادر جان بتلكَ الحركة. أمامه طريق، أخيرًا.

لم تكن لافتاتُ الطريق مُعينةً. وصلَ إلى مفترق طرقٍ وتساءل إن كان عليهِ الانعطاف يسارًا من هنا. سار دقائقَ قليلةً فرأى مبنى واسعًا؛ واجهته صفٌّ من المداخلِ ومقوسة، ونوافذه مزخرفة. انعطف باصان في الطريق الذي يحيطُ بالمبنى. رأى أمامه ضابطَ شرطةٍ يرشفُ قهوته. فانعطف في شارعٍ جانبي بسرعة، مذعورًا، سار مسافة مبنيَين قبل أن يعود إلى الطريق الرئيس مجددًا، صار ضابطُ الشرطة خلفه بمسافةٍ جيدة الآن، فتوجه إلى المحطةِ مباشرة.

في الداخل، كانت المحطةُ عاصمةً مزدحمةً في حد ذاتها، شق طريقَه بين زحام المسافرين حتى وجدَ حائطًا عليه أربعُ خرائطَ كبيرةٍ بمقاييسَ مختلفة. نظر إلى مساراتِ الباص المحلي. ثم إلى خريطةٍ لإيطاليا.

لكن أين أنا الآن؟!

في مكانٍ ما بالقرب من الساحل، في مكانٍ ما بالقرب من اليونان. التقطت عيناهُ النقطة الحمراءَ على الساحل الشرقي لإيطاليا.

حسنًا، أنا هنا. كيف سأصلُ إلى إنجلترا إذًا؟

التفتَ حوله ليتأكدَ من أنه لا يلفتُ نظرَ أحد. عاد ينظرُ إلى الخريطةِ، أقصر مسارٍ للوصول إلى إنجلترا سيكونُ عبورَ فرنسا.. «كيف سأفعلُ ذلك؟»

فكّر في رحلتهِ حتى الآن.

كلُّ خطوةٍ في وقتها، الاختباءُ أسهلُ في المدنِ الكبيرة، لا تسقطْ في فخ البلداتِ الصغيرة.

روما.. شمال غرب من حيث يقف، اسمها مكتوبٌ بحروفٍ كبيرةٍ والمساراتُ التي تؤدي إليها واضحة. من روما، سيكونُ عليه الاتجاه شمالًا ليعبرَ فرنسا ثم إلى القناةِ الإنجليزية.

تحسسَ الحبلَ عند خصره وحافظَتَه، دسَّ فيها الورقة التي كتبتْ فيها روكسانا العنوانَ الذي وجدتْه له، وِجهته، كل ما لديه، لا رقمَ هاتف، ولا خريطة، ولا صورة، عنوان فقط.

سار نحو مكاتبِ موظفي التذاكرِ خلف نوافذَ شبكيةٍ. تقدم أمام امرأةٍ كبيرةٍ في السن بالكاد نظرتْ إليه، لم يفهم شيئًا مما قالته.

«من فضلك؟ تذكرةُ باصٍ إلى روما؟» سألها وهو يدعو الله أن تفهم إنجليزيته.

«روما؟» سألتهُ وهي ترفعُ بصرها عن حاسوبها. نظرتْ إليه من فوق نظارتها.

حاول قراءة وجهِها والاستعداد للهرب.

«روما؟ الأفضل أن تستقلَّ القطار، لا». أومأ سليم برأسِه. بدت طبيعية، ليستْ متشككة. «الباص بنقود أكثر، القطار المحليُّ أفضل».

تتبّعَ إرشاداتها نحو محطةِ القطار، ليستْ بعيدة. كرّر هناك جولاتِه الحذرةَ نفسَها وانتظرَ حتى تأكّدَ من خلوّ المكان من ضبّاط الشرطة قبل أن يقتربَ من شبّاك التذاكر. استطاع شراء تذكرةٍ إلى روما على متن قطارٍ سيغادرُ بعد ساعتَين، واستقله حين رأى الآخرينَ يستقلونه.

كانت قرابةَ العاشرة مساءً حين توقف القطارُ في محطة روما. استغرق لحظةً لاستجماعِ قواهُ قبلَ أن يترجّلَ من القطار إلى الليل. لقد تقدمَ خطوةً إلى الأمام، لكنه يعرفُ جيدًا جدًا أنه قد يتراجعُ خطوتَين إلى الخلف بسرعةٍ أكبر.

سليم
47

أعاد ضبطَ ساعةِ أبيه طبقًا لساعةِ المحطة، سار في ليلٍ مألوف وفي روما غير مألوفة يبحثُ عن مكانٍ يبيتُ فيه حتى الصباح. كان يتلهّفُ لإيجاد أفضلِ طريقٍ إلى فرنسا لكنه حذّر نفسه من الاندفاع في عبورِ حدودٍ أخرى.

الطقس بارد.. دسّ يدّيه في جيبَيه، أبقى رأسه مطرقًا وعينَيه مفتوحتَين.

يتدافع الناسُ من مخارج المحطةِ الشبيهة بعنق الزجاجةِ وهم يجرّون أمتعتَهم. اختار شارعًا مضاءً جيدًا وزحامه أقل.

كان قد سارَ قرابةَ عشرِ أو خمسَ عشرةَ دقيقةً حين رآهن. ثلاثُ نساء يقفْنَ بالقرب من واجهاتِ المحلات، يرتدينَ تنانيرَ بالكاد تغطّي أردافَهنَّ وبلوزاتٍ بدت ملتصقةً بأجسادهن. كانت اثنتان منهن إفريقيتين سمراوين، يعكسُ شعرُ إحداهما البرتقاليُّ ضوءَ عمود الإنارة. للثالثة بشرةٌ أفتحُ من سليم وشعرٌ كستنائيّ. كنّ يتمايلن في سيرهن أمام المبنى روحةً وجيئة وأذرعهنّ معقودة، يبذلْنَ جهدهن ليبْقَينَ دافئات. أبطأ سيرَه وراقبهنّ.

تبطئ السياراتُ وهي تمرّ بهن. يضعْنَ قدمًا أمام الأخرى وهن يملْنَ برؤوسهنَّ ليتفحّصْنَ السائق. راقبَ سليم ذاتَ البشرة الأفتح، نظرتْ من أعلى كتفِها إلى سيارةٍ مقتربةٍ ومررت يدَها في شعرِها.

التقط سليم رائحةَ اليأسِ المألوفةَ لديه تمامًا تتبعثُ منهن.

توقفتْ سيارةُ هاتشباك صغيرةٌ. سارتْ إليها إحدَى الإفريقيتَين ومالت إلى النافذةِ المجاورةِ للسائق. وضعتْ يدَها على وركها، هزّتْ رأسها فانطلقت السيارة على الفور، بالكاد انتظرَها السائق لتُخرِجَ رأسَها من سيارته. صاحت بغضبٍ، وضوء كشّافَيه الخلفيَّيـنِ يبتعد.

كان الشبابُ في المخيّمِ يتحدثونَ عن مناطقَ في باتراس حيث يمكنُ للرجلِ شراء نساءٍ ليكنَّ معه. ابتسم سليم وضحكَ وهم يمزحون بشأن هذا، لكنه لم يرَ ذلك المكان ولا هؤلاء النساء قط. كان واضحًا، حتى لعينَيه الساذجتَينِ، أن هذا ما كانوا يتحدثون عنه. لكن هؤلاء فتيات صغيرات. فكّر بأنه ربما يكون مخطئًا. سار نحوهنّ، ليسألَ عن الطريق ولفضوله بشأنهن أيضًا.

استعاد سرعةَ سيره واقتربَ من ذاتِ الشعر الكستنائي. رأته يقتربُ فتراجعتْ إلى الخلف خطواتٍ ومالت على واجهة المبنى. نظرت إليه الفتاتان الأخريان شزرًا وثرثرتا معًا على مقربة أقدامٍ قليلة.

لم يسعْه سوى أن يحدّقَ فيها. بدأت عيناه بحذائها ذي الكعبِ العالي السميك بطول أربع بوصات، ثم ارتفعتْ إلى ساقَيها ثم فخذَيها إلى حيث يبدأ فستانُها الأسودُ أو ينتهي، حسبَ زاوية النظر. يحدد فستانُها قوامَها النحيل، وتحيطُ بصدرِها وظهرها شبكةٌ من الشرائط تشبه المعكرونة الإسباغيتي.

«*بونا سيرا*».. قالت. سقطَ ضوء عمودِ الإنارة على ملامحِها الرقيقة ملقيًا بظلالٍ مترافصة على وجهها. أنفٌ رفيع، عينانِ

خضراوانِ لامعتان وشفتانِ بطلاءٍ أحمرَ صارخ. بدت -رغم وجهِها المطلي بالمساحيق- لا تزيدُ على السابعة عشرة من عمرها.

«آلو» أجابَها بخجل. يبحثُ عن كلماتٍ. بدت متبرمة.

«آلو»، قالتْ تحثّه. شعرتْ بأنه ليس زبونًا محتملًا فاختفت ابتسامتُها المتصنعة.

«أنا... أنا في حاجةٍ إلى مساعدةٍ، كيف أصلُ إلى إنجلترا؟» كان هذا أقصى ما يمكنه قوله في تلك اللحظة.

قلبت عينَيها ودارت على عقبيها.

ألح قائلًا: «أرجوكِ، يجب أن أذهبَ إلى إنجلترا»، توسّل إليها، «مكان يمكنُني المبيتُ فيه ليلةً؟ أتعرفين؟»

«لا أستطيعُ مساعدتك»، قالتْ فجأة. تتحدثُ الإنجليزية بلكنةٍ أغلظ وأثقلَ من لكنته. «إن كنتَ لا تريدُني، فابتعد». سارت تبتعدُ خطواتٍ قليلة فيما تقتربُ سيارة، أبطأتِ السيارة، ثم ابتعدت. نظرت الفتاةُ نحو سليم منزعجة..

«ابتعد»، قالت بحنق «لا تقف هنا!»

«أرجوكِ! لقد جئتُ من أفغانستان. أتعرفينَ كيف أجد أفغانًا هنا؟»

«لا أعرف».

«من أين أنتِ؟» ألحّ.

«ألبانيا»، قالتْ وشردتْ عيناها جزءًا من الثانية. «اذهب الآن».

لم يسمع عن ألبانيا من قبلُ قط. ألحّ في سؤاله. كانا قريبَين جدًا في السن، ربما كان تفكيرُه في روكسانا ما جعلَه يأملُ أن تساعده هذه الفتاة أيضًا رغم علمه جيدًا أنهما لا تتشابهانِ في شيء.

أدارتْ لـه ظهرَهـا بعدائيـة. استسـلم أخيـرًا. تجـولَ فـي المنطقـة المجـاورةِ سـاعاتٍ. اقتـرب منتصـفُ الليـل ولـن يمكنـه فعـل شـيء حتـى الصبـاح. انعطـف فـي ركـن فوجدَهـا عنـد المبنـى نفسـه. رمقتـه الفتاتـانِ الأُخريـان مـن بعيـدٍ وعبرتـا الشـارع، وهمـا تهـزان رأسَـيهما. نظـرتِ الفتـاة الألبانيـة نحـوه سـريعًا وألقـت برأسـها إلـى الخلـف بتأفـف.

«أنـا آسـف، أريـدُ فقـط أن أسـألك... أرجـوكِ، أريـدُ أن أنـام، مـكانٌ آمـن، لا شـرطة».

«أرجـوك.. أنـتَ تسـببُ لـي مشـكلة، ابتعـد!» لاحـتْ مـن بعيـد الأضـواءُ الزرقـاءُ الـدوّارة كأنـه اسـتدعاها بذكرِهـا. تفرقـت الفتيـات.

«شرطة؟» سألها سليم وهي تركضُ بقوامها النحيلِ في الشارع.

«نعـم»، أجابـتْ دون أن تلتفـتْ إليـه. اقتـرب سـليم مـن المبنـى، ظلـت الأضـواءُ بعيـدةً. راقبَهـا وهـي تركـضُ، سـاقاها شـاحبتانِ فـي الظـلام. حركتُهـا السـريعة غريبـةٌ بالكعـب العالـي، فجـأةً التـوى كاحلُهـا، فارتفعـت ذراعاهـا فـي الهـواء. تعثـرتْ خطـوةً أو اثنتَيـن قبـلَ أن تسـقطَ علـى الأرض. ركـضَ إليهـا. خُدشـتْ ركبتاهـا خدشًـا سـيئًا وكانـت تمسـكُ كاحلهـا، وجهُهـا متألـم. حاولـتِ النهـوضَ لتقـفَ علـى قدَميهـا لكنهـا لـم تسـتطعْ تحميـلَ وزنهـا علـى قدمِهـا اليمنـى، فأطلقـتْ شـهقة.

أمسـك مرفقَهـا وهـي تخلـعُ حذاءهـا. انكسـر الكعـب. بـدت علـى وشـك الانفجـار فـي البـكاء. بـدأت تقفـزُ فـي الشـارع وحذاؤهـا فـي يدهـا. تـرك ذراعَهـا لكنـه كـره رؤيتهـا تكافـحُ. فلحـق بهـا بسـرعة.

«سأساعدكِ»، قال بهدوء وهو يمدُّ يده لها. نظرتْ إليه باستسلام وأومأت برأسها.

«من هنا» قالتْ ببساطة. انعطفا مراتٍ قليلةً في أزقّة رمادية. قادته إلى سيارةِ سيدان صدئة في ساحة انتظارٍ خلفية. أخرجت المفتاحَ من حقيبتها، فتحت البابَ وجلست في المقعدِ الخلفي.

«اجلس»، أشارت له إلى المقعدِ بجانبها. جلس، يحرصُ ألا يقترب كثيرًا. صارت أقل تجهّمًا الآن لكنه شعرَ فجأةً بعدم الارتياح لوجوده معها في سيارة وحده.

«ما اسمك؟» سألته بفتور.

«سليم. وأنتِ؟»

«ميمي».

مرت فترةُ صمت، تململت في جلستِها وفركتْ كاحلها، نظرت إلى سليم وعقدت حاجبيها.

«لماذا جئتَ إلى هنا؟»

«هنا؟»

«إيطاليا، لماذا جئت إلى إيطاليا؟»

«أريد أن أذهبَ إلى إنجلترا، أسرتي في إنجلترا».

«أسرتك؟»

«أمي وأختي وأخي».

نظرتْ إلى النافذة، بدأت قطراتُ مطر تسقط على الزجاج بصمت.

«أين أسرتك؟» سألها سليم. مسحتْ ذراعَيها واعتدلتْ في جلستها.

قالت فجأة: «لا أسرة».

«أوه».

أثارتْ إجابتُها فضوله أكثر لكنه تردّدَ في السؤال عن هذا الأمر.

«متى جئتِ إلى إيطاليا؟»

«منذ عامَين».

«أتريدينَ البقاء فيها؟»

زمّتْ شفتَيها ومدتْهما إلى الأمام بغضب. «لا يوجد شيء هنا».

«أين تريدينَ الذهاب؟»

رفعت بصرَها كأنها لم تفكّر في هذا السؤال من قبل.

شيءٌ ما في الظلام جعل محادثتَهما المجهولة سارةً على نحو أكبر مما تبدو عليه بالفعل.

«لا أعرف». بدأ المطرُ يتساقط بغزارة، يضربُ سقف السيارة بصوتٍ صفيحي متقطع. هدّأها الظلامُ والمطر، بدأت تخبر سليم بقصتِها بإنجليزية متكسّرة لم تفِها حقها.

جاءتْ من أسرةٍ فقيرة في ألبانيا، كانت الفتاةُ الثالثة ويليها فتاتان أُخريان. حين أتمت خمسة عشر عامًا، دبر لها أبواها الزواجَ برجل بضعفِ عمرها تقريبًا، رفضتْ لكن ذلك لم يُحدث فارقًا. عاشت معه ثلاثة أشهر تقريبًا، تجمع الزجاجاتِ الفارغةَ وتعاني نوباتِ غضبه وسُكرَه. حين عادت إلى أبويها رفضا أن يأوياها مجددًا. ذهبت للعيشِ مع خالتها.

أحبت فتى محليًا طلب منها مرافقته إلى إيطاليا حيث سيتزوجانِ ويبدأانِ حياةً جديدة. رتّب أمرَ سفرهما بقاربٍ بخاري

من ألبانيا إلى الساحل الإيطالي. لم تخبر خالتَها ولا أيَّ شخصٍ آخرَ بقرارها الرحيل. وصلا إلى إيطاليا وأقاما في شقةٍ صغيرة، ولأسبوع أو اثنين ظنتْ أنها تبدأ تلك الحياةَ الذهبية التي وعدها بها. لكنه بعد وقتٍ قصير بدأ يشكو من حاجتِهما إلى المال. قال لها إنه لا يجد عملًا وأن جمالَها قد يفيدُهما في كسبِ ما يكفيهما، وعدها أن الأمر لن يطولَ وأن ما بينهما لن يتغير.

لم يقاطعْها سليم.

كان صاحبُها يأخذ كلَّ نقودِها. ينفقُها على المخدرات وخروجه مع أصدقائه حين تكونُ هي في العمل. في يوم ما، أخذها إلى شقةٍ وقايض عليها مع رجلٍ آخر ببرود. توسّلت إليه، ذكّرته بوعوده لها وبكل ما فعلتْه له لكنه أدار لها ظهره ولم ترهُ بعد ذلك قط. أرادها الرجلُ الآخر أن تعمل. حين رفضتْ ضربَها وحبسها في غرفةٍ مع فتاتينِ أخريَين حتى استسلمْنَ وخضعْن. كان ذلك منذ سبعةِ أشهر. عرفت من الفتاتينِ أن الرجلَ ليس من النوع الذي يُمكن الهرب منه.

«لا مكانَ أذهبُ إليه، لا أوراق، أسرتي لا تريدُني، وإن رحلت سيعثر عليّ».

ليس لديه ما يقوله، لا كلماتٍ لتهوين الأمرِ عليها أو لتشجيعِها. كان ممتنًا للظلام لإخفائه تعبيراتِ وجهه. كانت فتاةً مستخدمة، عارٌ من النوع الذي لا يتحدثُ عنه الناسُ المهذبون في كابول. دُهش لأنه لم يرَ ذلك فيها.

لديه سؤالٌ واحد فقط، أجابته هي دون أن يضطر إلى سؤاله.

«لا أعرفُ لماذا أخبرك، تقولُ إنك في حاجةٍ إلى المساعدة، لكنك فتى، أنت حرٌّ لست بحاجةٍ إلى المساعدة».

أغضبَه افتراضُها، أراد أن يكرهَها، جزءٌ منه فعل، كرهها لأنها أخبرتْهُ بفظائعَ جعلتْ مشكلاته تبدو هيّنة، جعلتهُ يشعر بالحزن لشخصٍ ما غيره، جعلتهُ يشعرُ بعجزهِ التام. عاجزٌ عن مساعدةِ نفسه أو مساعدة آخرين.

نظر إليها نظرةً جانبيةً مطولة. ليس من الصعبِ تخيّلُ أسرتها ترفضُها، فتاة تتركُ زوجها ثم تهربُ مع فتى آخر، لينتهي بها الأمرُ عاهرة. في أفغانستان كان أحدُهم سينهي بؤسَها ويمحو العار الذي جلبتْه على عائلتها.

نظر خارجَ النافذة، تابع قطرةَ مطرٍ واحدة من بين الكثير وهي تهبطُ إلى الأسفل على الزجاج وتختفي في الليل. لا يمكنُه أن يكرهَها. رغم فظاظتِها ومظهرها المبهرج، كانت مجردَ فتاة. أفضل ما يستطيعُ فعله أن يسكت.

«أليس لديكَ أوراق؟» سألته.

«لا».

«مم».

تحسسَ ساعته. تساءل إن كان البقاءُ معها آمنًا لكنّ المطر كان قد اشتد الآن ولم يرغبْ في البحث عن غطاءٍ آخر.

«ساعتك... إنها جميلة».

توقف عن تدويرِ رباط الساعة واعتدلَ في جلسته على المقعد. بعد دقائق قليلة سمع نفسه يكسر الصمت.

«كانت ساعةَ والدي».

حكى قصته بوضوحٍ وإيجازٍ وهو يراقبُ عقاربَ الساعة تعدُّ الثواني والدقائق. فاجأه فائضُ الأيامِ والسنينَ غير المهم على الإطلاق. حُكيتْ قصتُه، لبّه، في ثوانٍ أو دقائقَ قليلة. كان أغلبُها طريقًا خاليًا، مدى شاسع يطولُ فيه السفر من نقطة إلى أخرى.

حكى لها عن والدِه. عن الرحيل ومزرعةِ بولات في تركيا. لانَ صوتُه وهو يتحدثُ عن مخاوفَ مادر جان وصمْتِ سميرة وقلبِ عزيز العليل. تحدث عن أتيكي لكنه لم يذكر صبور ولا طعنَه له، ما زال عاجزًا عن تقبّل تلك اللحظة. حكى لها عن باتراس وعن جسدِ نعيم المشوّه.

«أنت فتًى».. قالت أخيرًا: «أسرتُك تنتظركَ. اذهب إليهم».

«لكن كيفَ أذهبُ إلى فرنسا؟»

فكّرتْ قليلًا ثم قالت: «ربما أستطيعُ مساعدتك، لكنها قد تكون فكرةً سيئة».

«أخبريني».. طالبَها سليم، أي فكرةٍ قد تكون جيدة.

«الناس يسافرونَ إلى فرنسا يوميًا، بعضهم يحملُ معه صندوقًا، عمل سهل، أهم شيء ألّا تقبضَ عليك الشرطة وتأخذك إلى السجن».

«لحمل صندوقٍ فقط؟ يمكنُني هذا»، قال بأمل.

«لا أعرفُ، سآخذكَ إلى رجل، سأسأله».

اتفقا أن يلتقيا في الليلة التالية. حين توقفَ المطر أخبرتْه بأن الأفضل أن يغادرَ ويجدَ مكانًا آخرَ للمبيت فيه حتى الصباح. فهمَها وسار في ظلام الليل، ممتنًا لأنه قابلَ ميمي، الفتاة، المرأة.

سليم
48

قضى النهار يتجوّلُ في شوارع روما. يراقبُ السائحينَ بكاميراتِهم تتدلَّى من أعناقِهم، ومطوياتٍ لامعة في أيديهم، يميّز سيرَهم إيقاعٌ خاص. توقّف، ركّز، التقط الصورة.

رسم في ذهنِه خريطةً للعودةِ إلى مكان اللقاء. أغرقتْ أبواقُ السياراتِ وصخبُ المدينةِ أفكارَه الكئيبة.

في أحد الانعطافات رأى أمامه مبنَى بلونِ التراب، أثر قديم أعلى الشوارعِ المزدحمة. مبنى مائلٌ مفتوحٌ للسماء ويبدو مألوفًا على نحو غريبٍ لفتًى لم يقضِ في المدينةِ سوى يومٍ واحدٍ فقط. سار صوبه، عاودهُ فيض الذكريات وهو يحدّقُ إلى المبنى مشدوهًا.

لم يكنْ حينها أكبر من ثمانية أو سبعة أعوام، يجلسُ بين عائلته في غرفةِ الجلوس في بيتِ خالته. كانوا من القلائل الذين لديهم جهازُ فيديو، وكان أحدُ أبناء خالتِه قد استعارَ من صديقٍ نسخةً قديمة من فيلم كونغ فو، ماذا كان اسمُ الفيلم؟ شيء ما عن تنّين. كان هذا المبنى موقعَ أحدِ مشاهدِ القتال، مشهدٌ جعله يضرب بقبضتَيه في الهواءِ ويُمرّن عضلاتِ ذراعَيه الصغيرَتين لأسابيع.

اقترب من الكولوسيوم، تسارعتْ خطواتُه بالحنين والفضول. سار مع الناس الذين يدورونَ حول المبنى، طابورُ شراءِ تذاكر الدخول. عاد إلى دكةٍ على الجانب الآخر من الشارع. لا يمكنه إنفاقُ نقوده على تذكرة، ولا يمكنه الابتعاد، تخيّلَ أبطالَ الفيلم عراةَ الصدور يلمعُ العرقُ على عضلاتِهم المفتولة، يضربون بمهارةٍ وينحنونَ ويطيرون في الهواء.

فكّر في سائقي الشاحنات، ضبّاط الشرطة، صبور.. معاركُه لا تشبه معاركَ الفيلم في شيء.

تساءلَ ماذا تفعلُ روكسانا في هذه اللحظةِ. تجلسُ في الفصل ربما، تستمعُ للمدرس بأذنٍ متشككة. تذكّرَ يوم أن أدخلَتْهُ بيتها وهي تقودُه إلى غرفة الجلوس، وهي تتحدث في أثناء الغداء، يدها الناعمة تناولُه عنوانَ خالته. تذكَّر كيف يضيقُ تيشيرتُها عند خصرها.

قفز ذهنُه إلى ميمي، فتاةٌ مختلفةٌ جدًا، إن جاز اعتبارُها كذلك. بشرتُها، ساقاها، صدرُها. كان ذلك أكبر قدر رآه من امرأةٍ في حياته كلها. امرأة ذات براءةٍ وعار. خلْفَ ظلَال الجفونِ الملطخ المستقر بين التجاعيد، ورائحة دخانِ السجائر في ملابسِها ونظرة الحيرة في وجهها، يمكنه رؤية جمالِ ما فيها. طريقتُها في دسّ شعرها خلف أذنِها أو جلوسها وإسنادها ذقنها إلى راحتها.

لم يعرف فتياتٍ مثلها، مجرد التفكير فيهنَّ يجعله يشعرُ برجولتِه أكثر، رغم لا منطقيّة هذا الأمر.

خيّم الليلُ وعاد سليم إلى الشارع الخافتِ الإضاءة. حين لم يرَها دار حولَ المباني، رأى فتياتٍ أخريات بمختلفِ ألوانِ البشرة، يرتدينَ بناطيلَ قصيرةً أو تنانيرَ منفوشةً، يُخفينَ ضجرَهنّ بوقفاتٍ مائلة. ظل على مسافةٍ منهن.

جلس على السلّمِ الأمامي لمبنى مهجورٍ. ساعتُه تشير إلى التاسعة، مرت سياراتٌ قليلة ببطء. يرى من حيث يجلسُ عمود الإنارةِ الذي التقى بها تحته، قرر الانتظارَ قليلًا قبل أن يعاود التجول مجددًا.

بعد مرور نصفِ ساعةٍ توقفتْ سيارة. انفتحَ بابُها وخرجتْ ميمي بساقَيها الشاحبتَين واحدة تلو الأخرى. أغلقتِ البابَ خلفها فانطلقت السيارةُ على الفور. عدّلتْ تنورتَها وعادت تسير على الرصيفِ بحذر. لا يزال كاحلُها يؤلمها.

ترتدي بلوزةً خضراء وتنورةً بيضاء تلمعانِ تحت ضوء عمود الإنارة. وقف وسار نحوَها، رأته يقتربُ من بعيدٍ لكنها تصرفتْ ببرود.

«ميمي».. قال بارتباك. احتفظ بيدَيه في جيبَيه، لا يعرفُ ماذا يفعلُ بهما.

«لقد عُدت».

من طريقة قولِها خمّن أنها لم تتوقعْ عودتَه وأنها ليست سعيدةً بها.

«نعم، هل قدمُكِ بخير؟»

أومأت برأسِها، ربما ندمتْ على اتفاقها معه.

تحدّثَ بسرعةٍ قبل أن تطلبَ منه المغادرة. «أيمكنكِ أخذي إلى الرجلِ الذي يمكنه مساعدتي في السفر إلى فرنسا؟»

«إنها فكرةٌ سيئة، آسفة. ربما الأفضلُ أن تجد طريقةً بنفسك».

كان بصيص الأمل الذي أشعلتْه فيه الليلة الماضية قد نما إلى نارٍ كاملة. كانتْ مترددةً، لكنه لم يكنْ كذلك.

«أرجوكِ. أنا بحاجةٍ إلى المساعدة. ليس لديَّ أوراقٌ أو نقود. يجبُ أن أذهب إلى إنجلترا... إلى أسرتي. إلى أمّي وأختي وأخي».

طرفتْ عيناها لذكْرِ الأسرة، وضعتْ يدها عند خصرِها ونظرتْ خطفًا خلفها.

«أنا لا أعرفُ ماذا يحدث. هؤلاء الناس يوجدونَ في أماكنَ خطرة أحيانًا. لقد جئتَ إلى إيطاليا وحدك، ظنّي أن عليك أن تذهبَ الآن وتجدَ طريقَك بنفسك مثل الجميع، يُمكنكَ هذا، لا أحد يراقبكَ أو يُبقيكَ هنا قسرًا».

«ميمي، أرجوكِ».. توسّل إليها.

«ليستْ فكرةً جيدة».. قالت بهدوء.

«ليس لديّ شيء».. قال ببساطة: «أنا بحاجةٍ إلى هذا».

لديه أكثرُ مما لديها، تعرفُ هذا، كانت تحسدُه على فرصتِه، الفرصةُ التي لا تتسنَّى لها، هي الطيرُ الحبيس. استسلمتْ، لقد حذرتْه كثيرًا. ما سيحدثُ بعد ذلك ليس مسؤوليّتَها.

«سأُريك، لكن لا تذكرِ اسمي».

وافق على الفور. رنّ هاتفُها المحمول. أسرعتْ تُخرجه من حقيبة يدها الصغيرة. تحدثتْ مع شخصٍ ما باقتضاب وعيناها تدوران في الشارع، بدت مرتبكة وخاضعة.

«علينا أن نذهبُ سريعًا».

تبِعها. أخبرتْه بأنها ستقودُه إلى مبنى سكني، ومن هناك سيكونُ عليه هو الذهاب إلى الرجلِ وطلبُ مساعدتهِ في العبور إلى فرنسا.

أخيرًا.. فكّر سليم، *سأذهبُ إلى مكانٍ ما*.

لم يطل ارتياحه.

سارا دقائقَ فقط قبل أن تظهرَ عند المنعطف سيارةٌ رماديةٌ مسرعة توقفتْ أمامهما بصرير، وكادت ترتطمُ بالرصيف. تراجعا إلى الخلفِ وكادت ميمي تسقط، ما زالت قدمُها غير ثابتة، مد سليم يده لها ليسندَها فأخذتها.

«أنت زبون»، همستْ بسرعةٍ، صوتُها يرتعش.

«ماذا؟»

لكنها لم تستطعِ التوضيح. اندفعَ من السيارةِ رجل يرتدي سترةً جلدية سوداء، أغلقَ باب السيارةِ بقوةٍ وسار نحوهما. أمسك ذراع ميمي وجذبها بعيدًا عن سليم وسألها عن شيء ما بلغةٍ لم يفهمْها سليم. لم يرضَ الرجلُ عن إجابتها فشدد قبضته على ذراعِها وهزها يحاولُ إخراج الحقيقةِ منها.

توسّلتْ إليه.

«ما شأنك بهذهِ الفتاة؟» زمجر الرجلُ يسأل سليم وهو يضيّق عينَيه الداكنتَين الباردتَين. كان أطولَ من سليم ببوصات ويزيدُه وزنًا بما لا يقل عن ثلاثين رطلًا. زاد وجههُ غير الحليقِ من خوفِ سليم.

«كنت... كنت... كنت أتحدثُ معها». تلعثمَ سليم يجيبه قبلَ أن يتذكّر ما قالته له ميمي.

«تتحدثُ معها عن ماذا؟»

«كنتُ أسألها... لأنني أريدُ أن...» سكت مرتبكًا.

«أتريدُها؟» قال الرجلُ بهدوء.

«ننعم»، قال سليم بقناعةٍ ما أمكنه. نظرتْ ميمي بعصبيةٍ من سليم إلى الرجل.

«جيد. أرِني نقودَك».

ذُعِر سليم. نقودُه في حافظته المربوطةِ بخصره، لن يستطيع إخراج ورقاتٍ عدة دون أن يُري الرجلَ كل ما لديه ولا يمكنه المخاطرةُ بخسارة كلِّ شيء.

«ليس... ليس معي...»

ترك الرجلُ ميمي وعصرَ ذقنَ سليم وخدّيه بيدٍ واحدةٍ قوية، قبضةً شديدةُ الإحكام.

«لا نقود؟»

«بلى»، صرَّ سليم من بين شفتيه المهروستَين، ضاقت قبضةُ الرجل.

«لا نقود، هاه؟» التفت إلى ميمي وصرخَ فيها بشيء ما. قبل أن توضّح له، صفعتْ يده وجهَها، تراجعت إلى الخلف. امتدّت يدا سليم نحوها لكن الرجل حول انتباهه له.

«أنت تضيّعُ وقت فتاتي؟» قال الرجلُ وهو يلكمه بالقبضةِ الوحشية نفسها، ترنّح سليم وحاولَ أن يحتفظَ بتوازنه لكنه تلقى اللكمتين الثانية والثالثة بسرعةٍ شديدة.

لا جدالَ مع هذا الرجل وهو غاضبِ.

نالـت ركلاتُ حذائـهِ المدببِ مـن ظهـره، وبطنـهِ وضلوعـه. سـمع صـراخَ ميمـي. حـاولَ التكـوّر علـى نفسـه ليقـيَ بطنـه الـركلات، تلاحقـت أنفاسـه، شـعر بخـدّه يرتطـمُ بالرصيـف البـارد الصلـب. ثـم توقّـف الضـرب.

زحـف بعيـدًا علـى ركبتَيـه، يسـعلُ ويبصـقُ، خفـتَ صـراخُ ميمـي. جـرّ نفسـه إلـى ركـنٍ ورقـد خلـفَ كومـة كراتيـن.

أرجوك ربي أنّهِ كل هذا.

أغمضَ عينيه واستسلمَ للظلام.

سليم
49

لماذا لم أقاتله؟ ماذا دهاني؟

كان سليم غاضبًا من نفسه بقدر ما كان غاضبًا من قوّاد ميمي. جاء الصبحُ، صرخ جسدُه احتجاجًا وهو يعرجُ إلى محلٍ قريبٍ ليشتري شيئًا يمْكنه رشفه بشفتَيه المتورّمتَينِ المشقوقتَين. ظنّه البائعُ أحد الصبية المشاغبينَ وأخذ منه النقود بازدراء وهو يهز رأسَه بيأسٍ من بلد الفتى الذي لم يستطعْ منعَ هؤلاء المشاغبين من الخروج منه.

شق طريقَه نحو محطةِ القطار ونظرَ إلى الجداول والخرائط التي قد تأخذهُ إلى فرنسا. شعر بعينَي ضابط شرطةٍ على ظهره، فتدبّر في لحظةٍ أن يذوبَ في الزحامِ بمهارة، تاركًا الضابط يهزّ رأسَه ويعود إلى الجانبِ الآخر من المحطة.

كان يفكّرُ يوميًا في احتمال أنه لن يصلَ إلى إنجلترا أبدًا. جعله ما مرّ به خلال الأيام القليلةِ منذ وصولهِ إلى إيطاليا، يشعر باليأس من محاولةِ أي شيء آخر.

كان مرهَقًا مثقلًا كأن ما يسري في عروقهِ رصاصٌ وليس دمًا. أرهقه عدمُ الأكل والقلق بشأن النقود. أرهقه الاستيقاظُ بأحلامٍ عن رجال ميّتينَ ومطارداتٍ ليلية. قد يكون الرحيلُ عن كابول خطأ رغم كل شيء. لربما كانت الأمور ستتحسنُ هناك.

لم يسمع نقراتِ الكعب تقتربُ منه. كان قد غفا بظهره مستندًا إلى جدارِ أحد المباني في شوارع عاصمةِ إيطاليا الجانبية، تعرفَ أحدهم على وجههِ المتورم.

«سليم».

فتح عينَيه ليرى ركبتَين أعلى حذاءٍ بكعبٍ عالٍ. جلستْ ميمي بجانبه، وقالت بهمس: «أأنت بخير؟»

«أنا بخير».. صوتُه خفيضٌ وكاذب، نظر حوله.

«أأنتِ وحدك؟»

«نعم»، قالت «بوريم ليس هنا».

اسمه بوريم.

«هل جُرِحتَ جرحًا سيّئًا؟ أوه، فمُك!»

«أنا بخير.. إنه بخير الآن». اعترف لنفسِه أنه كان خطأه أن رآهما بوريم تلك الليلة وأنه كان السبب في أن تُجَرّ ميمي بعيدًا. يبدو من منظرِها أن بوريم لم يتركْها بسهولة. كان ثمة لونٌ أزرقُ أسفلَ عينها اليسرى وخدشٌ صغير على شفتِها.

«أنا... أنا آسف ميمي»، قال. «لم أقصدِ التسبب لكِ في هذا».

«أعرفُ. إنه رجل مجنونٌ، أنا أعرفه، لا شيء جديد في هذا».

«يجبُ أن تهربي منه».

بدا له الأمر بسيطًا، لماذا تبقى هنا وهو يأخذ كل ما تكسبُه وهي تعيشُ في خوفٍ دائم؟ لماذا لا تغادر؟

«لا يمكنني فعلُ شيء، ليس الآن، يومًا ما ربما، لكن الآن... الآن ليس لديّ خِيار».

جلسا صامتَين. هو يتساءلُ لماذا لم تبتعدْ عنه اليوم وهي تعرفُ أنه لن يفهم.

«سآخذكَ إلى الرجل الآن».. قالت، «ربما يمكنك المغادرةُ، إن فرصتك أفضلُ مني».

«لكن بوريم؟ ماذا لو وجدَنا مجددًا؟!»

«إنه بعيد الآن، لديه فتاتانِ جديدتانِ بعيدتانِ عن هنا، ذهب ليقابلَهما، لدينا وقت».

أومأ برأسِه وتبعها، رغم عدم توقعهِ الكثيرَ من هذا اللقاء لكنه كان يتحرّق لمغادرةِ روما. قادتهُ ميمي في الشوارعِ نفسها، تراقبه لتتأكدَ من أنه يلحقُ بها، وصلا إلى بنايةٍ سكنيةٍ لها مقبض بابٍ مخلوع، ونوافذُ الطابق الأول مغلقةٌ باللاصق. هزّ سليم رأسه، يعلم أنه بدخوله يتجاهلُ ما يمليه عليه حدسُه.

«في الداخل باب، اضغط زرّ شقة 3ب».. قالت، «سيجيبُك رجل ويسألكَ من أنت، قل له إن ميمي من أرسلتكَ. قل إنك تريد السفرَ إلى فرنسا وربما كان لديه عملٌ لك».

«هل أخبره باسمكِ؟»

«نعم. هذا الرجل ليسَ صديق بوريم، قم بكلّ ما يقوله لك، كل شيء، هل تفهمني؟ إنه رجلٌ خطير لكنّ بإمكانهِ إرسالكَ إلى فرنسا. تعال إلى هنا بعد يومَين من الآن». أكّدتْ عليه.

ارتاح لوجودِ متسعٍ من الوقت قبل أن يقابلَ الرجلَ رغم شعورهِ بإحباطٍ لأن عليه الانتظار يومَين آخرَين قبل أن يغادرَ هذه المدينة.

«ما اسمُه؟» سألها. كانت تقودُه في طريقِ العودةِ من حيث جاءا، لم تجبْه، سألها مجددًا: «ما اسم هذا الرجل؟»

«لا أسماء».. قالتْ بصرامة. «لا تسألْ.. إنه لا يحبُّ الكلام».

«كيف تعرفينَه؟»

«عمل مع بوريم سنة، لكنّهما تعاركا على النقود، هما الآن لا يتحدثانِ لكنني أعرفُ أنه يرسلُ الأشخاصَ إلى الخارج. سيخبركَ بما عليكَ فعله».

أومأ برأسِه، فهم بعضَ ما قالته وليس كله. كانت غارقة حتى عنقِها في عالمٍ من الشخصيات البغيضة. تساءلَ إن كان هو نفسه أحدهم.

ربما كنت مثلها. مثل من تعرفُهم. ربما لم أعدْ فتىً بريئًا هاربًا، ربما ستتحسنُ أموري إن تقبّلتُ هذا.

سارت أمامه، شعرُها المعقوص في ذيلِ حصانٍ رفيع يشير إليه أن يتبعَها. ما زال جسده يؤلمه فاقترحَ أن يجلسا ويتناولا ساندويتش معه في جيبه، أشارت برأسها إلى الأمام قائلة: «تعال معي»، وسارتْ فتبعها.

قادته إلى شقةٍ معتمةٍ بغرفةٍ واحدة في بنايةٍ قريبة من المكان الذي وجدتْه فيه. يوجد فيها سريرٌ معدنيّ بمرتبةٍ كبيرة وملاءات بسيطة، ومصباحٌ على كرسيّ خشبيّ وكرسيان آخران عند الحائط المقابل. تآكل طلاء الحوائطِ الذي كان ذات مرةٍ أصفرَ رائعًا. المطبخُ الصغيرُ بمساحة أقدام قليلة، يفصله عن الغرفةِ نصف جدار. بدت أدواتُ المطبخ صدئةً وغير مستخدمة. بابُ الحمّام نصفُ مفتوحٍ، رأى منه حوضَ بورسلين متهالك ومكانًا صغيرًا للدش وجدارًا من الجص المسود.

كانت غرفةً بائسة لو رآها قبلَ رحيله عن كابول لشعرَ بالقرفِ منها على الفور. لكنَّ زاويةَ نظره تغيرتْ. كما درج بادر جان على القول، الأعورُ وسط العُميانِ ملِك.

كانت فكرتُه الأكثر إلحاحًا إن كان آمنًا هنا أم لا. نظرت إليه ميمي وقرأتْ أفكاره.

«لن يأتي، بوريم لديه فتاةٌ جديدة، سيبقى معها ويعود في الصباح، الليلة الأولى سيئةٌ، سيئةٌ جدًا». جلست على الفراش وسحبَ هو كرسيًا ليجلسَ قبالتها، أخرج الساندويتش المسطّح من جيبه وفضّ غلافَه وعرض عليها نصفه، أخذته منه بامتنانٍ هادئ.

«أتعيشينَ هنا؟»

هي كذلك، تدلّت ملابسُها القليلة وبلوزاتُها الشبكيةُ برثاثة في الدولاب، تبدو مرهقةً مثلها. ملأت كوب ماءٍ من صنبور المطبخ، أخذتْ منه رشفةً وناولته إياه.

لا يوفرُ المصباح إضاءةً جيدة والنافذةُ الوحيدة تواجه بنايةً أخرى، ولا تسمحُ بدخول قدرٍ كبير من ضوء الشارع. اعتدل في جلسته، لمستْ ركبتُه ركبتها.

«أنا آسف ميمي لغضبِ بوريم لأنه رآني معك. ولأنه ضربكِ أيضًا. لقد طلبتِ مني الابتعاد لكنني... أنا آسف».

حدقت ميمي إلى الأرض.

«لا بأس،انسَ الأمر، إنه لن يتغيّر، يخبرني بأنه سيتركني وشأني إن استطعتُ جمْع مال، جمْع مالٍ لشراء تذكرةٍ إلى ألبانيا لأعود إلى وطني، لكن ها قد مرتْ سبعة أشهر الآن ولم يحدثْ

شـيء. ظلت فتيـاتٌ أخريـات يعملْـن سـنتَين أو ثـلاث. لـم تجمـعْ أيٌّ منهـن مـا يكفـي لشـراء حرّيتهـا. هـذه حياتـي الآن سـواء أكنـتَ معـي أم لا، لا فـارق».

رفعـتْ بصرهـا، سـالتْ علـى خدّيهـا المطليَّيـن بالمسـاحيق دمعتانِ مثل قطـرةِ المطـر التـي رآهـا تنزلـقُ علـى النافـذة.

«لكن أنـتَ... بإمكانـكَ الرحيـلُ مـن هنـا. أسـرتكَ تنتظـرك وحيـن يرونـكَ سيبتسـمونَ ويضحكـون». اتسـعت عيناهـا وهـي تتخيـلُ الأذرعَ المفتوحـة ترحابًـا بسـليم. مسـحتْ دموعهـا وابتسـمتْ بوَهـن.

أراد أن يشـجّعها مثلمـا تشـجّعه، أن يبادلهـا العطـف، تلعثَـم، ثـم مـد يـده ووضعهـا علـى ركبتِهـا.

«أنـتِ قويـةٌ يـا ميمـي، سـتجدينَ طريقـة، سـيحدث لـك شـيءٌ جيـد أيضًـا. لقـد سـاعدني أنـاسٌ علـى الوصـول إلـى هنـا. أنـتِ سـاعدتِني. سيسـاعدكِ اللّه بالمثـل. سيسـاعدكِ شـخصٌ مـا». شـعر بكلماتـه جوفـاء.

«لـن يسـاعدَني أحـد، إنـه يأخـذُ نقـودي، أعـرفُ أنـه لـن يتركنـي أذهـب أبـدًا، إنـه يسـيطرُ علـى كلّ شـيء».

شـعَر سـليم بجسـده كلـه يتوتـر، مـا زالـت ميمـي، بـكل هشاشـتِها، تجـد طريقـةً للمشـاركة. يمكنـه هـو أن يصيـرَ أكثـر ممـا يتوقـع. الجيـوبُ الفارغـة لا تعنـي أرواحًـا ميتـة.

«إنـه لا يسـيطرُ علـيّ» قـال.. «سـاعديني علـى إيجـادِه، ميمـي. أريـد أن أراهُ ثانيـةً، يمكننـي أن أغيّـر هـذا».

غطـتْ يـدَه بيدِهـا ونظـرت إليـه. تريـد أن تصدّقـه، أن تصـدقَ كل كلمـةٍ ممـا يقولـه ولـو حتـى لدقيقـةٍ واحـدة فحسـب. لمسـت خـدّه،

هوت معدتُه لشعوره بأصابعها الباردة النحيلة على وجهه. لمست خدّه الآخر فأغمضَ عينيه. تخيلَ ميمي التي كانت منذ أمدٍ بعيد، فتاة صغيرةً تبتسم وتضحكُ مع أخواتها، تخيّلها فتاةً وديعة كما كانت قبل أن يسحقَها العالم.

جذبَت يديه. جلسَ إلى جانبها على السرير. ترك أصابعَه تتشابكُ بأصابعها قبل أن تصعد إلى ذراعَيها. وجد كتفَيها. بشرةُ عنقها بيضاء كالحليب. جذبت يداها وجهَه إلى وجهها، داعبت أنفاسُها بشرةَ خديه.

قادت هي، وتبعَها. كان مترددًا ومتوترًا لكنها طمأنتْه بهمساتها وخفة لمساتِها. شعر بنفْسه يصيرُ شخصًا مختلفًا، شخصًا بإمكانه التواصل مع شخصٍ آخر ليخلقا معًا شيئًا ما. لمس الكدماتِ على ضلوعِها برقة، طرفت عيناها، توجد كدماتٌ أخرى، كدمات أخفتْها ملابسها. أراد أن يكررَ أسفه آلاف المرات. لم يبدُ أن جهله يزعجُها، كانت ترحب به، جعلته يفكّر أن بإمكانه الشعور بشيء ما آخر غير الوحدة والإساءة.

ميمي، الفتاة التي تحتاجُ إلى مَن ينقذها، أنقذتْه. ترك عينيه ترتفعانِ إلى وجهها، خاليًا من التعبير وسلبيًا. أدرك حينها أن ميمي المشرقةَ الواعدة التي تخيلها حين أغمضَ عينيه لا توجد وربما لم توجد قط.

سليم
50

انتظـرَ فـي الظـلام. يتواصـلُ بنظـراتٍ خاطفـة مـع ميمـي التـي تقـف علـى الجانـب الآخـر مـن الشـارع. راقبهـا سـليم منتظـرًا أن تشـدّ تنورتهـا، الإشـارةُ المتفـق عليهـا. وقفـت بعيـدًا عـن الأخريـات، تتجاهـلُ السـيارات التـي تمـر بهـا، ليـس الليلـة.

بعد ساعتَين، جاءته الإشـارة.

كانـا قـد خططـا للأمـر الليلـة الماضيـة. يجـبُ التنفيـذُ بسـرعة، وككلّ تحركاتـِه، يجـبُ أن يتـم الأمـر ليـلًا فـي سـتر الظـلام.

الإشـارة. سـرتْ دفقـة أدرينـاليـن فـي جسـدِه. جـاء بوريـم، يسـيرُ فـي الشـارع متبخـترًا نحـو ميمـي. انتظـر سـليم، ثـم دار خلـف المبنـى، هـرْول بخطـواتٍ خفيفـة وعبـرَ الشـارع، صـارَ خلـف بوريـم بنصـفِ مبنـى.

أتذكُر كيف ضغطَ بكعب حذائهِ على صدركَ؟ أنت لست جبانًا.

ظـل يـرددُ لنفسـه مـرارًا وتكـرارًا، يشـجّع نفسـه. كانـت فكرتُـه هـو ولا تـراجـع عنهـا. سـيجعلُ هـذا يحـدث. سـئمَ مـن حـدوث الأشـياء لـه، كأنـه شـيء وليـس رجـلًا، حانـت اللحظـةُ. تمامًـا كمـا خمّنـتْ ميمـي، جـاء بوريـم ليتفقّدهـا.

كان سـليم خلفـه، بعيـدًا عـن عواميـد الإنـارة بالقـربِ مـن مدخـل بنايـة. كان بوريـم يتحـدثُ مـع ميمـي التـي تتململُ فـي وقفتهـا، تنظـرُ بعيـدًا بعصبيـةٍ وكتفاهـا مضمومتـان.

ثار غضبُ سليم.

بدوتَ أمامه ضعيفًا هكذا، ليس بعد الآن.

تسلل خلف حاملِ جرائدَ خالٍ. تقبضُ أصابعه على ماسورةٍ معدنية صدئة أتى بها معه. سمع بوريم يتحدثُ إلى ميمي. علا صوته. إنه غاضبٌ منها، غمغمتْ ميمي بإجابة، زمجَر بوريم.

أخذ سليم نفَسًا عميقًا وخرج من خلفِ الحامل، رفعَ الماسورة وهوى بها على ضلوع بوريم. تراجعَ بوريم وتعثر للإمام. لاحقه سليم بضربةٍ أخرى قبل أن يستدير، ركل خلفية ركبته اليسرى بقوة أسقطته وهو يصيحُ بغضب.

انكمشت ميمي في ركن، ظهرُها للحائط وتعبيرُ وجهها بارد. انقلب بوريم على ظهره يتأوّه. نظر إلى الأعلى ليرَى سليم فوقه يمسكُ ماسورة بكلتا يديه، على أهبةِ الاستعداد. صدره يؤلمه مع كلِّ نفس. اقتربت ميمي ووقفت بجانب سليم.

«أنتِ... أنتِ... عاهرة»، قال بوريم وبصق.

رأى سليم وجه بوريم الغاضب وهو يمدّ يده اليمنى في جيب سترته. أخرج شيئًا صغيرًا، مسدس أسود لكنه هوى بالماسورة على يدِه قبل أن يمكنه التسديد فطار المسدسُ بعيدًا. سبّ بوريم وهو يمسك يده بالأخرى. قال لسليم:

«أنت ميّتٌ... لقد أخطأت...»

تعثر يحاولُ النهوض على يدَيه وركبتَيه رفع نظره إلى ميمي، ردد شيئًا ما بحنق بالألبانية جعل وجهها البارد يتحولُ إلى الغضب.

«انتظري ما سأفعلُه بكِ!» كان منحنيًا يحاول النهوض على قدَميه.

لم يرَ سليم ما كانت ميمي تمسكُه بيديها، رأى ذراعيها الممدودتَين فحسب، قالت كلماتٍ قليلة وبصقت نحو بوريم، صوتها مرتعش.

اندفع بوريم نحوها وهو يصيح، أدرك سليم ما يحدث وسقطت الماسورةُ من بين أصابعه، ارتطمت بالأرض بصوتٍ عالٍ.

«ميمي!» صاح سليم.

صوتُ انفجار. توقف بوريم عن سيره ونكصَ على عقبيه فالتقت عيناه بعينَي سليم المذهولتَين.

قفز سليم متراجعًا. نقل نظره من بوريم إلى ميمي.

كانت ترتعشُ، أسقطت المسدس وغطتْ فمها بيدَيها، نظرت إلى سليم.

لا أحد في الشارع. أقرب سيارة على مسافة شارعين. ظهرت الأضواء من عدة نوافذ في البناية، بدأ من استيقظوا يتحرّكون، استعادت ميمي وعيها أولًا. جثمتْ على بوريم وفتشت جيوبه، أخذتْ محفظته ونزعتِ السلسلة الذهبية من عنقه السميك. أنَّ بوَهنٍ لكنه لم يقاوم.

نظرت خلفها بسرعة وقالت:

«هيا بنا».

انطلقا، دارا حول المباني وانعطفا في الشوارع المظلمة ليبتعدا ما أمكنَهما عن بوريم. جابا المنطقة صامتَين، يلهثان، ينظران خلفهما.

«انتظـر».. قالـت أخيـرًا، مالـت إلـى الأمـام ووضعـت يدَيهـا علـى ركبتيهـا تحـاول التقـاط أنفاسِـها «يجـبُ أن أتوقـف».

بـدت شـاحبةً بشـكلٍ مـروع تحـت الوَهْـج الأصفـر لضـوء الشـارع، عـرف أنـه لا بـد يبدو مثلهـا. سـارت الأمـورُ علـى نحـو سـيئ جـدًّا. لـم يكـن مـن المفتـرض أن يـرى بوريـم مَـن يهاجمَـه. كان عليهـا أن تبـدو مدهوشـةً ولا علاقـة لهـا بمـا يحـدث. لكـن بوريـم رأى وجهَيهمـا، وعـرف أنهمـا خدعـاه، تآمـرا عليـه.

«ميمي، يجب أن نختبئ».

ذهبـا إلـى شـقّتها. جمعـت كومـةَ ملابس مطويـة علـى الكرسـي فـي حقيبـة قمـاش.

أدرك أنها لن تبقَى هنا بعد الليلة.

سليم

51

انتظر سليم وميمي حتى الظهيرة ليذهبا إلى البنايةِ التي أشارت له إليها من قبل.

«سأنتظركَ هنا». قالت تشير إلى دكةٍ قريبة. سحبت طرفي كمّيها لتغطّي يديها ونفختْ فيهما. لا تُدفئها الشمسُ سوى قليلًا.

دخل البناية. كانت قذرة ومتهالكة من الداخل؛ أعقاب السجائر ملقاة في الأروقة، سقطت قطع من الدرابزين على السلم، ويوجد مصباحٌ على الحائط يضيء وينطفئ. تأتي أصواتُ مذياع وتلفاز من خلف الأبوابِ المغلقة لكنه لم يرَ أحدًا.

تأكد من رقم الشقة، أخذ نفَسًا عميقًا وطرق الباب. تراجع خطوةً إلى الخلف بتوتّر وانتظر. سمع حركةً ورأى غطاء العين السحرية ينفتح. بعد لحظةٍ، انفتح الباب قليلًا، وقف أمامه رجلٌ بسيجارة تتدلّى من شفته السفلى، يرتدي قميصًا أسْودَ أزراره مفتوحة وبنطال جينز، أبزيم حزامه الفضي وسام شرفٍ على خصره. كان في أواخر الثلاثين، تفحَّص الفتى الواقفَ أمامه جيدًا وقرر أنه ليس مهتمًا.

بلع سليم ريقه قبل أن يتحدّث.

«أنا أبحثُ عن عمل من فضلك».

«من أنت؟»

«أريد أن أذهبَ إلى فرنسا، يمكنني العمل».

مجّ الرجل من سيجارته وهو يمسكها بأصبعيه، ثم ألقى بها في الرواق. طرف بعينه نحو سليم وهو يطلقُ دخانها.

«من أرسلك؟»

«ميمي»، قال سليم بهدوء. لقد أخبرتْه أن يذكرَ اسمها، خوفًا من ألّا يهتم به الرجلُ لو لم يذكره.

«ميمي، هه؟»

«نعم». عمل سليم بنصيحةِ ميمي وأبقى إجاباته مقتضبة. انفتح الباب أكثر قليلًا، وأشار الرجلُ له برأسه أن يدخل.

شقته أكبرُ من شقة ميمي وأقذرُ بكثير، ملابسُ في كل مكان، أغلفة وفتاتُ أطعمة، وطاولةُ قهوة عليها أطباقُ طعام وعددٌ من الهواتف المحمولة، صوت التلفاز عالٍ. ذكّر سليم نفسَه ألا يحدق. انغلق الباب خلفهما.

«من أين أنت؟»

«أفغانستان».

«أفغانستان؟» سأل بحاجبَيه الكثّين يرتفعان دهشة. «لماذا تريد أن تعمل؟»

«عائلتي في لندن، أريد أن أذهبَ إليهم».

تردد سليم قليلًا، تسارعَ نبضه، لمح لتوه مسدسًا صغيرًا مدسوسًا بين وسائد الأريكة، ركّز نظره على الرجل أمامه.

«ألَديك أوراق؟»

«لا أوراق».

«أنت تعرفُ ميمي؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«نعم».

«كل الرجال يعرفونَ ميمي» قال الرجل ضاحكًا بمزاج رائق. قرص عضلاتِ ذراعِ سليم بسبابته وإبهامه وغمغم لنفسه بشيء ما. انزلقت يداه إلى أسفل، ربّت على جذع سليم ثم حول خصره، توقف حين شعر بجرابِ الخنجر الصلب، نظر إلى سليم.

«إنه سكّين»، أوضح له سليم. لم يجرؤ على التحرك. أبقى ذراعَيه مرفوعتين، خلع الرجلُ الجراب من الحبل المربوط بخصرِ سليم، لم يلحظِ الحافظةَ الصغيرة تحت سرواله التحتي. ما زالت حافظته في أمان حتى الآن.

سحب الرجلُ النصل من غمدِه وصفّر منبهرًا.

«رائع. هدية لي، صحيح؟»

هم سليم بالاعتراض لكنه أجابه: «نعم».

ابتسم الرجلُ بخبث، ألقى الخنجر على الأريكة.

«هذه مشكلة».. قال ببرود. «تريد أن تذهبَ إلى لندن وليس لديك أوراق، ألديك نقود؟»

هزّ سليم رأسه.

«لا نقود».. ابتسم الرجلُ بدهاء «وأخبرتْكَ ميمي أن تأتي إلى هنا».

«نعم، أريد أن أساعدك».

«أوه، تريد أن تساعدني؟» قال بمرح وهو يحني رأسه بامتنان ساخر. انكمش سليم أمامه.

«أنت لن *تساعدني*، بل *ستعملُ* عندي».

أومأ سليم برأسه.

خرج رجلٌ آخر من الغرفة المجاورة، أكمام قميصه مشمرة أعلى ساعدَيه الملطخين بالحبر، نظر إلى سليم بفضول وقال شيئًا ما لشريكهِ في السكن قبل أن يجلسَ على الأريكة.

سأل الأول سليم: «تريد أن تعملَ عندي إذن مستر أف-غان-ستان؟» ينطقُ المقاطع بدرامية.

«نعم».

«ما رأيك فيزار؟» سأل الأولُ الجالسَ على الأريكة.

رفع فيزار كتفَيه الضخمتين، لاحظ السكّين على الأريكة، التقطها وقلّبها يتأملها، أُعجبَ بها تمامًا مثلما فعل سليم حين وجدَها أول مرة.

«أتعجبك فيزار؟ إنها هدية من الفتى».

أشار لسليم أن يجلسَ إلى طاولة المطبخ. جلس سليم وانتظر. أخرج الرجلُ صندوقًا مربعًا من إحدى خزانات المطبخ وألقى به على الطاولة.

«افتحه».

نزع سليم اللاصق وفتح الصندوق. يوجد داخله دبٌّ محشو كبير، لعبةُ أطفال بحجم مولودٍ حديث. قلّبها بين يديه، مرتبكًا.

«ستأخذُ هذا إلى فرنسا. سأعطيك أوراقًا وتذكرةَ قطار من روما إلى باريس. لا تتحدث مع أحد حتى تسافر. في باريس سيكونُ هناك رجلٌ في انتظارك، أعطِه هذا، أتفهم؟»

«نعم، أفهم».

«جيد، الآن انظر هنا».. أشار الرجلُ إلى عدسةٍ مستديرة صغيرة على الطاولة ومدّ يده إلى حاسوبهِ المحمول. حدّق سليم

فـي الكرةِ، لا يعـرفُ إلامَ ينظـر أو لمـاذا. ضغـط الرجـلُ عـدة أزرار، نخـر وحـرك العدسـةَ بعيـدًا عـن سـليم.

«سـيغادرُ القطـارُ فـي الثامنـةِ مسـاء الليلـة مـن تيرمينـي، غيّـرِ القطـار فـي ميـلان ثـم إلـى باريـس. ألدَيـكَ حقائـب؟»

هزَ سليم رأسه. ليس لديه شيء.

وقـف الرجـلُ وذهـب إلـى دولابٍ فـي الـرواق، أخـرجَ حقيبـةَ ظهـرٍ فارغـة ودسّ فيهـا ثلاثـةَ قمصـان، بنطـالًا ومجلـة مـن الفوضـى المنتشـرةِ فـي الشـقة.

«خذ هـذا، يجبُ أن تحمـل حقيبـةً كالسـائحين، ضعْـهُ بداخلهـا»، قـال وهـو يأخـذ الـدبَّ المحشـو مـن سـليم ويضعـه فـي الحقيبـة. «اذهـب مـن هنـا الآن، عُـد بعـد سـاعتَين لتأخـذَ أوراقـك والحقيبـة، لا تتـأخـر».

«قلتُ لك اذهبِ الآن».

أطـاع سـليم. سـجل الوقـتَ فـي ذهنـه ليعـرفَ متـى سـيعود؛ لا يريـد أن يأتـي متأخـرًا ولا مبكـرًا. خـرج إلـى ضـوء الظهيـرة البـاردة. لـم تكـن ميمـي علـى الدكّة كمـا وعـدت. دار حـول البنايـة ينظـرُ فـي الأزقـة وفـي مغسـلة خدمـةٍ ذاتيـة صغيـرة فـي ركـن، لقـد ذهبـت!

«هـل خططـتْ لهـذا؟» تسـاءل. حـدثَ الكثيـر جـدًا بينهمـا فـي اليوميـن الماضييـن. ظلـت علـى مسـافةٍ منـه منـذ ليلـة أمـس، صامتـةً بشـأن مـا حـدث، لـم تبـدُ مصدومـة ولا ذاهلـة، بـل كئيبـةً وهادئـة.

علـى الأقـل لديهـا نقـود.. فكـر. حيـن توقفـا أخيـرًا عـن الركـض، أخرجـت ميمـي النقـود والسلسـلة الذهبيـة مـن حقيبتِهـا، عـدّت أربعمئـة وعشـرين يـورو. نظـرتْ إلـى سـليم.

خذيها أنتِ.. قال لها. *لقد أخذ ما يكفي منكِ*.

نظرت في عينَيه مباشرة، كأنها تقيسُ مدى صدقه. حين لم يطرف بعينه، دست النقودَ في حقيبتها وأبقت يدَها عليها. لا تنتظرها أسرةٌ، لا أحد سيبتسمُ لها حين تدخلُ غرفةً ما، إلى أين قد تذهب؟ هزّ رأسه إذ صار يعرفُ أنها الآن بحرّيتها وأربعمئة يورو لن تنجو.

كما اتفقا، عاد إلى الرجلِ في السابعة والنصف. لم يُعنَ فيزار بدعوتهِ للدخول. ناوله ظرفًا بلاستيكيًا وحقيبة الظهر.

«هيي يا فتَى! سيغادر قطاركَ خلال نصفِ ساعة، لا تتأخر».

«أوك»، أجابه سليم.

هم فيزار بإغلاقِ الباب لكنه أمسكَ سليم من عنقِه، غرس أصابعَه في لحمه وقال بنبرةٍ باردة كالثلج، «إن لم تكنْ في باريس حيث سينتظرُك الرجل، سيعثرُ عليك ويقتلك، هل تفهم هذا؟»

بلع سليم العقدة في حلقه وأومأ برأسه.

تركه فيزار.

سار مسافةَ بنايتَين قبل أن يدرك أنه يسيرُ في الاتجاه الخاطئ. نظر في ساعتهِ. أمامه عشرون دقيقةً ليلحق بالقطار. فتح الظرفَ وأخرج منه جوازَ سفر يوناني يبدو أصليًا بصورته واسم مزوّر. أعاده إلى الظرفِ بسرعةٍ ونظر حوله ليتأكدَ أن لا أحدَ يراقبه. تذكرةُ القطار في الظرف أيضًا، واصل سيره مجددًا، لا وقت لتضييعه.

دخل المحطة برعبٍ جديد، جرد ما معه، لديه أوراقٌ تبدو رسمية ليُظهرها إن طلبَ منه ذلك ضابط شرطة، مجموعة

ملابس، ولعبةٌ محشوة بمادةٍ غير قانونية بلا شك. إن أوقفه ضابط ليفتشه، بالتأكيد سيلفتُ الدب الانتباه.

خمس دقائق.

بذل جهده ليناسبَ التذكرة في يده مع أرقام البواباتِ المدرجة على لوحات العرض.

شعر بتربيتةٍ على كتفه، التفت فجأة ليجد ضابطَ شرطة ينظرُ إليه بعبوس، هوَتْ معدتُه، تحدث الضابط قبل أن يستطيعَ سليم الهرب.

«إلى أين تذهب؟»

«لدي تذكرة» قال سليم فجأة.

«أرني إياها»، أخذ الضابط التذكرةَ من يد سليم المرتعشة ونظر إلى اللوحة، أشار يسارًا قائلًا «بوابة رقم 7 ، أسرع».

غمغم سليم بشكرٍ مرتبكٍ وبذل جهده ليسيرَ دون ركض إلى البوابة. كان متأكدًا من أنه سيسمع صياحًا من خلفه يستوقفه. لم يجرؤ على النظر من أعلَى كتفه.

واصلِ السير. واصل الحركة. ابحثْ عن البوابةِ رقم 7 .

وجدها والتفت خلفه خطفًا. لا أحدَ يتبعه.

دقيقة واحدة.

استقل القطار ونظر إلى رقم مقعدهِ في التذكرة، في الوقت المناسب تمامًا.

أخرج الدبَّ المحشو من حقيبته. لمحته امرأةٌ تجلس على الجانب الآخر من الممر وابتسمتْ بعطف. لا بد أنه بدا بريئًا جدًّا؛ فتى كبير يسافرُ بحيوانه المحشوّ المفضل. ضغط سليم

على الدبّ، يوجد شيءٌ ما صلب في حشوه. له شكلٌ مربع، أعاده إلى الحقيبة وحذّر نفسه من فضولِه.

انطلق القطارُ. بدا القطار المجاورُ من النافذة كأنه يتحركُ إلى الأمام. ثم ظهرت الأشجارُ والأنفاق. أخضر ورمادي. حي وميت. كان في أمانٍ بقدر ما كان في خطر.

ناول المحصّلَ تذكرته منتظرًا نظرةً اتهامية أو سؤالًا حتى. لكنه، بحقيبته، كان يبدو واحدًا من الطلبة الكثيرينَ في عربة القطار نفسها. جلس الطلبةُ الآخرون خلفه يضحكونَ بصخبٍ ويتبادلون المجلات. تحركَ المحصل إلى العربةِ التالية، ووضع كل طالبٍ واحدًا بعد الآخر سماعاته في أذنيهِ أو سقط في النوم برأسه على كتفِ الجالس بجواره. لا صوتَ سوى همهمة.

تذكّر أصدقاءَ طفولته في أفغانستان. لو كانوا كبروا معًا دون الهجماتِ الصاروخية، بالطبع كانوا سيمرحون ويصخبون مثل هؤلاء، لكنّ للحرب تأثيرًا انعزاليًا ومخيفًا. لم يبقَ أطفالُ كابول أطفالًا وقتًا طويلًا.

روكسانا ليستْ مثل هؤلاء، بدت كأنها ورثتْ بعضَ رصانةٍ من أهلها الأفغان حتى وإن لم تطأ قدمُها البلد قط. غرسَ فيها تحفّظُ والدها التزامًا بالخوض في معاناة ناسِها. أعجبه هذا فيها، شك في أنه كان سيشعرُ بالميل نفسِه لو كان في موقفها.

لا يعرف ماذا كان سيفعلُ لو كانت لديه حياةٌ كحياة روكسانا. أبوان، مدرسة، بلدٌ ينعم بالسلم، لم يكن ليصيرَ سليم هذا، كان سليم هذا نتاجَ سلسلةِ لحظات مريعة.

أدار الساعةَ حول معصمهِ. توجد خدوشٌ قليلة أخرى على زجاجِها، من ليلة أمس ربما.. *انظرْ ماذا يحدثُ لنا، بادر جان.*

لو لم يتأخروا في الرحيل عن كابول، لربما نالوا فرصةً أفضل، لربما كانوا يعيشون الآن حياةً هادئة في لندن، بالقرب من أسرة خالة نجيبة. كان هو وسميرة سيكونانِ في المدرسةِ الآن، يتلقيانِ دروسَهما وينجزان واجباتهما المدرسية، ويتعلمانِ لغة جديدة. دارت في ذهنِه صورةٌ كاملة وخيالية تمامًا مثل الرسوم المتحركة.

لكن بادر جان فضّل أن يبقى وأسرته في كابول على أمل مجيء أوقاتٍ أفضل، رغم ازديادِ التوتر والقتل والفقر.

لماذا اخترتَ لنا هذا؟ بماذا عادَ علينا البقاءُ هناك وقتًا طويلًا بعد أن غادر الجميع؟

استيقظ بدَفعةٍ. توقف القطار. نظر حوله ورأى ركابًا يستقلون القطار وآخرين ترجّلوا بالفعل. رأى رجلًا يضع حقيبته على الرفّ العلوي.

سأله سليم: «معذرة... ميلان؟» وأشار إلى النافذة.

«سي»، أجاب الرجلُ وهو يومئ إيجابًا.

حمل سليم حقيبته واندفع ليغادرَ القطار، كاد يُسقط زوجَين من كبار السن. رفع يديه إلى أعلى كاعتذار سريع. لديه ثلاثون دقيقة فحسب، كما أخبرَه الرجل، ليجدَ القطار الآخر إلى باريس. تمنّى أن يلحق به، أخرج التذكرةَ من الظرفِ وحاول مجددًا مطابقة ما فيها مع المعلومات التي تعرضها الشاشات المضيئة.

باريس. بوابة رقم 4، عشر دقائق.

ركض.. إنه عند البوابة رقم 17 الآن، ظل يراوغُ بين المسافرين وأمتعتهم التي يجرونها، دعا الله ألّا يوقفَه أحد.

سليم
52

توقـف القطـارُ فـي محطـةِ باريـس فـي السـاعات الأولـى مـن الصبـاح. نجـح سـليم فـي الوصـول إلـى فرنسـا، لكـنّ عليـه قبـل أن يواصـل رحلتـه تسـليم الطـرد للأيـدي الصحيحـة. دعـا الله أن يجـدَ الرجـلَ بسـهولة.

بحـث بعينَيـه فـي المحطـةِ عـن الـزي الرسـميّ أو شـخصٍ يشـبه الرجـلَ الـذي قابلـه فـي رومـا.

أمسـكتْ يـدٌ ذراعـه. حـاولَ الابتعـاد عنهـا لكنهـا كانـت محكمـة. اسـتدار وبنظـرةٍ واحـدة عـرف أن الرجـلَ قـد وجـده.

لديـه أسـنانٌ صفـراءُ وعينـان داكنتـانِ ثاقبتـان. يرتـدي سـترة بوليسـتر سـوداء وتيشـيرت أسـود لامعًـا علـى صـدره كتابـة جرافيتـي مائلـة. بنطالـه الجينـز بـالٍ وضيّـق.

«أنت الفتى.. جئتَ من روما».

أومـأ سـليم برأسـه، رجـح أن القواعـد نفسـها تنطبـق هنـا، فأبقـى فمَـه مغلقًـا.

«جيد. ألديك شيء ما لي؟»

تـرك ذراعَ سـليم، أخفـض سـليم الحقيبـة مـن فـوق كتفـهِ وبـدأ يفتحهـا.

«ليس هنا! أيها الأحمق! تعال».

تركه سليم يقودُه وسط الزحام، يغمغمُ مكبر صوتٍ في الأعلى بإرشادات للركاب المتدافعين في مساراتٍ متداخلة. سارا إلى دكّة قريبة من حائط خزانات، جلسا جنبًا إلى جنب، كأنهما ينتظرانِ وصول صديقٍ في القطار القادم.

«افتح الحقيبة». وضع سليم الحقيبةَ على حجره، فتحها ببطء وأخرج منها الدبَّ المحشو السخيف، وسلّمه للرجل.

ضغط الرجلُ على الدب بقوة، يتحسسُ محتوياته، تفقّد عنقه وقدَميه ليتأكد أن الخياطة لم تُمس. أخذ حقيبة الظهر من سليم راضيًا ووضع الدب فيها.

«أين جواز السفر؟»

مد سليم يده إلى جيبه الخلفي وأخرجَه. أخذه الرجل، فتح صفحة الهوية بصورةِ سليم. ألقى بالحقيبة على حجرِ سليم. «انتهى الأمر. اذهب».

«لكن، جواز السفر... أرجوك...!» قال سليم بعصبية.

«ماذا؟» قال الرجل، كان قد نهض بالفعل واستعدّ للهرب من محطة القطار.

«أنا في حاجةٍ إلى جواز السفر».

«جواز السفر؟» لكْنتُه غليظة وثقيلة كأصدقائه في روما، أجاب بقهقهة عالية. «أتريد أن تدفعَ مقابله؟»

«ليس لديَّ نقود. لكنني أحتاج إليه لأسافرَ إلى عائلتي»، توسّل إليه. كيف يساوم رجلًا كهذا؟ جواز السفر في جيب الرجل بالفعل، قريب جدًا إلى حد أن شعر بالرغبة في مدّ يده ونزعه منه.

«ثمانيمئة يورو»، قال الرجل بابتسامة، «بخصم خاص لك».

ليس في حافظته المخفيّة هذا المبلغ، كان بها ما حصل عليه من صفقةٍ أخرى عقدها في أثينا قبل مغادرته لكنه لم يرغب في فقدانه.

«مستر، أرجوك، لدي نقود قليلة. ثمانيمئة كثير جدًّا، سعر أقل؟»

«كم معك؟»

أيجرؤ على إجابةِ هذا السؤال؟ إن هذا الدفترَ الصغير بصورته واسم مزيف يمكنه مساعدته في الوصول إلى لندن، إلى أسرته. إنه يستحق كل ما لديه، قرر سليم.

«لديّ مئة وخمسون يورو».

«مئة وخمسون؟» قال الرجل مستنكرًا، «أأنت مجنون أيها اللاجئ!»

ذهب جوازُ السفر. استدار الرجل بالفعل وسار خطواتٍ قليلة فناداه سليم.

«مستر، أرجوك، أخبرني كيف أذهب إلى لندن؟»

أمعن الرجل في سليم دقيقةً ثم تأفف وتقدم نحوه خطوة.

«لندن؟»

أومأ سليم برأسه.

«اذهب إلى كاليه. اللاجئون جميعًا يذهبون إلى هناك، من كاليه يوجد نفق»، ضحِكَ علامةً على أنه يرسلُ سليم إلى طريق بأمل قليل في النجاح.. «ربما يحالفك أنت الحظ».

سليم
53

بمساعدة امرأةٍ عجوز لها وجهٌ طيب حدد سليم موقعَ كاليه على الخريطة. تقع على ساحل فرنسا الشمالي الغربي، في مواجهةِ إنجلترا مباشرة. تصل قناةٌ مائية بين البلدين. اشترى تذكرةً إلى كاليه على الفور، لا رغبة لديه في استكشافِ باريس ويتلهفُ على مواصلة طريقه. في الصباح التالي، ودون أحداثٍ كان في كاليه.

تجوّل هناك ساعاتٍ، ذاب في زحامِها المختلط. تركَ محطة القطار خلفه وجابَ الشوارعَ يبحثُ بهمةٍ عن الميناء. في طريقه، مر بمَبانٍ شاهقةٍ لها أعمدةُ بهو سميكة وطويلة ونوافذُ بشرفات. حتى المباني الأصغر لها شرفاتٌ مزخرفة، بوجوه ممتلئةٍ معلّقة على إطاراتها.

كان المألوفُ في كاليه رائحة البحر. تشمّم سليم الهواء الثقيل المالح طوال الطريق إلى الميناء. أراحته رؤيةُ رصيف الميناء، إذ كان يعرفُ جيدًا جدًا أسس وإيقاع نفيرِ أبواق السفن وحركة مرور الركاب والشاحنات.

كان هذا الميناءُ جميلًا بشكلٍ خاص. تمتدُّ أصابع الساحل إلى مياه القناة الإنجليزية. تتشابكُ صواري المراكب رأسيًا في المدى الشاسع للمياه والسماء. في الأبعد قليلًا ترسو سفنٌ عملاقة تستعد، مثل سليم، للرحلة التالية.

تـرك الشـارعَ وسـار فـي دربٍ مفـروش بالحصَـى ليقتـربَ مـن السـفن. لاحـظ رجُليـنِ داكنـيّ الشَّـعر يتجـولانِ مـن بعيـد.. ميـز الوجـوم الطفيـفَ المهـزوم للاجئيـن.

في الغالبِ أبدو مثلَهما، أنا فقط لا أعترفُ لنفسي بهذا.

كان حدسُـه صائبًـا. إنهمـا أفغانيـان، رحّبـا باصطحابـهِ إلـى المخيـم. بـدأ يشـعرُ بارتيـاحٍ بالفعل، سـار معهمـا إلـى مخيـم اللاجئينَ الشـهير فـي كاليـه المعـروف باسـم «الغابـة».

كانـت الغابـةُ كأنهـا باتـراس نبتـتْ في مكانٍ آخـر، أرضٌ يبـاب قريبة مـن السـاحل، عنـد حدودهـا يمكـنُ للمـرء رؤيـةُ إنجلتـرا ومنحدراتِهـا البيضـاءِ الشـفافة التـي تبـدو مـن عصـورٍ مـا قبـل التاريـخ.

كان اللاجئـونَ فـي الغابـة ضعافًـا، أعينُهـم مثبّتـة علـى الأفـق والوعـد بحيـاةٍ أفضـل. الغابـةُ ليسـت مكانًـا لضـرب الجـذور فيـه.

المخيـمُ فسـحةٌ فـي الهـواء الطلـق محاطـةٌ بأشـجار باسـقة، ومحـددةٌ بأسـوارٍ معدنيـة. دخـل سـليم مـن ممشـى قـذر يحرسـه ثلاثـةُ رجـال أمـن. رغـم تخوفِـه منهـم، لاحـظ أن الآخريـنَ ليسـوا كذلـك. رأى أحـدُ الأفغـان، يُدعـى أكمـل، الفضـولَ فـي عينيـه وأوضـحَ لـه بهـدوء مـن يرحـبُ بالمشـاركة فـي حكمتـه.

«إنهـم لـن يزعجـوكَ، إنهـم هنـا فقـط لمنـعِ الجريمـة، نحـن نـروح ونجـيء كمـا نشـاء، لكـنّ الأمـر مختلـف فـي الميـنـاء وعنـدَ النفـق. هنـاك، يبحـث عنـا الضبـاطُ ولـن يترددوا فـي جـرك مـن قفـاكَ إن أمسـكوا بـك».

«النفـق؟» كان سـليم قـد رتّـب ذهنـه علـى ميـنـاءٍ، لكـن أكمـل يتحـدث عـن نفـق، النفـقُ نفسـه الـذي ذكـره الرجـلُ فـي باريـس.

«نعـم النفـق. أوه، أنـت حديـثٌ جـدًّا هنـا!». ضحـك. «النفـق يمتـدُّ مـن هنـا إلـى إنجلتـرا، مسـافة قرابـة خمسـينَ كيلومتـرًا، عبـره الكثيـرون، أحيانًـا بالشـاحناتِ أو فـي حقائـب السـيارات أو سـيرًا علـى الأقـدام حتـى، لكـن يوجـدُ هنـاك الكثيـرُ مـن رجـال الشـرطة. أعـرفُ رجـلًا سـار فيـه مرتَيـن، وفـي المرتيـنِ أُلقـي القبـضُ عليـه بمجـرد خروجـه مـن الجانـب الآخـر! هـل تتخيـلُ سـوء حظـه؟ مرتيـن!» ضحـكَ معـه الأفغانـيُّ الآخـر.

يـرى سـليم المخيـمَ الآن. مسـتعمرة مـن أكـواخٍ مرتجلةٍ بأسـقفٍ مـن الصفيـح وجـدرانٍ مـن المشـمّع الأزرق، محاطـة بأكـوام مـن النفايـات، لطمتـهُ الرائحـة وهـم يقتربـون. يعيـش هنـا المئـاتُ مـن الأفغـان مـع بعـض العراقييـنَ والإيرانيّيـن، كمـا أوضحـا لـه. يأتـي نشـطاءُ الدعـم مـرة يوميًـا لتوزيـع وجبـاتٍ بسـيطة. تدبّـرَ بعـض الرجـالِ عمـل أفـرانٍ سـفلية رغـم نـدرة وجـود شـيء مـا لخبـزه. كان الوضـع أسـوأ مـن باتـراس.

واصـل أكمـلُ تعريفَـه بالأوضـاع المزريـة. المراحيـضُ فـي أماكـنَ متفرقـةٍ لاسـتخدام الرجـال، تفيـضُ بالفضـلات البشـرية وتعلوهـا سـحبُ أسـراب الذبـاب. لافتـاتٌ عـدة بالإنجليزيـة هنـا وهنـاك.

نريد الحرية.

لا حياة في الغابة.

احترموا البشر.

«تريـد الحكومـةُ الفرنسـية إخـلاءَ المخيـم لكـن أغلبنـا يطالبـونَ بالحق فـي اللجـوء. نأمـلُ ألّا يعيدونـا. هـل لديك أقـاربُ فـي إنجترا؟»

«أسـرة خالتـي وأمـي وأخـتٌ وأخ هنـاك أيضًـا. أعنـي، آمـل أن يكونـوا هنـاك».

«تأمل؟»

«لقد افترقنا في طريقِنا من اليونان إلى لندن».

«واصلتْ أمك وحدها بطفلَين؟»

«نعـم، لكنّهـم معهـم أوراق»، أوضـح سـليم. «آمـل ألا يكونـوا قـد أُوقِفـوا فـي طريقهـم».

«جئتَ إذن كمـا جـاء بقيتُنـا»، قـال أكمـلُ وهـو يومـئُ برأسـه تفهّمًـا، «أشـكر الله أن لـدى عائلتـك أوراقًـا، الطريـق إلـى هنـا قبيـحٌ ولا يناسـبُ أمًّـا مـع طفليهـا وحدهـا بالتأكيـد، ليحفـظ الله أمهاتنـا».

ترك سليم كلماتِ أكملَ عالقةً في الهواء فترةً قبل أن يتحدث.

«ألدَيك أنت أقاربُ في إنجلترا؟»

«نعـم، أختـي تعيـشُ هنـاك مـع زوجهـا وأطفالهمـا، وعـدد مـن أبنـاء عمومتـي أيضًـا. ظللـت هنـا خمسـة أشـهر. جئـت عبْـر إيـران وتركيـا، لكنهـم قبضـوا علـيَّ فـي اليونـان وأرسـلوني إلـى مقـر احتجاز. أخبرونـي أنهـم سـيعيدونني إلـى إيـران مـا لـم أغـادر اليونـان خـلال ثلاثيـن يومًـا، لكننـي لـم أكـن لأعـود إلـى هنـاك أبـدًا، بعـد كل مـا دفعتـه وكل تلـك المسـافة! لكننـي الآن عالـقٌ هنـا مـع الجميـع».

«هل حاولتَ العبور؟» طرح سليم السؤال البديهي.

«الميناءُ محـاط بأسـوار معدنيـة عاليـة. كمـا رأيـت اليـوم، ألـم تـرَ؟ النفـقُ هـو أفضـل الطـرقِ، لكننـي أُلقـيَ القبـضُ علـيّ مرتَيـن، الأمـر ليـس سـهلًا».

فهم سليم. لاحظ سور الميناء المرتفع بالفعل، كما لاحظ أن الميناءَ تحت حمايةٍ أكبرَ بكثير من الموانى الأخرى التي مر بها. عليه وضعُ خبرةِ أكملَ والآخرين في حسبانِه. نفقٌ بطول خمسين كيلومترًا فقط يفصل بينه وبين إنجلترا. ابتسم سليم لفكرةِ وجوده على هذا القرب، أخيرًا.

«يمكنك المبيتُ معي الليلة، نحن خمسةٌ نعيش معًا لكننا سنُفسحُ لك مكانًا. وغدًا نبحث عمّن لديه مكانٌ مناسبٌ. نحن نتشاركُ في كل شيءٍ هنا. هكذا نعيش. مرحبًا بك في الغابة يا صديقي!» مدّ أكملُ ذراعيه بفكاهةٍ ليقدّم لسليم المخيمَ بكامل بهائه. ضحك سليم. حملَ حقيبته وتبع أكملَ إلى كوخه.

كان يتضورُ جوعًا لكنه لم يجد شيئًا ليأكله، وكان مرهقًا جدًا ليذهبَ بعيدًا للبحث عن طعام. كان شركاءُ أكملَ في السكن صغارًا وودودين، تتراوح أعمارهم ما بين ثلاثة عشر عامًا وحتى واحدٍ وعشرين. أكملُ في سنّ وسط بين هذا وذاك، الفترةُ الانتقالية بين المراهقةِ والبلوغ. تحرّكوا وعدّلوا أنفسهم لإفساحِ مكان لسليم، ومنحوه قطعةً باليَة من ورقِ الكرتون المقوى ليرقدَ عليها. حظي بنوم مريح تهدهدُه جوقة شخيرهم.

في الصباح التالي، انشغل قاطنو المخيم بأخبارٍ من الخارج. «سوف يزيلون المخيم! هذا ما يقولونه، سوف يأخذون الجميع».

«ماذا نفعل؟»

«علينا أن نذهبَ من هنا، علينا أن نتركَ المخيم قبل أن يأتوا ويعيدوننا جميعًا إلى أفغانستان».

«أأنت مجنون؟ أين سنذهب؟»

«يمكنُنا أن نعبرَ النفق جميعًا. إن ذهبنا معًا دفعةً واحدة، لن يستطيعوا إمساكنا كلنا، ستكونُ فرصنا أفضل. يجب أن ننفذَ هذا الليلة، ليلةَ العطلة الأسبوعية. في الغالب سيكون هناك رجالُ شرطة أقل».

«كأن شخصًا واحدًا لا يلفت الانتباه بما يكفي! تظنُّ أن علينا السير كلنا معًا لنلقي بأنفسِنا بين أحضانِ الشرطة؟»

استمر الجدلُ لساعتين، تمامًا مثلما ضجّت مدينة باتراس من مخيمها، سئمت كاليه من الغابة. انجذب نظرُ سليم وهو يستمع لجدالهم إلى رجلٍ عجوز يجلسُ على دلوٍ مقلوبة يراقبُ الآخرين يتجادلون دون أن يشارك. غريب، فكّر سليم، إذ كان من النادر أن يتركَ رجلٌ في مثل سنه أفغانستان. كان قدَر الرجال من مثل سنّه، ما لم يتوفر لهم الخروج الآمن من البلاد، أن يُدفنوا في ترابِ أفغانستان المشبّع بالدماء.

بدا الرجل مألوفًا على نحو غريب، مع ذلك لم يستطِع سليم التعرفَ عليه. حدّق فيه منتظرًا أن يشكّل ذهنُه رابطًا ما، نظر إليه الرجلُ وأمال رأسه قليلًا. نظر سليم بعيدًا لحظةً، لكنه عادَ ينظر إليه بابتسامةٍ موجزة في المقابل.

هل يعرفُني؟ أم لاحظَ تحديقي إليه فحسب؟

أبقى سليم رأسه مطرقًا وحين رفع بصره مجددًا كان الرجل قد اختفى.

ذهب عددٌ من الرجال لاستكشاف جزءٍ جديد من المدينة، قد يزيلون الغابةَ لكنهم لن يوفروا مأوى بديلًا للاجئين. يقول البعضُ إن الشرطةَ في انتظار التوقيت المناسبِ للاقتحام وإزالة اللاجئين. لم يكن ليصلَ في توقيتٍ أسوأ من هذا.

أكلوا أرزًا مسلوقًا بالطماطم. لم يكن مذاقُه جيدًا لكنه أدفأ جوفهم.

في بداية المساء، قرر اثنانِ من شركاء أكمل في السكن مغادرةَ الغابة وإنشاءَ مخيم في مكانٍ آخر. صدّقا من يقول إن أيام الغابةِ معدودة. لمّلما طاساتِهما الصدئة، وأكوابهما وملابسهما الإضافية في أكياس بلاستيك وانطلقا. حزنَ أكمل لرؤيتهما يغادرانِ، لكنه عرضَ على سليم البقاءَ مكانهما، فقبل سليم عرضه شاكرًا.

في الصباح التالي، سار سليم إلى المراحيض الموبوءة، كان المخيمُ هادئًا، بالكاد أشرقت الشمسُ ولم يستيقظ سوَى القليل من الشباب. اصطدم وهو يمرّ بتجمعٍ من الخيام بالرجلِ العجوز نفسه الذي لاحظه بالأمس. ندتْ عنه شهقةٌ خافتة! ابتسم الرجل.

«صباح الخير يا بنيّ».

«صباح الخير، معذرةً... لم أرَك تقفُ هنا».

«من تتقدمُ به السن تسهو عنه الأنظار بأسرع مما يتخيّل»، قال الرجل مبتسمًا.

«لا سمح الله، إنه خطئي». قال سليم بتهذّب. لا بد أن الرجل في السبعين من عمره على الأقل، ببشرةٍ زيتونية رقيقة ولحية وشارب بيضاوَين تمامًا. تغضنت زاويتا عينَيه وهو يبتسم. بدا حاجباه الثلجيانِ ثقيلين جدًا على عينَيه. يرتدي قميصًا طويلًا بلون بيج وبنطالًا من درجة أفتح قليلًا.

«لقد وصلت حديثًا؟» قال الرجل.. «ما اسمك ومن أينَ أنت؟»

«اسمي سليم حيدري. أسرتي من كابول».

«أتعرفُ أن الجميع هنا يقولونَ إنهم من كابول؟ لكنني أعرف من لهجتكَ أنك من هناك بالفعل، سر معي قليلًا أريد أن أتعرّف إليك أكثر».

أطاعه سليم، مفتونًا بوقْع صوته الهادئ المحبّب. سارا على مهل مارَّينِ بكوخ أكملَ نحو الطرف القصيّ للمخيم، حيث يمكن رؤيةُ منحدرات إنجلترا الطباشيرية.

أشعر بأنني أعرفك. أراد سليم أن يقول، لكنه ظلَّ صامتًا وتبع الرجل. سارا في الدرب الرئيس الممتدّ عبر الغابة.

«عائلة من كابول. ما اسم أبيك؟»

«محمود حيدري». أجابه وهو يتحسسُ رباط الساعة البالي حول معصمه.

«حيدري. محمود حيدري؟ هذا الاسم يبدو مألوفًا جدًا، دعني أرى، أتقصدُ محمود حيدري، المهندس؟ الذي يعملُ في وزارة المياه والكهرباء؟»

شعر سليم بدغدغةٍ في صدره.

«نعم، نعم! أكنت تعرف أبي؟» سأله وقد توقّف عن السير ينظر إلى وجه الرجل. انفرجت شفتا الرجل الرفيعتان عن نصف ابتسامة.

«ألا ترى هذا الشيب يا صديقي؟ أنا مسنٌّ بما يكفي لأعرفَ أكثرَ من مجرد عدد قليل من الرجال. أنا أعرف أجيالًا من الرجال، إن جاز القول، يوجد قدرٌ كبير من تاريخ كابول في رأسي هذا».

ابتسم سليم.

«بالطبع أعرفُ أباك، ليس هنا معك». بيان هادئ أكثر منه سؤال.

«لا، لقد أخذوه و... قتلوه». قال سليم بسرعةٍ لا يرغب في الإطالة في هذا الشأن.

«عار، عارٌ حقيقي، سُفِك قدرٌ كبيرٌ جدًا من دمائنا على مدار السنوات. وأمك؟ كانت معلمةً. أين هي؟»

«إنها مع أختي وأخي الصغيرَين، ظني أنهم في لندن. افترقنا خلال أسفارنا».

«آه، فهمت. عسَى أن يكونوا بخير في لندن وفي انتظار عودتكَ إليهم. أنت شجاعٌ لعبورك البحار وحدك، أتمنى ألا تكون قد واجهتَ صعوبات كثيرة في طريقك إلى هنا».

«ليس بأكثر ولا بأقلّ من الآخرين»، قال سليم، يفكّر في علي، فتية أتيكي، باتراس، باجاني، من انتهت رحلتُهم في المياه الصخرية، ومن لم يسعهم الخروج من كابول قط.

«حكمةٌ منك أن تعرفَ هذا، نحن جميعًا عبرنا مئاتِ القمم الجبلية لنصل إلى هذا الحد، وأمامنا المزيد قبل أن ننجحَ في الوصول إلى أي وجهة يقدرها لنا الله».

«أنا قلقٌ بشأن ما قدره الله لأخي الصغير»، اعترف سليم، وهو يحفرُ في الأرض بطرفِ حذائه. «إنه يعاني من مشكلةٍ في قلبه. استطعنا شراءَ بعض الأدوية له في تركيا، لكننا بعد ذلك لم نستطعْ أخذه إلى أطباء مرة أخرى».

«ثمة أمور خارجَ سيطرتنا، لكن ثمة حكمة في ما يحدثُ، سواء آمنّا بهذا أم لا.. لنجلس». قاد سليم إلى صخورٍ صغيرة

قريبة، «لنتحدث عن أشياء سارةٍ أكثر من مصير الغابة. سليم جان، أعرفُ والدك من سُمعته. كان مهندسًا ذكيًا، أحد مواهب كابول الواعدة، أكنت تعرفُ الكثير عن عمله؟»

«لا يا عمي»، أجابه سليم باحترام. احمرّ وجهه خجلًا من جهله بمشروعات أبيه. «أعرفُ فقط أن عمله كان يتعلق بالمياه».

قال الرجل بسماحة «كنت صغيرًا بلا شك. كان مجالُ عمل أبيك توصيلَ المياه إلى المناطق النائية في كابول. كانت لديه مشروعاتُ ريّ عبقريةٌ حاول الدفع بها أعلى جبال البيروقراطية، حين كانت جبالُ البيروقراطية هي العائق الوحيد.

«فيما بعد، ظهرتْ في طريق مشروعاتِه عوائقُ أكبر بكثير. لم تكن هناك جدوى من محاولة تحقيق أي شيء في كابول في تلك الأوقات. كان الناس مذعورين، لم يكن شيء يتحقق. كانوا يحاولون البقاء على قيد الحياة فحسب. حين قُتِل أبيك، هل تركَكَ أنت وأمك وحدكما للعناية بالصغيرين؟»

«نعم. لم يكن لدينا مال. وكنا خائفين من أن يأتوا لأخذنا نحن أيضًا. كان علينا مغادرة كابول».

«ليس من السهل أبدًا أن يترك المرءُ وطنه، خصوصًا حين تنغلق جميع الأبواب الأخرى في وجهك».

«لم يترك لنا أبي شيئًا. ولم يكن من فائدة لبقائنا هناك. كان معظمُ أقاربنا قد غادروا بالفعل. خالتي وزوجها يعيشانِ في لندن، حياة عادية، ليست مثل... ليست مثل هذه، لم يرَ أبناء خالتي سوء الأوضاع في كابول. كان من الممكن أن تكون تلك قصتنا نحن أيضًا».

لـم يقصـد أن يبـدو حاقـدًا كمـا بـدا، كان يحـاول إبقـاء شـعوره هـذا مدفونًـا لكنـه ظل يطفـو علـى السـطح من وقـتٍ إلـى آخـر، خصوصًـا حيـن يغلبـه التعـب مـن رحلتـه.

«مـن الجائـز بالطبـع أن تختلـف قصتُكـم لـو كان والـدُك قـد غـادر بكـم مـن كابـول فـي وقـت مبكـر. لربمـا كنـت تعيـشُ الآن فـي مـكانٍ مـا فـي أوروبـا لاجئًـا شـرعيًا، فقـط لـو كان الله قـد قـدر لكـم ذلـك. وعليـك فهـم شـيء مـا آخـر، أنـت تظـنّ أن بقـاءَ والـدك فـي كابـول ليواصـلَ عملـه كان بـلا جـدوَى، لكـن هنـاك مئـات النـاس يخالفونَـك رأيـك هـذا».

«مـاذا تقصـد؟ أي نـاس؟»

«أي نـاس؟ مئـاتُ النـاس الذيـن وصـل إليهـم *المـاءُ* بسـببه، مئـات النـاس الذيـن بقـوا علـى قيـد الحيـاة بسـببه. كان الشـخصَ الوحيـدَ الـذي أصـرّ علـى تلـك المشـروعات، طالـب بهـا. فيمـا بحـث الآخـرون عـن مصالحِهـم الخاصـة، نقـود وأسـلحة ليملـؤوا كروشـهم بـدلًا مـن المسـاهمة فـي إطعـام شـعب كابـول. هـذا هـو الفـارقُ الـذي أحدثـه أبـوك، غيّـر حيـاةَ النـاس، لـم يـرَ وجوههـم مطلقًـا، لكنـه أنقـذَ حياتهـم».

«لم أكـن أعـرف»، قال سليم، صوته مكتومٌ لشعوره بالذنب.

«كنتَ صغيرًا»، أجابه العجوز برقة.

حدق سليم إلـى حذائه وطرف بعينيه ليحبسَ دموعه.

يسـتغرق الأمـرُ حيـاةً بكاملهـا لنتعـرفَ علـى والديـك. بالنسـبة إلـى الأطفـال، الوالـدان أكبـرُ مـن الحيـاة نفسـها بـأذرع ترفعُهـم بـلا عنـاء وحضنَيـن دافئَيـنِ حيـن يحْبُـون إليهمـا. كأنهمـا وُلـدا يـوم ولادة الأطفـال، لـم يوجـدا مـن قبْلهـم قـط.

فيما ينمو الأطفالُ نحو سن المراهقة، يتغيرُ الأبُ، يصير سلطة، أحد مصادر الإجابات وصوت التوبيخ.

وبمرور الوقتِ وحسبَ الظروف، ربما صار محلَّ كره أو منافسة أو استجواب أو هزيمة.

فقط حين يكبرُ الأطفال يمكنهم تصور آبائهم بشكلٍ مكتمل، كزوج، كأخ أو كابن، حينها فقط يرى المرء كيف يتعاملُ والده مع العالم خارج بيتهم. لدى سليم شذراتٌ متناثرة عن أبيه، أغلبها ذكرياتُ طفل صغير، يعرف أنه سيقضي بقيةَ حياتهِ في إعادةِ تركيب أبيه من تلك الشذراتِ التي يمكنه تذكّرها أو جمعها من أمّه.

لكن أولًا، عليه أن يعترفَ بما شابَ ذكرياتِه خلال العام الماضي من غضبٍ مكتوم نحو بادر جان لإبقائهم في كابول في حين كان عليهم الهروب. لكنه فعل ذلك لأنه يدركُ أهمية عمله. حين أحسَّ بأن أسرته في خطر، وضع خطةً للهروب بالفعل، لكن الوقت كان قد تأخّر حقًا.

يجب أن تفخرَ بأبيك يا بني.

قال سليم متلعثمًا، «كنتُ... كنتُ أحبُّ أبي جدًا».

«بالطبع كنتَ تحبه، أنت تسأل فقط، تريدُ أجوبةً، هذا طبيعي. هذا بالضبط ما كان أبوكَ سيفعله».

تذكّر سليم ما قاله العجوزُ من قبل فسأله: «أكنتَ تعرفُ أمي أيضًا؟» يحاولُ استعادة نبرةِ صوته الطبيعية.

«أمّك، اسمُها... أوه، يا لذاكرتي الشقية... ما اسمها؟»

«فريبا».

«آه، نعم، فريبا جان».. قال، لكنه بدا لسليم أنه يعرفُ الاسم بالفعل. «شابةٌ رائعة، كما قلت لك، أتذكّر حين كانت معلّمة، كانت تمنحُ كلَّ تلميذ وكلّ درسٍ أهميته. أتعرف، حين كانت صغيرةً، قسَى عليها العالم. لكنها لم تدع الظلمَ يلوثها. إن قابلتَ تلميذًا سابقًا لها، سيشرّفكَ السمعُ عن أي نوعٍ من المعلمات كانت».

«كيف كنتَ تعرفها؟»

«يمكنك القولُ إنني كنتُ صديقَ جدّها. كان لديه بستانٌ جميل ووارف، كانت كابول كلّها تحسدُه عليه. لكنني لم أرها كثيرًا بعد أن صارت شابة، سُررتُ حين سمعتُ خبر زواجها السعيد بأبيك. جعلني نجاحُهما أشعر بالفخر. أتعرف يا بني، أنتَ سعيد الحظ لأنني أرى والدَيك كليهما فيك».

لم يكن سليم ليستخدمَ نعت «سعيد الحظ» ليصفَ نفسه. قد يكون أي شيء ما عدا سعيدَ الحظ في ذاك العام الماضي.

«إذًا، بنيّ. أرى في وجهكَ أنك قطعتَ طريقًا صعبًا. لكن كيف ستصلُ إلى إنجلترا؟»

«لا أعرفُ تحديدًا لكن هذا النفق هو أفضلُ الطرق في الغالب. لقد ذهبتُ إلى الميناء والأسوار هناك منيعة، مع ذلك لا أرى كيف يمكنُ هذا، الجميع تقريبًا أُلقي القبضُ عليهم وهم يحاولون».

نهض الرجل وسهمَ بعينَيه نحو القناة. تسهلُ من موقعه رؤيةُ التيارات، خيوط مائية رفيعة بدرجة لونٍ مختلفة عن سائر المحيط، كدهاليز سرية في الأعماق.

«مهما علتْ قمةُ الجبل يا بني».. قال العجوز. «يوجدُ دائمًا طريقٌ إلى الجانب الآخر».

سليم
54

لأسبوعَين، ظل الفتيةُ يتسكّعون في المجهول، وقتٌ أصعبُ بكثير من السنواتِ التي قضوها في التسلل لعبور الحدود. خلال هذَين الأسبوعين، لم يبدُ للعجوز أدنى أثر. سأل سليمُ أكملَ عنه، لكنّ شريكه في السكن رفع كتفَيه وقال إنه لا يعرفُ كل نفرٍ من مئات الأفغان في المخيّم.

كل يوم تأتي إلى المخيم سياراتٌ، يترجلُ منها رجال بستراتٍ مضادةٍ للريح وبناطيل مكوية جيدًا ليمسحوا المشهدَ بأعينهم. يشيرون بأيديهم، يسجّلون الملاحظات في أوراقهم ويلتقطونَ صورًا قبل أن يتصافحوا بالأيدي ويقودَ كل منهم في اتجاه مختلف. شيء ما يجري تنفيذه.

وضع مجموعةٌ من الفتية خطةً. خلال أيامٍ قليلة ستبدأ عطلةٌ ما. كان رجلانِ قد حشدا قرابةَ مئتَي لاجئٍ. كانت الفكرة أن ينتهزوا فرصة العطلة، حين يكون أغلبُ حرس الحدود في بيوتِهم مع عائلاتهم. سينشغلُ طاقم العمل الأساسي في ذاك اليوم بالوجبات الاحتفالية وقليلٍ من الشُرب في أثناء العمل. لا أحد في المخيّم يعرفُ سبب العطلة ولا أحد يهتمّ حقًا. المهم بالنسبة إليهم أن يستغلّوا انشغال الفرنسيين بالعطلة، لينشغلوا هم بشيء آخر.

ظلوا يتحدثونَ عن الأمر يوميًا، يقلّبون النظريةَ لتتبلورَ إلى خطة ملموسة.

«إن ذهبنا كلنا معًا دفعةً واحدة، كم منا قد يتمّ الإمساك بهم؟ قليل ربما، لكن أغلبَنا سينجحُ في العبور».

«أترى؟! حتى أنت تقول إن القليلَ سيُقبضُ عليهم».

«كل يوم يحاولُ عددٌ قليل منا العبور، وكم منهم ينجح؟ ستكون فرصنا أفضل. إنهم سيزيلونَ الغابة. قد تكون هذه أفضل فرصنا».

قلّبَ سليم الفكرةَ في رأسه ورأى أنها خطةٌ معقولة. لكن غزو النفق بمئاتِ اللاجئين يبدو أمرًا لا منطقيًا. لقد ظل طوال الوقتِ يعبر الحدودَ وحده، لئلا يلفتَ الأنظارَ ما أمكنه.

استمع من بعيد، يتمنَّى أن يسمعَ رأي شخصٍ يثق به، لكنَّ الأصواتَ التي أراد سماعَها أكثر من أيّ صوتٍ آخر كانت بعيدةً جدًا ليسمعها.

قرِّر، الوقت يمر، هذه النقود لن تستمر معك أطول من هذا.

بدأ العملُ مع شروق الشمس. تململَ الشبابُ، أقدامُهم قلقة. راقبهم سليم وأكملُ من بعيد.

«يبدون كأنهم سيتفرّقونَ أشتاتًا قبل البدء بالفعل».. قال أكمل. «إنهم مجانين».

عض سليم شفتَيه وهو يسير. رغم أنه لم يقررْ بعد هل سيتبعُ الآخرين أم لا، لكنّ قدمَيه كانتا قلقتَين أيضًا.

«ربما كانوا كذلك، وربما ليسوا كذلك».. قال. ثم بقرارٍ مفاجئ ركض إلى الكوخ الذي يتشاركُ فيه مع أكمل، أخذ حقيبة ظهره

وعلّقها على كتفيه.

«تمنَّ لي الحظ يا أخي. مَن يدري؟ ربما سأعودُ لكنني أريدُ أن أحاولَ على الأقل».

الساعة الحادية عشرة والربع، بقمرٍ برتقالي باهتٍ يقترب من الأرض في سمائه، بدأ الشبابُ مسيرتهم، حشدٌ هائل من مئة لاجئ يتجهُ نحو النفق. تفرّقوا في مجموعاتٍ صغيرة، يتحدثون همسًا ويضحكون من حينٍ إلى آخر لكسر الرهبة. مع ذلك ظل أغلبهم متجهّمين وصامتين.

أسرع سليم ليلحقَ بالمسيرة، الدربُ مألوفٌ له، كان قد جلس أعلى التلة وحدّق إلى مدخل النفقِ مراتٍ كثيرة، لكنه لم تواتِه شجاعتُه ليقتربَ منه. وصل الشبابُ إلى حاجز الأسوار المعدنية. كانت الأسلاك مقطوعة في عدد من الثغرات تُغري بالاقتحام. كالآخرين، تسلل سليم من أحدها، تألّم وأسلاك الحاجز تُمسك ظهره كالمخالب.

مدخل النفق، تجويفٌ أسمنتي في سهلٍ معشوشب، محاط بتلالٍ خضراء. مداخلُ للقطارات في كلا الاتجاهين تشبه الأفواه المشدوهة، تقودُ تشابكات القضبان إلى الفتحات السوداء. تفصل مساحة ضيقة في منتصفه بين مسار القطارات ومسار السيارات، كان السهلُ في مجمله بمثابةِ فراشٍ للمعدن، والرصيفُ والأسمنت، يتوهّج بأضواء صفوفٍ من اللمبات.

سياراتٌ قليلة على الطريق الليلة.

ترك سليمُ الآخرين يقودون الطريق. المسيرة طويلة، فرك يديه معًا ليدفئهما، كان شاكرًا للسترة الثقيلةِ التي منحَه إياها

أحدُ الشباب في المخيم. اقتربت ظلالُهم الداكنة من مدخل النفق، تبحثُ عن الحرس، أو أضواء أو صفارات الإنذار. ظلَّ الليل ساكنًا.

اذهب معهم، سيصلون إلى إنجلترا سريعًا، هذه هي الفرصة.

في مجموعةٍ من اثنين أو ثلاثة كل مرة، دلفوا إلى النفقِ واختفوا عن النظر. وقف سليم خلف شجرةٍ يراقبُ من موقعه متوترًا. ضرب جذع الشجرة بغضب.

كفى هذا، سوف أتبعهم.

وما إن قرر تنحيةَ مخاوفه جانبًا وهمّ بالمغامرة، سمع الصيحات العالية. حطمت الأضواءُ البيضاء الهالة البرتقالية الناعمة للقمر. ظهرت ثلاثُ سياراتِ شرطة وتوقفت عند المدخل بصرير إطاراتها. تقود كشافاتُ أضوائها الطريق.

هوى قلبُه، يوجد الكثير جدًا. استمرّ الأمر ساعات عدة. اقتيدَ الشبابُ خارج النفق، أيديهم مقيدةٌ خلف ظهورهم، يجرون أقدامَهم بيأس. كانوا قد فكّروا في إمكانية القبضِ على عددٍ قليل منهم لكن الأمرَ كان أسوأ من ذلك بكثير. سقط نصفُهم تقريبًا حسب تقدير سليم. كلّ ما فعلوه، كل النقودِ التي أنفقوها والأخطار التي واجهوها والليالي الباردة التي تحمّلوها.. كل هذا ذهب هباء.

في الغالب ستتولّى السلطاتُ البريطانية أمر القبضِ على الآخرين على الجانب الآخر. ماذا سيحدث لهم؟ هل سيُمنحون الفرصةَ للتقدم بطلبِ اللجوء أم ستتمُّ إعادتهم إلى فرنسا؟

ليست ليلةً مناسبة للتحديق إلى القمر. حين غادرَ الجميع المشهد أخيرًا ما عدا سيارة شرطةٍ وحيدة، استدار سليم وعاد أدراجه إلى الغابة.

فريبا
55

تعاملُنا نجيبةُ جان جيدًا. أرى تعبيرَ وجه حميد زوجها. لا يرغبُ في شيء أكثر من رحيلنا. تمنح ألمانيا اللاجئين مزايا أفضل بكثير، كما يقول، مع أنه لا يوضّحُ لماذا لا يخطط للذهابِ إلى هناك هو نفسه.

عرفتُ ببطء، حين قابلتُهما، أن أختي ليست لديها أدنى فكرةٍ عن عدم ترحيبه بنا في إنجلترا، حتى أنها كانت تدّخر لنا بعضَ النقود، ليكونَ لدينا طعامٌ وملابس، لحين استخراج الأوراقِ الرسمية والتقدم بطلب اللجوء.

يراني زوجُها دخيلًا. يتمنّى أن نختفي. لا يستطيعُ النظر إليّ في عينيَّ مباشرة ويتعثرُ حتى في أبسط المحادثات.

أريدُ أن أخبره بألّا يقلق هكذا. تلكم الأيام، حين كان غزلُه ووعودُه الرومانسية يملأان سمائي، صارت أوقاتًا يستعصي عليَّ تذكّرها. حدث الكثير جدًا منذ ذاك الحين حتى الآن. مع أن محمود، توأم روحي، لم يعد إلى جانبي الآن، لكنّ سنيَّ معه أكبر من أحلام المراهقة، أنا ممتنة للوقت الذي عشناه معًا، على قِصره، وللأطفال الذين أنجبناهم.

لعب حميد، فتى البستان، دوره في أن قابلتُ محمود. زال شعوري بالغدر ما أن عرفتُ محمود. لم يكن أكثرَ الطرق مباشَرةً لكنه أوصلني إلى بيتي.

حميد لا يفهمُ هذا، ولا يمكنني توضيحُه له لأنه زوجُ أختي ولا أريدُ فتح أبوابٍ أُغلقت بإحكام منذ أمد طويل. قلب نجيبة طيبٌ وواسع، لا أريد التقليبَ في أي نيّات سيئة.

حتى كوكوكل، أشعرُ نحوها بالامتنان لأنها دفعتْ بنجيبة تحت أنفِ شيرين جان. كانت هي مَن فكّرت أن أجمل فتياتها، ابنتها الحقيقية، هي الأجدرُ بابن جارِنا المحترم. أعرفُ أنه غيّر خياراتِه سريعًا حين أخبرتْه أمُّه بجمال نجيبة وتوقفَ عن الذهاب إلى البستان. أبقى خياره سرًا، أجبنُ بكثيرٍ من أن يعترفَ بهذا حتى لنفسِه.

بكيتُ أيامًا في حين لم يكن عليّ ذلك، نحن قصارُ النظر كثيرًا لنستمتع باللحظاتِ التي تستحقُّ الاستمتاع بها.

رأتْ خالة زيبا، أم محمود الغالية، ما لم يره الآخرون. وكان زوجي يثقُ بأمه. كنتُ محظوظةً جدًا لأفوز بهما هما الاثنان. لقد اختار الله لي نصيبي بحكمتِه الأزلية. أبدو في صورةِ زفافنا واجمةً وحائرة. رفعتْ خالة زيبا طرحَتي الخضراء ونظرتْ إلى عينيّ مباشرة بدفء كما تخيلتُ أمي تنظر إليّ.

تشابكتْ أيدينا أنا ومحمود ذلك اليوم، صلصلتْ أساورُ أمي برقة لفرحِها الخاص. نظر إليّ أبي بحزن.

تشبهينَها تمامًا يا بنيتي.

أتذكّرُ كيف غصَّ حلقي، كيف افتقدتُ أمي التي لم أرَها قط، وجدّي الذي ربّاني والعجوز الذي قابلتُه في البستان ووعدني بإنارةِ الطريق أمامي. كنتُ مرتبكةً من الرجل الواقف إلى جانبي، زوجي حديثًا، لكن كلَّ من كنتُ أفتقدُهم حينها بشدة، تلك الوجوه

التي لم أعد أراها سوى في أحلامي، همستْ في أذني أنّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام.

ورث أطفالُ نجيبة ملامحَ أمهم الرقيقة وطبعَها الطيب. ورثوا من أبيهم طبيعته القلقةَ فقط. أراقبُهم في المتنزه، يتسلقونَ السلالمَ ويضحكونَ وهم يسقطونَ بظهورهم أو يتزحلقون. تشعر سميرةُ أنها كبُرتْ على اللعب معهم، إنها شابة تقريبًا الآن ولم تعرف في طفولتِها الملاعبَ سوى للاختباء فيها في الليالي الممطرة. أتساءلُ إن كانت تفكّر في هذا وهي ترى الأطفالَ يتأرجحون.

تتحدثُ الآن عباراتٍ قليلةً لكنها تتقدمُ ببطء. تنتظر مثلي عودةَ سليم إلينا، أعرفُ أنها ستشعرُ بالاكتمال مجددًا حين تراه، ستغدو مكتملةً ورائعة.

عزيز عصبيٌّ جدًّا ليتجولُ بعيدًا. يراقبُ الأطفال الآخرين يلعبونَ ويقلد حركاتهم من بعيد. سمنتْ قدماه وصارتا تحملان وزنه جيدًا. نحيلٌ لكنه يبتسم بشفتَين ورديتَين وعينَين مشرقتَين إلى حدٍّ يجعل عينيّ تدمعان. شكرًا لك يا الله. شكرًا لك.

شيء ما يخبرُني بأن سليم قريب. أظل أنتظرهُ ويخطر لي أن هذه هي الأمومة، أليس كذلك؟ انتظارُ انقباضِ البطن البارز على أهبةِ الاستعداد، سماعُ صياح الجوع في الساعات المقمرة، سماعُ صيحة اللهفةِ حتى في ضجّة المرور أو الموسيقى العالية أو ضجيج الماكينات. الأمومة أن أنظرَ إلى كلّ باب، كلّ هاتف، وكلّ ظلٍّ يقتربُ فأشعر بتلك الحركةِ الخفيفة، تكة بدءِ فرصةٍ جديدة لأعود أمًّا مجددًا.

حلمتُ ليلة أمس بسليم، يسبحُ في محيطٍ أزرقَ صافٍ بأمواج تتلألأ تحت شمسٍ دافئة. حمل النسيم رذاذَ مياه البحر المالحةِ إلى خدّيّ وأنا أراقبه. كان الماءُ يحيط به من كلّ جانبٍ وكان يسبحُ بسلاسة وضرباتٍ قوية كأنه ابنُ المحيط. رأيت ابتسامته من بعيد، النصرُ الممزوج بالشقاوةِ والفخر لفتى وجد طريقه إلى بيته.

كان حلمًا جيدًا بالنسبةِ إلى أمّ. استيقظتُ مفعمةً بأمل لم يراودْني منذ وقتٍ طويل. أشكرُ الله على الماء، الماء خير، الماء نور.

سليم
56

« كم نفرًا قبضوا عليه؟ هل ضربوهم؟»

«لا أعـرفُ، قرابـة خمسـين... أو سـتين. ليسـت لـدي أدنـى فكـرةٍ عمـا حـدث علـى الجانـبِ الآخـر مـن النفـقِ أيضًـا».

كان الوقـت صباحًـا وسـليم يخبـرُ أكمـلَ بمـا رآه للمـرة الثانيـة. مـع أنـه حكَـى لـه كلَّ شـيء الليلـة الماضيـة، لكـن أكمـلَ أراد سـماعَه مجـددًا فـي وضـح النهـار.

«كنـت أعـرفُ أنهـا فكـرةٌ سـيئة»، قـال أكمـلُ وهـو يهـزُّ رأسـه. «كانـوا سيقبضون علـيَّ. ليس لـي حظ حيـن يتعلق الأمـر بالشـرطة».

«لكننـا لسـنا بحـالٍ أفضـل. انظـر إلينـا. إلـى متـى سيمكننا البقـاء هنـا؟ لقـد سـئموا منـا. المدينـةُ تريـد التخلـصَ مـن الغابـة. والعاملـون أيضًـا فـي الصليـبِ الأحمـر يقولـون إن المشـكلات في طريقهـا إلينـا».

«إلى أين سنذهبُ سليم؟ لا أوراقَ لدينا ولا نقود».

جلس أكملُ علـى الأرض يضـمُّ ركبتَيـه إلـى صـدره. أسـند جبينَـه علـى ذراعَيـه المعقودتَيـن. «لـو كنـت أعـرف مـدى سـوء الوضـع هنـا، لا أدري أكنـتُ سـأتركُ أفغانسـتان أم لا، ربمـا كان المـوتُ علـى أرضنـا أفضـلَ مـن مطاردتنـا أينمـا ذهبنـا كالـكلاب الضالـة».

كانـت الفكـرة نفسـها قـد خطـرت لسـليم لكنّـه صرفهـا الآن بسـرعة.

«أنت تتحدث كرجلٍ عجوز، كان علينا أن نرحلَ، إن لم نخطط للغد فلن يأتِ».

رفع أكملُ بصره. اقشعرّتْ أذناه لليقين في صوت سليم.

بدأت الفوضَى بعد ذلك بساعة. خرج أكملُ وسليم ليعرفا ماذا يحدث، تجمعت تظاهرةٌ من الشباب الفرنسي أمامَ المخيم، بعضهم يهتفُ وآخرون يلوِّحون بقبضتهم في الهواء، يحملون لافتات تقول.

لا للحدود، لا لسَجن المهاجرين، حقوق الإنسان الآن.

«انظر إليهم جميعًا!» قال أكملُ مدهوشًا.

كانوا بالمئاتِ هناك، رجال ونساء، كان هناك أيضًا ما لا يقل عن ثلاثين ضابطَ شرطةٍ بالزي الرسمي الأسود الصارم والخوذات النصفية، يبذلون جهدهم ليحيطوا بالمتظاهرين والسيطرة على الفوضى. كان الموقف غريبًا. الشرطةُ هنا من أجلِ المتظاهرين، والمتظاهرون هنا من أجل الغابة.

«إنهم يهتفون من أجلنا نحن!»

لكن سليم رأى ما هو أكثر من ذلك حين نظرَ إلى الحشد. لا بد أنهم يعرفون شيئًا ما. ربما بلغهم خبرٌ ما عن شيء ما. راقبَهم والمزيد من النشطاءِ ينضمون إليهم، اثنان أو ثلاثة كلَّ مرة.

«أكمل، هذا ليسَ جيدًا. سيحدث شيءٌ ما. علينا الذهاب من هنا».

«الآن؟ وقد وجدنا لتوّنا مئات الأصدقاء؟ أراهن أن الأحوال ستتحسنُ، علينا الانتظار قليلًا فحسب وسنرى».

«أنا لا أريد أن أرى، سيُلقى القبضُ علينا وسط أيًّا كان ما سيحدث. تمامًا مثلما في أفغانستان».

تنهّد أكمل.

«ربما علينا إنشاء مخيمٍ في مكانٍ ما آخر في المدينة، كما فعل الآخرون».

«لا»، قال سليم. «ظنّي أن علينا عبورَ النفق».

«النفق؟ هل فقدتَ عقلك؟»

«أعرفُ... لكن انظر أين جميع رجالِ الشرطة الآن. إنهم هنا! قد يكون هذا هو أفضلُ إلهاء لهم حقًا».

كان أكمل يائسًا بقدر ما كان سليم. سكتَ فأعلن بصمتِه ما يكفي.

«اسمع، أكمل، لقد ظللتُ أفكّر في الأمر، يوجد مدخلان للنفق، دخل الرجالُ جميعًا من مدخل السيارات والشاحنات، لكن هناكَ المدخل الآخر».

«أتعني مدخلَ القطارات؟»

«نعم، مدخل القطارات».

«هذا موتٌ محقق، حاول البعض القفز على سطح القطار في أثناء مروره. صعقتهم كهرباء الكابلات. وهل تعرفُ مدى سرعة التدحرجِ من أعلى؟ إن صدمك أحدُ تلك القطارات حتى أمك لن تتعرف على جثتك».

«ظني أن الأمر يستحقُّ المحاولة. ما زالت الفتحاتُ في الأسوار ويمكننا الذهاب لنرى. أنا لا أرى أيّ حلٍّ آخر. يستحيلُ التعلقُ بشاحنات النقل، وسفنُ الشحن تحت حراسةٍ مشددة. إنه ليس كالموانى الأخرى، سأحاول العبورَ سيرًا على الأقدام، بحذاء قضبان القطار».

أخذ أكملُ نفسًا عميقًا.

«متى ستنطلق؟»

«هـذا المسـاء، مـا إن تبـدأ الشـمسُ فـي المغيـب. سيسـاعدُنا الظـلام».

فكّر أكمل في منطق سليم، أومأ برأسِه موافقًا.

«هذا وقت مناسبٌ للصلاة، على ما أظن».

توضّـأا بقطـرات المـاء المتسـاقطةِ ببطء مـن صنبـور الميـاه الجارية فـي الغابة. وقفـا جنبًـا إلـى جنـب، شـعَرا براحـةٍ مـا أن بـدأا معًـا الحـركات المألوفـة، كالتلفـح ببطانيـةٍ فـي ليلـة بـاردة. تجاهـل سـليم شـبهةَ النفـاق لأنـه يصلّـي حيـن يتملـكُ منـه اليـأسُ فحسـب وتمنـى ألا يؤاخـذَه اللّه علـى ذلـك.

حيـن انقضـى النهـار، لـم يقـولا أي شـيء للآخريـن فـي المخيـم. جمعـا الطعـام الموجـود بالكـوخ ودسّـاه فـي جيوبهمـا. أمامهـم رحلـة سـير خمسـين كيلومتـرًا، سـيكونان بحاجـةٍ إلـى كل كسـرة مـن أي شـيء. سـارا فـي طريقِهمـا علـى الـدرب المتـرب وخرجـا مـن الغابـة. كان المتظاهـرون يروحـون ويجيئـون بلافتاتِهـم. لـم يفهـم سـليم هتافاتهـم وتجنـبَ النظـر إليهـم. كان هروبُهمـا مـن هـذا غريبًـا لكـن الهـواء كان مشـحونًا.

وصـلا إلـى مدخـل النفـق وقـاد سـليمُ أكمـلَ إلـى فتحـةٍ فـي السـور. لـم تسـدها السـلطات إمـا لأنهـا لـم تجدهـا بعـد أو لعـدم وجـودِ وقـتٍ لإصلاحهـا. جثمـا أسـفل بعـض الأشـجار وبحثـا بأعينِهمـا عـن الحـرس. لا أحـد فـي مجـال الرؤيـة سـوى تيـار السـيارات المألـوف. لـم يكـن الظـلام قـد خيّـم تمامًـا فقـررا أن ينتظـرا، لا داعـيَ للعجلـة.

خـلال سـاعة، لـم يتبـقَّ مـن الشـمس سـوى وهـجٍ بنفسـجيّ فـي الأفـق. زحفـا بحـذاءِ الرصيـف وسـارا علـى أطـرافِ أصابعهمـا نحـو القضبـان، يعبـران بحـذر.

أثـارت نظرتهمـا الأولـى إلـى النفـق الرهبـة فـي نفسـيهما. كانـت المسـاحة بيـن الجـدار وقضبـان القطـار لا تزيـد علـى قدميـن فقـط فـي كلا الجانبيـن. سـيوجبُ عليهمـا لصـقُ ظهرَيهمـا بالجـدار حيـن تمـر بهمـا القطـارات. أيّ حركـة ذراعٍ أو فقـدان تـوازنٍ سـتُعدّ هـلاكًا.

«سـيكون مظلمًـا»، قـال سـليم لصاحبـه يحـذره. «علينـا أن نبقـى معًـا ونسـتمع جيـدًا لصـوت القطـارات القادمـة».

«نعـم، نبقـى معًـا ونسـتمع لصـوت القطـارات». لاحـظ سـليم ارتعـاشَ صـوت أكمـل.

«أكمـل، ليـس عليـكَ فعـل هـذا إن لـم تـرد»، قـال لـه بهـدوء. لـم يرغـب فـي تحمـل مسـؤولية مـا قـد يحـدثُ إن فقَـد أكمـل أعصابـه فـي أثنـاء عبورهمـا.

«أنا بخير، يمكنُنا فعل هذا يا سليم».

دخـلا فـي الظـلام، تحسـس سـليم عنـوانَ خالـة نجيبـة مجـددًا، فـي جيبـه آمنًـا.

كان قـد قطعـا مسـافة كيلومتريـن مـن النفـق حيـن شـعرت أقدامهمـا بهـزة خفيفة للقضبان.

«سليم!»

«تذكّرْ، التصـقْ بالحائـط ولا تتحـرك! لا تتحـرك!» صـاح سـليم. ضغـط خـده فـي جـدار النفـق البـارد وحـاول تسـطيح نفسـه. أغمـض عينيـه، مرعوبًـا علـى أكمـل وعلـى نفسـه.

صار القطارُ أمامهما في اللحظة نفسها تقريبًا، أعلنت أضواؤه القوية عن وصوله بسرعة قرابة مئة متر في الساعة، لطمهما بهبة هواءٍ قوية.

واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة... عدّ سليم وأصابعه تتشبث بأسمنت الجدار. تسعة... عشرة... أحد عشر... واستمر المرور. أربعة عشر... خمسة عشر.. ستة عشر... حتى في النهاية، برحمة من الله، خفتت الضجة التي تصم الآذان وابتعدت.

أطلق سليم دون أن يتحركَ النفسَ اليائسَ الذي حبسه. استرخَى جسده ببطء مع إدراكه بأنه ما زال كاملًا، قد يفلح هذا!

«أكمل؟»

لم يتلقَّ ردًا.

«أكمل!»

ما زال الصمتُ.

«أكمل، أأنتَ بخير! أجبني!» مدّ يدهُ خلفه في الظلام.

«نعم، نعم، أنا بخير. كنتُ فقط، أوه، سليم، لقد كان قريبًا جدًا!»

«لكنك بخير؟»

«نعم، أنا بخير».

«أيمكنك المواصلة؟»

«لقد صعدتُ بالحمار نصف التلة يا صديقي، لا جدوى من إعادته».

لمس سليم جيبه وتحسسَ حافظته. تذكّر يوم أن عادَ إلى محلّ الرهونات في أثينا ودهشة صاحب المحلّ حين مد سليم

يده في جيبه وناوله النقود المستحقّة. تردد صدى ضحكته في النفق المظلم. امتدت أمامه تنير طريقه كمنارةٍ في الليل، ليس عليه سوى أن يتبعها.

مادر جان، أنا على مقربةٍ كيلومترات قليلة، سأعودُ إلى جانبك وأثبت لأبي أنني رجلٌ يمكن لأسرته الاعتماد عليه... الرجلُ الذي أريد أن أكونه. لديّ أساورك، مادر جان، ولن أتوقفَ حتى أراها في معصمِك مجددًا.

سال مذاقُ الوعدِ الحلو في حلقه، نادَى صديقَه غير المرئي: «أكمل، صديقي، لنمضِ في طريقنا!»

مكتبة
t.me/soramnqraa

kalemat

NADIA HASHIMI

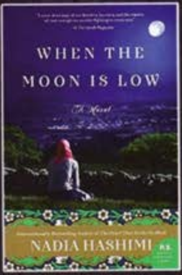

بين البطولــة والخــوف والانتصــار، تصور رواية "حين يقتــرب القـمـر" رحلة سيدة أفغانية شجاعة لإنقاذ عائلتهــا.

فريبا؛ معلمة مدرســة في كابـول، تنسى طفولتها المضطربة وتستعد لحيـاة جديـدة مع زوج محب، لكن حياتهــا تنقلب رأسًا على عقب عندمـا تصل طالبان إلى السلطة، وتصبح عائلتها هدفًا للسلطة المتطرفة. وبعــد أحــداث جسيمــة، تجــد نفسها مضطرة إلى الهروب خارج أفغانســتــان، متجهة إلى عائلة أختها في لندن.

في هذه الرواية نقرأ عن رحلة العائلــة الطويلــة والمرهقــة في مــدن أوروبيــة عــدة، وبين عصابات تهريب النــازحين، وعصابــات الاتِّجار في المخدرات، تتقلب مصائر أفراد العائلة بين اليأس والأمل، إلى أن يصل الجميع إلى نهاية الرحلة المثيرة.

telegram @soramnqraa

9 789776 972131

kalemat
www.kalemat.com

جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات
Google play
Available on the App Store